

A. U. B. LIBRARY

الغزل في العصر الجاهلي

الرسالة التي نالت المباحث من جامعة فؤاد الأول بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى

تأليف

أحمد محمد الكحوي

المدرس بكلية دارالعلوم بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالجيزة

مطبعة لجنة البيان العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أما بعد ، فقد كان الموضوع الذي اخترته لرسالة الماجستير (المرأة من الشعر الجاهلي) ، وشرعت أجمع المصادر ، وأتقّب في المراجع ؛ لأجل صورة المرأة العربية جلاء يعتمد على منهج علمي ، وبلغت من ذلك مرحلة بعيدة . ثم تكشف لي أن هذا الموضوع متشعب النواحي متعدد الفروع ، فلا تنهض به رسالة واحدة . فهناك المرأة أمّ ، وبناتاً ، وأختاً ، وزوجاً ، وحبّية ، وقريبة ، وهناك المرأة الشاعرة ، والمرأة المحاربة ، وهناك الأمة والغنية الخ ، وقد عرض الشعر لكل من هؤلاء عرضاً جديراً بالدراسة والاستنتاج .

فرايت أن أقصر الآن على أبرز ناحية من هذه النواحي ، هي المرأة الحبّية ، وأن أجعل عنوان الرسالة (الغزل في العصر الجاهلي) .

ولست أشك في أن الغزل أصدق فنون الشعر الجاهلي وأحراها بالدراسة ؛ لأنه بنوعيه : عُذْرِيٌّ وَحَسْبِيٌّ تعبير صادق عن عاطفة صادقة .

ذلك بأنه لم يتبعثه مطامع في كسب من أمير أو زلفى إلى ملك ، ولم يدفع إليه تكثر بالمحامد وتفاخر بالفضائل ، ولم يوح به تشفٍّ من خصم أو تنقص من قدر منافس ، وإنما أزعجته العاطفة الحيّاشة ، والميل إلى الإفصاح عن التجربة الوجدانية التي جرّبها الشاعر .

ثم إن الغزل يصور من أحوال النفوس ما لا يصوره غيره ، لأنه يكشف عن دّخيلة الحب ، ويكشف عن سريرة المحبوبة ، وينبع من عاطفة الحب ، ويدور حول المرأة ، والحب والمرأة ينبوع ثرٌّ حارٌّ يتدفق بالشعر في كل عصر وفي كل

جبل ، والغزل — لهذا — لا يمثل عاطفة قائله وحده ، بل يمثل أيضاً العاطفة الإنسانية الخالدة ، فهو أصلح فنون الشعر لأن يكون عالميا ، يهز مشاعر القراء من كل جنس وقبيل . على أنه أقوى فنون الشعر العربي انطبعا بالبيئة ، وتأثراً بالعقلية ، وتمثيلاً لأحوال المرأة ، كجهاها وتجميلها وأخلاقها ، مما لم تصوره بقیة فنون الشعر إلا ناقصاً ناصلاً .

وهو إلى ذلك كله أبرز فنون الشعر تأثيراً فيما بعده من العصور معنىً وخيالاً وأسلوباً ، وأبعدها عن النسخ والنسج والوضع ، لأنه لا يؤيد عصبية قبلية ، ولا يعضد نزعة حزبية ، ولا يتصل بشيء مما كان يدعو أحياناً إلى وضع الشعر ونحوه . ولا أعلم أن باحثاً قد خص هذا الموضوع بدراسة ، على حيويته وطرافته وعظم قيمته ، وجدارته بدراسة مفصلة مستقلة .

ولا أعلم أيضاً أن فناً من فنون الشعر الجاهلي قد نال حقه من الدراسة ، على ما للشعر الجاهلي من عظم القدر والأثر .

وإن الشعر الجاهلي — في رأيي — لجدير بأن تستمد منه صور الحياة العربية ؛ لأنه مرآة العرب ، ومُجْتَلَى عواطفهم ، ومَعْرِض أخلاقهم ، وديوان معتقداتهم وعاداتهم ، والمترجم عن مُثُلهم ، فهو الصّدَى القوی الصحيح لحياتهم . ولا يَغُضُّ من شأنه أن قد نُحِلَّ قليلٌ منه ، لأن هذا النحول قد نبه العلماء عليه ، ولأن الشعراء الذين نحلوه كانوا ذوی خبرة ودراية بالحياة العربية في العصر الجاهلي ، فسرهم بالنسبة إلى هذه الحياة كالصورة المنعكسة في المرآة .

وليس من الصواب أن نعتمد في دراسة الحياة العربية على التاريخ وحده ، بل الصواب أن نعتمد أولاً على الشعر الذي صوّر هذه الحياة وأحسن تصويرها .

ولست أنكر أنه عرضة لأن يعتوره الكذب ، وتطرق إليه المبالغة ، ولكنني أرى أن الكذب والمبالغة يتطرقان أيضاً إلى التاريخ المدوّن والآثار المكتوبة ، لأن التاريخ تسجيل فرد أو أفراد ، فهو عرضة لأن يتأثر بالرواية المنقولة ، ولقد تكون مدخولة ، وعرضة أيضاً لأن يميل مع الهوى والعاطفة ، ولذلك كثيراً ما تتعارض كتب التاريخ وتتناقض .

ولكن الشعر تسجيل آلاف من الشعراء من قبائل شتى في زمن طويل ، فهو أوسع مجالاً من التاريخ لاستنباط الحياة من سجلات متنوعة ، خلفها شعراء عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير كاذبين . وإذا كان في شعرهم ألوان من الخيال فإن من مميزات الأدب هذا التخيل والتجميل الذي لا يخلو من تهويل .

على أن الشعر أدق تصويراً للحياة ؛ لأنه يتناول ما يهمله التاريخ مما لا يتصل بالأحداث والحروب والسياسة .

لهذا كانت إلياذة هوميروس وما زالت — على أنها حافلة بالأساطير — ممرّاداً للباحثين ، يستنتجون منها كثيراً مما يتصل بحياة اليونان .

ويسعدنى أنى قد بدأت هذه المحاولة ، وكان لهذه الرسالة الفضل ، لأنى كنت أقرأ لأخرج رسالة عن (المرأة من الشعر الجاهلى) فتبين لى أن الشعر الجاهلى وثيق الصلة بالحياة العربية كلها ، فألفت كتاب (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) وهو المحاولة الأولى .

وهأنذا أتبعه بهذه الرسالة ، وهى المحاولة الثانية ، وفى عزمى إذا شاء الله أن تكون رسالة الدكتوراه (مكانة المرأة وشاعريتها فى العصر الجاهلى) ، وهى المحاولة الثالثة .

وقد رجعت فى إعداد هذه الرسالة إلى كل ما استطعت أن أرجع إليه من مصادر عربية وإفريقية ، وحرصت على أن أعرض كل نص أو فكرة إلى المصدر الذى استقيت منه ، لتكون الرسالة مصورة للأمانة العلمية ، وللجهد الذى تطلبته .

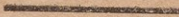
وأرجو أن أكون بهذا قد أدت للأدب العربى بمض ماله فى قلبى من حب وإعزاز .

وبعد :

فإنى أزجى شكرى لصاحب العزة الأستاذ عبد الحميد حسن بك ، فقد أشرف على إعداد الرسالة وتوجيهها صوب الكمال ، وأسجل شكرى للجنة

المناقشة^(١) : حضرات الأستاذ عبد الحميد حسن بك ، والأستاذ أحمد زكي صفوت ، والأستاذ عمر الدسوقي ، فقد انتفعت بمناقشاتهم وعلمهم ، وأشعر بسعادة إذ أعترف بأن إعجابهم بالرسالة قد توج جهدي ، وأذكى عزيمتي .

أحمد محمد الحوفي



(١) نوقشت الرسالة بكلية دار العلوم مساء ١٦ رمضان سنة ١٣٦٩ ، الموافق أول يولييه سنة ١٩٥٠ . في حفل كبير من أساتذة اللغة العربية ورجال القلم ، وقد تصدرهم حضرة صاحب العزة الأستاذ إبراهيم مصطفى بك عميد الكلية وحضرات أساتذتها وكبراء خريجيها .

الفصل الأول

الغزل

حقيقته :

دارت على الألسن والأقلام منذ عهد بعيد هذه الكلمات الثلاث : الغزل ، والنسيب ، والتشبيب ، واختلف في مدلولها ، أهي مترادفات تؤدي معنى واحدا ؟ أم هي مختلفات الدلالة ؟
ويحسن بي أن ألم في إيجاز بما أدلى به اللغويون والأدباء ، ثم أختار الرأي الذي أميل إليه .

ابن سيده يقول إن الغزل تحديث الفتیان الجوارى ، والغزل : تكلف ذلك ، والنسيب : التغزل بهن في الشعر ، والتشبيب مثله ^(١) .

وابن منظور يقول إن الغزل حديث الفتیان والفتيات والهو مع النساء ، ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن ، والغزل : التكلف لذلك ، وفي المثل هو أغزل من امرئ القيس ^(٢) ويقول في موضع آخر : نسب بالنساء ينسب نسبا ونسبيا ومنسبة : شبيب بهن في الشعر وتغزل ^(٣) ، وفي موضع ثالث : شبيب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب ، وهو يشبيب بها أى ينسب بها ^(٤) ، ويقول الزبيدي مثل ذلك ^(٥) .

(١) المحمص ٤ / ٥٤ - ٥٥ ، (٢) لسان العرب ٤ / ٤ ، (٣) لسان العرب ٢ / ٥٣

(٤) لسان العرب ٢ / ٤٦٣ (٥) تاج العروس مادة شبيب ونسب وغزل ،

ولست أنكر أن بعض القدماء والمحدثين حاولوا التفرقة بين الغزل والنسيب والتشبيب ، ولكنهم اعتمدوا في تفرقتهم على ذوق شخصي ، وهم لهذا قد اختلفوا .

فمثلاً حاول التبريزي أن يفرق بينهما ، فقال : « النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » ^(١) . فالغزل في رأيه حب المرأة والميل إليها ، والنسيب هو التعبير عن هذا الحب . وفي هذا الرأي مخالفة لما ذكره اللغويون والأدباء من قبل .

واعترف الأستاذ السباعي بيومي بأن الكلمات مترادفة ، وأن التفرقة بينها متعذرة ، ثم حاول أن يخصص كلا منها بإطلاق فقال : « ويحسن أن تحتص مطالع القصائد التي تعرض لذكر المرأة باسم التشبيب ، وهذا فرق ما بينه وبين الغزل والنسيب . أما الفرق بين هذين فعلي تعذر حده يمكن أن يقال إن الغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف المرأة مدفوعاً إلى ذلك بعقيدة أو مسوقاً فيه بصناعة . والنسيب ما توجه فيه إلى ذكر الصباية والوجد وألم الهوى والفراق صادراً عن وجدان وشعور لا يكونان إلا للمحبين المغرمين » ^(٢) .

وهذا الرأي الشخصي يختلف ورأى التبريزي السابق ، ويختلف ورأى الأستاذ محمد هاشم عطية إذ يقول : « وقد يكون من الخير أن نذكر بقدر ما نستطيع شيئاً نجعله شبيهاً بالتحديد لهذه الكلمات العامة . ويرجع عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك في الكلام وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صباية . وأما التشبيب فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال توخياً لتعليق القلوب وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بالغرض من الكلام . وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصباية فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه

(١) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١١٢

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ١١٠ — ١١١

من التجنى وما يعرض له من ذكر محاسن النساء»^(١) .

وهذان الرأيان يتفقان في أن التشبيب هو الغزل التمهيدى ، ويختلفان في غير ذلك ، فوصف جمال المرأة ومحاسنها وجاذبيتها نسيب عند الأستاذ هاشم ، وغزل عند الأستاذ السباعى .

لهذا رأيت أن آخذ برأى اللغويين والأدباء من القدماء فلا أفرق بين مدلولات هذه الكلمات .

وقد اخترت كلمة الغزل دالة على الأنواع كلها لأنها أخف نطقاً وأكثر شيوعاً . وإلى ذلك ذهب الدكتور طه حسين ، حيث يقول : « ينقسم الغزل أيام بنى أمية ثلاثة أقسام مستقلة : أحدها غزل العذريين الذين كانوا يتغنون في شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العفيف ، والثانى غزل الإباحيين الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية ، والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين »^(٢) . ثم يقول فى موضع آخر : « نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية »^(٣) . وهو يشير بهذا إلى الغزل فى كلامه السابق .

بواعث الغزل :

لماذا يتغزل الشاعر ؟

- ١ — يتغزل ليعبر عن عاطفة الحب للمرأة التى اختارها قلبه ، وليعبر عن عاطفة إعجابه بجمال هذه المرأة كما يراها هو لا كما يراها غيره ، وهو فى الحالين يصور مشاعره ، ويصف آلامه وآماله ، ويكشف عما يختلج بقلبه ويعتلج بنفسه .
- وسأفصل القول فى الحب وفى جمال المرأة ؛ لأنهما من بواعث الغزل ، ولأن جمال المرأة أيضاً — كما صورها الغزلون — ثمرة لهذا الغزل .
- ب — ويتغزل لأنه مدفوع بميله الفنى إلى التعبير عما بنفسه .

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٠٧ .

(٢) حديث الأربعاء ١ / ٢٣٣ .

(٣) حديث الأربعاء ١ / ٢٣٩ .

ووسيلة الشاعر للتعبير عن عاطفته هذا الشعر الحار الصادق الرائع ، يصور به عاطفته كما يصور الرسام عاطفته بدهانه وألوانه ، وكما يصور الموسيقى عاطفته بأنغامه وألحانه ، وكما يصور النحات المشال عاطفته بإزميله وصوته .

الشاعر فنان ، لا بدّ له من أن يعبر عما يجيش بنفسه ، وهذا الميل الفنى باعث آخر من بواعث الغزل .

ولو أن المحبين كلهم مفطورون على القريض لكان من الطبيعى أن يتغزلوا جميعاً ، ولكنهم ليسوا كذلك . فقد يحب الرجل حباً حاراً عنيفاً ولكنه غير مفطور على الشاعرية ، فلا يتغزل ، وحينئذ ينفس عن عاطفته بشيء آخر ، كغناء أو نجوى لصديق ، أو يدع لأنامله أن تترجم عن مشاعره بموسيقى أو رسم أو نحت ، ولقد يجد برد الراحة فى بثه لمن أحبها بكلمات حلوة خلاصة لها من الشعر روحه وإن لم يكن لها مظهره .

ولكن العرب أمة شاعرة ^(١) ، والشعر هو الفن الجميل الذى صوروا به عواطفهم ، وقد بقى من شعرهم فيض غزير مختلف الألوان والخصائص ، والغزل جدول مترع من هذا الفيض .

وبحسب العربى المحب أن يحدث حبيبته ، أو يحن إليها ، أو يراها ، أو يتفجع لرحيلها ، لتجيش عاطفته فيهدر بالقريض .

وقد اتسم غزلهم بالركة إذا ما قيس إلى أدبهم ، لأنه تصوير لعاطفة الحب ، « وهذه العاطفة ناشئة من عدة انفعالات هى الحنو ، والجنس ، والاحترام ، والعطف » ^(٢) .

فهى تلهم شعراً فيه ليونة ومرونة واستمالة ، وحتى الحب اليائس يلهم شعراً يستدر العطف والإشفاق .

قال الجاحظ : « ولو أن رجلاً من أدمت الناس وأشدّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسبة لنفسه ، ثم جلس مع امرأة — وكان لا يُعرَفُ بحسن الحديث — ثم

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : أحمد الحوفى ٩٥ — ١٠٣ .

(٢) العقل الباطن تأليف سادلر ٧٨ .

كان يعشقها لتناج بينهما من الأحاديث ، ولتلاقح بينهما من المعاني والألفاظ ما كان لا يجري بين دغفل بن حنظلة وبين بشار بن الحرة ، وإنما هذا على قدر تمكن الغزل من الرجل » (١) .

قيمته الفنية :

الغزل وليد عاطفة الحب ، وتصوير لنفسية قائله ، فهو إذن يتسم بالصدق الشعوري ، ويمتاز من أبواب الشعر الأخرى كالمح والوصف والهجاء والفخر ، لأن هذه الأغراض كثيراً ما كانت تنبعث عن ملق أو تنفجج أو ادعاء ، فتحرم صدق الشعور وحرارة العاطفة ، فتجىء متكلفة فآخرة ، غير مصورة لنفسية الشاعر . أما الغزل فقلما كان ينبعث عن محاكاة أو تكلف .

والغزل يتسم أيضاً بالصدق الفني ، أريد القدرة على التعبير الصادق عن العاطفة ، والبراعة في تصويرها ، حتى لكان الشاعر يجسمها لقرائه وسامعيه ، فيشاركونه مشاركة وجدانية في أفراحه وأراحه ، ويشعر كل منهم أن هذا ليس تعبيراً عن عاطفة الشاعر وحده ، وإنما هو تعبير عن العاطفة الإنسانية الخالدة .

وإن الغزل الموسوم بالصدق الشعوري والصدق الفني من أسمى أبواب الشعر العربي إن لم يكن أسماها ، وهو لهذا خليق بدراسة مفصلة وتحليل دقيق .

على أنه أيضاً الفن القولي الذي كان صادق التجاوب مع البيئة والعقلية والطبع كما سافصل في الفصل الأخير ، وإن شئنا الموازنة بينه وبين الأبواب الأخرى قلنا إنه كان أصدق تصويراً واستمداداً وتأثراً بالبيئة والعقلية والطبع من بقية أبواب الشعر العربي .

هذا إلى أنه سجل خالد ضخيم نستشف من صفحاته كثيراً من ألوان الحضارة والأخلاق والعادات ، وسنرى في الفصول التالية ، أن الشعراء الغزلين وصفوا جمال المرأة جسداً ونفساً ، ووصفوا تجملها من ملابس وحلى وطيب وتزين ، وتحدثوا بأخلاقها ، وسنرى وصف المحبين لمشاعرهم حين رحيل الحبيبة ، ووصفهم

للمطامئ والحدوج ، وحديثهم عن الوشاة والعدال ، ووقوفهم بالأطلال الخ . وفي ذلك كله مدد لدراسة أحوال هذا المجتمع العربي تكشف عن حضارة ومدنية من ناحية ، وتكشف عن العواطف الإنسانية الخالدة .

على أن الغزل فن قديم زاوله الشعراء جميعاً ، وجودوه ، وشققوا معانيه ، وسنرى في دراسة أنواعه وخصائصه كيف قلد بعضهم وكيف ابتكر آخرون ، ونقف على أثر البيئة في هذا الفن من حيث التصوير والتعبير ومن حيث المعاني .
وشىء آخر يؤكد قيمة هذا الغزل أنه ظل قوياً حياً يؤثر فيما بعده من العصور تصوراً وتعبيراً إلى العصر الحديث .

ولست أبعد حين أستنبط من حب العرب المرأة وغزلهم فيها أنهم لم يكونوا همجاً ، لأن العربي لم يسلك في نيل المرأة ما كان يسلكه الإنسان الهمجى من اختطافها ليجوزها ، فلما ارتقى صار لا يخطفها لكن يستميلها ويستهوئها ، بل كان العربي يجتذبها إليه بأعماله ، أو بأقواله ، أى بشعره الغزل . وليس أدل على جدوى هذه الوسيلة في استهواء المرأة من كثرة الغزل العربي في العصر الجاهلى ، ومن غنى اللغة بكلمات تدل على الحب وآثاره ، وتتصل بكثير من شئون المرأة في الجمال والتجميل .

وبعد فإن الحب عاطفة شائعة تعمّر قلوب كثير من الناس ، ولا تختلف حقيقتها كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، لذا كان تعبير الحب عن عاطفته تعبيراً عن عواطف المحبين أيضاً إذا ما نبع من قلب صادق الشعور وخيال صادق التصوير بارعه ، فنقرأ شعره الغزل فيهنّنا ويعجبنا ؛ لأننا نلمس فيه الصدق الشعورى والصدق الفنى ، حتى ليخيل إلينا أنه تصوير لعواطفنا ، ومن هنا كانت قيمة الغزل التى تكفل له الخلود .

صلته بالنفس والعاطفة :

سأفصل القول في بواعث الحب ، وظروف العرب المواتية له ، وأخلص من مناقشة آراء الأدباء والفلاسفة وعلماء النفس إلى أن الحب الروحى الصافى المنقى

من جوعات الجسد لا يكون في حب رجل لامرأة ، وهو الحب الذى ندرس نتاجه أعنى الغزل .

وقد قسم ستندال Standhall الحب إلى أربعة أنواع :

١ — الحب العاطفى أو التأثرى Passion Love ويمتاز بالقوة والعنف وشدة التعلق ، والشوق الحاد الجارف .

٢ — والحب الاستلطافى أو المنبعث عن ميل وشفقة Sympathy Love وهو ألفة وصدقة أساسهما خفة ظل الصديق وقربه إلى النفس .

٣ — والحب الجسدى أو الشهوانى Sensual Love وهو الاشتهاء الجنىسى ، ولا يستحق أن يضاف إلى أنواع الحب ، لأنه ضرب من الإيثار الجنىسى لشخص دون غيره .

٤ — والحب السكالى أو المنبعث عن عجب وخيلاء Vain Love وهو ضرب من الترف ، هو ولع بامرأة جميلة ، كما يولع الرجل بالفرس الجميلة لأنها قنية كالية لا بد منها للمترف ^(١) .

فما نوع الحب العربى من هذه الأنواع؟ أو بعبارة أوضح : ما نوع الحب الذى نستشفه من الغزل العربى؟ هل اجتمعت هذه الأنواع كلها عند العرب؟ ثم ما موقفنا من ستندال وهو يقرر أن الحب الحسى لا يصح أن يسمى حباً؟ أعتقد أن العرب أحبوا حباً عاطفياً ، وحباً جسدياً ، أما الحب الاستلطافى فلا نستطيع أن نطبقه على غزلهم ، لأنه كما يقول ستندال صداقة وألفة فهو إذاً من الهدوء بحيث لا تجيش له عاطفة بشعر ، وإن جاشت فهو عاطفى أو جسدى . وأما الحب العاثر كما يسميه فما أحراه أن يكون حسياً ، ثم هو ليس منبعثاً عن عاطفة صادقة حتى يكون من أقسام الحب ، وإذاً فالحب الذى أوحى بالغزل الذى ندرسه إما عاطفى وإما حسى .

وقد حفلت كتب اللغة والأدب بالحب ، فذكرت أسماءه ، ومراتبه ، مما يدل على أن العرب قدروه وخبروه ، فمثلاً يذكر الثعالبى أن أول مراتبه الهوى ، ثم

العلاقة وهي الحب اللازم للقلب ، ثم الكلف وهو شدة الحب ، ثم العشق وهو فرط الحب ... الخ^(١) .

ويذكر مثل ذلك داود الأنطاكي^(٢) ، وشهاب الدين بن أبي حجلة^(٣) ، وغيرهم .

ولكني كما اخترت كلمة الغزل دون النسيب والتشبيب اخترت كلمة الحب للدلالة على هذه العاطفة في جميع مراتبها .

والغزل على وثاقة صلته بالحب فيه تهذيب وصقل لعواطف المحبين الآخرين ، بل إن الشعراء الغزلين أنفسهم قد تخرجوا في مدرسة الحب ، وتعلموا كثيراً من سابقهم كما يقول هكسلي huxley وهو يبسط رأيه هذا في عرض شائق أحاذ إذ يقول : « ترى لو لم يكن الأدب فكم سيكون عدد المحبين ؟ أو كد أنه سيكون أقل من القليل » .

ويستدل بدراسة العالم الألماني زوخرمان للغريزة الجنسية عند حيوان ذكي هو القرد ، وحيوان غير ذكي هو الفأر ، على أن الحيوان الذكي لا تهديه الغريزة وحدها ، ولكن الحيوان غير الذكي يهتدى بها وحدها ، ويقول : وهذا هو حكم الغريزة والذكاء ، فكما ازداد ذكاءك عميت غريزتك ، والقرد ذكي ، ولذلك فإن غريزته لا تهديه إلا إلى القليل ، أما الفأر فينقصه الذكاء ، ولذا فإنه يهتدى بغريزته . ترى إذا كان هذا هو حال القروء في أمر طبيعي يجري في دمها ، فما أكثر التعقيد إذاً في النفس البشرية في الرجال والنساء عند الإحساس بالحب والتعبير عنه ، إن معلمنا الأول هو الأدب ، وحتى أولئك المحبون الذين اشتهروا بغزارة العاطفة وتدفق المشاعر قد تخرجوا في تلك المدرسة .

إن الفرق بين كبار العشاق — بين كليوباترة في زينتها وامرأة الشارع في تواضعها — هو الفرق بين الجاهل والمتعلم ، بين الذي قرأ والذي لم يقرأ ، إنه

(١) فقه اللغة للثعالبي ١١٦ .

(٢) تزيين الأسواق ١٥ — ١٧ .

(٣) ديوان الصباية ٢٣ — ٣٠ .

الفرق بين الذين استجابوا من أعماقهم للعشق في مدرسة الأدب والذين فترت استجاباتهم ، كما يحدث بين التلاميذ في الفصل الواحد .

وقد أوضح كيتس أن الكثرة الغالبة من الطائفة الثانية ، على أنه يجب أن نتذكر أن قيساً وليل ، وأنطوني وكليوباترة موجودون بيننا بكثرة لا تخطر على بالنا ، ذلك أنه يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى عمق عواطفهم ، وكل وسائله في هذا أن يحسد ويستنتج من تصرفاتهم وكلامهم ، ولكن أفاظهم في الأكثر الأعم لا تسترعى الانتباه ؛ لأن التعبير الرائع موهبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس — فليس ضعف التعبير دليلاً على ضعف الشعور — بل من المؤكد أن عدد المعبرين في جمال فني أقل بكثير جداً من عدد المحبين (١) .

وبذلك يشترك الغزل مع الفنون الجميلة ، لأنها كلها تنبع من العاطفة ، وترجم عن خلجات الفنان ، فالحب يترجم عن عاطفته بغناء أو شعر أو موسيقى أو رسم أو نحت ، ولكن العربي كان يصور حبه في الفن الجميل الذي يعرفه ، كان يصوره بكلمات ، ويتغنى أحياناً بهذه الكلمات ، ولكنها كلمات ذات ألوان وظلال وجرس وموسيقى .

سلطان الغزل :

وإذا كان الحب قد نبت وامتدت جذوره وبسقت أغصانه في هذه البيئة المجدية كأنما يعوضهم خصباً في القلوب والأرواح قد حُرِّمَتْ أرضهم ، فإن شعراء الغزل قد كثروا جداً ، حتى لنجد فيهم أمراء أبناء ملوك كأمير القيس ، وحكام مجربين كزهير ، وأبطالاً صناديد مثل عنتره وعمرو بن معد يكرب ، أو مُجَنَّاناً مثل الأعشى ، أو صعاليك مثل عروة بن الورد .

وكان الناس يحتفون بسماع الغزل ، ويحرصون على روايته ، وتهش له نفوسهم . روى عن السيدة عائشة : « أهدينا يتيمة من الأنصار ، فلما رجعنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما قلتم ؟ قلنا : سألنا وانصرفنا ، قال : إن الأنصار قوم

يعجبهم الغزل ، ألا قلت يا عائشة : أتيناكم أتيناكم ، فحيونا نحبيكم^(١) .

وكان الحب لا يدع الغزل وإن أنزل به ما يكره ، لأنه غير مختار في تنفيسه عن نفسه ، انفجر إذا كنتم حبه أو بثه . علم الإصبع بن محسن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته جنوب ، فألى يميناً ليقتلنه إن تعرض لها أو زارها ، وليأسرنه ثم لا يطلقه حتى يحجز ناصيته في نادى قومه إن ذكرها في شعر ، ولكن مالكا لم يطق أن يحبس غزله ، فعرض نفسه للأسر وحلق الرأس ، ورأى ذلك أهون عليه من أن يحرم رؤيتها أو يدع الغزل فيها ، قال من قصيدة :

فما الحلق بعد الأسر شرُّ بقية
من الصد والهجران وهى قريب
أحقاً عباد الله أن لست خارجاً
ولا والجباً إلا على رقيب
ولا زائراً وحدي ولا في جماعة
من الناس إلا قيل أنت مُريب
وهل ريبة في أن تحنَّ تحنيةً
إلى ألفها أو أن يحنَّ نجيب^(٢)
وأندر عمر بن الخطاب الشعراء بأنه يجلد من يشبب بامرأة ، فلم يستطع حميد

ابن ثور أن يدع الغزل ، وقال قصيدة منها :

نأت أم عمرو فالقواد مشوق
يحن إليها والهـا ويتوق
أقول لعبـد الله بيني وبينه
لك الخيرُ خبرني فأنت صديق
تراني إن عللت نفسي بسـرحة
من السرح موجود على طريق ؟
أبى الله إلا أن سـرحة مالك
على كل أفنان الأعضاء تروق
سقى السـرحة الحلال والأبرق الذي
به السرح غيث دائم وبروق^(٣)

فذكر أم عمرو ، ثم كنى عنها بالسـرحة ، ولكنه في ذلك غير مستور الغرض ولا بدجوة من عقاب عمر . على أن الجلد الذى هدد به عمر ، والأسر والحلق في تهديد الإصبع بن محسن ليست شيئاً إذا قيسـت بعقوبة أخرى أشد بالحب نكالا ، ولكنه كان ينزل هذه العقوبة بنفسه ، لأنه غير مختار فيما يعمل ، كان يتغزل فيمن أحبها ، وهو يعلم صرامة العقاب المعد له ، ولكنه يتغزل ليتخفف من الحب الذى

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١٥٥/٨ . (٢) الأغاني ١٩/٨٣ .

(٣) الأغاني ٤/٣٥٦ ومعجم البلدان ٥/٦٥ .

يحملة ، تغزل لُيسرَ إلى صديقه ، أو ليناجي ليلاه ، وليس على ثقة من أن غزله يشيع ، ولكنه لا بد أن يشيع ، وأتى لضوء الشمس أن يحجب ؟ ولشذى الروضة أن يحبس ؟ يشيع غزله ويشتهر حبه فيرفض آل المحبوبة أن يزوجه ، لأن العرب « كانت لا تنكح الرجل امرأة شُب بها قبل خطبته ^(١) » ، وقد جروا على هذا في جاهليتهم وصدر الإسلام ^(٢) .

وهم في منعهم مدفوعون بغيرتهم على النساء ^(٣) ، وحسبهم من الثأر لشرفهم والقصاص من الشاعر أنهم حرموه ما أمّل ، يدل على ذلك قول أبي ليلى وهو يعزى في قيس : « ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكنى كنت امرأ عريباً أخاف من العار وقبح الأحداث ما يخافه مثلي ، فزوجتها وخرجت من يدي ، ولو علمت أن أمره يجري على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان على في ذلك ^(٤) » .

لهذا حُرِمَ عنترة زواج عبلة ، لأنه صرح بحبها وتغزل فيها ^(٥) .

على أن بعض العرب كانوا لا يحولون بين شاعر تغزل وبين حببيته التي خطبها ، يدلنا على ذلك أن دريد بن الصمة رأى تماضر بنت عمرو — الخنساء — تنهأ ذوداً لها جربى ، فأحبها وقال :

حيوا تماضر واربعوا حبي	وقفوا فإن وقوفكم حسي
ما إن رأيت ولا سمعت به	كاليوم طالي أيقن جرب
متبذلاً تبدو محاسنه	يضع الهناء مواضع الذقب
أخناس قد هام الفؤاد بكم	واعتاده داء من الحب ^(٦)

وخطبها إلى أبيها وقيل إلى أخيها معاوية وكان صديقه فرحب به ، ثم استشارها فرفضته لأنه شيخ كبير ، ولم يرفضه أبوها أو أخوها ، ولم ترفضه هي لأنه تغزل فيها قبل أن يخطبها .

(١) الأغاني ٢٠ / ١٨١ . (٢) تزيين الأسواق ١٢٢ .

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : أحمد الخوفى ٢٧٣ — ٢٧٥ .

(٤) الأغاني ٢ / ٩٠ . (٥) بلوغ الأرب للألوامى ١ / ١٤٢ .

(٦) الأمل ٢ / ١٦١ .

بل حملهم الغزل على أن تغزل بعضهم في زوجته ، وهو وإن خالف المتعارف
المألوف بعيد عن العقاب ، وما حيلته إذا كان يحب زوجته حباً حاداً كما يحب
حبيلته ؟

تغزل زهير بن أبي سلمى في زوجته أم أوفى ^(١) ، وبدأ معلقته بالغزل فيها :
أمن أم أوفى دمنه لم تكلم بحـومة الدراج فالتـم
وتغزل امرؤ القيس في زوجته أم جندب :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المـذب
فإنكـما إن تنظـرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب
ألم تريانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
عقيلة أتراب لها ، لا دميمة ولا ذات خلقٍ إن تأملت جانب ^(٢)
وتغزل حسان بن ثابت بالشعماء زوجته ^(٣) .

ومثل ذلك حدث فيما بعد في العصر الأموى من الحارث بن خالد المخزومى ،
إذ شـبـب بزوجه أم عمران ^(٤) .

(١) الأغاني ١٥٠/٩ . ديوان امرئ القيس ٣١ جانب : ضخم قصير .
(٢) الإصـابة فى تـمـيـز الصـحابة ١٢٠/٨ . (٤) الأغاني ٣/٣٣٠ .

الفصل الثاني

جمال المرأة في نظر الشاعر

تمهيد — د

مظاهر الجمال :

في الكون أفانين من الجمال تُنَضَّرُهُ ، تتجلى في السماء الصافية ونجومها المتلألئة ، وفي منظر الشروق والغروب ، وفي البحر الساجي ، والجدول الرقراق ، والمروج الخضر ، والحدائق النضر ، وتتجلى في الإنسان والحيوان ، وفي حلو النغمات والألحان ، وفي الرائع البارع من فن القول ، والعبقري الممتع من الصور والتماثيل وغيرها .

في الطبيعة جمال ، وفي الإنسان جمال ، وفي إنتاج الإنسان نفسه جمال . وهذا الجمال قد يكون في الشكل ، وقد يكون في اللون أو الصوت أو المعنى .
ولع الإنسان به :

« والإنسان بطبعه يدرك الجمال بصورة ما ، ولعل جميع بني الإنسان لهم هذه المقدرة ، فإننا نرى الإعجاب بالروائع على اختلاف نوعها ومبعتها تبدو علاماته في مظاهر الناس وانفعالاتهم ومباهج حياتهم ، وما من إنسان إلا له نوع من الجمال يُطَرِّبه ويوقظ إعجابه ، لأنه قد خلق مزودا بعوامل الاستجابة لما هو منسجم متناسق ، والاندماج فيما يسير حسن التقسيم الذي أبدعه الله على غمراره ، وجمال التكوين الذي أفاضه عليه ، وفيه عاطفة كالأوتار الحساسة تهتز لما يحفزها مما يموج في عالم النفس ويسبح في ميدان الحس ، وفيه ميل ونفور : ميل إلى الرائق الصافي ، ونفور من الجهم المضطرب ، وفيه حب لما يبعث الرضا والاطمئنان ،

وبعض ما يجلب الاشمئزاز والاضطراب . في الإنسان كل ذلك ، وفيه أيضاً بواعث تحمله على التفكير فيما حوله مما يطرق سمعه ، ويقع عليه بصره ، ويحتذب انتباهه . ومن الواضح أن هذا يصل به إلى أن يفكر في مظاهر الجمال في شتى ألوانه ، على قدر ماله من استعداد نفسي وثقافي ^(١) .

حقيقة الجمال :

هل يكون الجمال صفة في الشيء نفسه ؟ أو هو شعور خارجي ينبع من المدرك ؟ أنتصف الروضة والقصيدة واللحن والمرأة بالجمال لأن فيها خصائص جعلتها جميلة حقاً ؟ أم تتصف بالجمال لأن المدرك لها أحس هذا الإحساس نحوها . فوصفها بأنها جميلة ؟

للباحثين مذاهب في هذا .

(أ) « منهم من يرى أن سر الجمال وفلسفته الفنية إنما ترجع إلى روعة الشيء نفسه ، وهذا يستدعى وضع القوانين المرتبطة بقيم الأشياء والحكم عليها على أساس خصائصها الخارجية . فإذا عسى أن تكون هذه الخصائص ؟ أهي في اللون ، أم في الشكل الهندسي ، أم في التناسب والتناسق ، أم في وحدة التجانس أم في النسب الرياضية بين الأجزاء ، أم في شيء آخر تخفي علينا معالمة وحدوده ؟

(ب) ومنهم من يرى أن الجمال إنما ينبع من النفس ، ويرجع إلى الظروف النفسية التي تحيط بالإنسان ، وينكرون أن تكون هناك أحوال فنية موضوعية مستقلة عن رد الفعل من جانبنا ، وذلك لأن الأشياء التي تظهر جميلة في رأى بعض الناس قد تظهر كئيبة في نظر آخرين ، والجميل في حال طفولتنا ليس من الضروري أن يكون جميلاً في نظرنا حين نكبر ، وكذلك في حالة الشعوب المختلفة فإنها تتفاوت في موازين الجمال ومعاييره ، وأصحاب هذا الرأى لا يقولون إن الشيء جميل ، بل يقولون إنه من بعض نواحيه يثير فينا تجارب لها قيمة في نظرنا ، لأنها تلائم حالنا وما نتطلب . والجمال بناء على هذا لا ينبع من الحقائق الخارجية بل ينبع

من داخل نفوسنا ومن تجاربنا التي يحددها موقفنا إزاء الأشياء ، ووجهة نظرنا إليها ، وهو إذن في الأثر النفسى الذى تحدثه فينا الأشياء ، وفى النشاط الروحى وما يتصل به من تجارب فى هذه الناحية^(١) .

والحق إن الإحساس بالجمال أمر يتوقف فى معظم الأحوال على طبيعة الشخص أكثر مما يتوقف على طبيعة الشيء ، ويضرب جاريت على ذلك مثالا فى قوله :
والآن لنأخذ صورة مألوفة جد ، صورة العذراء وطفلها ، فنجد أن من الواضح جدا أن تأثير هذه الصورة فى المسيحيين يختلف عن تأثيرها فى المسلمين أو البوذيين ، ولا أحسب كذلك أن المشاعر التى تثيرها صورة العذراء فى الرجل هى نفس ما تثيره فى المرأة ، أو أن تأثيرها فى المرأة الأم يساوى تأثيرها فىمن ليست أما ، كما أن الضوء والتلوين فى الصورة لا يحدثان نفس الأثر فى ساكن العروض العليا الذى تعود ضوءاً وألواناً معينة ، وساكن العروض الاستوائية الذى تعود ضوءاً وألواناً أخرى .
وكذلك يختلف تأثير أشكال الأشخاص وأحجامهم فى سكان بلد كل أهله طوال نحاف عنه فى سكان بلد آخر كلهم قصار سمان ، وبذا يختلف تأثير الصور دائماً فى الرجل الأبيض عنه فى الأسود ، وتبدو تماثيل الأجسام العارية التى رسمها تثنان وربنس ورنوار سمينة سمناً معيباً فى نظر المتشبعين بالنزوق الإغريق البحت^(٢) .
(ح) ويرى فريق ثالث أن الجمال صفة فى الأشياء ، ولكنه راجع إلى ما بينها وبين نفسية المدرك من تجاوب وتفاعل ، وإذن فإن مجال البحث عن الجمال هو فى الصلة بين العقل والشيء الجميل . « فليس الجمال نابعاً من الشيء وحده ، ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما ينبع من هاتين الناحيتين ومما بينهما من تجاوب .

وإذن فالجمال من الناحية الذاتية هو ما ينسجم مع الإحساس بالكمال العقلى ، ومن الناحية الموضوعية هو ما يتجلى فيه التناسق والتوازن^(٣) .
نعم ، إن الجمال يتطلب أن تكون فى الأشياء مزايا تكسبها جمالا ، ويتطلب

(١) الأصول الفنية للأدب ١٤ — ١٥ عبد الحميد حسن .

(٢) فلسفة الجمال ٢٢ — ١٢٤ . ف . جاريت ترجمة عبد الحميد يونس وزميله .

(٣) الأصول الفنية للأدب ١٥ عبد الحميد حسن .

أيضاً استجابة من المدرك تشعره بهذا الجمال ، ومثل ذلك كالحوى فيها صفة الحلاوة ولكن الإحساس بهذه الحلاوة متوقف إلى حد كبير على تذوق الشخص نفسه .
« ولماذا نظن أن إحساسنا الخاص — وهو أمر يرتبط بعقولنا — أقل شأنًا أو قيمة أو صدقا من صفات الجمال ^(١) ؟ » .

وإذا فالجمال الذى نصف به ما نحب هو فى الحقيقة إحساس ذهنى ، لأن هذه الأشياء التى نحبها ونصفها بالجمال قديرة على أن تبتعث فىنا هذا الإحساس .
« ولا مرء أن ثمة أشياء طبيعية — بنوع خاص — خليقة بإثارة مثل هذه الإحساسات فى كل الجنس البشرى أو جُله ، وإن كان هذا النوع المعين من الجمال الذى نراه عاطفة معينة أو زهرة معينة أو ضوءاً معيناً يختلف بين الناس بل يختلف عند الشخص الواحد فى أوقات مختلفة ^(٢) » .

إدراك العرب للجمال :

وقد أدرك العرب الجمال ، وتذوقوه ، أدر كوه فى الطبيعة ، وأدر كوه فى المرأة وأدر كوه فى فن القول « وكان العربى شاعر طبيعة ، يتأمل فيها ، وينشأ آلامه ، وينسى عندها أحزانه ، ويحبها ويفتن بها ، ويصورها كما امتثلتها نفسه . تشير الأطلال شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفريس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيواناتها ، ورمالها ، وآلها ، وآبارها ، وواحاتها ، ونجومها ، وبرقها ومطرها . فالشاعر الجاهلى إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدوياً أو راعياً ، كما صنع شعراء العصور الوسطى والقديمة الأوروبية . أما حين انتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية وتحرر من قيود الماضى فإنه صور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بعد فى بيئة مشابهة .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية كما تناول عند الغربيين الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ^(٣) » .

(١) فلسفة الجمال . جارىت ٨٩ .

(٢) فلسفة الجمال . جارىت ٩٢ .

(٣) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١٢ سيد نوفل .

وأدرك العرب الجمال في فن القول ، فاحتفوا بالشعر ، وطربوا له ، ورفعوا شعراءهم مكاناً علياً .

وأدركوا جمال المرأة الجسدى والنفسى فأحبوها وافتنّوا في وصف جمالها ، كما سنرى .

أولاً : جمال المرأة الجسدى

التجاوب بينهم وبين جمال المرأة :

أدرك العرب جمال الجسد بحواسهم كلها علياً ودنياً ، وعلماء النفس يقسمون الإدراكات الحسية إلى هذين القسمين ، ويريدون بالعليا ، الإبصار والسمع ، وبالدينا لمس والذوق والشم ، وإنما اعتبروا الإبصار والسمع من الإدراكات العليا لأسباب ، منها أنهما الوسيلتان لإدراك الجمال . فالعين تبصر الصور الجميلة والتماثيل الأنيقة ، والمناظر الرائعة ، والأذن تدرك النغمات الموسيقية والأغاني الحلوة ، والأصوات المنسجمة ، وليس بخاف ما لهذه وتلك من الآثار في غذاء الروح وترقية الشعور وتهذيب العواطف ^(١) .

وسنرى في وصفهم للجمال أن إدراكهم البصرى غلب ، وهذا طبيعي لأن العين هي الطريق الرئيس للانفعالات العاطفية ، فالقوام والمشيئة والحركة والإشارة والملابس والرشاقة والسمنة إلخ كلها من مقاييس الجمال والجاذبية ، والعين مصدر الحكم عليها ، « ويعتبر بعض علماء النفس أن العين إحدى المناطق الشهوية في الإنسان ، وعن طريق العين يقدر الإنسان قيمة الشخص الجنسية بطريقة لا شعورية ^(٢) » .

وكانت المرأة العربية جميلة كما سأبين ، فهي من هذه الوجهة ينطبق عليها المذهب الموضوعي Objective وهو قائم على أن منشأ الجمال الاتساق والانسجام في الألوان والأشكال والأساليب والنغمات ، سواء أكان هذا الانسجام طبيعياً أم

(١) في علم النفس الابراشى وحامد عبد القادر ١٠٠/٢

(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة ٦٣ الدكتور موريس الديك .

صناعياً ، فهو صفة خارجية تتحقق في عالم المادة أو المعنى ^(١) . كما ينطبق على الرجال الذين أدركوا جمالها وأعجبوا به المذهب الذاتي أو المذهب النفسي الشخصي Subjective الذي يرجع الجمال إلى حالة شعورية تحدث للانسان عند اتصال عقله بالشيء الذي يعده جميلاً .

والشعراء والمحبون عامة خير من يدرك هذا الجمال الجسدى ، ويدرك الجمال النفسى ، لأن « الجمال لا ينبع من الأشياء وحدها ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما هو في هاتين الناحيتين وفيما بينهما من تجاوب ^(٢) » وبذا توافر الجمال في المرأة ، وتوافر إدراكه وتذوقه في الرجل ، وحدث تجاوب بين إدراك الرجل وجمال المرأة ، فنتج عنهما الحب من ناحية ، والغزل من ناحية ، وبعض هذا الغزل تصوير لمحاسن المرأة الجسدية والمعنوية كما سيتضح من دراسته .

هل زين الشاعر جمال المرأة بخياله ؟

ولقد يقال إن هذا الجمال الذى سأفصل القول فيه لم يكن واقعياً كله ، فإن الشعراء زينوه ووشوه ، ووصفوا الحبيبات بما ليس فيهن ، وأنا لا أدفع هذا كله ، ولا أقبله كله ، لأن هذه الصورة العامة للجمال ليست مستقاة من شاعر واحد ، بل هي مستقاة من الشعراء جميعاً ، فهي تمثل الذوق العربى أدق تمثيل ، وعلى فرض أن في بعضها تهويلاً فإن هذا التهويل لا يبعدنا عن النموذج الذى يحبه العرب ، « وخلاصة رأى شوبنهاور في معنى الجمال الفنى أن مهمة الفن هي فصل الشكل (القالب) عن المادة لا أن يحكى لنا الشكل والمادة معا حكاية صحيحة محكمة ، لأن الفن مُوَكَّل بالصور الباقية والنماذج الخالدة ، لا بالكائنات التى توجد في الحياة مرة واحدة ثم تمضى ، فالذى يعنى الفنان من الجميل أنه قالب يصلح أن يكون نموذجاً عاماً لأفراد كثيرين أو للنوع كله ^(٣) » .

(١) دراسات في علم النفس الأدبى حامد عبد القادر ١٠٣ .

(٢) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ١٦ .

(٣) مراجعات في الأدب والفنون . العقاد ٧٣ .

فليس غرض الفنان أن يحاكي الواقع محاكاة لا تصرف فيها ، فينقل صورة من الطبيعة أو من المرأة خلواً من عاطفته وخياله ، ولكنه يحاكي الطبيعة ويستمد منها ويضيف إليها ، هو كالرسام الذي يستوحى من الطبيعة منظرًا ويشكله بألوانه ودهانه تشكيلا ينم على عبقريته .

والشاعر الذي يصف المرأة على حالها بغير أن يصفى على وصفه من خياله وعاطفته مثله مثل المصور الذي يلقط بالمصورة مناظر ، وشتان بين المصور اللاقط والمصور الرسام في ميزان النقد والفن . يقول بندتو كروتشه :

« إن الأشياء الجميلة لا تؤثر تأثيرها إلا إذا أمكن أن تدرك بروح الفنان الذي أضفى عليها قيمتها ، وحدد جانب الجمال فيها ، والطبيعة خرساء ما لم ينطقها الإنسان^(١) . »

مقومات جمال المرأة :

تلتقي نظرة الشعراء إلى الجمال الجسدى عند معنى واحد : هو التناسب والتناسق والانسجام . وهذا ذوق الفطر السليمة التي لم يفسدها الترف ، ولم تطغ عليها بدع الحضارة .

فقد استحسنوا من المرأة الوضاحة والصباحة والهيّيف والرشاقة والخفّر ، وأحبوا أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ممتلئة الرّدين بارزة النهدين إلخ ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن الفطرة كما يقرر علم جمال الأعضاء « وهم في ذلك أصحّ أذواقاً من أساتذة التّجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل في استواء الأعضاء .

فما يعيب المرأة عضوياً — أو فزيولوجياً — أن تكون رَسحاء ضئيلة الردين ، فإذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكسى عظام فخذيها وعجزيتها ، وأن يمتلئ فيها هذا الجانب من جسمها ، وإلا أشار هزاله إلى آفة في تكوين الجسم لا يوافق حاسة الجمال . وكذلك يستحسن الخصر الدقيق في المرأة ، لأن

ضخامة المعدة قد تؤذي الجنين وتضغط عليه في الرحم ، وتشير إلى التزايد من الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة في جسم الإنسان .

فالذوق العربي في دقة الخصور وبروز الأرداف ذوق محمود يزيه حب التنسيق كما يزيه تكوين وظائف الأعضاء^(١) .

ومما يدل على نظرهم الصائبة إلى جمال الجسد قول أعرابي لابن عمه :

« اطلب لي امرأة بيضاء ، مديدة فرعاء ، جمدة ، تقوم فلا يصيب قيصها

منها إلا مشاشة منكبيها ، وعلقى ثديها ، ورانفتي أليتيها ، ورضاف ركبتها ، إذا استلقت فرميت تحتها بالأثرجة العظيمة نفدت من الجانب الآخر » ، فقال له ابن عمه : « وأنى بمثل هذه إلا في الجنان » ؟

ويشبه هذا قول أم زرع : خرج أبو زرع والأوطاب ثم خض فلق امرأة معها ولدان لها يلعبان تحت خصرها برمانتين ، فطلقني ونكحها^(٢) » وسئل أعرابي عن النساء — وكان ذاهم بهن — فقال : أفضل النساء أطولهن إذا قامت وأعظمهن إذا قعدت^(٣) .

والجميلة في نظر أعرابي آخر هي التي « عذبت ثنايها ، وسهل خداها ، ونهد ثديها ، ونعم ساعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركها ، وجدل ساقها ، فتلك هم النفس ومناها »^(٤) .

وما من شك في أنهم أدركوا جمال المرأة إدراكاً كلياً . وسأفصل القول في جمالها عامة ، وفي جمالها تفصيلاً . ولست أعنى أن الشاعر أدرك كل جزء على حدة ، ثم ضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض ليرى أي جميلة أم لا ؟ لست أعنى ذلك لأن الجمال يدرك دفعة واحدة على أنه كل ، « فعندما نستمتع إلى لحن موسيقى لا نستطيع أن نترث حتى ندرس العلاقات بين كل صوت والذي بعده ، ومع ذلك

(١) شاعر الغزل : عباس العقاد ٩٤ .

(٢) عيون الأخبار ٥/٤ — ٦ فرعاء : ذات هيئة حسنة . جمدة : محكمة الحلقة . المشاشة : رعوس العظام . الرانفتان : أسفل الألية . الرضاف : الجلد الذي على الركبة . الأثرجة : ثمر كالليمون .

(٤) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٦٣ .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ٣ .

فهذه العلاقات نفسها هي التي تخلق اللحن وتخلق جماله ، فنحن نفقه العلاقات في طريقة لاشعورية أو ضمنية . فالإدراك الجمالي قائم على انتباهنا إلى النموذج العام نمسك به في ومضة واحدة ، وإن كانت الأجزاء ملوحة في الذهن ^(١) .

الجمال الجسدى عامة في نظر الرجل

المرأة الجميلة في نظر امرئ القيس خفيفة اللحم ليست رهلة ولا ضخمة البطن مسترخيته ، وصدرها صقيل كأنه المرأة ، وإذا ما أعرضت أو نظرت بدا خدها الأسيل الذي لا كزة فيه ، وسحرت بعينها التي تشبه عين غزالة تراءم جاذرها وتحنو عليها وتميل بعنقها ميلاً لطيفاً ، وجيدها طويل ملتف كجيد الطي الخالص البياض ، ليس به قبح حين ترفعه ، وليس عاطلا من الحلى ، ويزين ظهرها شعر أسود شديد السواد كثيف طويل كعذق النخلة المترالك المتدلى ، وله ذوائب مجدولات مرتفعات تضلُّ الأَشْطُ فيما نثني منها وتجمد ، وفيما أرسل ولم يتجمد . وخصرها صغير لطيف كأنه سير مجدول مستدير لين ، وساقها كعود البردى الريان بياضاً ولدونة واستدارة .

وهي مترفة مفعمة ، وتتناول ما تريد بننان لطيف منسرح غير كز ولا غليظ يشبه نوعاً من الدود يعيش في السكيب ، ويشبه أيضاً الأغصان الدقيقة من شجر الإسحل ، ولونها أبيض يشبه أول بيضة للنعام التي شربت من ماء نير لم تكدره السابلة ، ووجهها مشرق حتى ليضى الظلمة ، فكانه سراج راهب منقطع للعبادة في الصحراء .

وهي فتانة ، لا يستطيع الحليم الرزين أن يصرف نظره عنها ، ولا يستطيع ألا يعشقها إذا ما رآها تخطر أمامه في درعها ومجولها :

إذا قلت هاتى نوَّلىنى تمايلت على هضم الكشَّح رَيَّا المُخْلَخِلِ
مُهْفَهفَةٌ بِيضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ ترائبها مصقولة كالسَّجَنَجَلِ

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي بِنَظَرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُطْفَلٍ
 وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمَعْطَلٍ
 وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنُو النِّخْلَةِ الْمُتَعَثِّلِ
 غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعَلَا تَصِلُ الْمَدَارَى فِي مِثْنَى وَمُرْسَلٍ
 وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ وَسَاقٍ كَأَنْبُوبِ السَّقْيِ الْمَذَلَّلِ
 وَتَضْحَى فَتَيْتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فَرَاشِهَا نَوْمِ الضُّحَا لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضَلِ
 وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَتْنٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكِ إِسْجَلِ
 كَبِيرِ الْمَقَانَةِ الْبَيَاضِ بِصَفْرَةٍ غَذَاها تَمِيرُ الْمَاءَ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ
 تَضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَُا مَنَارَةٌ مُمَسَّى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ

إِلَى مِثْلِهِمَا يَرْنُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً

إِذَا مَا اسْبَكَرَتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْهُولٍ^(١)

وهذه أوصافٌ لجسدٍ جميلٍ متناسقٍ حقاً . فهي طويلة ممشوقة وذلك يتطلب أن يكون خدها أسيلاً ، وصدرها صقيلاً ، وشعرها طويلاً . وهي ذات خصر نحيل كالجديل ، وذلك يتناسب مع الساق الملتفة المنسرحة ، ومع الأصابع الطوال الملتفة ، وبياض لونها يتسق معه سواد شعرها وسواد عينيها .

وقد صورها قيس بن الخطيم تصويراً آخر لا يُجافي ذوق امرئ القيس :
 رَدَّ الْخَلِيطُ الْجَمَالَ فَانْصَرَفُوا مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ وَقَفُوا؟
 فِيهِمْ لَعُوبُ الْعِشَاءِ آنَسَةُ الدِّ لَعَرُوبٌ يَسُوءُهَا الْخُلْفُ
 بَيْنَ سُكُولِ النِّسَاءِ خَلَقَتْهَا قَصْدٌ فَلَا جَبَلَةَ وَلَا قَصَفُ
 تَغْتَرِّقُ الطَّرْفُ وَهِيَ لَاهِيَةٌ كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَهَا نَزْفُ
 قَضَى اللَّهُ حِينَ صَوَّرَ خَالِقُ الْأَيُّكُنَّهَا سَدَفُ

تنام عن كبر شأنها فإذا قامت رؤيداً تكاد تنغرف
 حوراء جيداء يستضاء بها كأنها خوط بانه قصف
 تمشي كمشي الزهراء في دمت الر مل إلى السهل دونه الجرف
 كأن لباتها تضمنها هزلي جراد أجوازه خلف
 كأنها درة أحاط بها ال غواص يجلو عن وجهها صدف (١)

فهي وسط بين الهزال والضحامة ، ذات نظر أسر ، مخدومة منعمة ممتلئة
 العجيزة ، سوداء العين ، طويلة العنق ، مشرقة الوجه ، لدنة كأنها خوط بانه ،
 قطوف المشي كأنها مهابة تمشي في رمل لين تغوص فيه أخفافها متجهة إلى سهل
 ملآن بالحفر ، ونحرها مستو مصقول كأنه أواسط الجراد ، وجهها مشرق كالدرة
 التي تزرع عنها صدفها .

وقد حفل كعب بن زهير بنموذج للجمال لا ينافي هذا ، بل يوافقه في بعض
 صفات ، ويزيد عليه بعضاً ، حفل بغنة صوتها ، وكل عينها ، ووصف هيف
 خصرها وامتلأ عجزها ، وقال إنها وسط بين الطول والقصر ، ثم وصف ريقها
 وشبهه بالتمر المزوجة بالماء ، ووصف هذا الماء بالبرودة والصفاء :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غصيص الطرف مكحول
 هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول
 تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول
 شجبت بذى شيم من ماء تحنية صاف بأبطح أضى وهو مشمول
 تنفى الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية يبيض يعاليل (٢)

(١) الأصمعيات ٤٥/١ ، الأغاني ٢٢/٣ . جبلة : غليظة . قصف : نحافة . تنغرف :
 تنطف من دقة خصرها . قصف : لين . الزهراء : البقرة الوحشية . دمت : لين . جرف : ج
 جرف وهو ما تعرفته السيول وأكلته من الأرض . خلف : جمع خليف وهو السهم الحديد
 الطرير . أجوازه : أواسطه . يجلو : يعلو . (٢) جمهرة أشعار العرب . القرشي ٣٠٨
 محنية : منعرج الوادي . أفرطه : ملأه . يعاليل : ج يعلول وهو الغدير الأبيض .

وهذه النماذج تتفق مع نموذج طرفة ، فحيث تنسارق النظر بعينين كعيني المها في سعتيها وشدة سوادها وبياضهما ، ولها خد أسيل كخد الغزال الصغير ، وخصر يشبه في استوائه وطياته خصر المها المظفل التي تنفرد بوحيدها وتحنو عليه وتميل ، وهذا أئين لحسنها من أن تكون في قطع ، وهذه المها تنتقل بين الأفنان ترى زهرها ، وتورق ورقها ، وتجنى من أطرافها الغضة ، فهي في مربعي وخصب حسن ، تجتري به عن شرب الماء ، وذلك أهضم لكشحها وأتم لحسنها . ويتبدل على ظهر المحبوبة شعر منسدل طويل ملتف غزير ، وهي رقيقة جداً حتى لتحسب أنها تحتمل مشقة حين ترفع عينها لتتظر . ثم وصفها بالبداة ، ووصف أسنانها بأنها رقاق بيض كالأقاحي ، ووصف ريقها بالكثرة حتى لا تتغير رائحته ، وشبهه في طيبه وبرده بالماء البارد المزوج برضاب المسك هبت عليه ريح من الشمال وهو في مسيله فسكن واستقر ، وذلك أدعى لصفائه وبرودته ، ثم عاد إلى وصف عجزها فقال إنها تقوم من مكانها فتشبه رملانيهال من كثيب ، وهي لذلك تدق الضجيع شتاء وتبرده صيفاً ، وهو غير ملوم في حبها ، لأنها من نسوة جميلات منفعات مخدومات قليلات الأولاد ، لا يرضعن ، وذلك أصلح للاستمتاع بهن ، يتأودن كسحائب رقاق ، أو كنبات صغير لين اسمه العسلوج ، شديد الخضرة والثني :

تَحْسِبُ الطَّرْفَ بَعِينِي بَرَّغَزٍ	وَبَخْدَيَّ رَشَاءِ آدَمَ غُرٍّ
وَلَهَا كَشْحًا مِهَاءَ مُظْفَلٍ	تَقْتَرِي بِالرَّمْلِ أَفْنَانَ الزَّهَرِ
وَعَلَى الْمُتَنِينَ مِنْهَا وَارِدٌ	حَسَنُ النَّبْتِ أَثِيثٌ مُسْبِكِرٌ
تَحْسِبُ الطَّرْفَ عَلَيْهَا نَجْدَةً	يَا لِقَوْمِي لِلشَّبَابِ الْمُسْبِكِرِ
بَادِنٌ تَجْلُو إِذَا مَا ابْتَسَمَتْ	عَنْ شَتَيْتِ كَأَقَاحِي الرَّمْلِ غُرٍّ
بَدَلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَبْنَتِهِ	بَرْدًا أَيْضَ مُصْقُولِ الْأَشْرِ
وَإِذَا تَضَحَّكَ تَبْدِي حَبِيبًا	كَرْضَابِ الْمَسْكِ بِالْمَاءِ الْخِصْرِ
صَادَفْتَهُ حَرَجَفٌ فِي تَلْعَةٍ	فَسَجَا وَسُطَ بِلَاطٍ مُسْبِطِرٌ
وَإِذَا قَامَتْ تَدَاعَى قَاصِفٌ	مَالٌ مِنْ أَعْلَى كَثِيبٍ مُنْقَعِرٌ

تطرد القرَّ حَجَرٍ صادق وعيكَ القيظ إن جاء بقرُّ
لا تلغى إنها من نسوة رُقِدَ الصيف مقاليتَ نَزْرُ
كُنُبات المَخَرِّ يَمَادُنْ كما أنبت الصيف عساليح الخضر^(١)

وليس يفترق هذا الذوق عن ذوق عمرو بن معد يكرب^(٢) ، والأعشى^(٣) ،
وربيعة بن مقروم^(٤) ، وعبد الله بن عجلان^(٥) ، والمرقش الأكبر^(٦) ، والمزرد
ابن ضرار^(٧) ، وأبي الليث^(٨) .

جمال الجسد تفصيلاً في نظر الرجل

١ — الطول :

أحبوا المرأة الطويلة ، ولا أقصد بالطول أن تفرع الرجال ، وإنما أقصد ألا

(١) ديوان طرفة ٤٧ . برغز : ولد البقر . رشأ : طي قوى فشى مع أمه . آدم :
مشرب لونه سواداً أو بياضاً . تقترى : تتبع . وارد : شعر طويل مسترسل . أثبت : غزير
ملتحف . مسبكر : مسترسل . نجدة : شدة . الشباب المسبكر : التام . بادن : ضخمة كاملة البدن .
تجلو : تكشف . شتيت : ثغر متفرق الأسنان . غر : ييض . بدلته الشمس . . . : كان
الطفل إذا سقطت له سن قذف بها نحو الشمس وقال : يا شمس أعطيتك سنا من عظم فأعطيني
سنا من فضة . برداً : ثغراً نقياً كالبرد . الأشر : تحزيز في أطراف الأسنان . حبيا :
طرائق من ريقها ، يريد أن فيها كثير الريق وإذا قل ريق الفم تغيرت رائحته . رضاب المسك :
قطعه . حرجف : ريح الشمال إذا عطف أو الريح الشديدة الباردة . تلعة : مسيل الماء إلى
الوادي . سجا : سكن واستقر . البلاط : أرض مستوية في صفاة ، مسطر : سهل ممتد .
تداعى : مال لينهال . قاصف : ما مال من الرمل وانهاه . منقعر : منقلع من أصله . عيك : القيظ .
شديد الحر مع سكون الريح . وهذا كقول الآخر :

سحنة في الشتاء باردة في الصيف سف سراج في الليلة الظلماء

مقاليت : جمع مقالات وهي التي لا يعيش لها ولد . نزر : قليلات الأولاد . بنات المخر :
مستحائب يأتين قبل الصيف منتصبات رفاق . يَمَادُنْ : يتحركن ويتبشثن . العساليح : جمع
عسلوج وهو اللين الخضر من الأغصان . الخضر : نبت أخضر .

(٢) الأصمعيات ١ / ٤٤ . (٣) الديوان ٣٢ ، ١١٩ ، ٦٧ .

(٤) الأغاني ١٩ / ٩١ . (٥) الحماسة لأبي تمام ٢ / ٧٥ .

(٦) المفضليات ٢ / ٤٤ . (٧) المفضليات ١ / ٩٢ .

(٨) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .

تسمى قصيرة وذلك أنسب لشكلها العام وقوامها الذي أغرموا به ، ومن شأن الطول أن يبرز محاسن الصدر والخصر والردفين ، ومن شأنه أن يتناسب مع طول العنق وطول الشعر وانسراح الساعدين والساقين ، ومن شأنه أن يساعد على مرونة الحركة والتثني ، فهو إذن صفة لازمة للاتساق العام . قال كعب بن زهير :

٣ هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول (١)
وقال سلامة بن جندل :

٤ ليست من الزل أردافاً إذا انصرفت ولا القصار ولا السود العناكيب (٢)

٢ — اللون والوجه :

وهم جميعاً كلفون باللون الأبيض ، ويتضح هذا من وصفهم للوجه ؛ لأنه الجزء البارز الفاتن .

✕ (١) وصفوه بالبياض ، قال امرؤ القيس :

٥ دخلت على بيضاء جمَّ عظامها تعفَى بذيل المرط إذ جئت مودق (٣)
وقال :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعبوب تنسني إذا قت سربالى
إذا ما استحمت كان فيض حميها على متنتيها كأجنان لدى الجالى (٤)

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠٨ .

(٢) ديوان سلامة بن جندل ٢٦ . الزل أردافاً : الناحلات أردافاً . العناكيب : جمع عنكب وهي القصيرة الضعيفة . نقي عنها هذه الصفات ، والمراد أنها من صميم العرب ، وليست أمة .

(٣) ديوان امرئ القيس ١١٩ . ولسان العرب ١٢ / ٢٥١ جم عظامها : يصفها باللين والبضاضة فكأن السمن قد أخفى عظامها ، فهي جاء لا عظم بها . مودق : موضعي أو آثار قدمي .

(٤) ديوان امرئ القيس ١٤٠ الحميم : الماء الحار . متنتيها : جانبي ظهرها . الجان : الفضة . الجالى صيرف الدراهم .

وقال الأعشى :

والبيض قد عذست وطال جراؤها ونشأن في قنّ وفي أذواد^(١)

وقال النابغة الذبياني :

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيع بجنبي نخلة البرما^(٢)

وقال المزرد بن ضرار :

وبيضاء فيها للمخالم صبوة وهو لمن يرنو إلى اللهوشاغل^(٣)

وبالبياض وصف بشر بن أبي خازم^(٤) وحسان^(٥) وركاض^(٦) ، ولكننا نجدهم يصفونها أيضاً بالصفرة كقول قيس بن الخطيم :

صفراء أعجّلها الشباب لِدَاتِهَا موسومةً بالحسن غير قطوب^(٧)

وكقول الأعشى :

بيضاء ضخوتها وصف راء العشية كالعراة^(٨)

وكقول النابغة الذبياني :

صفراء كالسّيراء أكمّل خلقها كالغصن في غلوائه المتأود^(٩)

(١) ديوان الأعشى ٩٩ ولسان العرب ١٨ / ١٥٥ عنست : كبرت ولم تتزوج . جراؤها : بفتح الجيم وكسرهما أى شبابها وفتاؤها . قن : ضرب بالعصا أو تفقد بالبصر وتتبع للأخبار ، يريد أنهم نشأن في رعى . أذواد : جمع ذود وهو ثلاثة أبعرة إلى عشرة أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو ما بين الثلاثين والتسع .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ٦٥ . نخلة : بستان عبد الله بن معمر . وذكر البكري في معجم ما استعجم في كلامه على نخلة أن البرم بفتح الباء ثم الأراك . وفي اللسان بضم الباء وفتح الراء على أنها قدور من حجارة . يريد النابغة أنها ليست سوداء الرجل إذا انفلتت وأظهرت قدمها بل هى بيضاء ناعمة رخصة القدم . وهى لا تبيع قدور النحاس لأنها مصونة عن الكسب مخدرة .

(٣) المفضليات ١ / ٩٢ الخالم : المغازل المصادق . صبوة : خفة إلى اللهو .

(٤) المفضليات ٢ / ١٣٤ (٥) ديوان حسان ١٠ .

(٦) البيان والتبيين ٢ / ٢٨١ (٧) ديوان قيس بن الخطيم .

(٨) ديوان الأعشى ١١١ (٩) ديوان النابغة ٢٨ ، السيراء : ثوب من

جرير فيه خطوط . غلوائه : علوه .

وكقول قيس بن الخطيم :

حَوْرَاءُ مَمْكُورَةٌ مُنْعَمَةٌ كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَهَا نُزْفٌ ^(١)

فكيف تتفق الصفرة مع البياض ؟

ليس المقصود بالاصفرار ما ينشأ عن هزال ومرض وضعف ، إنما المقصود به صفرة « تضرب في اللون من طول المكث في الكن والتضمخ بالطيب ، كما تضرب في بيضة الأدحى واللؤلؤة المكنونة » ، وقد شبه الله عز وجل في كتابه ، فقال : « كأنهن بيض مكنون » ، وقال الشاعر :

« كأن بيض النعام في ملاحفها » ^(٢) .

ويعزز ذلك قول امرئ القيس :

كَيْسَرُ الْمَقَانَاةِ الْبَيَاضُ بِصَفْرَةٍ غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرَ الْحَلَلِ ^(٣)

وقول الأعشى إنها بيضاء في وقت الضحا وصفراء في العشي ، لأنها في وقت الضحا لا تنطيب ، وفي وقت العشاء تنطيب ، فيصفر لونها ، ويعزز ذلك أيضاً قول ابن منظور : « سميت المرأة عاتكة لصفائها وحمرتها ، وامرأة عاتكة مُحَمَّرَةٌ من الطيب » ^(٤) . ذلك أن الطيب هو الذي يضيف إلى البياض لوناً آخر أصفر أو أحمر حسب مادته ولونه .

(ب) ولم يكفهم أن نعمتوا الوجوه بالبياض ، بل جروا مع الخيال فقالوا إنها مشرقة وضئاءة منيرة ، قال امرؤ القيس :

تَضَىءُ الظَّلَامُ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةٌ مُمَسَّى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ ^(٥)

وقال مرة أخرى :

يَضَىءُ الْفَرَّاشُ وَجْهَهَا لِضَجِيعِهَا كَصَبَاحِ زَيْتٍ فِي قَنَادِيلٍ ذُبَالٍ ^(٦)

(١) الأغاني ١٨/٣ نزف : بضم فسكون وحرك للضرورة ، خروج الدم ، أراد أن في لونها الأبيض صفرة .

(٢) العقد الفريد ٢٢٣/٣ المطبعة العاصرية الشرقية بمصر .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٣١ . (٤) لسان العرب ١٢ / ٣٥٠ .

(٥) ديوان امرئ القيس ١٣١ . (٦) الديوان ١٣٩ .

(ح) وشبهوها تشبيهات تدل على مقدار إشراقها كالشمس في قول طرفة :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقي اللون لم يتحدد^(١)
وفي قول سويد بن أبي كاهل :

تمنح المرأة وجهاً صافياً مثل قرن الشمس في الصحوار ترفع^(٢)
وشبهوها بالدنانير في الإشراق ، قال المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأ كف غنم^(٣)

وشبهوها بالصحيفة في بياضها ، قال الجبل السعدي :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمان مختلج ولا جهنم^(٤)

وبالدرة النفيسة ، وهنا يذصفرون كعادتهم عن المشبه ، ويذهبون في وصف المشبه به كل مذهب ، حتى ليخيل إلى القارى أن المشبه به هو الذى يعنون « وهذا الجزء هو أقرب أجزاء القصيدة العربية إلى الذوق الغربى »^(٥).

قال المسيب بن علس :

كجناة البحرى جاء بها
صلب الفؤاد رئيس أربعة
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا
وعلت بهم سجاجء خارمة
حتى إذا ما ساء ظنهم
ألقي مراسيه بتهلكة
فانصب أسقف رأسه ليد
أسفى يمح الزيت ملتمس
قتلت أباه ، فقال أتبعتها
غواصها من لجة البحر
متخالف الألوان والذجر
ألقوا إليه مقاليد الأمر
تهوى بهم في لجة البحر
ومضى بهم شهر إلى شهر
ثبتت مراسيها فما تجرى
نزع ربايعته للصبر
ظمان ملتهب من الفقر
أو أستفيد رغبة الدهر

(٢) المفضليات ١/ ١٨٩ .

(١) ديوان طرفه ٩ .

(٤) المفضليات ١/ ١١٣ .

(٣) المفضليات ٢/ ٣٨ .

(٥) Arabic Literature. Gibb. P. 19

نَصَفَ النَّهَارُ ، الْمَاءُ غَامِرُهُ وَرَفِيقُهُ بِالْغَيْبِ لَا يَدْرِي
فَأَصَابَ مُنِيَّتَهُ فُجَاءَ بِهَا صَدَفِيَّةً كَمُضِيَّةِ الْجَمْرِ
يُعْطَى بِهَا ثَمَنًا وَيَمْنَعُهَا وَيَقُولُ صَاحِبُهُ أَلَا تَشْرِي ؟
وَتَرَى الصَّرَّارِي يَسْجُدُونَ لَهَا وَيُضْمِعُهَا بِيَدِهِ لِلنَّشْرِ
فَتَلُكُ شَبَهُ الْمَالِكِيَّةِ إِذَا طَلَعَتْ بِهِجَتِهَا مِنَ الْخَدْرِ ^(١)

ويتضح من قوله كيف أطال في وصف الدرة والحصول عليها ، وكيف صور المشقات والجهود التي بذلت في استخراجها من البحر الهائج ، حتى لقد ترصدها الغواصون شهوراً ، ولم يقدر على صيدها إلا صياد فارغ الطول صبور ضامر خفيف ، اطلسى بالزيت ليقى جسده من الماء الأجاج ، تدفعه الرغبة إلى أن ينال هذه الدرة لأنه شديد الحاجة والمسغبة ، وهو عاقد العزم على أن ينالها ؛ لأن أباه كان يبتغيها من قبل ففرق ، فلا بد أن يثأر منها ، وقد قضى نصف النهار يقتش عنها ، والماء يغمره ، ولم ينثن حتى فاز بها ، فأخرجها متلاثلة كالجر ، وأعلى ثمنها لقاء نفاستها ولقاء ما احتمل في الحصول عليها من آئنٍ ومخاطر ، وإن الملاحين ليشاركونه في إعجابها فيسجدون لها ، وإنه ليضمها إلى صدره إعزازاً لها ، ثم قال إن هذه الدرة النفيسة تشبه الحبيبة حين تشرق من خدرها .

وقد رسم الأعشى خاله المسيب في تخيله هذا وتخييله ، لأنه كان راويته وتلميذه ، ولكنه تصرف في التصوير بعض التصرف ، فجعل مارداً من الجن يحرس هذه الدرة ، ولا يغفل عنها ليلاً ولا نهاراً حتى لا يأخذها غواص ، وجعل هذا الغواص الذي ظفر بها مترقباً لها منذ كان شاباً :

كَأَنَّهَا دُرَّةٌ زَهْرَاءُ أَخْرَجَهَا غَوَاصٌ دَارِيْنٌ يَخْشَى دُونَهَا الْغَرَقَا
قَدْ رَامَهَا حَبَجًا مُذْ طَرَّ شَارِبُهُ حَتَّى تَسْمَعُ رَجْوَهَا وَقَدْ خَفَقَا
لَا النَّفْسُ تُؤَيِّسُهُ مِنْهَا فَيَتْرَكُهَا وَقَدْ رَأَى الرَّغْبَ رَأَى الْعَيْنُ فَاحْتَرَقَا

(١) ديوان المسيب بن عباس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٢ سجحاء : السجحاء الناقة التامة الطويلة الظهر والمراد هنا الموجة العالية . خارمة : تهبط بهم في وهاد من البحر . وفي الديوان خادمة . أسقف : نحيل خفيف الناصية . الصراري : الملاحون . وفي الديوان الصواري .

وماردٌ من غواة الجن يحرسها
ليست له غفلة عنها ، يُطِيفُ بها
في حَوْمٍ لُجَّةٍ آذَى له حَدَبٌ
من نالها نال خُلداً لا انقطاع له
تلك التي كلفتك النفس تأملها
ذو نِيقَةٍ مستعدٌ ، دُونَهَا تَرَقا
يُخْشَى سُرَى السارين والسَرَقَا
من رامها فارقتها النفس ، فاعْتَلقا
وما تمنى فأُخْجى ناعماً أَرْسَقَا
وماتعلَّقتْ إِلا الحَيْنَ وَالْحَرَقَا (١)

وسلك هذا المسلك في إيجاز المخبيل السعدى فى قوله :

وتزيك وجهاً كالصحيفة لا
كعقيلة الدرّ استضاء بها
أغلى بها ثمناً وجاء بها
بلبانه زيت وأخرجها
ظلماتٌ مُختلِجٌ ولا جَهْمٌ
محراب عرشٍ عزيزها السُعْجَمُ
شُخْتُ العظام كأنه سهم
من ذى غوارب وسطه اللُّخْمُ (٢)

وشبهوها بالبرد ، قال حسان :

يحملن حِوًّا حورَ المدامع فى الرِّ
يطِ وببيضَ الوجوه كالبرد (٣)

وشبهوها بالمصباح فى البيعة أو الدير ، قال امرؤ القيس :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها
منارة ممسى راهب متبتل (٤)

وقال :

يضىء الفراشَ وجْهها لضجيجها
كمصباح زيت فى قناديل دُبال (٥)

(١) ديوان الأعشى ٢٣٠ تسعسع : هرم . خفق : ذهب أكثر عمره من خفق الليل
إذا ذهب أكثره . الرغب : الرغبة . ذو نِيقَةٍ : ذو كياسة وحيلة . مستعد دونها ترقا : معد
ومحضر لأجلها سفيطا كالذى تدخر فيه المرأة طيبها وأداتها وهى السُمى أيضاً بالخفش ، فكامة
مستعد هنا بمعنى معد ، وقد فسر ابن منظور البيت بذلك (راجع اللسان مادة ترق وعد) .
السرق : السرقة . فى حوم لجة آذى : فى موضع الهياج من البحر المائج . له حدب : مأوّه
متراكب فى جريه . الحين : الهلاك .

(٢) المفضليات ١١٣/١ شخت : دقيق . كبار السمك .

(٣) ديوان حسان ١٣ .

(٥) الديوان ١٣٩ .

(٤) الديوان ١٣١ .

٣ — العين :

هي النافذة التي يطل منها الشاعر على دُخْلة محبوبته ، وتطل منها عليه ، هي منبع الجاذبية التي يستأسر لها الحبيب ويلتذ الأسر ، « وليس غريباً أن يقع الحب من أول نظرة ، لأن لشكل العين ولونها وبريقها دوراً هاماً في اختيار المحبوب ، وكثيراً ما تغنى الشعراء بما في العين من جاذبية وما لها من أثر ، ويتصل بحاسة النظر المعاني التي يسبغها الإنسان على أجزاء الجسم ومظاهره ^(١) » .

وشكل العين المناسب لأعضاء المرأة العربية هو المتسع ، على أن تكون دجاء كحلاء ، قال سويد بن أبي كاهل :

تمنح المرأة وجهها واضحاً مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافى اللون وطرفاً ساجياً أ كحل العينين ما فيه قمع ^(٢)
وقال عمرو بن معد يكرب :

كأن الإثم الحارى فيها يُسَفُّ بحيث تبندر الدموع ^(٣)
وشبهوا العين بأجل عين يرونها ، وهي عين المهامة وعين الغزال ، قال امرؤ القيس :

تصد وتبدي عن أسيل وتبقى بناظرة من وحش وجرة مُطفل ^(٤)
وقال معن بن أوس :

سبتنى بعميتى جؤذرٍ بخميلة وجيدٍ كجيد الرئم زينه النظم ^(٥)
وشريك لهما في هذا علقمة ^(٦) والمزرد بن ضار ^(٧) .

(١) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٣ .

(٢) المفضليات ١ / ١٨٩ . قمع : ضخامة وورم .

(٣) الأصمعيات ١ / ٤٣ الحارى : الحيرى والنسب إلى الحيرة حارى وحيرى .

(٤) الديوان ١٣٠ وجرة : موضع . مطفل : ذات أطفال .

(٥) ديوان معن بن أوس ٣ .

(٦) شعراء النصرانية ٥٠٥ .

(٧) المفضليات ١ / ٩٢ .

وقال الحادرة :

وتصدَّقَتْ حتى استبتك بواضح
صلَّتِ كمنصب الغزال الأتلع
وبمقلتي حوراء تحسب طرفها
وسنان ، حرَّة مستهل الأدمع^(١)
أما جاذبية النظرات فسأتكلم عنها في الجمل المعنوى .

٤ — الخسد :

وصفوه بأنه أسيل ، والأسيل في اللغة الأملس المستوى الطويل المسترسل^(٢)
وهو بشكله هذا متسق مع الجمل العام .

قال المرقش الأكبر :

ورُبَّ أسيلة الخدين بكر
منعمة لها فرعٌ وجيدٌ
ألهوتُ بها زماناً من شبابي
وزارتها النجائب والقصيد^(٣)
وقال امرؤ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتنتقى
بناظرة من وحشٍ وجرة مطفيل^(٤)
وبذلك وصفه بشامة بن عمرو^(٥) والمسيب بن علس^(٦) .

٥ — الفهم : (الشفتان والأسنان والريق)

غشاء الشفتين ذو خاصية جنسية كبيرة تجعل القبلة مثلاً أعلى لحاسة اللمس
من الناحية الجنسية ، ويسبب تلامس الشفاه انطلاق تيار قوى من التهييج
لا يدانيه إلا تلامس المباشرة ، والقبلة هي الرسول الروحي لعاطفة الحب ، وعندما
يستسلم شخصان لحرارة القبلة تمزج نفسها امتزاجاً تاماً^(٧) .

(١) ديوان الحادرة والمفضليات ١ / ٤٢ .

(٢) القاموس المحيط مادة أسل .

(٣) المفضليات ٢ / ٢٤ النجائب : النوق الجياد .

(٤) الديوان ١٣٠ مطفل : لها طفل تنعطف إليه .

(٥) المفضليات ٢ / ٥٤ . (٦) المفضليات ٢ / ٥٩ .

(٧) الاضطرابات الجنسية للدكتور موريس الديك ٥٩ .

ومن آثار الحب تعتمد مس اليد ، وما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب
فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء^(١) .

وأرجح أن الشعراء أكثروا من الحديث عن الفم ، لأنه ينبوع متعة ، حتى
الغذريون أولوه اهتمامهم ، ولا شك أن من جمال المرأة طيب فمها ، فقد بعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم أم سليم لتنظر امرأة فقال لها : « شمي عوارضها وانظري
إلى عقبها^(٢) » وهو في ذلك جارٍ على فطرة سليمة .

(١) وقد أفتن الشعراء في وصف حلاوة الريق ، وتشبيهه ، فهو خمر وشهد
في ذوق المرار الفقمسي ، حتى إنه ليهني السواك الذي تستاك به :

هَنِيئًا لُحُوطٍ مِنْ بَشَامٍ تَرَفُّهُ إِلَى بَرْدٍ شَهْدٍ بَهْنٍ مَشُوبٍ
بِمَا قَدْ تَسَقَّى مِنْ سُلَافٍ وَضَمِهِ بِنَانَ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ خَضِيبٍ^(٣)

وليس بأطيب منه الخمر الطيبة الرائحة المعتقة التي توت في دنها عشرين عاما
محبوسة لا يتسرب إليها الهواء ، اشتراها خميرون من تاجر يغالي في ثمنها ؛
ليست هذه الخمر بأطيب من ريقها ليلا حيث تتغير طعوم الأفواه ، ذلك في قول
المرقس الأكبر :

وَمَا قَهْوَةٌ صَهْبَاءَ كَالْمَسْكِ رِيحُهَا تَعْلَى عَلَى النَّاجُودِ طَوْرًا وَتُقَدِّحُ
ثَوَتْ فِي سِبَاءِ الدَّنِّ عَشْرِينَ حِجَّةً يُطَانُ عَلَيْهَا قَرْمَدٌ وَتُرَوِّحُ
سِبَاهَا رِجَالُ مِنْ يَهُودَ تَوَاعَدُوا لَجِيلَانٍ يَدْنِيهَا إِلَى السُّوقِ مُرْبِحُ
بَأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتُ طَارِقًا مِنْ اللَّيْلِ بَلْ فَوْهَا أَلَذُّ وَأَنْصَحُ^(٤)

(١) طوق الحمامة لابن حزم ١٢ .

(٢) النهاية لابن الأثير . مادة عرض ، العوارض : الأسناق التي بين الناي والاضراس

(٣) لسان العرب ١٩ / ١١٦ الحوط : الغصن . البشام : شجر عطر الرائحة يستاك

بقضبه . ترفه : تقبله بأطراف شفيتها . برد : يريد به الأسنان . سلاف : خمر .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشي ٢١١ والمفضليات ٢ / ٤٢ صهباء : شقراء أو

حمراء . تعلی : ترفع ، الناجود : المصفاة . تقدح : تغرف بالقدح . سباء الدن : أسره

وحبسه . يطان : يجعل على دنها الطين . قرمد : طين يطلى به رأس الدن . تروح : تعرض

لريح وتبرد . سبها : اشتراها . جيلان : بلد من بلاد العجم . أنصح : أخلص وأطيب .

ويشبهه تصوير الأسود بن يعفر^(١) تصوير المرقش :

وشبه زهير ريقها بعد نومها بخمر جيدة من عانة بالجزيرة :

كان ريقها بعد الكرى اغتبتت من خمر عانة لما يعد أن عتقا^(٢)

وشبهها عبيد بن الأبرص بالتمر المحتومة بالمسك ، التي يُغالى بها التجار لأن
الذي عتقها فارسي أو رومي خبير بتعقيقها :

كان ريقها بعد الكرى اغتبتت صهباء صافيةً بالمسك محتومة
مما يمالى بها البياع عتقها ذو شارب أصهب يُغلى بها السيمه^(٣)

وقال إن ريقها خمر مشعشة ممزوجة بماء صاف في أباريق من فضة :

إذا ذقت فاما قلت طعم مُدَمَّة مشعشة ترُخى الإزار قديح
بماء سحاب في أباريق فضة لها ثمن في البائمين ربيع^(٤)

وقال المسيب بن علس : إن ريقها خمر من عانة خالطها ماء من جدول مَعيِن
ينبت على حوافه القصب :

ومها يرف كأنه إذ ذقته عانيَّة شجَّت بماء يراع
أو صوب غادية أدرتُه الصبا بزِيل أزهر مُدمَجٍ بسِياع^(٥)

وجعل امرؤ القيس ريقها مشوباً بالتمر والماء الصافي وريح الخزامى والشهد :

(١) المفضليات ٢ / ٢١٨ .

(٢) لسان العرب ١٧ / ١٧٥ عانة : بلد على الفرات ينسب إليه الخمر العانية .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ٢١ اغتبتت : شربت ليلاً . صهباء : خمر أو هي المعصورة من
عنب أبيض . شارب أصهب : خمر ، والمراد أنه عجمي . السيمه : المساومة والثن .

(٤) - ديوان عبيد القصيدة ٨ . مشعشة : ممزوجة بغيرها . ترخى الإزار تمد لي أسباب
اللهو . قديح : ما يبق في أسفل الدن ، يريد أنها خمر مركزة ، أو قديح بمعنى مغروفة بالقدح .

(٥) ديوان المسيب الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ والمفضليات ١ / ٥٩ مها : بلور ، شبه
نعرها به لصفائه . يرف : يلمع . عانية خمر منسوبة إلى عانة بلد على الفرات . شجَّت : مزجت .
يراع : قصب . صوب غادية : ماء سحابة . أدرتُه : استخرجت ماءه الصبا لأنها لينة تمر بسهولة
وذلك لأنها أصفى لماء السحابة . أزهر : لإبريق أبيض . بزِيل : مثقوب والمراد أنها خمر من دن
أبيض . السِياع : الطين .

كَانَ الْمَدَامُ وَصَوَّبَ النِّعَامَ وَرِيحَ الْخَزَامَى وَذَوَّبَ الْعَسَلَ
يُعَلِّ بِهَ بَرْدُ أَنْيَابِهِمَا إِذَا النِّجْمُ وَسَطَ السَّمَاءِ اسْتَقَلَّ ^(١)

وجعله عنقرة خمرًا ممزوجة بالعسل :

وَبَيْنَ ثَنَائِيهَا إِذَا مَا ابْتَسَمْتَ مُدِيرُ مَدَامٍ يَمِزُجُ الرَّاحَ بِالشَّهَدِ ^(٢)

وريقها في مذاق أوس بن حجر خمر وorman وتفتح :

كَانَ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الْكُرَى اغْتَبَقْتَ مِنْ مَاءِ أَدَكْنِ فِي الْخَانُوتِ نَضَّاحَ

أَوْ مِنْ مُعْتَمِقَةِ وَرْهَاءِ نَشْوَتِهَا أَوْ مِنْ أَنْيَابِ رَمَانٍ وَتَفَاحِ ^(٣)

وكذلك حسان بن ثابت ^(٤) وعدى بن زيد ^(٥) :

وشبهه امرؤ القيس بالشهد المذوب في الماء النخير :

وَمُؤَشَّرِ عَذْبٍ ، مَذَاقَتُهُ بَرْدُ الْقَلَالِ بِذَائِبِ النِّحْلِ ^(٦)

وجعله طرفة ماء باردًا ممزوجًا بالمسك .

وَإِذَا تَضَحَّكَ تَبَدَّى حَبِيبًا كَرُضَابِ الْمَسْكِ بِالمَاءِ الْخَصْرِ ^(٧)

والريق في مذاق المرقش الأصغر ماء السحاب ^(٨) ، وفي مذاق ربيعة بن مقروم

شهد ^(٩) ، وفي مذاق أبي الذئال خمر ممزوجة بالماء والمسك والزنجبيل ^(١٠) .

(ب) أما الأسنان فقد راقهم بياضها ، واستواؤها وانسجامها فشبهوها

بالأقحوان ، قال طرفة :

بَادِنُ تَجَلَّوْا إِذَا مَا ابْتَسَمْتَ عَنْ شَتِيتِ كَأَقْحَى الرَّمْلِ غُرِّ ^(١١)

(١) ديوان امرؤ القيس ١٧١ . (٢) ديوان عنقرة ٧٣ .

(٣) ديوان أوس بن حجر ٣ ورهاء : حمقاء النشوة أو في نشوتها عجرفة .

(٤) ديوان حسان ٨ . (٥) الأغاني ١٥٤/٢ .

(٦) ديوان امرؤ القيس ١٤٩ مؤشر : ثغر ذى أسنان محززة . برد القلال : الماء

البارد المنحدر من أعلى الجبال . ذائب النحل : الشهد .

(٧) ديوان طرفة ٥١ . (٨) المفصليات ٤٥/٢ .

(٩) المفصليات ٦٣/٢ . (١٠) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .

(١١) ديوان طرفة ٥١ .

وقال عبيد إن أسنانها كالأقحوان النديّ النابت في الربوة :

وتبسم عن عذب اللثام كأنه أقاحى الرُّبَا أضحى وظاهره ندى^(١)

وشبهها المسيب بن علس بالبلور :

إذ تستيك بأصاتي ناعم قامت لتفتنه بغير قناع

ومها كأنه إذ ذقتـه عانيّة شجّت بماء يراع

أو صوب غادية أدركه الصبا بيزيل أزهر مدمج بسياح^(٢)

والمرأة لا تهمل أسنانها ، بل تنظفها ، وتسوكها كما تنظف وتسوك المرأة

المعاصرة ، قال الأعشى : إنها تجلو أسنانها بريشتي حمامة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة برداً أسف لثاته بالإثم^(٣)

وقال سويد بن أبي كاهل :

حرّة تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع الشمس في الغيم سطع

صقلته بقضيب ناضر من أراك طيب حتى نصع^(٤)

والأسنان الجميلة هي المؤشرة المحرزة لأن ذلك دليل صغر السن ، قال امرؤ

القيس :

ومؤشّر عذب ، مذاقته برد القلال بذائب النحل^(٥)

وذى أشر تشوفه وتنوص^(٦)

وقال طرفة : إنها لم تقضم بأسنانها ما يذهب بتحزيرها .

(١) ديوان عبيد القصيدة ٣٠ .

(٢) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ ، والمفضليات ٥٩/٢ ، المها : البلور . اليراع : القصب أي بماء جدول على حوافه القصب . صوب غادية : ماء سحابة . بيزيل أزهر : دن أبيض . سياح . طين وما يشبهه مما يخبث به الشيء .

(٣) ديوان الأعشى ٩٧ أسف لثاته بالإثم : ذر الإثم على اللثة لتسود .

(٤) المفضليات ١ / ١٨٩ . (٥) الديوان ١٤٩ .

(٦) الديوان ١٠٤ .

سَقَّتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتِهِ أُسِفَّ — ولم تَكْدِمِ عَلَيْهِ — يَأْتِدُ (١)

(ح) والذي يناسب هذه الأسنان البيض أن تكون الشفة لمياء لعساء ليبدو بريق الأسنان وضاحاً ، قال امرؤ القيس إن لثتها سوداء مثل النيلج :

مَنَابِتُهُ مِثْلُ السَّدُوسِ ، وَلَوْنُهُ كَشَوِّكَ السَّيَالِ فَهُوَ عَذْبٌ يَفِيضُ (٢)

وقال الأعشى إن لثتها سوداء كأنما ذر عليها إثم :

تَجَلَوْ بِقَادِمَتِي حَمَامَةً أَيْسَكَةً بَرْدًا أُسِفَّ لِثَاتُهُ بِالْإِثْمِ (٣)

وقال طرفة :

وَتَبَسُّمٍ عَنْ أَلْمَى كَانَ مَنْوَرًا تَحَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدَى

سَقَّتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتَهُ أُسِفَّ — ولم تَكْدِمِ عَلَيْهِ — يَأْتِدُ (٤)

ومن جمال اللثة أن تكون قليلة اللحم ، قال قيس بن الخطيم :

تَنَكَّلُ عَنْ حَمَشِ اللَّثَاتِ كَأَنَّهُ بَرَدٌ جَلَّتْهُ الشَّمْسُ فِي شَوْبُوبٍ (٥)

٦ — العنق والنحر :

مما يشاكل الجمال العام للمرأة العربية أن يكون عنقها طويلاً كفيلاً بإزار مفاتن وجهها ، ومحاسن نحرها وصدرها ، ومنسجماً مع أسل خديها ، واسترخاء شعرها على متنيها ، وأن يكون إلى طوله لدناً مدججاً سهل التثنى والانعطاف ، قال المرقش الأكبر :

(١) ديوان طرفة ٩ . إيأة الشمس : شعاعها وضوؤها أسف عليه يأتد : ذر على لثته الإثم . لم تكدّم عليه : لم تعض عظم فيؤثر في نغرها ويذهب تحزين أسنانها .

(٢) الديوان ١٠٤ منابته : الهاء عائدة على الفم . السدوس : النيلج الأسود . السيال : ما طال من شجر السمرة . يفيض : يسيل على الأرض .

(٣) ديوان الأعشى ٩٧ .

(٤) ديوان طرفة ٨ شؤبوب : دفعة من المطر أو شدة حرارة الشمس . ألمى : أسمر اللثة . منوراً : يريد به الأفحوان . تحلل حر الرمل : توسطه ونبت بينه وذلك أنعم لنبتة ونوره وحر الرمل : أكرمته وأحسنه لونا . الدعص : كثيب من الرمل ليس بكبير . له : الهاء للنور .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٦ لثة حمشة : قليلة اللحم . تنكّل : تبسم . شؤبوب : دفعة من المطر أو شدة حرارة الشمس .

لأنواع أبكار سرائرُ بُدِّنْ حسان الوجوه ليمتات السوالمف (١)

وقد شبهوا الجيد الجميل بجيد الظبية ، قال علقمة :

وجيد غزال شادن فردت له من الحلى سمطى لؤلؤ وز برجد (٢)

وكذلك شبهه امرؤ القيس :

لوجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل (٣)

وقال الحادرة إن عنقها ناصع صقيل أملس طويل كعنق الغزال الطويل العنق :

وتصدفت حتى استبتك بواضح صلت كمنتصب الغزال الأتلع (٤)

وهذا الجيد الطويل الصقيل اللدن قائم على نحر مشرق صقيل حال ، قال امرؤ

القيس إن منحرها كالمرآة :

مهفهفه بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل (٥)

وقال حاتم إن منحرها زير كجبينها :

ونحراً كفى نور الجبين يزينه توقد ياقوت وشذر منظم (٦)

٧ — الصدر :

ليس في الحب ما يجتذب خيال الرجل أكثر من صدر المرأة ، يجتذب الفتى

بما لا يستطيع مقاومته ، ولذلك تجد يد الفنان تعتمد إلى إبرازه في الفتحة

والتصوير (٧) ، وقد شبه عمرو بن كلثوم الثدي بحق من عاج ، وراعى في تصويره

هذا ما بين الثدي الجميل وحق العاج من استدارة ولون وصلابة وصفاء :

وثنيا مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامسينا (٨)

(١) المفضليات ٣١/٢ سرائر : صفوة النساء لأن السر والسريرة لب كل شىء وأفضله (القاموس المحيط) .

(٢) شعراء النصرانية ٥٥٥ .

(٣) ديوان امرؤ القيس ١٣٠ . (٤) ديوان الحادرة ٥ الأتلع : الطويل العنق .

(٥) ديوان امرؤ القيس ١٣٠ . (٦) شعراء النصرانية ١١٨ .

(٧) الحياة والحب لاثمیل لودفيج ٢٢ .

(٨) المعلقات العشر ٩٨ .

ووصفه المنخل الشكري بالبروز :

الكعب الحسناء تر فل في الدّمّ قس وفي الحرير

ووصفه التابعة الذيباني بالثبات والبروز :

والبطن ذو عكنٍ لطيف طيه والنحر تنفجه بشدى مقعد^(١)

٨ — الشعر :

ما لون الشعر الذي يوائم البشرة البيضاء والعين السوداء والشفة اللعساء
وانتمنايا البيض ؟ لا شك أنه اللون الأسود وحده . وكذلك كانت المرأة العربية ،
وكان تذوق العربي للجمال .

ومن تمام الانسجام أن يكون هذا الشعر الأسود طويلا متسقاً مع القوام
الفارع ، والقدر الأهيف ، والجيد التالع . وكذلك كانت المرأة وكان ذوق الرجل .
قال المرقش الأصغر إن شعرها أسود فاحم طويل كالحبال :

ألا حبذا وجه ترينا بياضه ومُسَدَلَاتُ كَلْثَانِي فَوَاحِيَا^(٢)

وقال عنتره : إن الليل استمد ظلامه من شعرها :

خَطَفَ الظَّلامُ كسارق من شعرها فكأنما قرَنَ الدجى بدياجي^(٣)

وتمدحوا طول الشعر واسترساله . قال المثقب العبدى :

وهن على الظَّلام مُطَلَّباتٌ طويلات الذوائب والقرون^(٤)

كما مدحوا غزارته وكشافته . قال امرؤ القيس :

وفرع زين المتن أسود فاحم أثيث كقنؤ النخلة المتعشك^(٥)

(١) ديوان التابعة ٢٨ وأساس البلاغة مادة قعد . عكن : جمع عكنة وهي ما انطوى
وتثنى من لحم البطن سمنا . تنفجه : ترفعه . ثدى مقعد : ملء الكف ناهدا لا ينكسر .

(٢) المفضليات ٥٤/٢ . المثاني : الحبال . (٣) ديوان عنتره ٣٩ .

(٤) شعراء النصرانية ٤٠٦ . الظلام : ظلمهن للرجال وفي لسان العرب ١٧/٣٤٥
(وهن على الرجائز واكنات) والقاتل الممزق العبدى .

(٥) ديوان امرؤ القيس ١٣٠ . متعشك : متداخل كشيف أو متدل .

وقال طرفة :

وعلى المتنين منها ———ا وارد حسن النبت أثيث مُسَبَّكَرٌ^(١)

وبعضهم استملح الشعر الجعد التثني المتكسر المتموج قال عنترة :

- ويطلع ضوء الصبح تحت جبينها فيغشاه ليلٌ من دجى شعرها الجعد^(٢)

وقال الخبل السعدى :

وتُضِلُّ مدِّرها المواشطُ في جَعْدٍ أَغْمٌ كَأَنَّهُ كَرَمٌ^(٣)

وشبهه بعضهم الشعر الكثيف المتدلى بعناقيد الكرم ، كما فى قول الخبل السعدى السابق ، وكما فى قول النابغة الذبياني إن شعرها طويل غزير كالعناقيد المدلاة على الدعام المغطية لها :

وبفاحم رَجُلٍ أَثِيثٍ نَبْتُهُ كالكرم مال على الدعام المسند^(٤)

واتفق معه فى هذا التشبيه معن بن أوس^(٥) وربيعة بن مقروم^(٦) والخبل السعدى^(٧) .

وشبهه آخرون تشبيها متأثراً بالبيئة أيضاً ربما لا نستملحه اليوم ، شبهوا الضفائر بالحيات ناظرين إلى الليونة والطول والضخامة والشكل والاملاس . قال المنخل :

يَعْكُفْنَ مِثْلَ أَسَاوِدِ التُّنُّومِ لَمْ تُعْكَفْ لَزُورٍ^(٨)

وقال المزرد بن ضرار :

وَأَسْحَمَ رِيانَ الْقُرُونِ كَأَنَّهُ أَسَاوِدُ رُمَّانِ السَّبَّاطِ الْأَطَاوِلِ^(٩)

وطبيعى أن تعنى المرأة بشعرها كما تعنى بغيره من محاسنها فتطيله إن كان

(١) ديوان طرفة ٤٨ .

(٢) ديوان عنترة ٧٢ . (٣) المفضليات ١ / ١١٤ . أغم : كثيف .

(٤) ديوان النابغة ٣١ . رجل : مسرح مرجل .

(٥) ديوان معن بن أوس ٤ . (٦) المفضليات ٢ / ١٣ .

(٧) المفضليات ١ / ١١٤ .

(٨) الأغاني ١٨ / ١٥٥ . يعكفن : يضرفن ويمشطن ، التنوم : نوع من الشجر ،

(٩) المفضليات ١ / ٩٢ . رمان : موضع ببلاد طي : السباط : اللينة .

قصيراً . روى عن السيدة عائشة : « وما بأس إذا كانت المرأة زعماء أن تصل شعرها » . وفي رواية ابن الأثير في النهاية : « ولا بأس أن تعمرى المرأة عن الشعر فتصل قرناً من قرونها بصوف أسود » ^(١) . وهذه الإباحة من السيدة عائشة دليل على أن العربيات كن يزاوِلن ذلك .

ومن ضروب العناية أن تمشطه وتسرحه قال امرؤ القيس إن مشطها يضلل في شعرها المسترسل والمتثنى :

غداً ره مستشرزات إلى العلا تَصِلُ للمدارى في مُثْنَى ومُرْسَل ^(٢)
وقال الخبل السعدى إن المواشط يسرحنها فتغوص الأمشاط في شعرها الكثيف :

وتُصَل مدراها المواشط في جَعْدٍ أَغْمَّ كَأَنَّهُ كَرَم ^(٣)
وقال الأعشى إنها تسرح شعرها اللين لترده عن وجهها ^(٤) .

ومن ضروب العناية بشعرها أن تطيبه ، قال سويد بن أبي كاهل :
✓ وقرونا سابعاً أطرافها غللتها ريحُ مسك ذى فَفَع ^(٥)

٩ — المعصم والأصابع :

وصفوا المعصم بأنه ملآن ريان ، قال بشر بن أبي خازم :
— دارٌ لبيضاء العوارضِ طفلةٌ مهضومة الكشحين رِيًّا المعصم ^(٦)
ووصفوا الأصابع بالطول والانسراح واللين ، حتى لقد شبهها امرؤ القيس بدود أبيض رءوسه حمري في كئيب اسمه ظبي ، وبخُوط من شجر الإسحل :
وتعطو برخصٍ غير شئنٍ كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل ^(٧)

-
- (١) عيون الأخبار ٤ / ١٠٢ .
(٢) ديوان امرؤ القيس ١٣٠ .
(٣) المفضليات ١ / ١١٤ .
(٤) ديوان الأعشى ٥ .
(٥) المفضليات ١ / ١٨٩ . غللتها : دخلت فيها . ففع : قوة وسطوع .
(٦) المفضليات ٢ / ١٤٦ العوارض : جانبها القم من أسنانها . طفلة : رخصة لينة .
(٧) ديوان امرؤ القيس ١٣١ . تعطو برخص : تتناول بندان لطيف . غير شئن : ليس بكز ولا غليظ . أساريع ظبي : دود بيض حمراء وس ترى في الكئيب المسمى بظبي . إسحل : شجر كالأراك تتخذ من فروعه مساويك .

وشبهها المرقش الأ كبر بثمر العنم ، وهو أحمر طويل يشبه به البنان المخضوب :
النشر مسك والوجه دنا نير وأطراف الأ كف عَنَم

١٠ — الساق :

والإنسجام العام يقتضى أن تكون الساق ريا مدحجة ملتفة بيضاء لدنة .
لذلك شبهها امرؤ القيس بعود من البردى نابت على مجرى الماء ، وقد
شدب وسوى :

وكشح لطيف كالجديل مُحَصَّر وساق كأنبوب السقي المذل (١)

وجعل المزرد بن زرار ساقها عودين من البردى رويا من ماء صاف :
وتخطو على برديتين غذاها نير المياه والعيون الغلاغل (٢)

وأشبهه قيس بن خطيم في التصوير وشطر التعبير :

تخطو على برديتين غذاها غدق بساحة حائر يعبوب (٣)

وقد شبه الخبل العدى جبيته بالبردى في بياضها وصفائها واستوائها :

بردية سبق النعيم بها أقرانها وغلا بها عظم (٤)

١١ — الوسط : (الخصر ، الردف ، البطن)

نظر الشعراء إلى نواح من جمال الوسط ، تجعله منسجما مع المنظر العام للجسد :

(١) فالخصر نحيل هضيم في جسم ممتلئ عبل ، قال علقمة :

صفر الوشاحين ملء الدرع خرعة كأنها رشاً في البيت ملذوم (٥)

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . السق : البردى . المذل : المسوى ،

(٢) المفضليات ١ / ٩٢ . الغلاغل : ج غلغل وهو الماء الذى يجرى بين الشجر ،

(٣) ديوان قيس بن الخطيم . غدق : كثير . حائر يعبوب : بستان يرويه جدول
كثير الماء .

(٤) المفضليات ١ / ١١٢ . غلا : ارتفع . يعنى أن النعيم زاد في شبابها حتى ارتفعت على
لداتها وكبرت قبلهن .

(٥) ديوان علقمة ١٣ . خرعة : لينة رخصة خيمة رقيقة العظم — ملذوم : ملثوم ،

وهو يشبه سيراً من الجلد اللين المجدول ، في ذوق امرئ القيس :

وَكَشَحَ لَطِيفَ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ وساقٍ كَأَنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمَذَلِّ (١)

(ب) وتحت الخصر كفل ممتلئ ينوء خصرها بشده ، قال الأعشى :

يَكَادُ يَصْرَعُهَا لَوْلَا تَشَدُّدُهَا إِذَا تَقُومُ إِلَى جَارَاتِهَا الْكُسَلِ
صَفَرُ الْوَشَاحِ وَمَلَأَ الدَّرْعَ بَهْكَئَةً إِذَا تَشَتَّى يَكَادُ الْخَصْرَ يَنْخَزِلَ (٢)

وهي كذلك في رأى قيس بن الخطيم (٣) .

وكفلها الريان تحت خصرها الضامر يشبه الكئيب ، قال طرفة :

وَإِذَا قَامَتْ تَدَاعَى قَاصِفٌ مَالٌ مِنْ أَعْلَى كَثِيبٍ مَنْقَعَرٍ (٤)

وما أجمل منظرها وهي تقبل هيفاء البطن والخصر وتدبر ريا الروادف والعجز ،

قال كعب بن زهير :

سَهْ هَيْفَاءُ مَقْبَلَةً عَجَزَاءُ مَدْبَرَةً لَا يُشْتَكِي قَصْرٌ مِنْهَا وَلَا طَوْلٌ (٥)

وكذلك صورها النابغة الذبياني (٦) وأبو الذئيل (٧) .

(ح) والبطن ضامر أيضاً بضمور الخصر ، قال بشر بن أبي خازم :

نَبِيلَةٌ مَوْضِعَ الْحِجْلَيْنِ خَوْدٌ وَفِي الْكَشْحَيْنِ وَالْبَطْنِ اضْطِمَارٌ (٨)

وذو ثنيات تزيده جمالا ، قال النابغة :

وَالْبَطْنُ ذُو عُكْنٍ لَطِيفٍ طِيهٍ وَالنَّحْرُ تَنْفِجُهُ بَشْدَى مُقَعَدٍ (٩)

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٠ .

(٢) ديوان الأعشى ٤٢ بهكئة : ضخمة الخلق ينخزل : ينقطع .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ .

(٤) ديوان طرفة ٥٢ . قاصف : منهال من الرمل . منقعر : منقلع من أصله .

(٥) جمهرة أشعار العرب للقرشي ٣٠٨ .

(٦) ديوان النابغة الذبياني ١٤ ، والأمالى ١ / ١٧ .

(٧) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .

(٨) الفضليات ١٣٩ / ٢ . نبيلة موضع الحجلين : جميلة الساقين . الجمل : الخلل . خود : شابة .

(٩) ديوان النابغة ٢٨ . عكن : طيات . تنفجه : ترفعه . مقعد : ناهد ملء الكف .

وشبه عنترة هذه العكن بالثوب الرقيق المطوى طيات لطيفة ، ولكن البطن
مع تشنيه متماسك أملس :
وبطن كطى السابرية لين^١ أقب لطيف ضامر الكشح مدمج^(١)

جمالها الجسدى فى نظر المرأة

هذا هو النموذج الحبيب إلى الرجال لأنه يمثل أنواع الجمال الجسدى ، وأرى
أن أستعرض شيات الجسد الجميل فى ذوق المرأة ، لأتبين أكان ذوق الرجال
متفقاً مع ذوق النساء أم لا ، وإن كنت أومن أن الرجل أخبر بجمال المرأة من
المرأة نفسها ، ولعل سبب ذلك أنها ليست فى حاجة مثله إلى إدراك الجمال ، لأنه
يجتذبها برجولته ومكانته لا بوسامته وقسامته ، وأما هى فتجتذبه بجمالها
ودلها وخفة روحها ، وهو ينظر إلى الجميل جملة لا تفصيلاً ، وهى تنظر إليه
تفصيلاً لا جملة .

بعث الحارث بن عمرو الكندى ملك كندة امرأة عاقلة فصيحة اسمها عصام
لترى جمال بنت عوف بن محم الشيبانى وكلها وعقلها ، فرأىها ثم وصفها
له بقولها :

« رأيت جهة كالمراة الصقيلة ، يزيناها شعر حالك كأذناى الخيل ، إن أرسلته
خلته السلاسل ، وإن قطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطأ
بقلم أو سوداً بُجِّمَ^(٢) ، تقوساً على مثل عين طيبة عبهرة^(٣) ، بينهما أنف كحد
السيف ، حَفَّتْ به وجنتان كالأرجوان فى بياض كالجمان ، شق فيه كالخاتم ،
لذيد المبتسم ، فيه ثنايا غر ذات أشر^(٤) ، تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ،
بعقل وافر وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد ، فى

(١) ديوان عنترة ٣٤ . السابرية : الثياب الرفاق وهى بيئة الثنى لطيفة . أقب : ضامر .
مدمج . أملس متماسك .
(٢) حمم : خم .
(٣) عبهرة : جامعة للحسن .
(٤) أشر : تحزيز .

رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت في صدر كصدر الدمية ، وعضدان مُدَبَّجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يُمَسُّ ولا عرق يُجَسُّ ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تُعَقَّدُ إن شئت فيهما الأنامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرجان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى طى القباطى المدبجة ، كُسِرَ عِكَنًا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بتلك البطن سُرَّةٌ كالدهن المجلَّو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ، ينتهى إلى خصر يكاد ينبت ، وكفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت ، يحمله فخذان لُفًّا ، وتحتهما ساقان خدلتان^(١) وشيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كحدو اللسان^(٢) .
فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها منه وتزوجها^(٣) .

وهذه الأوصاف التى بسطتها عصام لا تجافى ولا تنافى فى كثير ولا قليل الأوصاف التى بسطها الشعراء . أما شعر الساقين فسيأتى شبيه له فى وصف حواء لعائشة بنت طلحة ، وكذلك وصفت بلقيس حين قدمت على سليمان وهو دليل على تصون الفتاة وأنها لا تراول ما يزاول النساء ، أو هو وصف للواقع وليست هذه حادثة فردية ، فقد وصفت امرأة خبيرة بالنساء مثل هذا الوصف ، تلك هى حواء ، « وهى امرأة مخضرمة كانت تعيش بالمدينة وتعلم النساء (أشياء) ، وكانت لها سقيفة يجتمع فيها رجال قريش ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس فى سقيفتها إلا أهدى إليها ، جاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص ، وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر ، فقالوا لها : يا خالة ، قد خطبنا نساء من قريش ، ولسنا ننتفع إلا بنظركِ إليهن فأرشدنا بفضل علمك فيهن ، فقالت لمصعب : من خطبت ؟ قال : عائشة بنت طلحة ، قالت وأنت يا بن الصديق ؟ قال : أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة ، قالت : فأنت يا بن أبى أحيحة ؟ قال زينب بنت عمرو بن عثمان ، فخرجت إلى عائشة بنت طلحة واحتمالت عليها حتى جردتها من ثيابها ، ثم نظرت إليها

(١) خدلتان : ممتلئتان . (٢) حدو اللسان مثله .

(٣) جمع الأمثال للميدانى ٢ / ١٩٢ ، وجهرة الأمثال لأبى هلال ٢٩ ، والعقد الفريد

٣ / ٢٢١ ، وأعلام النساء لعمر رضا كحالة ٢ / ١٠٢٠ .

وهي تمشي أمامها ، فارتج كل شيء منها ، ثم أقبلت على مثل ذلك ، فقالت : فذاك
أبي وأمي ، خذي ثوبيك ، ثم أتت الآخرين على مثل ذلك ، ثم رجعت إلى السقيفة
فقالت : يا بن أبي عبد الله ، ما رأيت مثل عائشة بنت طلحة قط ، ممتلئة الترائب ،
زجاء العينين ، هديبة الأشفار^(١) ، مخطوطة المتنين^(٢) ، ضخمة العجيزة ، لفاء
الفخذين ، مسرولة الساقين^(٣) ، واضحة الثغر ، نقية الوجه ، فراء الشعر ، إلا
أنني رأيت خلتين هما أعيب ما رأيت فيها : أما إحداها فيواريهما الخف وهي
عظم القدم ، والأخرى يواريهما الحمار وهي عظم الأذن .

وأما أنت يا بن أبي أحيحة فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط ، إلا أن
في الوجه ردة^(٤) ، ولكن مشيرة عليك بأمر تستأنس إليه ، وهي ملاحاة
تعزبها .

وأما أنت يا بن الصديق فوالله مثل أم القاسم ، ما شبهتها إلا بخوط بانية تتثنى
أو خشف^(٥) يتقلب على رمل^(٦) .

وهذا الوصف كسابقه مسائر لأوصاف الرجال ، وصاحبه امرأة ذات بصر
بالجمال ، ولم تحف على باعثيها العيوب التي رأتها ، وأشارت عليهم بما يواريهما ويلطفها .

جمالها النفسي والخلقى

لم يقتصر الغزلون على الاحتفاء بجمال المرأة الجسدى ، بل احتفوا أيضاً بجمالها
الروحى ، وليس جمال الروح بأقل تأثيراً فى نفس الرجل من جمال الجسد ، بل لعله
أعمق منه أثراً وأبعد غوراً وأقوى اجتذاباً .

يقول إميل لودفيج : « الرجل العاشق لا يرى الجمال بل يبصر السحر وحده ،

(١) هديبة الأشفار : طويلة شعر أشفار العين .

(٢) مخطوطة المتنين : ظهرها مصقول ممدود جميل وكأن ظهرها وجنبها دسكت وصقلت
بالخط الذى يدلك به الجلد ويصقل .

(٣) مسرولة الساقين : مكسوة الساقين بالشعر .

(٤) ردة : بكسر الراء معناها الامتلاء .

(٥) خشف : ولد الظبي .

(٦) المحاسن والأضداد . ١٧٠ — ١٧٢

والأختان إذا ما عرضتا على رجال الخيال فضلوا أكثرهما سحراً على أكثرهما جمالا ، وفي الآداب لا يُسَبَّحُ الجمال الكامل على البطلة ، وفي الحقيقة إن هيلانة الباهرة الجمال كانت امرأة روح^(١) .

وهذا الجمال الروحي والجاذبية الروحية سلطان غلاب ذو عدة قوى ، قد تجتمع كلها في امرأة فتصير المثل الأعلى في الجاذبية ، وقد يجتمع بعضها ويتخلف بعضها ولكن هذا لا يفقد المرأة سحرها وجاذبيتها .

ولم ينحصر الغزلون في دائرة التعبير عن مشاعر الحب ، ووصف جمال المرأة وأثرها في خلق الرجل ونفسيته وغير ذلك ، بل جالوا في دائرة أخرى صوروا فيها بعض نواح من نفسية المرأة وأخلاقها .

ولست أزعم أنهم تحدثوا عن نفسية المرأة وأخلاقها حديثاً مستوعباً مفصلاً كأنهم من علماء النفس التحليليين ، لأن هذا التحليل المستوعب يبعد بهم عن دائرة الغزل ، ولأنه لم يكن في مقدورهم ، ولأنهم كانوا منصرفين إلى أنفسهم أكثر من انصرفهم إلى نفسية المرأة .

وإذا كان المحدثون ما زالوا يدينون بأن المرأة (لغز) عسير الحل بعيد الغور ، فقد كان آخرى بها أن تكون في نظر الجاهليين أعسر حلا وأبعد غورا .

وقد كان العذريون أحفل بتصوير نفسية المرأة وأخلاقها من الحسين ، لأن هؤلاء كانوا عاكفين على لذاتهم ، منصرفين إلى تصوير الجمال الجسدى أولاً وقبل كل شيء . وقد يشتركون مع العذريين في الحديث عن الأخلاق والنفسية حين يزهدون في اللذة والمتعة .

وأستطيع أن أحصر هذا الجمال المعنوي في عدة مظاهر :

١ — جاذبيتها العامة ، ذلك أن المرأة ذات طابع عام يجتذب قلب الشاعر ، فيخضع له ، ويسميه رُقي ، كأنها في نظره ساحرة تهوم بجهاها الروحي عليه فتنومه تنويماً (مغناطيسياً) . قال سويد بن أبي كاهل إنها تيمته وخبلت عقله ، واجتذبت به إلى حبها بسحرها الذي يشبه الرُّقي ، ولم يستطع أن يقاومه لأنه كفيل

باجتذاب الوعول من قمم الجبال ، فالسحر الذى يختلب الوعول أحق بأن يختلب الإنسان :

خَبَلْتَنِي ثُمَّ لَمَّا تَشَفَّنِي ففَوَّادَى كُلَّ أَوْبٍ مُنْتَزِعٍ
وَدَعَتْنِي بِرُقَاها إِنهَـا تُنْزِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ رَأْسِ الْيَنْعِ (١)

وقد صور ربعة بن مقروم سحر المرأه تصويراً آخر ، إذ جعلها قديرة على أن تصبى الراهب الأشيب الذى صبغته الرهبانية ، وباعد الشيب بينه وبين الصبوات ، فهو يعيش فى ديره دائم الضراعة لربه فى جنح الظلام والناس نيام ، حتى أضنته العبادة وأطلحه السحر فاغضوضن وجهه وتحدد لحمه ، فهو عزوف عن الدنيا عيوف للذاتها ومباهجها ، ولكنها لو عرضت له وتصدت لتسحره لصبا ، ولكاد يهجر ديره ورهبانيته :

لو أَنهَـا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ فى رَأْسِ مُشْرِفةِ الذُّرَى مُتَقَبِّلِ
جَارِ سَاعَاتِ النِّيامِ لربه حتى تَحْدَدَ لَحْمُه مُسْتَعْمِلِ
لصبا لِبَهْجَتِها وَحُسْنِ حَدِيثِها وَلَهْمٍ مِنْ نَامُوسِه بَتَنْزِلِ (٢)
ويشترك معه النابغة الذبياني فى هذا التصوير (٣) .

ومن الجاذبية العامة دلال المرأة وغرارتها أو تظاهرها بالغرارة ، قال قيس بن الخطيم :

فِيهِمْ لَعُوبُ الْعِشَاءِ آنَسَهُ الدَّ لَ عَرُوبٍ يَسُوءُها الْخُلْفُ
تَعْتَرِقُ الطَّرْفَ وَهِيَ لَاهِيَةٌ كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَها نَزْفُ (٤)

٢ — نظراتها :

سبق وصف العيون فى (الجمال الجسدى) ولكن النظرة الجاذبة الخالصة من

(١) المفضليات ١ / ١٩٠ . الأعصم : الوعل . اليعق : المرتفع .

(٢) الأغاني ٢٠ / ٩٢ مستعمل : يصح أن يكون معناها أنه مسرع . ولعل الصواب

متعمل أى مجتهد فى عبادته . (٣) ديوان النابغة الذبياني ٣٠ .

(٤) الأغاني ٣ / ٢٢ . عروب : ضاحكة عاشقة حريصة على اللهو . نزف : نريف .

الجمال المعنوي لا الجسدي ، فقد تكون المرأة جميلة العين ولكنها غير جاذبة النظرات . وقد صور عنتره تأثير النظرات بأن العيون مكحولت بالسحر لا بالكحل :

واستوكنوا ماء العيون بأعين مكحولت بالسحر لا بالإمد (١)
ومن أسلحة النظرة أن تكون العين ناعسة كأن النوم يهوم عليها فتغالبه ،
فهي مفتحة مغمضة ، وهذا أجمع لفتونها ، كما قال عدى بن الرقاع العاملي
— من بعد — :

وكانها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم (٢)
وهذا هو النظر بالعين المطروفة في قول طرفه :

إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد (٣)
وفما رواه الأصمعي :

ومطروفة العينين خفاقة الحشا منعمة كالريم طابت فطلت (٤)
ولقد يعبر عن العين آتخذ بأنها ميتة ، قال المنخل :

حديار للتي قتلتك غصبا بلا سيف يُعد ولا نبال
بطرف ميت في عين حي له خبل يزيد على الخبال (٥)

ويصور امرؤ القيس أثر النظرة بأنه يريع قلبه :

إذا نال منها نظرة ريع قلبه كما ذعرت كأس الصبوح الحمرا (٦)

ويتأثر عنتره بفروسيته ومكابدته للحرب وخبرته بأدواتها ، فيصور أثر النظرة

(١) ديوان عنتره ٦٩ .

(٢) معجم البلدان ٣ / ٣٧ . جاسم : قرية بين دمشق وطبرية .

(٣) لسان العرب ١١ / ١١٨ . وديوان طرفه ٢٦ .

(٤) لسان العرب ١١ / ١١٨ .

(٥) الأغاني ١٨ / ١٥٤ .

(٦) ديوان امرؤ القيس ٦٩ .

في قلبه بوقع النبل :

يا من رمت مهيحتى من نبل مقلتها بأسهم قاتلات بُرؤها عَسِر^(١)

ويصوره مرة أخرى بوقع السهم العميق الأثر الذي لا يخطئ :

رَمَتْ عبيلة قلبي من لوحظها بكل سهم غريق النَّزْع في الْخَوَر
فَاعْجَبَ لهن سهما غير طائشة من الجفون بلا قوس ولا وتر^(٢)

٣ — حركاتها :

سبق الإعجاب بالحركة في وصف بعض أعضاء الجسد كالعنق والخصر .
والحركة ذات أثر بالغ في الجمال الروحي ، لأنها مرتبطة بالخفة واللباقة والرشاقة والتثني ، فهي تضيف إلى جمال الأعضاء حياة « وللمحركة أهمية بالغة ؛ فالشخص النائم يوحى بالإجلال كالشخص الميت ، والحب عند الحركة يلوح صراعاً . وإذا أن كل حركة تثير أعصاب المستهوى فإن السكون يبطل هذه الإثارة ، وعن الحركة يصدر أقصى ما يُحَقِّقُ وأسرعه »^(٣) .

والشعراء يشيدون بالحركة الهيمنة اللينة التي يمد لها الجسم أو العضو كأنه ٢ غصن بان ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الضَّحِيع ابتزَّها من ثيابها تميل عليه هَوْنَةً غير مجبال
كحَقْفِ النَّقا يمشى الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مَسٍّ وتَسْهَال^(٤)

وتعجبهم المشية المتمهلة البطيئة الخطأ ، لأنها أدل على الرزانة ، وأنسب للمرأة المنعمة ، وأكشف عن جمالها ، ولأنها دليل على ثقل رد فيها ، قال الأعشى إنها تمشى متأنية كما يمشى في الوحل مجروح الرجل ، وإنها تنتقل من بيت جارتها إلى بيتها في تَوْدَةٍ كمؤدة السحابة لا الرياح ترجيها ولا ركود الهواء يوقفها :

(١) ديوان عنتره ٨٠ . (٢) ديوان عنتره ٨٥ .

(٣) الحياة والحب لأميل لودفيج ١٩ .

(٤) ديوان امرئ القيس ١٤ . ابتزها : جردها . هونة : لينة . مجبال : غليظة فظة .

حقف النقا : كثيب مستدير من الرمل .

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل
 كأن مشيتها من بيت جاريتها مر السحابة لا ريث ولا عجل^(١)

ويشبهه قيس بن الخطيم مشيتها المتمهلة الرزينة بمشية مهاة في رمل ناعم إلى
 سهل ذى حفر ، فهي تتأني ، وتقدر لكل خطوة موضعها :

تمشى كمشى الزهراء في دَمِث الر مل إلى السَّهْلِ دونه الجُرْف^(٢)
 ويشبهها امرؤ القيس بمشية من أضعفه النزف ، في كئيب غير ممهد
 فينقطع مشيه :

وإذ هي تمشى كمشى الزيف يَصْرَعُه بالكئيب البهر^(٣)
 وقد بقى هذا الإعجاب بالمشية المتمهلة إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فعمرو بن أبى
 ربيعة يشبه مشيتها بمشية البقرة :

— ييضاً حسناً خرائداً قُطفاً يمشين هوناً كمشية البقر^(٤)
 والمرار بن منقذ يشبه مشيتها بمشية الغمامة والقطاة :

قُطِفَ المشى قريبات الخطا بُدَّنا مثل الغمام المزخَرَّ
 يتزاورن كقطاء القطا وطعن العيش حلوا غير مر^(٥)
 وسيأتى تفصيل ذلك .

٤ — صوتها وحديثها :

والصوت والحديث من ينابيع الجاذبية ، ولقد يستهوى الصوت ويجتذب كما
 تجتذب النظرة والحركة والجمال ، لذلك يرى العالم اللغوى سِپَربر Sperber أن

(١) ديوان الأعشى ٤٢ ، وشعراء النصرانية ٣٦٦ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ . الزهراء : البقرة الوحشية البيضاء . الجرف : ما تحيرفته
 السيول وأكلته من الأرض .

(٣) ديوان امرؤ القيس ٦٨ . (٤) الاغانى ١ / ١٠٣ .

(٥) الفضليات ١ / ٨٧ . المزخر : المرتفع وهو دائماً رقيق صاف . القطا : طائر
 معروف سمى بذلك لثقل مشيه .

الغريزة الجنسية كانت مصدر الكلام والتخاطب^(١).

وفي الحياة البدائية صرختان تستجيب لهما الأنثى بنظرتها : صرخة الطفل الجائع لتطعمه ، وصوت الرجل الذي ثارت رغبته الجنسية لتستجيب له ، وللموسيقى تأثير كبير على الجهد العضلي لا ينكر ، كما ثبت أن لها تأثيراً على الجهاز التنفسي والدورة الدموية عند الإنسان والحيوان ، وكثير من الرجال والنساء أحبوا مغنيات أو مغنين مع أن هؤلاء لا يمتازون بجمال . وكما ينتج الحب والجاذبية عن الصوت يصح أن ينتج عنه النفور والكراهية^(٢).

لا عجب إذاً في أن تأثر الغزلون بصوت الحبيبة والمرأة عامة ، وسباهم حديثها وسيأتى وصفهم لصوت القيان وتأثيره في نفوسهم .

(١) وهم جميعاً يحبون الصوت الأغنى الذى يشبه بُغام الطباء ، قال عنتره :

فيا طالما مازحت فيها عُبَيْلَةً ومازحني فيها الغزال المُقَنَّعُ
أغنُّ مليح الدَّلِّ أحوراً كحل أزجُّ نقي الخد أبلح أدعج^(٣)

وقال كعب بن زهير :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغنَّ غضيض الطرف مكحول^(٤)

ويحبون أن يكون الصوت رخياً ، قال طرفة :

فخيَّوني يوم زَمُّوا غيرهم برخيم الصوت ملثوم عَطِر^(٥)

وقد صرح معن بن أوس بأثر الصوت المنعم الرخيم في الحب :

تصيد ألباب الرجال بأنسها ويقتلهم منها التدلل والنَّعَم^(٦)

(ب) ويستطيعون حلاوة حديث المرأة ويلتذونه ، فهو في سمع قيس بن الخطيم

عذب شهى لذيد مستطرف ، ولكنها لا تسترسل ، بل تصمت أحياناً فتخزن

(١) Psychology of Sex. P. 58. Havelock. Ellis

(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٢ .

(٣) ديوان عنتره ٣٣ .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشي ٣٠٨ .

(٥) ديوان طرفة ٥٣ .

(٦) ديوان معن بن أوس ٤ .

هذا الحديث المشتهى ، وكل حديثها جديد شائق :

ولا يَغْتُ الحديث ما نطقت وهو بفيها ذو لذة طَرَفُ
تخزنه وهو مشتهى حَسَنٌ وهو إذا ما تكلمت أنفُ^(١)

وهذا الحديث المشتهى لا مجافاة فيه للعفة ، فالمرأة تجود على سماعها بحديثها

الحلو البريء ولا تقوه بغيره ، قال سويد بن أبي كاهل :

تُسْمِعُ الحَدَّثَاتُ قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يُسْمِعَ^(٢)

ولقد يجمع الشاعر إعجابه بالحديث إلى إعجابه بالفم والبسات ، قال الحادرة :

— وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسناً تبسمها لذيد المكَرَعِ^(٣)

وكذلك جمع المزرد بن ضرار إعجابه باللهو إلى إعجابه بالحديث^(٤) ؛ وأعجبهم من

الحديث أن يكون بصوت خفيض ، قال الأسود بن يعفر النهشلي :

ينطقن معروفاً وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد

ينطقن مخفوض الحديث تهامساً فبلغن ما حاولن غير تناد^(٥)

أما أثره في نفوسهم فإنه قوى عميق ، صور لبيد حديثها بأنه خمر مزج بها

عصير رمان طازج :

كَأَنَّ الشَّمُولَ خالطت في كلامها جَنِيًّا مِنَ الرِّمانِ لدنا وذابلاً

لذيذاً ومنقوفاً بصافى نُحَيْلَةٍ مِنَ الناصع الخثوم من خمر بابلاً^(٦)

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ ، والأغاني ٣ / ٢٢ والأصمعيات ١ / ٤٥ . أنف جديد شهى .

(٢) الفضليات ١ / ١٩٠ .

(٣) ديوان الحادرة ٥ المكَرَع : المقبل والمراد الفم .

(٤) الفضليات ١ / ٩٢ .

(٥) الفضليات ١ / ١٩ .

(٦) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أو الباردة منها . منقوف : مصفى ممزوج . نُحَيْلَة :

وصوره الحكيم بن ربحان بأنه غسل :

كأنما غسل رُجْعَانُ منطقها إن كان رَجْعُ الكلام يشبه العسلا^(١)

وظل ولع الشعراء بحلاوة حديث المرأة إلى ما بعد العصر الجاهلي ، بل ظل التصوير نفسه ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

وحديث بمنزلة تنزل العصب م رخم يشوب ذلك حلم^(٢)

وظلت المرأة العربية توصف بأنها حلوة الحديث ظريفة ، يدل على ذلك قول أبي الغصن الأعرابي : خرجت حاجا فلما مررت بقباء تداعي أهله وقالوا : « الصَّصِقِيل ، الصَّصِقِيل » ، فنظرت وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل ، فلما رميناها بالحدق ألقت البرقع على وجهها ، فقلنا إنا سَفَرٌ ، وفيها أجْرٌ ، فأمْتعينا بوجهك ، فانصاعت ، وأنا أعرف الضحك في وجهها ، وهي تقول :

وكنْتَ متى أرسلتَ طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلُّهُ أنتَ قادر عليه ولا عن بعضه أنتَ صابر^(٣)

وقال أبو حازم المدني : بينا أنا أرى الجمار رأيت امرأة سافرة من أحسن الناس وجهاً ترمي الجمار ، فقلت : يا أمة الله ، أما تتقين الله ؟ تسفرين في هذا الموضع فتفتنين الناس ؟ قالت : أنا والله يا شيخ من اللواتي قال فيهن الشاعر — العَرَجِيُّ — :

من اللاء لم يحججن يبعين حُسْبَةً ولكن ليمقتلن البريء المغفلاً
قلت : فإني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار^(٤) .

٥ — ابتسامها :

بسملة المرأة من أنواع مفاتها وعوامل إغرائها ، وقد سبق وصف الشعراء لها

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٢٩ (٢) الأغاني ١ / ١٢٥ .

(٣) عيون الأخبار ٤ / ٢٢ .

(٤) الأغاني ١ / ٤٠٤ ، وعيون الأخبار ٤ / ٢٩ . وأبو حازم المدني هو ابن دينار ، من وجوه التابعين روى عن سهيل بن سعد وأبي هريرة ، وروى عنه مالك وابن أبي ذئب ونظراؤها .

ولأثرها في الكلام على (الفم والأسنان) ، ولكن ذلك لا يمنع من إفرادها بكلمة هنا .

فالنابغة الذبياني يصور ضحكها شركا قديراً على قنص الوعول لأنه جاذب خالب ويصور ابتسامها مغرباً للسحاب على الإبراق :

وإن ضحكت للمُعصم ظلت دوانيا إليها وإن تبسم إلى المزن يَبْرُقُ^(١)

والحادرة يصف تبسمها بالحسن ، والإغراء له على أن يشتار رحيق الفم :

وإذا تنازعك الحديث رأيها حسنا تبسمها لذيد المكرع^(٢)

٦ — عنقها :

كانت المرأة العفيفة الممنعة العسيرة المنال هي المثل الأعلى في نظر الرجال . قال علي بن أبي طالب : « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل ، فإذا كانت المرأة مُزْهُوَّة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها^(٣) » . وقد صرح سليك بن السلكة بأن قلبه يعاف المرأة التي تجود بوصلها ، ويعلق بالمنعة التي لا تأتي ريبة :

من الخفِرات لم تَفْضَحْ أخاها ولم ترفع لوالدها شئنا
يعاف وصال ذاتِ البذل قلبي وأتبع المنعّة النَّوارا^(٤)
وللعفة مظاهر شتى ؛ فقد تكون في خلاط المرأة للرجال وتحديثهم ، على أن تحالطهم وتحديثهم في تصون ، فلا يسمعون منها غير الجد العف من القول . قال سويد بن أبي كاهل :

تسمع الحداث قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يستمع^(٥)
وقال كعب بن رواع :
ويخالها المرحُ السفيفه مُتَجَبِّه ونَوَّالها غَيْرَ الحديثِ بَعِيد^(٦)

(١) ديوان النابغة الذبياني ٣٩ .
(٢) الفضليات ١ / ٤٢ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٤٦ / ٤ .
(٤) الأغاني ٤ / ٣٦٤ .

(٥) الفضليات ١ / ١٩٠ .
(٦) المؤلفات والمختلف ١٢٨ .

وقد تضرب عفتها وهيبتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجروا أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته ، وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس :

منعمة ما استطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تُفَش سره وترضى إياب البعل حين يثوب^(١)
وقد يجاورها الحب شهوراً كثيرة ، ولكنه لا ينال شيئاً ، قال قيس بن الحداية:
أجِدْكَ إِنْ نَعَمْ نَأَتْ أَنْتَ جازِع قد اقتربت لو أن ذلك نافع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها نوالاً ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع^(٢)
ويشبه هذا قول الشاعر :

فكيف صبرت أو ترجو مهابة منعمة تزار ولا تزور
جَلَتْ بَرْدًا فهِشَّ لَهُ فُؤَادِي فكدت إليه من شوق أطير
بَرَهْرَهَةً يَحَارُ الطَّرْفُ فِيهَا وليس يُنال من خَوْلَ اليسير^(٣)
وقد صور رجل من بني أسد تصون محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يُطلب ولا يحتفظ به ، ولا يمس عفتها في شيء :

وإني لأرجو الوصل منك كما رجا صدى الجوف مر تاداً كُدَاه صَلُود
وكيف طِلَابِي وصل من لو سألته قَذَى العين لم يُطْلَبْ وَذَاكَ زَهِيد
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى أراك صحيحاً والفؤاد جليد^(٤)
وقد استهوى الخلق الطاهر الأعشى — وهو صاحب نمر ولذة حسية — :

(١) المفضليات ٢ / ١٩١ .

(٢) الأغاني ١٣ / ٦ . (٣) برهرة : بيضاء ناعمة شابة .

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ٣ / ١٩٠ ومعجم البلدان ٦ / ٢٩٦ الجوف : المطمئن من الأرض كداه : جمع كدية الأرض الغليظة . مر تاداً : طالباً منصوب على الحال ، صلود قليلة الماء أى أرجو واصلك رجاء العطشان الطالب للماء من أرض لا ماء فيها .

ليست بسوداء ولا عنفِصٍ داعرةٌ تدنو إلى الداعر
عَبْهَرَةُ الخلقُ بلا خِيصة تشوبه بالخلق الطاهر^(١)

وهي لذلك طيبة السمعة لا تتناولها الألسن ؛ قال الشنفرى :

فيا جارتى وأنت غير مُلِمة إذا ذُكِرْتُ ولا بذاتٍ تَقَلَّتْ
أُميمة لا يُخْزِي نَشَاهَا حَلِيلَهَا إذا ذُكِرَ النسوانُ عَفَّتْ وَجَلَّتْ
إذا هو أَمْسَى آبُ قرة عينه مآب السعيد لم يَسْلُ أين ظلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حُلَّتْ
فقد أعجبتنى لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذاتٍ تَلَفَّتْ
كأن لها فى الأرض نِسِيًّا تقصه إذا ما مشت وإن تحدثك تَبَلَّتْ^(٢)

* * *

وقد اشتهرت المرأة العربية بالعفة منذ القدم ، وكانت عفتها نعمة على قومها ، لأنها أُنقذتهم من خزى ومعره ، وذلك أن الفطيون اليهودى ملك على المدينة ، وكان الأنصار — الأوس والخزرج — قد نزلوا بها من قبل ، وكان الفطيون رجل سوء فاجرا ، وكانت اليهود تدين بالآل تزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها ، وقبل إنه كان يفعل ذلك بالأوس والخزرج أيضاً ، ثم إن أختاً لملك بن العجلان الخزرجى تزوجت ، فلما كان زفافها خرجت إلى مجلس قومها وفيه أخوها مالك ، وقد كشفت عن ساقها ، فقال لها : « لقد جئت بسوء » ، فقالت : « الذى يراد بى الليلة أشد من هذا ، أدخل على غير زوجى ! ؟ » . ثم عادت فدخل عليها أخوها ، فأشارت عليه أن يدخل مع النساء ، فإذا خرجن ودخل الفطيون قتله ، فذهب

(١) ديوان الأعشى ١٠٤ عنفص : بذيئة قليلة الحياء أو داعرة . عبهرة : عظيمة حسنة الحلقة . بلاخية : طويلة لينة .

(٢) الأغاني ٢١ - ٩١ والفضليات ١ - ١٠٦ تقلت : لا يقال إنها تبغضت تبتلت : نقطه فى كلامها لا تطيله .

مع النساء في زى امرأة ومعه سيفه ، فلما خرجن قتله مالك وخرج هارباً ، فقال بعضهم في ذلك :

هل كان للفطيون عقرُ نسائكم حكم النصيب فبئس حكم الحاكم
حتى حباه مالك بمِرْشَةٍ همراء تضحك عن نجيع قائم^(١)
واستنجد مالك بأبي جبيلة ، عظيم غسان ، فأباد كثيراً من اليهود الذين
بالمدينة وصار العزبها للأوس والخزرج^(٢) . وقد سبق في مقدمة الغزل الحسي
ما يزيد عفة المرأة العربية وضوحاً .

٧ — حياؤها :

حياء المرأة من الرجل وثيق الصلة بعفتها وتصوتها ، بل إن الحياء يتناول
مالاتتناوله العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ولكنها تبتدى محاسنها
للرجال ، وتبتسم لهم ، ولكنها الرأة الحمية لا تفعل ذلك ، وقد ذهب شوبنهاور إلى
أن المرأة أقل حياء من الرجل « لأنها لا تعرف الحياء بمعزل عن غريزة الاحتجاز
الجنسى ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ، فيستترون في الحمامات
العامة ولكن المرأة لا تستمر مع المرأة إلا لعيب جسدى تواريه »^(٣) ولكن ذلك
غير صحيح ؛ لأن المرأة تستحى حيث لا احتجاز ، ولأن النساء تعودن ألا يستحى
بعضهن من بعض في كثير من الأحيان ، كما أن بعض الرجال لا يستحى بعضهم
من بعض ، ولكن النساء يستحين من الرجال .

وحياء المرأة من مكمالاتها في نظر الرجل ، لأنه دليل على تصوتها وعفتها وتمنعها
وأنوثتها ، وقد أعجب به العرب لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة
المستكملة لصفات الأنوثة .

قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسم ، وهن في بيوتهن مستورات :

(١) طعنة مرشّة : واسعة ذات رشاش من الدم .

(٢) السكامل في التاريخ لابن الأثير ١ / ٢٤١ ومعجم البلدان ٣ / ٤٥٢ .

(٣) هذه الشجرة ١٢١ العقاد .

نواعم ما يضحكن إلا تبسما إلى اللهو قد مالت بهن السوالم^(١)
وقال حاتم :

يضيء لها البيت الظليل خصاصه إذا هي يوماً حاولت أن تبسما^(٢)
وأعجب الشنفرى بها وهي تمشي مُقَنَّعة لا تتلفت ؛ وعيناها إلى الأرض كأنها
تبحث عن شيء :

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلقت
كأن لها في الأرض نسيماً نقصه على أمها وإن تكلمك تبلت^(٣)

ومن حيائها أن تقل زوراتها لجاراتها ، فيعذرنها ويزرنها ، وليست مستهينة
بهن ولكنها ذات حياء وخفر ، قال قيس بن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهم فتعذر
وليس لها أن تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتخفر^(٤)

وهن يحببنها لأنهما حياء لا تنسقط أخبارهن ، ولا تتجسس على دخالهن ،
قال الأعشى :

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختمل^(٥)

وقال عنتره إنها غضيضة الطرف^(٦) .

وقد نشأ عن العفة والحياء أن أقل الشعراء من تصوير الحبيبات يبادلنهم حباً
بحب ، وأرى أن الذوق العربي كان لا يرتضى ذلك ، لأن العرب أميل إلى المرأة
المتصونة البعيدة المنال التي تلهب القلب حباً في عزة وشم وتسام ، أما المرأة الجريئة
التهالكة على الرجل فإنها لا تثير إلا طلاب الجسد ، وهي في نظرهم لا توحى ولا
تحبي القلب بالحب ، وسنرى أنهم عابوا في العصر الإسلامي عمر بن أبي ربيعة لأنه

(١) ديوان أوس بن حجر ١٤ . (٢) الأغاني ١٥ / ١٥٩ .

(٣) الأغاني ٢١ / ٩١ والمفضليات ١ / ١٠٧ ومحاضرات الأرباء ٢ / ١٣٦ النسب
الشيء المفقود . نقصه : تبحث عنه . أمها : قصدها الذي تريده . تبلت : تقطع كلامها لا تطيله

(٤) الأغاني ١٥ / ١٥٩ . (٥) شعراء النصرانية ٣٦٧ .

(٦) ديوان عنتره ١٤٣ .

صور بعض النساء مشغوفات به طالبات له ، مثل قوله :

قالت الصغرى وقد تيمّمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول : قلت لها فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه (١) .

٨ — تقابلها :

وقد وصفوا المرأة بالتقلب والغدر والتلون ، وقالوا إنها تمنى وتخلف ، وتملى للرجل حتى يستوثق من وفائها له وانحصارها فيه ، وإذا بها تنكث عهدها ، وتهدم ما بنى .

وقد يكون مردُّ ذلك إلى العفة والحياء ، ذلك أن الرجل يفهم من كلمة أو إشارة أو حركة أن المرأة راضية بأن تواصله ، ثم لا تحقق ما فهمه أو توهمه ، فيتهمها بالنسكول والغدر والتقلب .

وقد يكون مرده إلى أنها تعدّ فى لحظة غفل فيها ضميرها ، فإذا ما استيقظ برئت مما وعدت ، واحتجزها حياؤها وعفتها من أن تنيل شيئاً ، فيصفها الرجل بالتلون والإخلاف .

ولقد يكون مرجع هذا إلى أنها مسوقة بالفطرة الجنسية التى خلقت فيها قبل أن تنشأ الآداب الاجتماعية والدينية « فقد أغرقتها الفطرة الجنسية بالميل إلى الأقدر الأكمل من الرجال لتنجب للعالم أحسن الأبناء من أحسن الآباء . فلم يكن مما يوافق هذه الفطرة فى العصور السحيقة أن تحفظ العهد لرجل واحد ، ومن حولها رجال كثيرون يتقاتلون عليها ، وقد يغلب أحدهم رجلها الذى تحفظ له العهد أو يطالبها بحفظه .

وكانت الحرب فى بداية الحياة الإنسانية مقياس القدرة والرجحان بين الرجال ، فكان من شأن المرأة أن تسلم لظافر بعد ظافر وشجاع بعد شجاع كلما دارت رحى

الحرب بين غالب ومغلوب ، وبين شجاع قوى وشجاع أقوى منه ^(١) .

لهذا وصفها شعراء العصر الجاهلي بالتلون ، ووصفها المتنبي بقوله : « ومن عهدها ألا يدوم لها عهد » وأبغضها المعري ، وذمها ، ورأى السلامة في الابتعاد عنها ، وأتفق معه في نظرتة السوداء إليها شوبنهاور .

ويقول المثل اللاتيني : « يجب أن يكتب على الهواء أو الماء ما تقوله المرأة لحبيبها ^(٢) » .

ولكنها في الحقيقة وإن تقلبت وتلونت في حبها للفرد فإنها تثبت على حبها للنوع ، فهي « وفية للحياة لا لهذا الرجل أو ذاك ، وصديقة في الحب لا في إرضاء أهواء من تحب ، فهي وفية بالفطرة رضيت أم لم ترض ، وهي صديقة بالإلهام حيث أرادت وحيث لا تريد ^(٣) » .

وليس معنى هذا أن للمرأة أن تتحلل من خلق الوفاء والثبات ، وأن تستسلم لدواعي هذه الفطرة التي كانت لها منذ فجر الحياة ، فإن وسيلة نيل المرأة قد تبدلت ، والأحوال الاجتماعية قد تطورت ، وصارت الآداب الاجتماعية والدينية هادياً إلى سواه السبيل ، ومن شأن هذه الآداب أنها تهذب الفطرة ، وتصفىها من عيوبها ، فعلى المرأة أن تستجيب للأخلاق الاجتماعية والدينية فتصدق في حبها إن أحببت ، وتقي .

ولكن المرأة كانت عفيفة حميمة أو كانت أكثر خضوعاً لفطرتها الأصلية ، فحاطت وراوغت وتلونت .

قال الأعشى إنها تمنى بالقرب ثم تبتلى بالبعد ، فمن الطيش أن يحبها :
أرى سفها بالمرء تعليق قلبه بغانية خَوْدٍ متى تَدْنُ تَبْعُدُ ^(٤)
وطالبها المثقب العبدى ألا تعد موعداً مكذوباً :
ولا تعدى مواعد كاذبات تمرُّ بها رياح الصيف دوني ^(٥)

(١) هذه الشجرة ١٢٦ عباس العقاد .

(٢) Benham's. New Boak of Quotations P. 581.

(٣) مطالعات في الأدب والحياة . العقاد .

(٤) شعراء النصرانية ٣٨١ . (٥) شعراء النصرانية ٤٠٥ .

واحترق ثعلبة بن صمير بإخلافها وعودها ، فراض نفسه على ألا يرجو تحقيق
مواعيد من هذه الحبيبة البخيلة الخلفة وإن أقسمت على الدم الذي يتحالفون عليه ،
لأن الغواني لا يثبتن على ودهن لفقير ولا لغنى :

سَمَّ الإِقامةَ بعد طول ثوائه وقضى لُبائته فليس بناظر
لِعدائِ ذى أَرْبٍ ولا لمواعِدِ خَلْفٍ ولو خَلَفْتَ بِأَسْحَمِ مائِر
وعدتك مُتَمَّتْ أَخَلَفْتَ موعودها ولعل ما منعك ليس بضائر
وأرى الغواني لا يدوم وصالها أبدا على عُسْرٍ ولا لمياسر^(١)

ولهم تصاویر شتى لهذه الحبيبة الخلفة ، فهي فى نظر كعب بن زهير كالغزال
لا يمسك الماء ، وكعرقوب الذى ضرب مثلاً فى الغدر بأخيه :

وما تدوم على العهد الذى عَهِدْتَ إلا كما تمسك الماء الغرايل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل^(٢)
وهى كذلك فى رأى علقمة :

وقد وعدتك موعداً لو وفّت به كموعود عرقوب أخاه ييثرب
وقالت : متى يُبْخَلْ عليك ويُعْتَلَلْ

تَشَكَّ وإن يُكشَفْ غرامك تدرب^(٣)

وعهدها فى مثل كلام الحداد الذى يتنقل بالبادية فيقيم بالموضع أياماً فيكسده
عمله فيشيع أنه مرتحل الليلة وإن لم يرد أن يرحل ، ليستعمله من يريد ، ولذلك
قالوا فى أمثالهم : إذا سمعت بسرّى القين فاعلم أنه مصبّح^(٤) .

فالعلاقة بين وعد المرأة ووعد القين الكذب المتعمد والعزم على عدم الإنجاز ،

(١) الفضليات ١ / ١٢٦ . ذى أرب : الأرب بكسر الهمزة وفتحها وسكون الراء
الدهاء والمكر .

(٢) حاسة البحرى ٨٣

(٣) ديوان علقمة ٦ .

(٤) لسان العرب ١٧ / ٢٣١ وجمع الأمثال للبيداني ١ / ٣٦ .

ويذكر أبو هلال تعليلاً آخر لوعده القين أنه إذا أتى قومًا حسن لهم عمله أول الأمر حتى يثقوا به ثم يفسده بعد ذلك^(١)، والعلاقة هنا واضحة أيضاً لأن المرأة تبنى وتعد فيثق بها الرجل ثم لا تنيله شيئاً مما وعدت .

قال نهشل بن حرى :

وعهد الغانيات كعهد قين وننت عنه الجعائل مستذاق

كبرق لاح يعجب من بعيد ولا يشفى الحوائم من لماق^(٢)

وشبه طفيل الغنوى النساء بشجر مر ولكن لا غنى للناس عن أكله :

إن النساء كأشجار نبتن لنا منها المرار وبعض المر ما كول

إن النساء متى يُنهن عن خلق فإنه واجب لا بد مفعول

فالمرأة في نظره قد تكون كالشجرة المرة ولكنها تغرى الرجل بأكلها ، وهي في نظره مولعة بأن تفعل ما أمرت بتركه .

٩ — ليست ثرارة :

ووصفوا المرأة بأنها نرّة المقال ، غير ثرارة ، والحق إن هذه صفة مستحبة في النساء على ندرتها فيهن ، لأن من طبعهن أن يفضن في المقال ، ويشقن الحديث طرائق وألواناً .

قال النابغة إنها كتوم لغضبها وأسبابها ، فلا تذيبه ولا تذيبها ، وإنها نرّة الحديث بمسراتها وأسبابها ، وهذا غريب عجيب من المرأة لأنها إذا غضبت أو ابتهجت اندفعت في حديثها اندفاعاً .

إذا غضبت لم يشعر الحى أنها

أريبت وإن نالت رضا لم تدهدق^(٣)

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال ٦ .

(٢) جمهرة الأمثال لأبي هلال ٦ وجمع الأمثال للميداني ١ / ٣٦ ولسان العرب

١١ / ٤٠١ . ونت عنه الجعائل : قصرت عنه الأجور . مستذاق : مجرب . الحوائم : العطاش .

لماق : شىء .

(٣) ديوان النابغة ٣٩ تدهدق : تضحك ضحكا يخرجها عن وقارها .

وقال أوس بن حجر إنهن لا يتخطفن الحديث ويتباهينه ، ولسن يتكلمن معاً في آن واحد كما تفعل النساء ، وإذا حدثن بسر فإنهن لا يذعنه :
ليس الحديث بنهي بينهن ولا سر يحدثنه في الحى منشور^(١)

١٠٧ — بم تستمال :

(١) وقد اختلفوا في وسيلة استمالة المرأة ونيل إعجابها ورضاها ، أيستميلها الشباب والمال ؟ أم المداينة والملاينة ومعسول القول ؟ أم البطولة والشجاعة والكرم والمجد ؟ وأكثر الشعراء على أن المرأة يستهويها الشباب — لأنه مجال البطولة والقوة — ويستهويها المال — لأنه وسيلة الكرم والزعامة — فليس الشباب هو المقصود وحده وإن كان حبيباً إلى المرأة ، وليس المال هو المقصود وحده وإن كان من مغرياتهما ، وإنما هما مقصودان لذاتهما ، ولما يحققان من سؤدد وزعامة وعظمة . وليس من شك في أن البيئة العربية كانت تقيم صرح الأخلاق على دعائم أقواها وأعظمها الكرم والشجاعة ، فهما الأساس وهما المقياس ، فلا عجب أن تقدر النساء الرجال على قياسهما ، وقد سبق في آثار الحب والحببية في نفس الشاعر أن الحب كان يدفعه إلى البطولة والمجد دفعاً .

من رأى المرار الفقعسي أن المرأة لا تستمال بجفاء المعاملة ولا بالانشغال عنها بأعمال أخرى ، ولا بالثراء ، وإنما تستمال بالكلام المعسول والوعود الكاذبة وإظهار الحب لها والوجد بها :

وليس الغواني للجفافة ولا الذي له عن تقاضى دينهن هموم
ولكنما يستنجز الوعد تابعٌ مُنَاهُنَّ حَلَّافٌ لهن أثيم
وما جُعِلَتْ ألبابهن لذي الغنى فيئأس من ألبابهن عديم^(٢)

ويرى علقمه بن عبدة ، وامرؤ القيس ، والأعشى ، وعنترة ، وعبيد بن الأبرص ، والأسود بن يعفر وغيرهم من شعراء العصر الجاهلي ، ثم جرّان العود

(٢) عيون الأخبار ٤ / ٤٥ .

(١) ديوان أوس بن حجر ٩ .

النيرى وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما من شعراء العصر الإسلامى ، يرون أن الشباب والمال — وما يستتبعان من محامد طبعاً — هما وسيلة اجتذاب المرأة ونيل إعجابها . قال علقمة إنه بصير بوسائل إرضاء النساء عليم بنفسيتهن ، وإنه يرى أنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرى وعلى الشاب الفتى :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بصيرٌ بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب
يُرَدِّف ثراء المال حيث علمنه وشَرَّخُ الشبابُ عندهن عجيب (١)

وقد أعجب هذا القول أبا عمرو بن العلاء فقال : أعلم الناس بالنساء عبدة بن الطيب حيث يقول (الأبيات) (٢) .

وقال امرؤ القيس :

ويارب يوم قد أروح مُرَجَّلاً حبيباً إلى البيض الكواعب أُمَلِّسَا
يُرْعَنُ إلى صوتى إذا ما سمعنه كما ترعوى عِيْطٌ إلى صوت أَعْيَسَا
أراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقُوسَا (٣)

وقال الأعشى :

وأرى الغوانى حيث شبت هجرتنى ألا أكون لهن مثلى أمردا
إن الغوانى لا يواصلن امرأً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا (٤)

وعتب عنتره على عبلة لأنها هجرته ونكثت عهودها وهو لا يزال شاباً فى نعمة :

ألا يا عبلى ضيَّعتِ العهودا وأمسى حبلك الماضى صدودا

(١) ديوان علقمة ٣ وحامسة البحترى ٢٨٩ وعيون الأخبار ٤ / ٤٥ والعقد الفريد

٣ / ٢١٨ والفضليات ٢ / ١١٩ والشعر والشعراء ٥٩ .

(٢) العقد الفريد ٣ / ٢١٨ .

(٣) ديوان امرئ القيس ٩٨ أملى : لم ينبت شعر لحيته . عيط : نوق فتية شابة

لم تحمل . أعيس : خلل قوى على الضراب .

(٤) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ٢ / ١٣٨ .

وما زال الشباب ولا اكتهلنا
وقال عبيد :

وقد علا لمتى شيب فودعنى
وتحدث عن تبرم زوجته بشيبه فقال :

ألا عتبت على اليوم عرسى
وقد هبت بليل تشكىنى
فقلت لى كبرت ، فقلت ههنا
لقد أخلفت حيناً بعد حين
ترينى آية الإعراض منها
وفطت فى المقالة بعد لين
ومطت حاجبها أن رأتنى
كبرت وأن قد ابيضت قرونى
فقلت لها رويدك بعض عتبى
فإني لا أرى أن تزدهينى
فإن يك فاتنى أسنى شبابى
وأخفى الرأس منى كاللجين
فقد ألج الخباء على المذارى
كأن عيونهن عيون عين^(٣)
وقال الأسود بن يعفر :

لما رأت أن شيب المرء شامله
بعد الشباب وكان الشيب مسؤوما
صدت وقالت : أرى شيئاً تفرّعه
إن الشباب الذى يعلو الجراثيم^(٤)

* * *

(ب) الشيب والحب :

١ — وإذا كان من خلق المرأة — وما زال — أن تحب الشباب لأنه قوة
وفتوة وحيوية ومجلى للبطولة ، فقد تفجع الشيب على شبابهم المنصرم ، وتحسروا
على فوته ، وأسفوا لحرماتهم من لذاته .

- (١) ديوان عنتره ٥٦ . (٢) ديوان عبيد القصيدة ٥ .
(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ عرسى : زوجى . هنا : تنجى وأبعدى . اللجين :
بفتح اللام زبد أفواه الإبل . العين : البقر الوحشى .
(٤) المفضليات ٢ / ٢١٨ تفرعه : صار فى فروعه أى شعره . الجراثيم : ج جرثومة .
وهى أصل الشجرة تجمع الرياح التراب إليه ، فالشباب يعلو ويرتفع ما لا يقدر عليه الشيوخ .

قال سلامة بن جندل :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب
وَلَّى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه
أودى الشباب الذى مجد عواقبه
وقال علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيب^(٢)

٢ — وصرح بعضهم بأن الشيب لا يلائم الحب ، فقد عجب النابغة من أن
يلحق بحب وقد وخط الشيب رأسه :

علقت بذكر المالكية بعد ما
وقال عبدة بن الطبيب :

فعدّ عنها ولا تشغلك عن عمل
وقال الأعشى :

وإن أخاك الذى تعلمين
تبدل بعد الصبا حلمه
وقال أوس بن حجر :

صَبَوْتَ وهل تصبو ورأسك أشيب
وقال الشمر دل بن ضرار الضبي :

الآن لما علاك المشيب
وأبصرت فى العارضين القتيروا
وبان الشباب بلذاته
فولى وأصبحت شيخا كبيرا

(١) ديوان سلامة بن جندل ٧ وشعراء النصرانية ٤٨٧ : اليعاقبة يعقوب ذكر القبح
وقيل ذوات العقب والبقاء من الخيل .

(٢) العمدة ١ / ٣١ والمفضليات ٢ / ١٩١ .

(٣) ديوان النابغة ٣٩ . (٤) حماسة البجترى ٣١٣ والمفضليات ١ / ١٣٤ .

(٥) معجم البلدان ٣ / ١١٢ وشعراء النصرانية ٣٨١ . الجفار : موضع بنجد .

(٦) ديوان أوس بن حجر ١ .

تَطَرَّبْتَ واحتجت للغانيات
وقال النابغة الذبياني :

عنى حين عاتبت المشيب على الصبا
وقال حسان :

وكيف لا ينسى التصابي بعدما
وقد بان ما يأتى من الأمروا كتست

٣ — ولكن الشعراء عوضوا هذا الحرمان بشيئين : حديث عن صبواتهم
فى شبابهم ، ودفاع عن شيبهم .

يمثل النوع الأول عروة بن الورد فى قوله :

ويدعوننى كهلا وقد عشت حقبة
وامروء القيس فى قوله :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى
كذبت لقد أضبي على المرء عرسه

ويمثل النوع الثانى شعراء اعتذروا عن شبابهم بأن تتابع الأيام لا بد أن
يشيب ، وكلّهم يندرون الحسان بأنهن سيشبن أيضاً وييس عودهن فلا يستبين
رجلا ، أو بأن حوادث الأيام والمخاطرات والمغامرات هى التى شبيت رءوسهم على
صغر أسنانهم ، فهذا نفاخ لهم .
قال الأعشى :

وقد قالت قتيلة إذ رأتى
أراك كبرت واستحدثت خلقا

وقد لا تعدم الحسناء ذاما
وودعت الكواعب والمداما

(١) حماسة البحترى ٣١٥ . (٢) ديوان النابغة ٤٩ .

(٣) ديوان حسان ١٢ .

(٤) ديوان عروة ٢١ وشعراء النصرانية ٩١٣ وفى حماسة البحترى ٣٠٨ أن القائل
مسعود بن مصاد الكلبي .

(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٩ يزن بها : يتهم .

فإن تك لِمَتِي يَا قَتْلُ أَصَحْتَ كَأَن عَلَى مَفَارِقِهَا ثَغَامَا
وَأَقْصَرُ بَاطِلِي وَصَحَوْتُ حَتَّى كَأَن لَمْ أَجِرْ فِي دَدَنٍ غَلَامَا
فَإِنَّ دَوَائِرَ الْأَيَّامِ يَفْنَى تَتَابَعُ وَقَعَهَا الذَّكْرُ الْحُسَامَا^(١)
وقال عروة بن الورد :

وَيَدْعُونِي كَهَلَا وَقَدْ عَشْتُ حَقْبَةً وَهَنَ عَنِ الْأَزْوَاجِ نَحْوِي نَوَازِعِ
فَمَا شَابَ رَأْسُ مَنْ سَفِينٍ تَتَابَعَتْ طَوَالَ وَلَكِنْ شَمِيتَهُ الْوَقَائِعِ^(٢)
وقال يزيد بن عبد المدان :

فَإِنَّ تَكْ صَدَّتْ عَنْ هَوَاهَا فِرَاعِهَا نَوَازِلَ أَحَادِثَ وَشَيْبَ مَجَلَلِ
فَيَارِبْ خَيْلٍ قَدْ هَدَيْتَ بِشَطْبَةٍ يِعَارِضُهَا عَيْلُ الْجَرَادَةِ هَيْكَلِ^(٣)

نموذج الجمال بعد العصر الجاهلي

صورت نموذج الجمال من شعر العصر الجاهلي ، وأرى أن أعقبه بتصوير نموذج الجمال من شعر العصر الإسلامي ، وسيتبين أن النموذج لم يتغير ، وأن الفطرة التي رسمت النموذج الأول هي الفطرة نفسها التي رسمت الثاني ، وسيتبين أيضاً أن المرأة الجميلة في الإسلام — وقد تحضرت — لم ترد على المرأة في الجاهلية ، وقد آثرت أن أكثر من الاستدلال بشعر عمر بن أبي ربيعة لأنه أستاذ عصره في البصر بجمال النساء ، قال فيه النُّصَيْبُ : « لَعُمْرُ بِنِ أَبِي رِبِيعَةَ أَوْصَفْنَا لِرَبَاتِ الْحِجَالِ »^(٤) ، وقال فيه جرير : « إِنْ أَنْسَبَ النَّاسُ الْحَزْوَ مِي ، يَعْنِي عُمَرُ بِنِ أَبِي رِبِيعَةَ »^(٥) وقال فيه عبد الله بن مصعب : « إِنْ لَشَعْرُهُ لَمَوْقِعًا مِّنَ الْقَلْبِ وَمَدْخَلًا لَطِيفًا ، وَلَوْ كَانَ شَعْرُ يَسْحَرُ لَكَانَ هُوَ »^(٦) .

(١) ديوان الأعشى ١٣٤ وشعرا. النصرانية ٣٨٦ الثغام : شجر له نور أبيض . ددن : لهو .

(٢) ديوان عروة ٢١ وشعراء النصرانية ٩١٢ .

(٣) شعراء النصرانية ٨٧ شطبة : سيف . عيل : هيكل : ضخمة .

(٤) الأغاني ١ / ٧٤ . (٥) الأغاني ١ / ٧٦ .

(٦) الأغاني ١ / ٧٨ .

١ — الجسد عامة :

ممتليء ريان ، نحيل العظام ، ضامر الخصر ، قال عمر :

مَمْكُورَةٌ رَدْعُ الْعَبِيرِ بِهَا جَمَّ الْعِظَامُ لَطِيفَةُ الْخَصْرِ ^(١)

وقال :

خَدَجَتْهُ إِذَا انْصَرَفَتْ رَأَيْتُ وَشَاحَهَا قَلَقًا ^(٢)

ومثله في ذلك المرار بن منقذ :

فَهِيَ هَيْفَاءُ هَضِيمٍ كَشَحَهَا خَمَّةٌ حَيْثُ يُشَدُّ الْمُؤْتَزَرُ

وَإِذَا تَمْشَى إِلَى جَارِئِهَا لَمْ تَكُ تَبْلُغُ حَتَّى تَنْبَهَرَ

دَفَعَتْ رَبْلَتَهَا رَبْلَتَهَا وَتَهَادَتْ مِثْلَ مِيلِ الْمُنْقَعِرِ

وَهِيَ بَدَاءٌ إِذَا مَا أَقْبَلَتْ ضَخْمَةُ الْجَسْمِ رَدَّاحٌ هَيْدَكُرٌ ^(٣)

وساقها ممتلئة ، قال عمر :

وَسَاقًا تَمْلَأُ الْخُلُخَا لَ فِيهِ تَرَاهُ مَخْتَفًا ^(٤)

وقال المرار بن منقذ :

يَضْرِبُ السَّبْعُونَ فِي خُلُخَالِهَا فَإِذَا مَا أَكْرَهَتْهُ يَنْكَسِرُ ^(٥)

والتفت معن بن أوس إلى كفلها وكعبها وساقها أيضاً :

لَهَا كَفْلٌ رَابٍ وَسَاقٌ عَمِيمَةٌ وَكَعْبٌ عَلَاهُ اللَّحْمُ لَيْسَ لَهُ حِجْمٌ ^(٦)

وجمع ذو الرمة كثيراً من أوصاف جسدها التي تتفق مع ذوق من قبله في قوله :

(١) الأغاني ١ / ١٩٤ مذكورة : ممتلئة الساقين مدحجة الخلق . ردع : أثر . جم لعل

أصلها جاء . (٢) الأغاني ١ / ١٠٤ .

(٣) الفضليات ١ / ٨٨ الربالة : اللحمة في باطن الفخذ . المنقعر : المنقلع ويريد النخلة .

بداء : بعيدة ما بين الفخذين مع كثرة لحم . رداح : عظيمة . هيدكر : شابة ممتلئة حسنة الدل

(٤) الأغاني ١ / ١٠٤ . (٥) الفضليات ١ / ٨٩ السبعون : المراد

سبعون مثقالاً .

(٦) ديوان معن بن أوس ٣ .

عجـزاء مـمـكـورة مـمـصـانةٌ قـلـيقٌ عنها الوشاح وتم الجسم والقصب (١)

والتفت نابغة بنى شيبان إلى عكن بطنها :

وأعظمها مبتلة رِواءٌ وذو عكن وإن طعمت خضيد (٢)

وصور المتنبي قوامها بأنه غصن ، وكفلها بأنه كشيبي :

أذا الغصن أم ذا الدَّعْصُ أم أنت فتنة

وذيا الذي قَدَّلتُهُ البرق أم ثغر ؟ (٣)

هذه اللوحة إلى الجسد عامة توضح أن نموذج الجمال الذي رسمه شعراء الجاهلية

ما زال حياً جذاباً .

وسيزداد هذا وضوحاً من لمحة إلى الأعضاء تفصيلاً .

٢ — الشعر :

أعجبوا بالشعر الكثيف الأسود الطويل قال عمر بن أبي ربيعة وهو يوازن

بين حبيبتيه والغزال :

وأناك غير أفرع وهي تدلى على المتنين أسحم قد كساها (٤)

وقال المرار بن منقذ :

راقه منها بياض ناصع يُؤنق العين ، وصاف مسبكر

تهلك المدرة في أفئذانه فإذا ما أرسلته ينعفر (٥)

وشبهه معن بن أوس شعرها بالكرم :

ووحف يثني في العقاص كأنه عليها إذا دنت غداؤها كرم (٦)

٣ — العين :

ما زال إعجابهم بالخور ، قال عمر :

(١) ديوان ذو الرمة ٤ .

(٢) ديوان نابغة بنى شيبان ٣٢ .

(٣) الأغاني ١/ ١٩٩ .

(٤) ديوان معن بن أوس ٣ .

(٥) ديوان المتنبي ١/ ٣٣٤ .

(٦) المفضليات ١/ ٨٨ .

- أحور المقلة كالبدر إذا قُـلـد الدّر فقلبي مُـمـتـحـن (١)
 وشبه المرار بن منقذ عينا بعين الغزال :
 ولها عينا خذول مُحْرِف تعلق الضال وأفنان السمر (٢)
 وشبهها معن بن أوس بعين البقرة :
 سبتني بعيني جوذر بخميـلة وجيد كجيد الرئم زينه النظم (٣)
 وشبه المتنبي أثر النظرة بالسيف :
 رأين التي للسحر في لحظاتها سيوف طُـبـأـها من دى أبداً حمر (٤)
 ٤ — العنق :

- استملحوا طوله ، وامتلأه في استدارة ، وقد عبر عمر عن طوله بكناية لطيفة
 هي أن مسقط قرطها طويل :
 بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم (٥)
 ووصفه المرار بن منقذ بالطول :
 صلتة الخلد طويل جيدها ناهد انثدى ولما ينكسر (٦)
 ووصفه معن بن أوس بالطول والاستدارة والامتلاء (٧) .
 ٥ — الأسنان :

- بيض غر تشبه الأفحوان ، قال نابغة بني شيبان :
 وتبسم عن غر رواء كأنها أقح برّيانٍ من الروض مشرق (٨)

- (١) الأغاني ١ / ٥٧ .
 (٢) المفضليات ١ / ٨٨ خذول : تدع القطيع وتتخلف على ولدها . مُحْرِف : دخلت في الحريف . تعلق : تأخذ .
 (٣) ديوان معن بن أوس ٤ .
 (٤) ديوان المتنبي ١ / ٣٣٤ .
 (٥) الأغاني ١ / ١٢٧ .
 (٦) المفضليات ١ / ٨٨ .
 (٧) ديوان معن بن أوس ١٧ .
 (٨) ديوان نابغة بني شيبان ٢

وكذلك شبهها عمر :

وتبدت ثم أبدت واضح اللون تبيضاً
وعذاب الطعم مغراً كأقاحي الرمل يبيضاً^(١)

ووصفها المرار بن منقذ بأنها مؤشرة :

وإذا تضحك أبدى ضحكها أقحواناً قيدته ذا أشر^(٢)

٦ — الريق

قالوا إنه كالعسل المبرد بالثلج ، قال المرار بن منقذ :

وإذا تضحك أبدى ضحكها أقحواناً قيدته ذا أشر
لو تطعمت به شبهته عسلاً شيب به ثلج خصر^(٣)

وهو في ذق عمر مشوب بالخمير :

وكان فاهها بعد ما رقدت تجرى عليه سلافة الخمر^(٤)

أو مشوب بمسك وماء بارد :

من يسق بعد المنام ريقها يسق بماء مسك وبارد خصر^(٥)

وهو في مذاق النابغة الشيباني مشوب برضاب المسك والكافور والراح :

كان رضاب المسك فوق لثاتها كافور داري وراحا تصفق

حمته من الصادي فليس تنيله وإن مات ، ماغنى الحمام المطوق^(٦)

وفي مذاق جران العود مشوب بخمر قوية التأثير :

كان ثناياها العذاب وريقها ونشوة فيها خالطهن قرقف^(٧)

(١) الأغاني ١ / ١٧٨ نجيز : بض ممتلىء .

(٢) الفضليات ١ / ٨٧ قيدته ضربت فيه بإبرة ثم أسفته دخان شحم .

(٣) الفضليات ١ / ٨٨ .

(٤) الأغاني ١ / ١٩٤ . (٥) الأغاني ١ / ١٧٠ .

(٦) ديوان نابغة بن شيبان ٢ .

(٧) ديوان جران العود ١٥ قرقف : خمر شديد التأثير .

وكذلك في ذوق المتنبي :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر
بفني برؤد وهو في كبدي جمر^(١)

٧ — الشدى :

وصفه المرار بن منقذ بأنه ناهد ، قاعد غير متدلّ ، وغير محدد الطرف ، فهو يشبه أنف الطي الأخنس ، وهو يرفع درعها عن صدرها الريان :

صلتة الخد طويل جيدها ناهد الشدى ولما ينكسر
مثل أنف الرّم يُنبى درعها في لبانٍ بادف غير قفر^(٢)

وبرع عمر غاية البراعة في تصوير هذا المنظر الفائق ، منظر الشدين الفاهدين يرفعان القميص من الأمام عن الصدر فلا يمسسه ، بينما يرفع الردفان القميص عن الظهر فلا يمسسه :

أبت الروادف والشدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

٨ — اللون :

وصفه الإسلاميون كما وصفه الجاهليون بالبياض ، وبأنه مشوب بصفرة ، قال ذو الرمة :

كحلأ في برّج صفراء في نعب
كانها فضة قد مسها ذهب^(٣)

وقال الفرزدق :

خرجن إلى لم يطمئن قبلى
وهن أصبح من بيض النعام^(٤)

٩ — الحديث :

راقتهم حلاوته ، فشبهوه كسابقيهم بالعسل وبالغلب ، قال جرّان النخري :

(١) ديوان المتنبي ١ / ٣٣٤ .

(٢) المفضليات ١ / ٨٨ ينبي : يرفع . قفر : قليل اللحم .

(٣) ديوان ذو الرمة ٥ .

(٤) ديوان الفرزدق ٢ / ٨٣٦ وشرح المعلقات السبع للزورني ١٥ .

ينازعنا لذا رخيا كأنه
رقيق الحواشي لو تسمع راهب
عَوَائِرُ من قَطْرَ حَدَاهِنِ صَيِّفٍ
بُطْنَانٌ قَوْلًا مثله ظل يرجف^(١)
وقال الفرزدق :

إذا هن ساقطن الحديث كأنه
جنى النحل أو أبارك كرم يقطف^(٢)

١٠ — المشية :

أعجبوا بالمشية المتأنية ، المتبخترة ، فشبهها عمر بن أبي ربيعة بمشية المهابة :
بيضا حسانا خرائدا قُطُفًا يمشين هونا كمشية البقر^(٣)
وشبه المرار بن منقذ مشيتها بمشية القطاة :

قُطُفُ المشى قريبات الخطا بُدْنَا مثل الغمام المزخر
يتزاورن كتقطاء القطا وطعن العيش حلوا غير مر^(٤)

١١ — وصوروها مبغضة للشيب أيضا ، وليسوا مقلدين لسابقيهم وإنما هم

يقررون حقيقة واقعة ، قال المرار بن منقذ :

عجب خولة إذ تنكرني أم رأت خولة شيئا قد كبر
وكساه الدهر سببا ناصعا وتحنى الظهر منه فأطُر
إن ترى شيبا فإني ماجد ذو بلاء حسن غير غمر
ما أنا اليوم على شيء مضى يا بنة القوم تولى بحسر
ثم أخذ يعدد مفاخره ولذاته الماضية^(٥) .

وقال عمر بن أبي ربيعة :

(١) ديوان جرار العود ٢١ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢ / ٥٥٢ . (٣) الأغاني ١ / ١٠٣ .

(٤) الفضليات ١ / ٨٧ تقطاء : من القطو وهو تقارب الخطو .

(٥) الفضليات ١ / ٨٠ سبا : خارا وعماته والمراد شيبا . أطر انحنى . غمر :

صرمت حبلك البعومُ وصدت عنك في غير ريبة أسماء
والغواني إذا رأيته كهلًا كان فيهن عن هواك التواء^(١)

١٢ — وصوروها ملولا متقلبة كما صورها الجاهليون ، قال عمر :

أسكن ما ماء الفرات وطيبه منى على ظمأً وفقد شراب
بألد منك وإن نأيت وقلمها ترعى النساء أمانة الغياب^(٢)
وقال مجنون ليلى :

وَمَنِّيَتْنِي حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتَنِي عَلَى شَرْفٍ لِلنَّظَارِينَ يُرِيبُ
صَدَدْتُ وَأَشْمَتُ الْعَدُوَّ بِصَرْمِنَا أَثَابَكَ يَا لَيْلِ الْجَزَاءِ مَثِيبُ^(٣)
وقال :

وتحسب ليلى أنى إذ هجرتها حذار الأعادى إنما بي هونها
ولكن ليلى لا تفي بأمانة فتحسب ليلى أنى سأخونها^(٤)

١٣ — وصوروها معجبة بالبطل العظيم ، الماجد الكريم ، عزوفاً عن الثميل
الأحمق البخيل :

ولن يستهيم الخردّ البيض كالدمى هِدَانٌ وَلَا هَلْبَاجَةٌ اللَّيْلِ مُقْرِفٌ
وَلَا جَبِلٌ تَرْعِيَةٌ أَحْبَنُ النَّسَا أَعْمُ الْقَمَا ضَخْمُ الْمِرَاوَةِ أَغْضَفُ
حَلِيفٌ لَوْطَابِي عُلبَةٌ بِقَرِيَّةٍ عَظِيمُ سَوَادِ الشَّخْصِ وَالْعُودِ أَجُوفُ
ولكن رفيق بالصبا مُتَبَطِّرُقٌ خَفِيفٌ ذَفِيفٌ سَابِغُ الذَّيْلِ أَهْيَفُ^(٥)

(١) الأغاني ١ / ١٦٤ . (٢) الأغاني ١ / ١٦٢ .

(٣) الأغاني ٢ / ٦٤ . (٤) جمهرة الأمثال لأبي هلال ١٦٩ .

(٥) ديوان جرّان العود ٢٣ هِدَانٌ : ثَقِيلٌ أَحْمَقٌ . جَبِلٌ : غَلِيظٌ . تَرْعِيَةٌ : مُنْصَرَفٌ إِلَى الْمَالِ وَالْأَنْعَامِ . النَّسَا : عِرْقٌ فِي الْفَخْذِ . أَحْبَنُ : مُصَابٌ بِدَاءِ الْحَبَنِ يَكْبُرُ مِنْهُ الْبَطْنُ . أَغْضَفُ : طَوِيلُ الْأُذُنِ فِي اسْتِرْخَاءٍ . مُتَبَطِّرُقٌ : لَيْسَتْ فِي الْمَعَاجِمِ وَلَعَلَّهَا مِنْ بَطْرِيقٍ وَهُوَ الْوَضِيءُ الْمَعْجَبُ . ذَفِيفٌ : سَرِيعٌ . أَهْيَفُ : خَمْصَانُ الْبَطْنِ لَيْسَ بِثَقِيلٍ الْجَسَمِ .

١٤ — وصوروها بخيلة ممنعة ، قال جميل :

ويقلن إنك يابسين بخيلة نفسى فداؤك من ضنين باخل^(١)
ومخلفة للوعد ، قال جميل :

ما أنت والوعد الذى تعدينى إلا كبرق سحابة لم تمطر^(٢)
وقال ابن الرومى :

يا سائلى بالغوانى من صبايته سائل بهن فقد صادفت وصافا
هن اللواتى إذا لاقيتهن ضحا لاقيت صدا وإسرافاً وإخطافا
أرضيننا حسن قد زانه بشره صاف وأسخطننا مطلاً وإخلاقا^(٣)

(٢) الأغاني ٨ / ١٠٢ الدار .

(١) الأغاني ٨ / ١٠١ الدار .

(٣) ديوان ابن الرومى ٢١٥ .

الفصل الثالث

تجمل المرأة في نظر الشاعر

هل من الطبيعي أن تستغنى المرأة الحسناء بجمالها الموهوب فلا تزينه وتنمقه بجمال آخر محبوب ؟

وهل من الطبيعي أن تَرْضَى بحظها المرأة التي حُرِمَتْ بعض الصبابة والملاحة ، فلا تَزِينُ وتتجمل لتستعويض ما فقدته ؟

ليس هذا ولا ذاك بطبيعي ؛ لأن التجمل يكاد يكون طبيعة من طبائع المرأة ، سواء في ذلك الحسناء وغير الحسناء ، وسواء في ذلك المتحضرة والمتبدية . وسنرى أن هدف المرأة من تجملها أن تحقق نموذج الجمال الذي صورته الشعراء ، في نطاق الاتساق والانسجام والتآلف ، حتى ليلتبس الجمال المطبوع بالتجمل المصنوع .

ويحسن أن أهدد للتجمل بكلمة في ملابس المرأة ، لأنها المظهر العام لها ، ولأنها نوع من التجمل أيضاً .

ملابسها

(١) الحجاب :

كانت بعض النساء محجبات ، وليس من موضوعي هذا أن أفصل القول في السفور والحجاب ، وحسبي أن أشير إليه بلمحة ، لأنه وثيق الصلة بالحلي والملابس وغيرهما مما تجملت به المرأة لتفتن الرجال .

ومما يدل على تحجب بعضهن قول عدى بن زيد :

يسارقن م الأســـــــــــــــــمار طَرْفًا مُفَتَّرًا

وَيُزْرَنَ مِنْ فَتَقِ الْخُدُورِ الْأَصَابِعَا^(١)

وقول المهمل في رثاء أخيه كليب :

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبأة الخدور^(٢)

ولقد يكتفين بالقناع ، يدل على ذلك قول الشنفرى :

فقد أعجبتنى لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت^(٣)

وقولهم في أمثالهم « إِنْ الْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْحِمْرَةَ » أى لا تحتاج إلى تعليم الاختمار ، يضربون ذلك مثلاً للرجل الجرب^(٤) .

وقد روى فى سبب اعتقال عبد الله بن علقمة بصاحبه حبيش أنه نزل ضيفاً عند آلها فأجلسوه فى متحدّث لهم ، فخرجت حبيش وعلى وجهها سب أخضر ، فوقفت تحلب ناقة وهو ينظر ، فضرب الهواء السب فكشف عن وجهها ويديها^(٥) وقد أتت هند بنت عتبة إلى النبی صلى الله عليه وسلم بالأبطح متنقبة وأعلنت إسلامها ، ثم كشفت عن نقابها ، وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال الرسول مرحباً بك^(٦) .

ويدل على ذلك أيضاً قول أم عود بنت وقدان تحرض على الثأر :

إِنْ أَتَمَّ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمْ فَذَرُوا السِّلَاحَ وَوَحِّشُوا بِالْأَبْرِقِ

وخذوا المكاحل والجاسد والبسوا نَقَبَ النِّسَاءِ فَبُئْسَ رَهْطُ الْمَرْهَقِ^(٧)

وكان هذا الحجاب شائعاً عند الأثينيين القدماء ، ثم انتشر فى الدولة البيزنطية ،

(١) الأغاني ٢ / ١٥٠ . (٢) الأملى ٢ / ١٣٢ .

(٣) الأغاني ٢١ / ٩٠ .

(٤) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٣٩ وجمع الأمثال للميدانى ١ / ١٧ العوان : الثيب

أو بنت الثئين .

(٥) تزيين الأسواق ٨١ . (٦) السيرة الحلبية ٣ / ١١٠ و ١١١ .

(٧) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٤ / ٥٥ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش

بالأرض التى بها حجارة ورمل . المرهق : المضيق عليه .

وكان شائعاً أيضاً عند الفرس القدماء وعند الهندوس حتى في عصر المهابرات^(١) ، وقد أشار إليه هو ميروس بقوله على لسان هكتور : « لست أرى العار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب » . ومن هذا ومن ذكر قناع إيقاب وبرقع هيلانة ، وبرقع النساء والربّات نرى أن اليونانيات استعملن النقاب^(٢) .

فهو — على معنى أنه ستر للعودة ، أو أنه كالحمار ونحوه — قديم ، شاع قبل النصرانية ولم تغير منه شيئاً ، وظل معروفاً في أوروبا إلى القرون الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية هناك ، أما المبالغة فيه وحبس النساء ، فقد نشأ من سوء الظن المتبادل بعد الترف وكثرة الجوارى وفساد الأخلاق^(٣) .

(ب) السفور :

وكان بعضهن لا يحتمرن ، فثلا نساء الأنصار لم يتخذن الخمر إلا لما نزل قوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن^(٤) » وقد نزلت الآية الكريمة « يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذينَ وكان الله غفور رحيم » ، وأورد الطبري في تفسيرها : قل لهن لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذهبن خرجن من بيوتهن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن ، ولكن ليدين عليهن من جلابيهن ، لئلا يعرض لهن فاسق إذا علم أنه حرّاء بأذى من قول . واختلف في الإذناء الذي أمر الله به ، فقال بعضهم هو أن يغطين رؤوسهن ووجوههن فلا يبدن إلا عيناً واحدة ، وقال بعضهم بل يشددن جلابيهن على جباههن . وروى عن ابن عباس أن الحرّة كانت تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيهن ، وإذناء الجلباب أن تتقنع وتشد جبينها ، وروى عن مجاهد أن المراد أن يتجلبن

(١) مركز المرأة في الإسلام للسيد الأمير على الهندي ٢٤ .

(٢) الإلياذة ترجمة البستاني ٤٧٥ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي جرجي زيدان ٥ / ٧٧ .

(٤) المرأة العربية — عبد الله عفيفي ٦٩ / ٢ .

فيعلم أنهم حرّاء . وعن قتادة أن المراد أن يقنعن على الحواجب ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يُؤذِنَ ، لأن المملوكة كانت إذا مرّت تناولوها بالإيذاء ، فنهى الله الحرّاء أن يتشبهن بالإماء ^(١) .

والذي أسنتجه من ذلك أن بعض العربيات كن قبل نزول الآية الكريمة ، سوافر على أى نوع من أنواع السفور .

وقد نهى الله تعالى نساء النبي عن تبرج الجاهلية الأولى « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ، واختلف في الجاهلية الأولى ، ف قيل ما بين عيسى ومحمد ، وقيل ما قبيل الإسلام ، وقيل غير ذلك ^(٢) ، وقيل ليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى وجاهلية أولى بل هي أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، والمراد تبرج الجاهلية القديمة ^(٣) .

وقد فهمت بعض المسلمات أن الأمر خاص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فظللن على سفورهن كسكينة بنت الحسين ^(٤) .

ولم يكن السفور عاماً كما لم يكن الحجاب عاماً ، يدل على ذلك أن السفور كان في بعض الأحوال مقصوراً على حالات الحزن والرعب .

يقول مهمل في رثاء كليب :

كنا نغار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجة عن الأوطان
مخرجن حين ثوى كليب حُسرًا مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذ حان مصرعه من الأكفان
يخْمِشْنَ من أدم الوجوه حواسرا من بعده ويعِدْنَ بالأزمان ^(٥)

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٣٣ وتفسير النيسابوي ٢٢ / ٣٢ وتفسير الرازي ٥ / ٢٤٩

(٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤ وتفسير النيسابوري ٢٢ / ١٠ .

(٣) النيسابوري ٢٢ / ١٠ وبلوغ الأرب ١ / ١٩ — ٢٠ .

(٤) الأغاني ١٤ / ١٥٩ و ١٠ / ٥١ .

(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١ / ١٨٩ .

وقال أيضاً :

وإذا تشاء رأيت وجهاً وانحماً
وذراعاً باكية عليها بُرُنْسُ
تبكي عليك ولست لأتم حرّة
تأسى عليك بعبرة وتنفس^(١)

ويذكر الربيع بن زياد مثل ذلك^(٢) .

ويشير طرفه إلى الكشف عن السوق حين الهول والفرع من الحرب والتأهب
للفرار ، وهن يفعلن ذلك خشية السبي فيسفرن ليظنّ أنهن إماء :

يوم تُبدى البيض عن أسوقها
وتلف الخيل أعراج النعم^(٣)

وقال عوف بن عطية بن الخرع التيمي :

ولنعم فتيان الصباح لقيتم
وإذا النساء حواسر كالعنقر
من كل واحة الخمار وأختها
تسعى ومنطقها مكان المنزر^(٤)

وأشار إلى ذلك الحارث بن عباد في قوله :

قرباً مربوط النعامة منى
سوف تبدو لنا ذوات الحجال
ولقد تسفر المرأة في الأعياد والأفراح والمناسبات البهجة ، كأن تحتفل قبيلة
بنبوغ شاعر أو قدوم قائد ، وقد راب عنتره أن احتجبت منه عبلة يوم مآبه من
حرب داحس والغبراء ، فقال :

إن تغدني دوني القناع فإني
طبّ بأخذ الفارس المستلّم^(٥)

ولقد تسفر الحسان إداًلاًّ بحسنهن ، أو جرياً على عرف في قبائلهن ، قال
المسيب بن علس :

أرحلت من سلمى بغير متاع
قبل العطاس ورعتها بوداع

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢ / ١٩٧ وأخبار المراقسة للسندوبي ٥٦ .

(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣ - ٢٦ .

(٣) ديوان طرفه ١٠٤ والأغاني ٥ / ٤٤ . وشعراء النصرانية ٣١٤ - أعراج :

جمع عرج مابين الحسين والمائة إلى المائتين من الأبل .

(٤) الفضليات ٢ / ١٢٧ : العنقر : أصول القصب والبقل والبردى مادام أبيض

(٥) ديوان عنتره ١٤٨ .

إذ تستبيك بأصْلَتِي ناعم قامت لتفتنه بغير قناع^(١)

وقال الشنفرى :

عَفَاهِيَةٌ لَا تَقْصِر السَّيْرَ دُونَهَا وَلَا تَرْجِي لِلْبَيْتِ إِنْ لَمْ يَبَيْتْ^(٢)

وقد ذكر الأصمى أن المرأة قد تلقى خمارها لحسنها وهى على عفة ، وأنشد بيتاً لأبى النجم^(٣) :

وذكر الجاحظ أن الحجاب لم يكن فى الجاهلية ، وأن شريفات النساء خالطن الرجال فى الجاهلية والإسلام^(٤) .

ولم يكن حرج فى أن تغشى المرأة مجامع الرجال وتخطب أو تشعر ، أو تحرض على القتال ، أو تقاتل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها ، فأدعها إلى فرصة أخرى .

وبحسبى أن أذكر أن حليلة ضمخت مائة من فرسان أبيها لتحمسهم على الاستبسال^(٥) . وأن الخنساء أنشدت النابغة شعراً فى سوق عكاظ^(٦) ، وأنها هى وهند بنت عتبة تعاظمتا فى عكاظ بمصبيتيهما^(٧) .

وجاء الإسلام فأبقى على نوع من السفور الذى لا تظهر فيه مواضع الزينة « ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها » والمراد بما ظهر منها ما لا سبيل إلى إخفائه عند معاناة العمل ، كالخواتم والثياب وكحاسن الوجه ، وجمال الشكل ، فإن فى ستر كل ذلك حرجاً^(٨) .

(٣) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ والمفضليات ١ / ٥٨ .

(٢) الأغاني ٢١ / ٩١ عفاهية : ضخمة .

(٣) شرح المفضليات لابن الأنبارى ١ / ١٢٠ .

(٤) رسالة القيان للجاحظ من مجموعة رسائل للجاحظ ٥٦ .

(٥) مجمع الأمثال للميداني ٢ / ١٥٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ١١ .

(٦) مقدمة أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء للأب لويس شيخو .

(٧) الأغاني ٤ / ٣٤ .

(٨) تفسير البيضاوى ٤٦٧ طبعة الآستانة .

(ج) أنواع ملابسها

لبست المرأة العربية ضروباً من الثياب مختلفة فنونها وألوانها مما أخرجته مناسج اليمن ، و عُمان والبحرين والشام والعراق ، وما اجتمعت من بلاد فارس والهند ^(١) ، ومصر .

وتنوعت مادتها ، فكان منها الحرير بأصنافه : ديباج ودمقس وسندس وإستبرق ، وكان منها الخز ، والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباهها ^(٢) .
وأ أنواعها عدة ، يهمنها ما أكثر الشعراء من ذكره .

(١) غطاء الرأس والوجه :

١ - الخمار :

هو كالقناع ، كل منهما شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، ويظهر أن الأصل أن يكون على الرأس ، ثم تسدل المرأة بعضه على جزء من الوجه ، إذا احتاجت إلى ذلك ، قال البحترى :

عَجَلْتُ إِلَى فَضْلِ الْقِنَاعِ فَاثَرْتُ عَذَابُهُ بِمَوَاضِعِ التَّقْيِيلِ
وقد ذكره عنتره في قوله لعبلة :

إِنْ تُغْدِ فِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي طَبَّ بِأَخَذِ الْفَارَسِ الْمُسْتَلَمِ ^(٣)
وذكره عمرو بن الورد :

فِرَاشِي فِرَاشِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ بَيْتَهُ وَلَمْ يُيْلَنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعٌ ^(٤)

(١) المرأة العربية لعبد الله عفيفي ١ / ١١٠ .

(٢) الدمقس : الديباج أو القز . السندس : ضرب من الديباج الرقيق . الاستبرق : الديباج الغليظ أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب صفاق من حرير . الخز : ويرداه كالأرنب تسمى بذلك ، وو بر من الأرنب يحتلب من شمالي العراق .

(٣) ديوان عنتره ١٤٨ .

(٤) شعراء النصرانية ٩١٣ .

ومن أسمائه النصيف ^(١) قال النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد ^(٢)

وقال ثعلبة بن صُعَيْر في وصف النعامه :

قَبِئَتْ عليه مع الظلام خبائها كالأَحْمَسِيَّة في النصيف الحاسر ^(٣)

ومن أسمائه النقب ، ويسمى الجزء الذي يستر الفم منه اللثام ، والجزء الذي على الأنف اللفام ^(٤) قال قيس بن الحداية :

نشرت على فيها اللثام وأعرضت

وأمعن بالكحل السَّحِيق المدامع ^(٥)

٢ — والبُخْنُقُ : البرقع الصغير أو قطعة من نسيج توضع تحت الخمار لتقيه من الدهن ولتقى الدهن من الغبار ^(٦) ، قال عنتره :

فخر الرجال سلاسل وقيود وكذا النساء بَخَانِقٍ وعقود ^(٧)

(ب) ما على الجسد :

١ — الرَّيْطَةُ :

هي كل ملأه غير ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، أو كل ثوب لين رقيق ^(٨) قال سلمى بن ربيعة يذكر لذاته :

والبيضَ يَرْفُلُنْ كالدَّحَى في الرَّيْطِ والمُذْهَبِ المصون ^(٩)

(١) النصيف : الخمار (القاموس المحيط) .

(٢) ديوان النابغة ٢٩ .

(٣) المفضليات ١ / ١٢٨ حضرت بيضا بجناحيها كالمرأة من المحس وهم قریش وخزاعة وبنو عامر وكنانة .

(٤) القاموس المحيط مادة لثم ولفم والأمالى ١ / ٤٢

(٥) الأغاني ١٣ / ٧ .

(٦) القاموس مادة بخق . (٧) ديوان عنتره ٦٤ .

(٨) القاموس المحيط مادة ريط . (٩) شرح الحماسة للتبريزي ٣ / ٨٣ ،

وقال الأعشى :

والساحبات ذبول الریط آونة والرافلات ، على أعجازها العجل^(١)

وذكر الرمق — عبيد بن سالم الخزرجي — الربطة وغيرها في مدحه لأبي

جبيلة الغسانی :

أمثال غزلان الصّرا ثم يأتزرن ويرتدينا

الريّط والديباج والزّ ردّ المضاعف والبُرينا^(٢)

وذكرها حسان في قوله :

يحملن حوّا حور المدامع في الر يّط ويبيض الوجوه كالبرد^(٣)

٢ — المرط : كساء من صوف أو خز^(٤) ولا بد أنه كان طويل الذيل ينجر

على الأرض ، قال امرؤ القيس :

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرّحل^(٥)

ويظهر من هذا النص أنه كان مزيناً بصور الرجال ، وينص على ذلك

الفيروزابادي في قوله : المرّحل رُدّ فيه تصاویر رّحل ، والمرّجل إزار من خز

فيه عَلم^(٦) .

وكرر امرؤ القيس هذا في قوله :

دخلت على بيضاء جُمّ عظامها تُعفّ بذيل المرط إذ جئت مودق^(٧)

٣ — والوصائل : ثياب يمنية مخططة^(٨) قال لبید :

(١) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهي

دولاب السقي ، يصف الشاعر إعجازهن بالضخامة .

(٢) الأغاني ١٩ / ٩٦ الصرائم : جمع صرمة وهي القطعة من معظم الرمل . الزرد

الدرع المزرودة . البرين : جمع برة وهي الخلل .

(٣) ديوان حسان ٣٣ حو : جمع حواء : ذوات شفاه حمراء ضاربات إلى السواد .

(٤) القاموس المحيط مادة مرط .

(٥) ديوان امرئ القيس ١٢٩ مرّحل : فيه صور الرجال .

(٦) القاموس المحيط مادة رّحل .

(٧) ديوان امرئ القيس ١١٩ ولسان العرب ١٢ / ٢٥١ .

(٨) القاموس المحيط مادة وصل .

غرائر أبكار عليها مهابة وعون كرام يرتدين الوصائل^(١)

٤ — البرد : ثوب موسى ، والمجسد : ثوب مصبوغ بالجسد وهو الزعفران ، قال طرفة في وصف القينة :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد

رحيب قطاب الجيب فيها رفيقة بحس الندامى بضة المتجرّد^(٢)

٥ — الصدر : شئ تلبسه على صدرها ، قال عروة بن الورد يفخر بسباياهم من طيّ :
 ترى كل بيضاء العوارض طفلة تفرى إذا شال السالك صدارها^(٣)

وكانت الحزينة تتخذ من الشعر صدارها كما فعلت الخنساء^(٤) .

٦ — الشاح : أديم عريض مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها^(٥) ، قال عنتره :

والشمس بين مضرّج ومبلّج والغصن بين مؤشّح ومقلّد^(٦)

وقال أبو على : لا يكون الشاح وشاحاً حتى يكون منظوماً بلؤلؤاً أو ودع ، وأنشد :

وتسكو الشواح الرّخو خصرأ كأنه إهان ذوى عن صفرة فهو أخلق^(٧)

٧ — السابري : ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تصدّ عن المأثور بيني وبينها وتدنى على السابري المضلّع^(٨)

٨ — المذّهب : ما جعل نسجه بخيوط من ذهب ، يقول سلمى بن ربيعة :

(١) ديوان لبيد ٢٢ .

(٢) ديوان طرفة ٢٦ . (٣) شعراء النصرانية ٩١١ نفرى : تشق .

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ٨ / ٦٧ والمحاسن والأضداد ١٤٣ .

(٥) القاموس المحيط مادة وشح .

(٦) ديوان عنتره ٦٩ الشمس : وجوه الجوارى ، مضرّج : بحر . مبلّج : نقى .

الغصن : القد . مقلّد : عليه قلادة وهى للعنق .

(٧) المنخص ٤ / ٩٨ ، (٨) ديوان امرؤ القيس ١١٣ .

والبيضُ يَرْفُلَنْ كَالدَّحَى فِي الرِّيطِ وَالْمُذْهَبِ الْمَصُونِ^(١)

٩ — الحال : ضرب من برود اليمين الموشاة ، وهو أيضا الثوب الناعم^(٢) .

١٠ — المراحل : ضرب من برود اليمين المحكم ، والممرجل : ضرب من

ثياب الوشى فيه صور المراحل ، ويقال لها المراحل أيضا ، وفي الحديث : « حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشى المراحل »^(٣) . والبرد المرحل ما فيه صور كصور الرجال^(٤) .

١١ — المطير : ضرب من البرود^(٥) . ولعلها سميت بذلك لأن بها صور بعض الطيور .

(٥) لون الملابس :

أكثر الألوان شيوعاً في وصف الشعراء اللون الأحمر ، وسيأتى في وصف الحدوج أن ستائرهما حمر كالدّم ، يمثل ذلك قول علقمة إن الجمال قد احتملت :
عَقْلًا وَرَقْمًا تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتَّبِعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجَوافِ مَدْمُومِ^(٦)
وبمثل ذلك شبهها الخطيئة^(٧) .

كذلك كان اللون الغالب على الملابس اللون الأحمر ، قال ركاض :

وَلَيْنَ السُّيُوبِ حُمْرَةً قُرْشِيَّةً زُبَيْرِيَّةً يَعْلَمَنَّ فِي لَوْنِهَا عِلْمًا^(٨)

وقال أوس بن حجر إن ملاسهن منوعة الألوان ، وواسعة :

يَلْبَسْنَ رِيْطًا وَدِيْبَاجًا وَأَكْسِيَةً شَتَّى بِهَا اللَّوْنُ إِلَّا أَنَّهَا قُورُ^(٩)

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٨٣ / ٣ . (٢) لسان العرب ١٣ / ٢٤٢ .

(٣) لسان العرب ١٣ / ٢٩١ . (٤) اللسان ١٣ / ٢٨٣ .

(٥) اللسان ٦ / ١٨٦ والقاموس المحيط مادة (طير) .

(٦) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجلل الهودج ، أو ضرب من الوشى .

الرقم : ضرب مخطط من الوشى أو الخرز أو البرود . مدموم : مطلى .

(٧) ديوان الخطيئة ٣٧ .

(٨) البيان والتبيين ٢ / ٢٨١ السيوب : شقق رفاق تتخذ منها الحمر ،

(٩) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء وهى الواسعة ،

وقد بق هذا اللون مفضلا عند العرب إلى العصر العباسي ، يدل على ذلك قول المتنبي :

مَنْ الجَادِرُ فِي زِي الأَعَارِبِ حُمْرَ الحُلَى والمَطَايَا والجَلَابِيبِ^(١)

حليها

(١) غرام النساء به :

حلى المرأة من أخص خصائصها في كل عصر ، وفي كل شعب ، تضيف به إلى جمالها جمالا ، وترهى به وتفاخر وتكثر ، وتحتلب ألباب الرجال ، وقبلما تبدو المرأة عاطلا من حلى ، وإن قيل إنها غنيت بجمالها عن حليها ، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل ، قال الشماخ :

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عَطُلاً حُسَّانَةَ الجِيدِ^(٢)

والزينة من شيات الأنثى من بنى الإنسان ، ولكنها من شيات الذكور في الحيوان ، لأن الطبيعة تزين الذكر من الطيور وغيرها بما يغرى الأنثى ويجتذبها ، أما في عالم البشر فإن الأنثى تتزين لتجتلب الذكر . « وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريية الملونة تبهرنا اليوم على المسرح ، فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثياباً يتفق لهن بها من الفتنة ما لا نبصر نظيره في عصرنا^(٣) » .

(ب) شيوعه في الأمم القديمة :

وكان الحلى شائعاً في العصور القديمة عند الأمم التي اتصل بها العرب ،

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوق ١ / ١١٤ الجاذر : جمع جَوْدَر وهو ولد البقرة الوحشية . الأعاريب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبر . يقول : إنهن متحليات بالذهب الأحمر ومتمطيات النوق الحمر ولا بسات ثيابا حمرا ، يريد أنهن من نساء الأشراف والملوك لأن الحمرة لوز ملابسهم ، والنياق الحمر أكرم النياق عند العرب .

(٢) معجم البلدان ٨ / ٥٢٥ . (٣) الحياة والحب لأميل لودفيج ٢٢ .

فالإسرائيليات كن يتأقنن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنشطف والأساور والرُّعَل والعصائب والمصاعيد والمناطق وأوانى الطيب والخواتم والأحراز وأخراس الأنوف والخلع والمعاطف والأحزمة والمرايا والأقمصة والتيجان والأزُر^(١) .

وأُسرفت المرأة الرومانية في زينتها إسرائافاً حمل كاتو على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد في نفقات زينتها ، واحتدت المناقشة بين كاتو في التريبيون وبين أحد الأعضاء من الموافقين على أن تطلق للمرأة حريتها في زينتها ، وجاء في رد العضو المعارض أن النساء لا يستطعن أن يلتحقن بالوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات ولا جنديات يحرزن النصر ، وليس لهن أشغال عامة ، فما الذى يستطعن عمله إن لم يخصن أوقتهن للزينة والملبس^(٢) ؟

وكانت المرأة المصرية تزين بالعصائب والخواتم والأساور والخللاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار والآلىء ، والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائعاً والكحل بالإثمد كذلك .

وغلا المصريون والمصريات في استعمال الشعر المستعار فجعلوه كثيفاً ثقيلاً مقصوفاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء^(٣) .

وكذلك كانت المرأة العربية حالية محتفية بجلاها ، وقد كنى القرآن الكريم عن الإثاث بأنهن منشآت في الحلية : « أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » .

(ح) أصناف الحلى :

تنوعت الحلى ، وتعددت أصنافها لكل عضو من أعضاء الزينة ، فهناك التاج والقرط والشنّف والحِبّ والخِرص والقلادة والوشاح والسوار والمعضد والدُمْلج والخاتم والخلخال الخ^(٤) .

(١) سفر أشعيا ٣ / ١٨ — ٢٣ النطف : الأقراط . الرعل : جمع إرعة وهى الإكليل من ريحان وآس .

(٢) المرأة في مختلف العصور ٢٧ — ٢٩ .

(٣) الحضارة المصرية القديمة جوستاف لوبون ٧٥ — ٧٦ .

(٤) المرأة العربية ١ / ١١٤ — ١١٦ .

وقد ساعد على كثرة الحلى أن اللؤلؤ في خليج فارس ، والمرجان في البحار المحيطة ببلاد العرب ، والتجار يقدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان بالذهب ، والفضة ، والزمرد ، والزبرجد ، والياقوت وغيرها مما في الجزيرة .

١ — فكانت حلى العنق قللأء من ذهب ، قال المثقب العبدى :

أرين محاسنا وكننَ أخرى من الأجياد والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على ترّيب كلون العاج ليس بذى غصون^(١)

وقلائء من ياقوت وشذر وجزع من اليمين ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :

تحملن ياقوتا وشذراً وصيفةً وجزعا ظفاريّاً ودراً توائماً^(٢)

وقد يكون العقد من لؤلؤ وزبرجد ، قال طرفة :

وفى الحىّ أخوى ينفُض المردّ شادين

مُظاهِر — ر سَمَطَى لؤلؤ وزبرجد^(٣)

وقد يصاغ الياقوت دقيقاً على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

غرائر فى كنّ وصىنٍ ونعمة يُحملين ياقوتا وشذراً مُفقراً^(٤)

وقد أشار إلى العقد المنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء مثل قيس

(١) الفضليات ٨٩/٢ .

(٢) الفضليات ٤٥/٢ . تلحين : لبسن الحلى . وليس فى المعاجم تعدية هذا الفعل . الشذر : اللؤلؤ أقطع صغار من الذهب . صيفة : مايصنع من الذهب ، وليست هذا الصيفة فى المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرهما الحز الزيماني ، وهو من أنفس الجواهر . ظفار : بلد باليمن . توائم : اثنين اثنين .

(٣) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه المرأة بالظبي الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرد : ثمر الأراك المدرك ، أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر : لايس ثوباً فوق آخر . سمط : خيط من لؤلؤ . شبه المرأة بالظبي فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين .

(٤) ديوان امرئ القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات : مفقر : مصوغ على شكل فقار الجرادة .

ابن الخطيم^(١) وعلقمة^(٢) والمثقب العبدى^(٣) وعترة^(٤).

وللحلى وسوسة حلوة ، لم ينسها الأعشى :

تسمع للحلى وَسْوَاسًا إِذَا انْصَرَفَتْ كما استعان بريحٍ عَشْرِقٍ زَجَلٍ^(٥)

ووصفوا الحلى بالإشراق ، قال النابغة الذبياني .

ترائبٌ يستضيء الحلى منها كجمر النار يُزرى بالظلام^(٦)

٢ — أما الأذن فلها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرها ، قال المرقش

الأكبر : إن لقرطها ذلالد جميلة :

يَهْدِلْنَ فِي الْأَذَانِ مِنْ كُلِّ مُذْهَبٍ لَهُ رَبْدٌ يَعْبَأُ بِهِ كُلٌّ وَاصِفٌ^(٧)

وقد كنوا عن طول العنق بطول مهوى القرط ، قال عبيد :

بَانَ الْخَلِيطُ الْأَلَى شَاقُوكَ إِذْ شَحَطُوا

وفى الحـ دوج مهأ أعناقها عِيطُ

ناطـوا الرعاثَ لِمَهْوَى لَوْ يَزِلُّ بِهِ

لَانْدَقَّ دُونَ تَلَاقِ اللَّبَةِ الْقُرْطُ^(٨)

وقال النابغة :

إِذَا ارْتَعَشَتْ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا وَمَنْ يَتَعَلَّقُ حَيْثُ عُلِقَ يَفْرُقُ^(٩)

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١ .

(٢) ديوان علقمة ٩ .

(٣) شعراء النصرانية ٤٠٦ .

(٤) ديوان عترة ٧٠ .

(٥) ديوان الأعشى ٤٢ عشرق : نبت له ورق يطير إذا يبس . زجل : يصوت فيه الريح

(٦) ديوان النابغة ٧٣ .

(٧) المفضليات ٢ / ٣١ . ربذ : عذبة .

(٨) ديوان عبيد بن الأبرص القصيدة ٢٢ : العيط طول العنق وهو أعيط وهى عيطاء .

والجمع عيط بكسر العين وسكون الياء وحركت الياء هنا ضرورة . ناطوا : علقوا .

(٩) ديوان النابغة ٣٩ .

وقال سيَّار الأبانى إن حلقة قرطها المشدود بأذنها حتى لا يسقط مشدودة على قرط يشبه فقر الجراداة أو فقر أمير النحل :

كَأَنَّ خُوقَ قُرْطِهَا الْمَعْقُوبَ عَلَى دَبَاةٍ أَوْ عَلَى يَعْسُوبٍ ^(١)

٣ — ومن حلى الساعد السوار وهو من ذهب ، قال النابغة :

وَأَبْدَتْ سَوَارًا عَنْ وُشُومِ كَأَنَّهَا بَقِيَّةُ أُلُوحٍ عَلَيْهِنَّ مُذْهَبٌ ^(٢)

والدمليج ما يلبس فى العضد ، قال عنتره :

وَتَحْتَى مِنْهَا سَاعِدٌ فِيهِ دُمْلِيجٌ مَضَى وَفَوْقَ آخِرِ فِيهِ دَمْلِيجٌ ^(٣)

وقد يكون فى الساعد حلى من مرجان ، قال لبيد :

وَعَالَيْنَ مَضْعُوفًا وَفَرْدًا سُمُوطَهُ بُحَّانٌ ، وَمرجان يشد المفاصل ^(٤)

٤ — وفى الساق الخللخال ، قال تعالى : « وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلَيْهِمَا لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » قال الزجاج : كانت المرأة ربما اجتازت ، وفى رجلها الخللخال ، وربما كان فيه الجلاجل ، فإذا ضربت رجلها علم أنها ذات خللخال وزينة فنهى عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما أمرن ألا يبيدين ذلك لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه ^(٥).

قال الأعشى :

وَسَاقَانِ مَارَ اللَّحْمَ مَوْرًا عَلَيْهِمَا إِلَى مَتْنَهَى خَلْخَالِهَا الْمُتَصَلِّصِ ^(٦)

وبعد فقد وصف القرآن الكريم الحور العين فى سُورَةِ شَعَرٍ ^(٧) ، وأستطيع أن أستنتج من وصفهن ووصف حلين أن العرب كانوا يعرفون ذلك ويألفونه .

(١) الأماى ١ / ١٨٤ . الخوق : حلقة القرط . معقوب : مشدود بالعقب لثلا يزيع .

(٢) ديوان النابغة ٢٨ .

(٣) ديوان عنتره ٣٥ .

(٤) ديوان لبيد ٢٢ . مضعوفاً : ثياباً مضعفة .

(٥) لسان العرب ١٣ / ٢٨٤ .

(٦) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : اضطرب وتحرك .

(٧) سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

طيبــــــــــــــــا

(١) أثر العطور في الجاذبية :

أغرمت المرأة العربية كما أغرمت النساء الآخر بالطيب ، لأنه نوع من التجميل وضرب من الجاذبية ، فالروائح مثيرة للجهاز العصبي ومنبهة له . وهي « ذات أثر عظيم في العاطفة ، فمن المعروف أن بعض الروائح لها تأثير سحري لا يقاوم ، فهناك حالة شاب اعترف أنه كثيراً ما أغرى الفتيات اللاتي يراقصهن بمسح وجوههن بمنديل كان قد مسح به عرق أبطه . وقد سجل التاريخ أن الملك هنري الرابع ملك إنجلترا هام عشقاً بفتاة تدعى جبريل لما أن مسح وجهه بمنديلها حين كان يراقصها في إحدى الحفلات .

وهكذا تظهر بوضوح تلك العلاقة التي لا أشك فيها بين الغشاء المخاطي الشمي للأنف وبين الجهاز التناسلي للرجل والمرأة ، وما يترتب على هذه العلاقة من إيقاظ المشاعر وإلهاب العواطف ، أو إثارة شعور الاشمزاز كما في حالات بحر الفم . ومن الطبيعي أن ينشأ من اختلاف الأمزجة والميول آثار مختلفة للروائح المنبعثة من الأشخاص ، فليس غريباً أن تتضارب أحكام الناس على الرائحة المنبعثة من شخص واحد ، فبينما يرى شابا يصد عن فتاة ، لأنه لا يطيق رائحتها إذا بنا نجد آخر يرى أن أشد ما يجذبه نحوها رائحتها ، وما يقال عن الرائحة المنبعثة من الجسم يقال عن تأثير الروائح العطرية . فهناك تشابه كيمائى بين الروائح المنبعثة من مصادر مختلفة تنتج نفس التأثير الجنسي الذى ينتج من رائحة الجسم ^(١) » .

كان طبيعياً إذاً أن عنيت المرأة العربية بعطرها عناية كبرى . ولم تنفرد بهذه العناية ، ولم يكن الجوُّ الحار هو الدافع إليها ، فإن الأمم الأخرى لم تقل عنايتها بالعطور عن الأمة العربية .

(١) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٠ .

(ب) عناية الأمم القديمة بالعطور :

فالفرس أغرموا بالورد وتغنوا به في أشعارهم . وكان المترفون منهم يستحمون بالماء المعطر^(١) . والبابليون عنوا بالعطور وحفظوها في أوان من زجاج من أوعية (الألباستر) . وكانت بابل سوقاً رئيسة للتجار في المواد العطرية^(٢) .

وقد أكثر المصريون من صناعة العطور والروائح الذكية والمرام والكحل ، والأطلية للحواجب والأهداب والشفاه ، ووضعوها في قوارير صغيرة من المينا الملونة ، فافتنت بها النساء واستعملنها وأتقن استعمالها أمام المرايا المعدنية ذوات الأيدي البديعة الصنعة^(٣) . وعرفوا من الأعشاب العطرية أنواعا كثيرة ، منها خشب الصندل والكافور والكندر والسكبيج والعرعر وغيرها ، واستخرجوا منها عطورا^(٤) . وبلغ من عنايتهم بها أن حفظوها في أوعية نفيسة من (الألباستر) و (الديورايت) وغيرها من الأحجار القيمة^(٥) .

وسجل الفراعنة عنايتهم بالعطور على آثارهم ، ومن أمثلة ذلك رسم على جدران الكرنك يمين رمسيس الثاني يتضرع إلى الإله آمون أن يمنحه النصر ؛ لأنه قدم إليه ثلاثين ألفاً من الثيران وجميع ما طابت رائحته من الأعشاب الزكية قربانا^(٦) .

وكانت النساء المصريات يستحممن بالماء المعطر^(٧) . وعن قدماء المصريين نقل اليهود صناعة العطور إلى البلاد الشرقية الأخرى^(٨) ، ولعل العرب قد عرفوها عن هذا الطريق .

وكان للعطور هذا الشأن عند الإغريق ، فكانوا يستحمون بها كما كانوا يعطرون كل جزء من الجسم بعطر خاص به . وقد طلب منهم سقراط أن يخففوا من

(١) سحر العطور للدكتور الشحات ١٥ .

(٢) سحر العطور ١٥ .

(٣) الحضارة المصرية القديمة : جوستاف لوبون ١٠٦ .

(٤) سحر العطور ١٣ . (٥) سحر العطور ١١ .

(٦) سحر العطور ٩ .

(٧) سحر العطور ١٠ . (٨) سحر العطور ١٣ .

هذا الولع فلم يستمعوا إليه . وحاكهم الرومان في الولع بالعطور ، حتى هال الأمر قيصر ، فصرخ يوما في بعض رجاله وقد قدموا إليه وروائح العطور تفوح منهم « تعالوا إلىَّ ورائحتكم الثوم ^(١) » .

وكان العرب على صلة بالرومان عن طريق الغساسنة ، فلعلهم تأثروا بهم . واشتهر الهنود باستعمال العطور في حفلاتهم الدينية والخاصة ، بل استعملوها في غسل معبوداتهم من الحيوان ، وأرثوا النار المقدسة التي كانوا يوقدونها في حفلات الزواج بزيت وأعواد عطرة كنخشب الصندل ^(٢) .

وقد كان العرب على صلة تجارية بالهند منذ العصر الجاهلي ، فلعلهم تأثروا بهم أيضا . وكذلك فعل الصينيون ، وأفضل الروائح عندهم المسك ، ولعل سبب ذلك كثرة الغزلان المسكية هناك ^(٣) .

(ح) عناية المرأة الحديثة بالعطور :

ولم يكن الغرام بالعطور ديدن الأمم القديمة وحدها ، فإن عناية المرأة الحديثة بعطرها ليست أقل شأنا ، فقد أغرمت الفرنسيات بالعطور حتى قيل إن ثمن العطور التي كانت تتباعها مدام لامباردو سنويا بلغ مليونا ونصف مليون جنيه . وكانت مدام تالين تستحم بخلاصة النباتات العطرية وتذلك جسمها بعد ذلك باللبن المعطر ^(٤) .

وأولعت السيدات في إنجذترا بالعطور ولعا كان من نتائجه أن شكا الرجال في القرن الثامن عشر من أنهم انخدعوا في بعض النساء بتأثير عطورهن ، فتم زواج ما كان يمكن أن يتم . لذلك أصدر البرلمان سنة ١٧٧٠ م هذا القرار : « جميع النساء من مختلف الأعمار والرتب والمهن سواء كن عذارى أو متزوجات أو أرامل يعرضن أنفسهن للعقاب إن أغوين أحداً من رعايا جلالة الملك بالعطور أو الدهان ، لأنهن استخدمن وسائل خداعة ، ويعتبر الزواج باطلا ^(٥) » .

(٢) سحر العطور ١٦ .

(٤) سحر العطور ٢٣ .

(١) سحر العطور ١٣ .

(٣) سحر العطور ١٧ .

(٥) سحر العطور ٢٢ .

أنواع طيها

بعض الطيب أعواد تتبخر بها كالصندل والساج واللَّبْنِي والعود والند والرند (١) .

وبعضه دهن تدَّهن به كالعنبر والمسك والغالية والبان (٢) .

١ — المسك :

دهن يتخذ من نوع من الغزلان ، يقطن في مناطق عدة كجبال الهند الشمالية ووسط آسيا فيما بين خطي طول ٧٠° ، ١٧٠° وفيما بين خطي عرض ١٥° ، ٦٥° ويكثر في الصين (٣) . والمسك شهرة وقيمة عند العرب ، لأنه هو والعنبر قويا الرائحة . وأهل الشرق أميل إلى استعمال العطور القوية لأنها هي التي تلائم الجو الحار . والرجال يستطيبون رائحة المسك في المرأة ، ويمدحونها بأنها ممسكة ؛ لأن هذا دليل النظافة والتجمل والثراء ، قال امرؤ القيس :

إذا قامتا تَضَوَّعَ المسكُ منهما نسيم الصِّبا جاءت برياً القرنفل
وتُضْحِي فتيتُ المسك فوق فراشها نئوم الضُّحى لم تَنَتَّقِ عن تَفَضُّل (٤)
فهي تثر المسك على فراشها كما تذرُّوه على جسمها . ولقد تمسَّك فاهها
ووجهها ، يدل على ذلك قول عنترة :

تبيت فتاتُ المسك تحت لثامها فيزداد من أنفاسها أَرْجُ الند (٥)

(١) اللبني شجرة لها عسل ينضح فيها يتبخر به والعامية تقول حص لبان (القاموس مادة لبن وعسل) والرند شجر طيب الرائحة . اند : المسك يعجن بالورد .
(٢) الغالية : أركى أنواع الطيب عندهن وتتخذ من المسك المعجون بالعنبر والبان .
البان : شجر يطول في استواء وورقه كورق الأثل وثمرته كقرن اللوبيا ولها حب يعتصر فيخرج دهناً .

(٣) سحر العطور ٨٨ .

(٤) ديوان امرئ القيس ١٢٥ ، ١٣١ .

(٥) ديوان عنترة ٧٢ ، الند : طيب معروف أو العنبر (القاموس المحيط) .

ولقد تَعَلَّلَ به شعرها كما تطيب جسمها وفراشها ، فتسطع رائحتها ، قال
سويد بن أبي كاهل :

— وقرونا سـابغاً أطرافها غلَّتْها ریح مسك ذی فَنَعٍ^(١)

وقال علقمة إن مسك مفرقها قوى يشمه المزكوم :

كأن فأرة مسك في مفارقها للباسط المتعاطى وهو مزكوم^(٢)

٢ — الزنبق :

هو دهن الياسين ، ونوع من الورد^(٣) له نور أصفر حسن الرائحة ، وكانت
المرأة تطيب به كما تطيب بالمسك ، وقد تجمعهما معاً ، قال امرؤ القيس .

وفوق الحوايا غِرْلة وجاذر

تَضَخَّنَ من مسك ذكى وزنبق^(٤)

وأعجب الأعشى برائحة المسك والزنبق في محبوبته ، فعبر عن إعجابه بهذه
الصورة المليحة : إذا تحركت المحبوبة سطع مسكها وزنبقها ، وليست الروضة
المعشبة العالية الخضرة التي يجودها الغيث وتضاحك الشمس أزاهيرها النامية
الحفوفة بالنبات الكثيف ، ليست هذه الروضة الفواحة بالشذى ، وإن هبت عليها
نسبات الأصيل فمطرت الجو بشذاها بأطيب من رائحة المحبوبة :

إذا تقومُ يَضُوعُ المسكُ أَصُورَةً والزنبقُ الورد من أردانها شَمِلُ

ماروضة من رياض الحزن مُعْشِبَةٌ خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يضاحك الشمس منها كوكبٌ شَرِيقُ

مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مكتهل

(١) المفضليات ١ / ١٨٩ . فنع : قوة .

(٢) ديوان علقمة ١٣ وشعراء النصرانية ٤٩٩ ، والمفضليات ٢ / ١٩٧ الباسط :

الذى يبسط يده إليها .

(٣) القاموس المحيط مادة زنبق . (٤) ديوان امرؤ القيس ١١٧ .

يوماً بأطيب منها نشرَ رائحةٍ ولا بأحسن منها إذْ دنا الأَصْلُ (١)

٣ — وقد يُخَدِّطُ بالمسك سَنًا ، قال امرؤ القيس إنهن تحلين ياقوتاً وشذرا ،
وعطراً من السنن المخلوط بالمسك الجيد القوى الرائحة موضوعاً في حُقِّه مما يصنع
للملوك حَمِيرٌ باليمن :

وريح سَنًا في حُقَّةٍ حَمِيرِيَّةٍ تُخَصُّ بِمَفْرُوكٍ مِنَ الْمَسْكِ أَذْفَرًا (٢)

٤ — وقد ذكر امرؤ القيس أنواعاً آخر من العطور والبخور هي البان
والألوي (العود) المجلوب من الهند ، والرند ، واللبنى ، والكباء (عود
البخور) :

وباناً وألويّاً من الهند ذا كيا وَرَنْدًا وَلُبْنَى وَالْكَبَاءَ الْمُقْتَرَا (٣)

٥ — وذكر المرقش الأصغر أنها تتبخّر ليلاً بالكباء :

في كل مُنْمَسَى لَهَا مِقْطَرَةٌ فِيهَا كِبَاءٌ مُعَدٌّ وَحْمِيمٌ (٤)

٦ — العنبر :

دهن يخرج من نوع من الحوت ، وهو ذو ألوان عدة « أحصى منها العالم باوتشر
عشرة ألوان : فمثلاً في الخليج الفارسي العنبر الرمادي الغامق ، وفي ساحل إفريقية
الشمالي العنبر ذو اللون الذهبي ، وفي مدغشقر العنبر البني الضارب إلى الحمرة (٥) » ،
وأرجح أن الأدهان بالعنبر كان السبب في تلك الصفرة التي وصف الشعراء بها
الحسان كما سبق ؛ لأن العنبر الذي يستخرج من شاطئ إفريقية الشمالي ذو لون
ذهبي ، قال المرار بن متقد :

(١) ديوان الأعشى ٤ ، وشعراء النصرانية ٣٦٧ . أصورة : جمع صوار : الرائحة
الطيبة . كوكب : نور . مكتهل : يانع .

(٢) ديوان امرؤ القيس ٦٨ . السنن : نبت ذكي الرائحة .

(٣) الديوان ٦٩ . المقتَر : الساطع الرائحة .

(٤) المفضليات ٢ / ٤٨ . مِقْطَرَةٌ : بجرة . كِبَاءٌ : عود البخور . حَمِيمٌ : ماء حار

تستحم به .

(٥) سحر العطور ٨٢ .

عَمِيقَ الْعَنْبَرِ وَالْمَسْكُ بِهَا فِيهِ صَفْرَاءُ كَعُرْجُونِ الْعُمُرِ
وَهِيَ لَوْ يُعَصَّرُ مِنْ أَرْدَانِهَا عَمِيقُ الْمَسْكِ لَكَادَتْ تَنْعَصِرُ^(١)

٧ — الكافور والزعفران ، قال النمر بن تولب :

أَنَاءَةٌ عَلَيْهَا لَوْلُو وَزَبْرَجْد وَنَظْمٌ كَأَجَوَازِ الْجَرَادِ مَفْصَل
يُرَبِّعُهَا التَّرْعِيبُ وَالْحَضُّ خَلْفَةً وَمَسْكٌ وَكَافُورٌ وَلُبْنَى تَوَكَّل
يُشْنُّ عَلَيْهَا الزَّعْفَرَانُ - كَأَنَّهُ دَمٌ قَارَتْ تُغَلَى بِهِ ثَمَّ تُغَسَّلُ^(٢)

* * *

ولقد يذكر الشاعر إعجابه بالرائحة ولا يسميها ، كما فعل حسان في قوله :
كَهْمُهَا الْعَطَرُ وَالْفَرَّاشُ وَيَعْلُو هَا لَجَيْنٌ وَلَوْلُو مَنْظُوم
لَوَيْدِبِ الْخَوْلَى مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ^(٣)
وكما فعل الشنفرى في قوله إنه بات في بيت معطر كأنما أحيط بريحان ندى
مرت عليه ريح فحملت رائحته ، وهذا الريحان نابت في مرتفع من وادى حليّة
بتهامه ، ومعلوم أن نبات الحزن أطيب ريحاً وأسير عطراً من نبات الوهاد :
فَبِتْنَا كَأَنَّ الْبَيْتَ حُجَّرَ حَوْلَنَا بَرِيحَانَةٌ رِيحَتْ عِشَاءً وَطُلَّتْ
بَرِيحَانَةٌ مِنْ بَطْنِ حَلِيَّةٍ نَوَّرَتْ لَهَا أَرْجٌ ، مَا حَوْلَهَا غَيْرُ مُسْنِتٍ^(٤)
وحارقيس بن الخطيم في نوع الرائحة التي تزوع من جلبابها فقال :
كَأَنَّ الْقَرْنَفَلَ وَالزَّنَجَبِيلَ وَذَا كِيَّ الْعَبِيرِ بِجَلْبَابِهَا^(٥)

(١) المفضليات ١ / ٩٠ . العمر : نخلة السكر وهو ثمر جيد .

(٢) جهرة أشعار العرب ١٩٦ : أناءة : متأنية في مشيتها لثقل ردفها . أجواز الجراد :
أواسطه . يرببها : يغذوها . والترعيب : قطع السنام . المحض : اللبن الخالص . يشن : يصب .
قارت : متجمد .

(٣) ديوان حسان ٩٩ . الخولى : ما أتى عليه حول . الذر : صغار النمل . أندبتها :
أثرت فيها .

(٤) الأغاني ٩١ / ٢١ والمفضليات ١ / ١٠٨ حجر : أحيط . ريحت : مرت بهار ريح فحملت
عطرها . حليّة : واد بتهامه وبطن حليّة في أرض غليظة . مسنت : محذب .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٢٣ ولسان العرب ١٨ / ٣١٤ .

ولقد يشم الرجل رائحة المرأة التي لم تتطيب فيستطيبها . قال امرؤ القيس :
 ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب^(١)
 ولقد يصفها بأن القليل من الطيب يغنيها ، لأن بشرتها صفيحة ملساء لا تتشربه .
 أنشد ابن الأعرابي : —

خودٌ يكون بها القليل تمسه من طيبها عبقاً يطيب ويكثر
 شكر الكرامة جلدُها فصفاها إن اليتيمة جلدُها لا ينكر^(٢)

ترف الحبيبة :

وبعد : فهذا التطيب والتحلّي والتجمل يسهل علينا أن نصدق تصوير بعض
 الشعراء لترف الحبيبات ونعمتهن ، فهن مكفيات العمل مخدومات ، ينمن إلى
 الضحى ، وينمن في الصيف ، وهن منعمات رقيقات لو دب النمل على قميص إحداهن
 لأثر في جسدها البض .

قال طرفة :

لا تلعني إنها من نسوة رُفدِ الصيف مَقَالِيَتَ نُرُرٍ^(٣)
 وقال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لودب مُحُولٌ من الذرّ فوق الإتب منها لأثراً^(٤)
 وقال المرار بن منقذ :

قد نرى البيض بها مثل الدُحَى لم يَحْنَنَّ زَمانَ مُقَشَّرٍ
 يَتَلَهَيْنَ بنومات الضحى راجحات الحلم والأنس خُفَرٍ^(٥)

(١) ديوان امرؤ القيس ٣١ .

(٢) شكر : نشر . اليتيمة : التي لا نظير لها .

(٣) ديوان طرفة ٥٣ .

(٤) ديوان امرؤ القيس ٧٤ .

(٥) المفضليات ٨٧/١ .

غرام الرجال بالطيب :

أولع العرب بالطيب ، وأولع المصريون القدماء بالأدهنة والعطور المختلفة ^(١) ، كما أولع غيرهم ، وقد روت السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان « يصبح مُحَرِّمًا يَنْضَحُ طَيِّبًا » وقالت « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبَيْصِ الطَّيِّبِ فِي مَفْرَقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ » ^(٢) وعنها « كُنْتُ أَطِيبُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَطِيبٍ مَا يَجِدُ حَتَّى أَجِدَ وَبَيْصَ الطَّيِّبِ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ » ^(٣) وكان ابن عباس يطلى جسده بالمسك .

ومدح كعب بن زهير قومًا بقوله :

المطعمون إذا أزممة أزمّت والطيون ثياباً كلما عرقوا

وكان ابن مسعود إذا خرج إلى المسجد عرف جيرانه ذاك بطيب رائحته . وقال أبو الضحا : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك ما لو كان لي لكان رأس مال . وأحرم ابن عباس والغالية على صلته كأنها الرب ^(٤) .

ويقول الأعشى إن الثلاثة الحمر قد استنفدت ماله : الحمر واللحم والتطيب بالزعفران وما زال بها مولعاً :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى وكنتُ بها قديماً مؤلِعاً

الحمرَ واللحمَ السمينَ وأطلى بالزعفران ، فلن أزال مؤلِعاً ^(٥)

ومدح المسيب بن علس بني شيان بأنهم يطيبون ^(٦) وكذلك مدح ابن عنقاء الجهمي بني غطفان ^(٧) .

(١) سمر العطور ١٠ . (٢) الزبيدي ١/١٦١ ، ١٦٢ ويص : بريق .

(٣) فتح المبدي ٣/٢٩٩ .

(٤) عيون الاخبار ١/٣٠٣ . (٥) شعراء النصرانية ٣٩٨ .

(٦) عيون الاخبار ١/٣٠٤ والشعر والشعراء ٦٠ .

(٧) المؤلف والمختلف للامدى ١٥٩ .

فإذا كان الرجال مولعين بالطيب يضمنون به جسومهم ، فمن الطبيعي أن تكون النساء أكثر ولوعاً ؛ لأنه ضرب من التجميل والتزين والنعمة ، ولأنه يروق الرجال ويحتندهم كما سبق .

على أن بعض الآباء أوصوا بناتهم بالماء ولم يوصوهن بالطيب ، ولم أجد في وصية أم لابنتها هذه النزعة ، مما يدل على أن الرجال يحفلون في وصاتهم لبناتهم يوم الزفاف بالماء لأنهم على علم أن المرأة تحفل بالطيب من تلقاء نفسها ، بذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته^(١) وقيس بن خالد^(٢) . وبذلك أوصى في الإسلام الفرافصة الكلبي ابنته نائلة يوم زفافها إلى سيدنا عثمان^(٣) وأوصى أسماء بن خارجة بنته هنداً لما زفها إلى الحجاج بن يوسف^(٤) .

ولا يمكن أن يكون المراد بهذه الوصاة أن تحفل البنت بالماء وحده وتهمل الطيب ، لأن الطيب مفضل عند العرب رجالاً ونساءً كما سبق ، ولأن وصايا الأمهات خاليات من هذا .

خضابها

سبق أن اللون الأحمر محبوب عند النساء والرجال ، كسوابه الحدوج واتخذوا منه ملابس ، وصنعوا حلياً من المرجان والجزع والذهب ، ومن تنمة التجميل أن تحتضب النساء باللون الأحمر فتبدو ككفهن حمراً ، وأناملهن حمراً « وكان الخضاب مستحسنًا عند الرجال والنساء ، وأصله هندي أخذه الفرس عن الهنود^(٥) ، ثم انتقل من الفرس إلى بلاد العرب قبل الإسلام . ويقال إن أول من خضب من أهل مكة عبد المطلب^(٦) ، وقيل بل المغيرة بن شعبة . ولما اتسع الإسلام وانساح العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة ،

(١) عيون الأخبار ٧٦/٤ والأغاني ٧٠/١٥ .

(٢) لأغاني ١٣١/١٩ وجمهرة الأمثال ١٨٥ والعقد الفريد ٢١١/٣ وجمع الأمثال ١٥٣/٢ .

(٣) الأغاني ٧٠/١٥ ونحو الأخبار ٧٦/٤ وشرح نهج البلاغة ٣٠٨ .

(٤) الأغاني ١٢٨/١٨ وعيون الأخبار ٧٧/٤ وأحياء علوم الدين للغزالي ٤١/٢ .

(٥) مروج الذهب للمسعودي ١٠١/١ . (٦) لطائف المعارف لابن قتيبة ٨ .

وبالزعران للصفرة فضلاً عن الخضاب الأسود^(١) ، وكان حسان يخضب لحيته على أسلوب خاص ، فيلون شاربیه وعنقه بالحناء دون سائر لحيته فيبدو كأنه أسد والغ في دم^(٢) .

فلا عجب أن اختضبت النساء وأن نوه الرجال بخضابهن . قال النابغة في وصف المتجردة :

سقط النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطه فتناولته واتَّقَتْنَا باليــــد
بِمُخَضَّبٍ رَخِصٍ كَأَن بَنَانِه عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللِّطَافَةِ يُعْقَدُ^(٣)
وقال الأعشى :

وأرتك كَفًّا في الخضاب ب وساعداً مثل الجِبَارِه^(٤)
وأكثر ما يكون الخضاب بالحناء في الأيدي والأرجل ، وبالكتم^(٥) المزوج بالحناء في رءوسهن ، لأنه يكسب الشعر نعومة وخومة .

أنواع أخرى من تجميلها وتجميلها

تبين من وصف جمال المرأة أنها ممثلة ، كلاء ، عيناء ، زجاء ، بلجاء ، بيضاء ، شماء ، مأشورة ، فلجاء ، لمياء ، جيداء ، غيداء ، أثيثة الشعر ، مشرقة النّحير ، مهضومة الخُصر^(٦) ، طويلة ، ملتفة الساقين والساعدين . . . الخ ؛ ويندر أن تستكمل امرأة هذا الجمال طبيعةً ، فلا بد لها من أن تتجمل بما يحقق هذا المثال أو يدانيه ، على ألا يستعلن بأنه متكلف ، لأن الطبع العربي يمج

(١) ألف باء لليلوى ٣٤٤/٢ . (٢) الاغانى ٣/٤ .

(٣) ديوان النابغة ٢٩ .

(٤) ديوان الأعشى ١١٢ الجبارة : السوار أو الدمليج .

(٥) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه .

(٦) عيناء : واسعة العين في سواد . زجاء : دقيقة الحاجبين في طول . بلجاء : بعيدة ما بين الحاجبين ولا شعر بينهما . شماء : دقيقة الأنف مستوية القصة : مأشورة : ذات أسنان محززة مدببة الاطراف . فلجاء : متباعدة ما بين الثنايا والرباعيات . لمياء : سمراء اللثة والشفة . غيداء : يتشقق ، عنقها وأعطافها ليّنة .

التكلف . وكانت هنالك مجملات كاللواتى يجلون العروس ، منهن النامصات ،
والفالجات ، والواشرات ، والواصلات ، والواشحات ^(١) يحترفن بذلك .
ومن أنواع التجميل والتجميل : التميمص ، والتزجيج ، والتفليج ، والتلمية ،
والوشم ، والوصل ^(٢) . وأكثر من وصلن شعورهن يهوديات العرب ،
وآية ذلك ما حدث البخارى « أن معاوية خطب عام حجة — وقد تناول قصة
من شعر كانت يمد حرسي — وقال : ما كنت أرى يفعل ذلك إلا اليهود .
أين علمائكم ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن مثل ذلك ^(٣) » .
ولكن قد مرّ بنا أن السيدة عائشة لم ترفيه ما يحرم ، وفسرت الواصلة بأنها البغى
في شبابها القوادة في كبرها .

(١) النامصات نازعات الشعر (القاموس المحيط مادة نص) الواصلة : المرأة التى تصل
شعرها بشعر غيرها .

(٢) التميمص : نزع ما بين الحاجبين من شعر حتى يصيرا كأنهما أبلجان ، التزجيج : حف
الحاجبين وإطالتهما بالإثمد . التفليج تفريق ما بين الثنايا والرابعيات . التلمية . خضاب الشفة والشفة
بالأثمد . الوشر : تخزين الأسنان وتحديدها لتعكى الأشر لأنه من صفات الشابات . الوشم :
معروف ، وأكثر ما يكون بالذراع والشفة والشفة . الوصل : إطالة الشعر بشعر معار .

(٣) إرشاد السارى ٤٧٥/٨ والمرأة العربية ١٤٧/١ .

الفصل الرابع

الحُب

صلة الغزل بالحُب :

الغزل هو الحديث إلى المرأة ، والحديث عن المرأة ، هو الحديث الذي يستميل المرأة بالتنويه بجمالها وسحرها وتفوقها على لداتها ، ويستميلها بوصف حب الرجل لها أو قصر قلبه عليها ، وما يلقى في حبه من وجد وأرق وشوق ، وما يصطرع في حبه من ألم وأمل .

وسواء أكان الغزل عذرياً أم حسياً فإنه تعبير عن حب الرجل للمرأة ، وبديهي أنني أقصد الغزل الصادق الذي ترجيه عاطفة ، لأن الغزل الصناعي ليس له من الغزل إلا اسمه .

وإذا فبين الحب والغزل وشائج قوية ، بل الصلة بينهما أقوى من أن تكون وشائج ؛ لأن الحب عاطفة والغزل إحدى الوسائل للتعبير عن هذه العاطفة ، هو وسيلة الشاعر لإبراز ما يختلج في نفسه .

سلطان الحب :

شغل الناس بالحب منذ القدم ، وصور الشعراء جسيمه ونعيمه منذ كان الشعر ، وتملّى الناس تصوير الشعراء طويلاً ، وأصغوا إلى حديثهم مَلِيحاً ، لا لأن الحب ترف أو كمال ، بل لأنه غريزة من غرائز الإنسان .

وإذا كان التاريخ قد أفرد بعض المتيمين بالذكر كمروة ، وعبدالله بن العجلان ، وقيس بن الملوّح ، وجميل بن معمر ، وجميته ، ولامرتين ، وروميو ؛ فإن لهم أنداداً عاشوا ،

وَأنداداً يعيشون في كل زمان ومكان وإن لم يشتهر أمرهم ، أو يسجل تاريخهم .
والحب ديمقراطي لا يختص بسهامه قبيلة دون قبيل ، بل يصهر بجزاراته الملك
المتوج كما يصهر راعي الإبل ، ويتسلسل إلى قلب العبقري كما ينسك إلى قلب
الرجل العادي ، ويقتحم على السياسي والقائد والثري ، كما يقتحم على المملق والفارغ
والجندى . فالحياة كلها ميدانه ، والناس كلهم فرسانه ، فلا حرم يتحصن منه .
ولا طائفة من الناس تختص به ، يغزو بسلطانه الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات
بله بعض الطير والحيوان .

« هو العمل الفني الوحيد الذي يُسهم فيه أكثر الناس تجرداً من الذوق
الفني ولو مرة واحدة في الخيال ^(١) » .

لهذا كان الحب محور كثير من القصص ليثير الشوق ويمتلك الانتباه ، ولهذا
حفل به علماء النفس يدرسونه ويحللونه ، واحتفى به الأدباء يعرضون من صورته ،
ويكشفون عن سره ، ويؤرخون لأبطاله .

لماذا نحب ؟

وقد حار العلماء في أمره ، وتباينوا في منشئه والغاية منه ، ودار بعضهم حوله
دوران التهيب أن يلج بابه ، أو العاجز عن اقتحامه ليستكنه سره ، يقول ابن حزم :
« الحب أوله هزل وآخره جد ، رقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك
حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة ^(٢) » .

ويحاول في موضع آخر أن يتعرف سببه ، فيرده إلى تعارف بين الأرواح في
عالمها الأول « الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل
عنصرها الرفيع ، يقول الله تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها
زوجها ليسكن إليها » ، فجعل علة السكون أنها منه ، ولو كان علة الحب حسن
الصورة الجسدية لوجب أن يُستحسن الأُنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً

(١) الحياة والحب . إميل لودفيج ٢٤ .

(٢) طوق الحمامة ٤ .

ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيداً لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقته ، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس » (١).

فهو لا يعزو الحب إلى جمال المحبوب جسداً ولا خُلُقاً ، وإنما يعزوه إلى ما سماه اتصالاً بين أجزاء النفوس في عالمها الأول الرفيع ، وهو بتغاضيه عن جمال المحبوب وأثره في الحب واستدلاله بأن الجمال لو كان هو السبب في الحب لما رأينا من يحب امرأة أقل جمالا من غيرها ، هو بهذا لا يحدد أثر الجمال الجسدى والجمال الروحى فحسب ، بل يريد الناس أن يحبوا كلهم طرازاً واحداً من النساء ، ويغفل تأثير ذوق الشخص وميوله في حبه ، فلقد يجد هذا من الحسن والملاحة والجازبية في امرأة مالا يجده ذاك .

ولعل ابن حزم متأثر في رأيه هذا بأفلاطون ، فقد ذهب إلى ما يصح أن نعهده أصلاً وتفصيلاً لما أجمله ابن حزم ، وذكر رأيه هذا في كتيب ضمنه محاورات أجراها على ألسنة جماعة من الفلاسفة اجتمعوا في وليمة ، ويعرف هذا الكتاب في اليونانية باسم سمبوزيوم Symposium واشتهر باسم الوليمة أو المائدة الأفلاطونية Banquet جاء فيها على لسان أرسطوفانس Aristophanes أن الناس في ماضيهم السحيق كانوا ثلاثة أجناس : الذكر ، والأنثى ، والخنثى ، فالذكر صدر عن الشمس ، والأنثى عن الأرض ، والخنثى عن القمر ، وكان الفرد بوجهين وأربع أذان وأربع عيون الخ ...

وكان عظيم القوة ، حتى لم يتورع أن يستخدمها في معصية الآلهة وتحميدهم ، وضاق الآلهة بتطاوله ، فتداولوا فيما يعملون لكفه عن هذا التطاول ، وتحيروا ، لأنهم ما كانوا يريدون للانسان الفناء ، ثم أشار عليهم زيوس بوسيلة تحد من قوة هذا الإنسان ولكن لا تفنيه ، وهى أن يجزأ كل إنسان إلى نصفين ، كل منهما يمشى على رجلين ، ووافق الآلهة على ذلك ، وعهدوا إلى زيوس أن ينفذه ، ففعل وقطعهم أنصافاً بالمدية ، وطلب إلى أبولو أن يدير وجه كل نصف إلى قسيمه حتى

يروا عمل المديّة فيهم فيكونوا أكثر طاعة... ثم شفاهم ، وبعد هذا صار كل منهم يحن إلى حاله الأول ، فيبحث عن نصفه ويشتاق إليه ، فتراه إذا وجده ضمه إليه وطوقه بذراعيه ، وعانقه ، فعز عليه أن يفارقه ، وهكذا المحبون كل يبحث عن قسيمه ، ويجرى وراء نصفه ، فالذى يحب النساء هو الذى انشق من الخنثى ، والذى يحب الذكور هو الذى انشق من الذكر ، وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد .

وفى الختام يقول باوسانياس : وإذا اتخذنا الآلهة أولياء وأطعناهم وأرضيناهم فسيظفر كل منا بنصفه الذى انفصل عنه ، وطريق السعادة فى الحياة أن نتمكن للحب فى حياتنا فيجد كل منا محبوبه الحقيق ، ويرجع إلى حياته الأولى حياة الاتحاد والشمل المجتمع^(١) .

وما من شك فى أن هذا رأى خيالى ، ولا جدوى من ورائه إلا أن الحب صلة بين روحين أو بين قلبين لا نستطيع أن نعرف كنهها . ولم يتأثر بهذا الرأى ابن حزم وحده ، بل كان له صدى عند غيره ، وإن لم يوردوه على حقيقته ، ولعله قد وصل إليهم مقتضياً أو محرفاً ، فمثلاً يذكر أبو القاسم الأصبهاني أن بعض المتفلسفين زعموا أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرة ، ثم قطعها أنصافاً ، فجعل فى كل جسد نصفاً ، فكل جسد لقي الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق ، وتفاوت حالهما فى القوة والضعف على حسب رقة الطباع^(٢) .

ويبدى بعض علماء النفس الحديث رأياً فى الحب جديراً بالملاحظة ، فيقرر أدلر Adler أننا نحب لنكمل ما ينقصنا ، فيحب الرجل امرأة فيها قدر من الأنوثة يكمل ما ينقصه ، وتحب المرأة رجلاً فيه قدر من الرجولة هو الذى ينقصها ، وذلك أن أدلر « يؤمن إيماناً كبيراً بخنوثة الناس Hermaphrodisme وكثيراً ما يذكرها ويدلل عليها فى مؤلفاته ، ولعله على صواب فى ذلك ، إذ أن كثيراً من البحوث البيولوجية الحديثة تؤيد وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث

فى الكائن الحى الواحد ، وقد قال فرويد من قبل أدلر بذلك الرأى ، فذكر أن من الطبيعى أن توجد بالمرء درجة معينة من الخنوثة التشريحية ، إذ أنه فى كل فرد سواء أكان ذكراً أم أنثى بقايا لعضو التناسل عند الجنس الآخر ، بحالة أولية ، وهى عاجزة عن أداء أية وظيفة ، أو قد تقوم بأداء بعض الوظائف التى تخالف وظائفها الأصلية ، وقد استحدث من تلك الحقائق الفكرة القائلة بأن الكائن الحى كان مخنثاً فى الأصل ، وأنه اتخذ خلال عملية التطور وجهة التوحيد الجنسى ، مع احتفاظه ببعض البقايا المشوهة من خصائص الجنس المقابل .

ويرى أدلر أن الازدواج الجنسى فى الناس كافة ، ويذكر أن (لا كير) كشف أن هرمونات الجنس الآخر توجد فى بول الناس جميعاً وأن (بران) استوثق من دراسته لحالات تسعة من اللواطيين من صحة ذلك الكشف ، أى من وجود هرمونات الأنثى فى بول الذكر ووجود هرمونات الذكر فى بول الأنثى ، وذكر أن دراسة التوائم قد تؤدي يوماً إلى التثبت من الخنوثة التى فى الأفراد ، وتعين على فهم تلك الحقيقة^(١) .

الغاية من الحب :

وقد كان — وما زال — الغرض من الحب مثار نزاع كما كان سبب الحب مثار نزاع ، فقد جاء فى المائدة الأفلاطونية على لسان سقراط أن الحب ليس هو البحث عن القسم مطلقاً — كما قال أرسطوفانس — بل البحث عن القسم الخير ، لأن العضو السقيم يُبتر إذا أُيس من شفاؤه ، والوسيلة التى يسلكها الحب هى السعى للاتصال بالجميل والاتحاد به عن طريق الجسم والروح معاً ، فى سن معينة يظهر فىنا هذا الميل للاتصال والاتحاد ، وهو ميل مقدس لأنه سبيل الخلود للمخلوق الفانى ، وهذا الاتصال لا يكون مع البغيض المنفور منه — والقبیح بغيض والجميل محبوب — وحين ينضج فى الفرد هذا الدافع يشعر بالميل إلى الاتحاد بالجميل ليتخفف من وزر يشعر بثقله ، فالحب إذاً ليس للجميل ولكنه للاتحاد به ،

وهذا الاتحاد المقدس يحفظنا من الفناء ، والناس في الحب فريقان : فريق لا يعبأ بغير المادة ولا يرغب إلا في الجسد ، وهؤلاء يحبون النساء ، وينشدون الخلود بالنسل ، وفريق ينشد الفضائل ، وهؤلاء يطلبون الجمال والأشياء الجميلة^(١) فالغرض من الحب إذاً يختلف باختلاف المحبين ، فالراغبون في المتعة الجسدية يتوقون إلى الاتحاد بالجميل لينسلوا ويخلدوا ، والطامحون إلى الروحانية يتوقون إلى الاتحاد بالجميل لأنهم ينشدون الجمال والكمال فحسب .

ولهذا رأى صدام في قول ابن سينا : « القوة الحيوانية تهدف إلى التوليد والتكاثر ، وكل قوة نفسية تستفيد من انضمامها إلى قوة أعلى منها رتبة ، فتعظم الأفعال الصادرة عنها في كمالها وكيفها بحسن الإتيان ولطف المآخذ ، فإذا جاوزت القوة النطقية القوة الشهوانية وانضمت إليها استعانت بها على حفظ النوع وبقائه ، ونشأ من تجاوزهما عَشْقٌ حُسْنِ النظم واعتدال التركيب^(٢) » .

وكذلك نجد ابن حزم جانحاً إلى النوع الثاني من الحب ، الذي ذكره سقراط لأن الحب في رأيه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، فلا بد أن يكون بعيداً من الغرض ، مبرأ من الغاية ، لأن الاتصال هو الذي يوجب على المتحابين^(٣) .

وبذلك يقول بما قاله أبو بكر محمد بن داود الظاهري من قبله ، وما قاله الغزالي وبويس جيون من بعده ، من أن الحب سرور بالمحبوب لذاته لا لأنه يقضى شهوة أو يحقق رغبة .

ولكن هذا رأى أقرب إلى الخيال ، أو هو رأى محب حرم الخلوة والاتصال والوصال ، وأحرى به ألا ينطبق على حب الرجل للمرأة ، بل ينطبق على الصداقة العالية ، كما سنبين ، ولذلك مال إخوان الصفا إلى أن الحب شدة شوق إلى الاتحاد^(٤) كما قال أرسطوفانس في المائدة الأفلاطونية ، وذهب ابن سينا إلى أن غاية

Plato's : Lysis Symposium, P. 257. (١)

(٢) رسالة العشق لابن سينا من جامع البدائع ٨٠/٧٧ .

(٣) طوق الحمامة ٦ .

(٤) رسائل إخوان الصفا ٦٥/٣ .

هذا الاتحاد بقاء النوع الإنسانى « لما اقتضت العناية الإلهية استبقاء الحرث والنسل ، وامتنع المراد فى مدة البقاء فى الشخص الكائن أو جيت الحكمة صرف العناية إلى الأنواع والأجناس فطبعت فى كل واحد من الأشخاص شوقاً إلى تأثير ملازمة توليد المثل ، وهىأت لذلك فيه آلات موافقة^(١) » .

على أنه يذكر فى موضع آخر أن الحب الذى يهدف إلى متعة حيوانية جدير بالمنقصة ومضر بالنفس الناطقة ، وليس من خصائصها ، وأن حب الجميل باعتبار عقلٍ وسيلة إلى الرفعة ؛ لولوعه بما هو أقرب فى تأثيره من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، ولذلك لا يكاد أهل الفطنة من الظرفاء والحكماء ممن لا يسلك طريق المتعشقين يخلو من شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية^(٢) .

فنحن أمام رأيين : رأى يرى أن الحب شوق إلى الاتحاد للانسال والخلود ، ورأى يجعله روحانيا صرفاً لا صلة له بالمتعة الجسدية ، وزيد أن نصطفى لأنفسنا رأياً منهما ، لأن له صلة وثيقة بالغزل وأنواعه كما سندرسه .

ويحسن بنا أن نخرج على المحدثين لنبلو ما عندهم ، فهذا ما كس نوردو يرى أن الحب شوق إلى الاستمتاع الجسدى « كل أثر ينبى فى الدماغ — بأى شكل من الأشكال — مركز التناسل سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أم آتياً من تداعى الفكر وتساق الخواطر فهو الأثر الجميل ، وصورة الجمال الأول فى نظر الرجل هى المرأة فى سن الفضح الجنسى والاستعداد لتجديد النسل ، أى المرأة فى عنفوان الشباب والصحة ، فى محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة الجنسية من نفس الرجل بأقوى الإحساسات وأشد الخواطر ، وتمير رؤية (الظاهرة) وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التى يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور^(٣) » .

وقد عزأ فرويد إلى الغريزة الجنسية الحب وغيره ، وتعسف فى نظريته وعممها لأنه نسب الحب — على أشكاله وضروبه — إلى الغريزة الجنسية . لكن الحب

(١) رسالة العشق من جامع البدائع ٧٧ . (٢) رسالة العشق ٨١ .

(٣) صراجمات فى الآداب والفنون . عباس العقاد ٨٠ .

عاطفة معقدة ، وهي لا تشمل الميول الانفعالية النزوعية الجنسية والوالدية فحسب ، بل تتصل بها كل الغرائز تقريباً وبخاصة غريزتا الزهو والخشوع ، وقد أدى الخلط بين الغريزة الجنسية وعاطفة الحب إلى كثير من النقاش والجدل ، « لإسراف فرويد في توسيع نطاق الميول الجنسية وأثرها في الحياة الإنسانية ، وفي تعيين أصل جنسى لكل الاضطرابات العقلية والعصبية وللأحلام ولضروب النشاط المختلفة التي ليست لها علاقة واضحة بالجنس ^(١) » .

ولم يطمئن بعض تلاميذ فرويد إلى تعميمه هذا ، فاعتزلوا مذهبه ، واصطنعوا لأنفسهم مذهبا جديدا ، فثلا أدلر Adler خالف أستاذه في اعتباره الغريزة الجنسية أقوى الغرائز في الإنسان ، وأشدها تحكما في مصائره ، وذهب إلى أن الإنسان محكوم في جميع أعماله وتصرفاته بغريزة أخرى هي حب السيطرة ، فهو سعيد ما دامت هذه الغريزة راضية ، وشقى ما دام غير قادر على إرضائها ، ويذهب أدلر إلى أبعد من ذلك ، فيعد الغريزة الجنسية نفسها مظهراً من مظاهر حب السيطرة ، وينظر إلى الحب على أنه مظهر من مظاهر هذه الغريزة ^(٢) .

من التعسف إذاً أن يرد فرويد وأنصاره سلوك الإنسان إلى الغريزة الجنسية ولا يعفون من هذا رغبة أو خالجة ، وكثيراً ما توجد غريزة التناسل بمعزل عن حب الجمال ، وكثيراً ما يُحبّ الجمال بمعزل عن غريزة التناسل ، وأقوى الناس شغفاً بالجمال هم أرقاهم في مدارج الإدراك ومراتب الذوق ، وأشدّهم شوقاً إلى المتع الروحية ، ولقد تكون الغريزة الجنسية ذات عُرام فيمن يهبطون في مدارج الإدراك والذوق ولا يحفلون بمتع الروح ، « ولا معنى لأن يقال إننا نستجمل المرأة لأن غريزة التناسل تسوقنا إليها ، وتضطرننا إلى حبها ، إذ لو كان الأمر كذلك لأغنتنا تلك الغريزة عن الجمال ، ولأصبحت كلمة المرأة مرادفة لكلمة المرأة الجميلة ، وأصبح وصف الجمال فضولاً لا يضيف إلى الأنوثة شيئاً من عنده ، وإنما الأولى أن يقال إن غريزة التناسل تعجز بمفردها عن سوق الأحياء إليها ؛

(١) علم النفس الفردي . إسحق رمزي ٤٨ .

(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة . الدكتور موريس الديك ٤٥ .

فتتخذ من الجمال شركاً توقعهم به في أسرها ، فكأنه الحلوى التى يكسَى بها الدواء لتشبهه النفس إذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه ^(١) .

وبعد : فما أعزو إلى الغريزة الجنسية والرغبة في النسل والخلود كل أنواع الحب ، وما أنحيتها بعيداً من الحب ، لأن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز تغلغلا في النفس وتسربا في مناحى الإدراك والوجدان والنزوع ، وهى على صلة قوية بتذوق الجمال ومطالب الفنون ، يتأثر بها الشعراء فيما ينظمون ، والمصورون والنحاتون فيما يصورون وينحتون ، والمغنون فيما يغنون وينشدون .

فبعضُ الحب بل أكثره جاذبيةٌ بين رجل وامرأة تبدأ مستورة الغرض روحانية الغاية ، ثم تنكشف عن الغرض رويداً رويداً .

والحب الذى يحرم فيه الحب متمته هو الحب الحار الموحى بالغزل الحار . يقول هكسلى : « حيثما وجدت القيود وضيق على الحب وجد الحب الحقيقى ، لأنه قائم على الحرمان ، وحيثما كان الوصل خفت حدة الحب ^(٢) » .

وبعضه تظل الروحانية تظلمه ، لأن ثمة ما يمد ظلها من حرمان ، أو يأس ، أو حواجز وعجز .

وإلا ففيم كانت لطفة العشاق على الزواج من حبيباتهم ؟

ولم ماتوا من الكمد أو أُجنوا عندما حيل بينهم وبين هذا الزواج الذى ارتبط بحبهم ؟ وهم كثير فى العصر الجاهلى والإسلامى ، فقد مات مسافر بن عمرو لما حرم زواج هند بنت عتبة التى أحبها ^(٣) ، وكذلك مات عبد الله بن العجلان ^(٤) ، والصِّمَّة بن عبد الله ^(٥) ، وعروة بن حزام ^(٦) ، والمرقش الأكبر ^(٧) ، وجن

(١) مهاجمات فى الآداب والفنون . العقاد ٨٦ .

(٢) Huxley. P. 120. (٣) الأغاني ٤٨/٨ .

(٤) الأغاني ١٠٢/١٩ — ١٠٥ والشعر والشعراء ٢٧٤ ومصارع العشاق ٨ .

(٥) تزيين الأسواق . الأنطاكى ٩١-٩٢ .

(٦) الاغانى ١٥٢/٢٠ والشعر والشعراء ٢٣٧ والامالى ١٥٧/٣ والنوادر ١٥٧ .

والدر المنثور ٣٤٦ .

(٧) الشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الاسواق ٨٨ .

بعضهم من حبه اليأس ، كما جن قيس بن الملوّح ^(١) ، وقطع المرقش الأصغر إبهامه وَجَدَاً على فاطمة بنت المنذر ^(٢) .

فلو أن حبهم روحاني صرف ما اشتهوا هذا الزواج ، بل لنفروا منه إن عرض عليهم .

ثم إن بعض هؤلاء العشاق قد تصدروا الحب العذري ، ووسموا بأنهم أبطاله ، فإذا استطعت أن أعثر في شعرهم على تعابير دالة على الإعجاب بالجسد الجميل ، وعلى الشوق إلى الاستمتاع به ، فقد اهتديت إلى تأكيد أنه لا يوجد حب أفلاطوني روحى صرف . والحق إن في شعرهم هذا وذاك ، فلم يستطع أبطال الحب العذري أن يتحللوا من الإعجاب بالجمال الجسدى ، بل إنهم أعجبوا به ، وشادوا بحسنه ، فعروة بن حزام يصف جسد عفراء بقوله :

كَأَن وَشَاحِيهَا إِذَا مَا ارْتَدَّتْهَا وَقَامَتْ عِنَانًا مُهَرِّقَةً سَلِسَانًا
يَعَضُّ بِأُفْدَانٍ لَهَا مَلْتَقَاهَا وَمَتَنَاهَا رِخْوَانٌ يَضْطَرِبَانُ
وَتَحْتَهُمَا حِقَقَانٌ — قَدْ ضَرَبَتْهُمَا قِطَارٌ مِنَ الْجَوَزَاءِ — مُلْتَبِدَانٌ ^(٣)

وقيس بن ذريح وصف جسد لبنى بقوله :

إِذَا مَا مَشَتْ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ أَرْجَفَتْ مِنْ الْبُهِرِ حَتَّى مَا تَزِيدُ عَلَى شَبْرٍ
لَهَا كَفَلٌ يَرْتَجُّ مِنْهَا إِذَا مَشَتْ وَمَتْنٌ كَغَصْنِ الْبَانِ مُضْطَمِّرٍ أَخْصَرٌ ^(٤)

ويصف قيس بن الملوّح ريق ليلي بقوله :

كَأَن عَلَى أُنْيَابِهَا الْخَمْرَ شَجَّهَا بِمَاءِ النَّدى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ عَاتِقُ

(١) الأغاني ١٤/٢ ، ٣٧ والشعر والشعراء ٢٢١ والكمال للمبرد ٢٥٠/١

(٢) مجمع الأمثال للميداني ١٣٤/١ .

(٣) النوادر لأبي على القالى ١٦١ وتزيين الاسواق للأنطاكي ٧٨ الوشاح : أديم عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها . الحقف : أصل الجبل شبه رد فيها به . قطار : قطر ومطر . الجوزاء : برج في السماء والمراد هنا السماء ملتبدان متداخلان .

(٤) الأغاني ١١٦/٨ .

وإن زعم أنه لم يذقه إلا توها :

وما ذقته إلا بعيني تفرسا
كماشيم في أعلى السحابة بارق^(١)
ويصف جسدها بقوله :

أبى القلب أن ينفك من ذكر نسوة
إذا رحن يسجن الذبول عَشِيَّةً
مَشَى عَيْطَلَاتُ رُجَحٍ بخصورها
وتهتَرُ ليلي العامرية فوقها
إذا حَرَكَ المِدْرَى ضفائرَها العُلا
ويقول أيضاً :

بيضاء خالصة البياض كأنها
موسومة بالحسن ذات حواسد
وَتُرَى مدامعها تُرْقِرُقُ مُقْلَةً
قر تَوَسَّطَ جُنْحَ ليل مُبَرَّد
إن الجال مظنة للحسد
سوداء ترغب عن سواد الإثم^(٢)

وكذلك يصف جميل بثينة وصفا جسديا في قوله :

قناة من المران ما فوق حَقْوِها
وما تحته منها نَقًّا يَتَقَصَّفُ
لها مُقْلَتَا ريمٍ وَجِيدُ جَدَايَةٍ
وكشَحُ كَطَيِّ السَابِرِيَّةِ أَهْيَفُ^(٣)

ولم يقتصر هؤلاء الذين تزعموا الحب العذري على وصف الجسد ، بل تعدوا ذلك إلى التصريح بالتمتع الجسدية ، فالجنون يطلب من الله أن يتيح له قبلة من ليلي :
دعوت إلهي دعوةً ما جهلتها وربى بما تخفى الصدور بصير

(١) الأغاني ٣٢/٢ عاتق : خر معتقة . شيم : انتظر ونظر .
(٢) الأغاني ٨١/٢ عيطلات : حسنات الجسم طويلات العنق . روادف : كبيرات الأرداف . وعثات : سمينات . سب القر : خمار الحرير .
(٣) الأغاني ٨٣/٢ مبرد : بارد .
(٤) الأغاني ٨٦/٧ المران : الرماح الصلبة اللدنة . الحقر : الكشح والإزار أو معقدها . النقا : القطعة من الرمل . جداية : غزال . السابري : ثوب رقيق جيد .

لئن كنتَ تُهْدِي بَرْدَ أنيابها العلاء
لأفقرَ مني إني لفقير^(١)
وجميل يتحدث عن العناق :

كأن فَتِيتَ المسك خالط نشرها
تَعَلُّ به أُرْدأُها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها
ويغدوبه من حَضْنِها من تعانق^(٢)
ويتحدث عن حلاوة الريق وحاجات النفس :

ألم تعلمي يا عذبة الريق أني
أظل إذا لم ألق وجهك صادياً
لقد خفت أن ألقى المنية بعتة
وفي النفس حاجات إليك كما هيأ^(٣)
ويقول إنها كانت تجود مرة بمحديثها ومرة بريقتها :

تجود علينا بالحديث وتارة
تجود علينا بالرضاب من الشجر
ثم هو يقسم لها يمينا صادقة ، ويدعو على نفسه بالعمى إن كان قد مسه جلد
غير جلدها :

حلفت يمينا يا بئينة صادقاً
فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسني
وباشرنى دون الشعار شريت^(٤)

ويقول قيس بن ذريح إن لبنى أجمل النساء كاسية وعريانة ، وإنها أجمل ضجيع
نأمة ويقضى :

يا أكل الناس من قرنٍ إلى قدم
وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نعم الضجيع بُعِيدَ النوم تجلبه
إليك ممتلئاً نوماً ويقظانا^(٥)

وقد روى أن توبة بن الحُمَيْر كان غفيفاً في حبه ، ولم ينل من ليلي منالاً ،
ولكن في قول ليلي ما ينبئ بأنه قد صبا إلى متعة جسدية أيا كانت هذه المتعة ،
ولم يكف عما اشتهى إلا باحتجازها هي وامتناعها ، قالت ليلي :

(١) الأغاني ٤٧/٢ . (٢) الأغاني ٨٩/٧ .

(٣) الأغاني ٩٠/٧ وراجع أيضاً ١٠٠ و ١٠١ .

(٤) شريت : أصيب جلدي بقروح لاذعة .

(٥) الأغاني ١١٨/٨ .

وذى حاجة قلنا له : لا تَبْحُ بها فليس إليها ما حميت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وخليل^(١)

وتوبة هذا كان أحیی من الفتاة كما تقول لیلی :

وتوبة أحیی من فتاة حیة وأجرأ من لیث بخفآن خادر^(٢)

لا أستطيع أن أتصور إذا حباً روحانياً صرفاً مبرأ من نزوات الجسد ما دام
طلقاً من حواجز وأرصاد ، وكيف أتصوره وحياة أبطال الحب العذرى تنطق به ؟
يقول إميل لدفيج في هذا المعنى : « ثبت أن الحب في كل دور وتحت كل
سماء ولدى كل جيل حادث جثماني ، وقد يكون الحب غير ذی نتائج روحية ،
والحب قد حدث على هذا الوجه في ألوف المرات ، ولكن الحب لم يحدث قط
بلا نتائج جثمانية ، حتى إن بطة أشد ما وجد من الحب الروحاني — بياتريس —
تم لها الفوز بمنظرها الجثماني حينما رآها الشاب دانتي على الجسر ، فسحر بمظهر
هذه المرأة المجهولة^(٣) » .

وكأنما أحس أفلاطون بأن حب المرأة لا بد أن تشوبه المتعة الجسدية ضئيلة
أو غير ضئيلة ، ففضل حب الذكور على حب الإناث ، إذ قسم الحب إلى سماوى
علوى وأرضى عامى ، وميز السماوى بأن محوره حب الذكور لا النساء ، وجعله متعلقاً
بالروح ، فلا يعبأ بالجسد ولا يحتفل بلذاته ، لأنه حب عقلى ينشد الأرواح الصافية
والنفوس العالية والعقول الراجحة ، وغايته تحرر العقل وتبادل النفع الفكري ،
وهو وسيلة إلى الخلود ، والناس مختلفون في فهم الخلود ، فمنهم من يسعى إليه عن
طريق النسل ، ومنهم من ينشده بالروح والعقل ، وهؤلاء هم الخالدون حقاً .

كان أفلاطون ينظر إلى الحب هذه النظرة ، وهو ما يسميه علم النفس الحديث

. Homosexual Love

أما الحب الجنسى — وهو العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة — فقد اعتبره

(١) الأغاني ٦٥/١٠ .

(٢) الأغاني ٧١/١٠ خادر : مقيم في أجمته .

(٣) الحياة والحب : إميل لدفيج ١٦ .

حاجة جسمية لا تختلف عن الحاج الجسمية الأخرى مثل الطعام والشراب ^(١) .
وقد قرر في (الجمهورية) أن « من طبع الحب المشروع الرغبة في الجمال المتزن بطبع رزين متزن ، فلا يصح أن يلامسه جنون ولا دعاره ، لأن اللذة لا تدانى الحب ، ولا — يأتي الحب وحببه شيئاً من هذا النوع ، ومع أن الحب يلاصق محبوبه ويرافقه ويقبله قبله الأب ابنه بسبب جماله — إذا ارتضى المحبوب منه ذلك — يجب أن ينظم علاقته به على وجه لا يأذن بتجاوز هذا الحد إلى ما وراءه ، وإلا عدل لفظاظته وعدم ذوقه ^(٢) » .

البيئة العربية والحب

١ — عاش العرب في بيئة غنية بالجمال المطبوع وإن حرمت كثيراً من ألوان الجمال المصنوع ، فهناك يزرع القمر وضاح الجبين بساماً ، ويبعث أشعته الفضية للمدج والساھر فيخلب لبه ، وتلتئم النجوم سوافر في سماء أضيائة تناغى وتناجى ، وهنالك السكون الرھيب الباعث على التأمل ، والبراح الفسيح المتكشّف ، والحرية المطلقة ، وتحلل الحياة من أشاغيل المدنية وضجيج الحضارة ، هنالك ينفس الوقت لأن يخلو الشخص إلى نفسه ، وأن ينظر حياته بالحب ، ويملاً فراغه بالتفكير فيمن يحب .

٢ — والعربي حساس يأسره الجمال ، تمثل جمال بيئته « ذلك بأن الشاعر العربي القديم كان شاعر طبيعة ، يتأمل فيها ، ويبتها آلامه ، وينسى عندها أحزانه ويحبها ، ويفتن بها ، ويصورها كما امتثلتها نفسه ، تثير الأطلال شجنونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ورمالها وآلها وآبارها وواحاتها ونجومها وبرقها ومطرها ، فالشاعر الجاهلي إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدوياً أو راعياً كما صنع شعراء العصور الوسطى والقديمة الأوروبية . أما حين انتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية وتحرر من قيود الماضي فإنه

(١) Greek Love in The Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(٢) جمهورية أفلاطون ٧٩ ترجمة حنا خباز .

صور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بعد في بيئة مشابهة . وقد تناول شعر الطبيعة في العربية كما تناول عند الغربيين الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة^(١) . لكن جمال المرأة أغلى أفانين الجمال ، لأنه الجمال الحى الواعى الذى لا ينضب الإعجاب به ، وقد كانت المرأة العربية ذات جمال جسدى وروحى كما سبق ، فلا جرم كان جمالها ذا سلطان على الرجال ، ولا جرم أن أحبوها ، وأكثروا الغزل فيها . قال عمرو بن معد يكرب فى سلطان جمال المرأة :

والغانيات يُقتلنَ الرجال إذا صرَّجن بالزعران الرِّيط والنَّقبُ
إن الغواني قد أهلكننى تعباً وخلصن ضعيفات القوى كذبا^(٢)

وقد قيل لعذرى : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنمات كما ينمات الملح فى الماء ؟ أما تتجلدون ؟ » فقال : « إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها^(٣) » .

٣ — وكانت المرأة العربية ذات مكانة رفيعة فى البيئة العربية ، فطالما تقرب الشعراء إليها ، وخطبوا ودها ، وطالما شجّع الرجال وكرّموا مرضاة لها ، وطالما أشهدوا الأبطال على بلائهم ومفاخرهم كما سيجىء ، وعرف العرب لها قدرها ، حتى لقد وزنها جثامة بن عقيل بن علفة بالرجال :

أيعذر لاحتينا ويلسحين فى الصبا وما هن والفتيان إلا شقائق^(٤)

وفى أمثالهم : « إن النساء شقائق الأقدام » والشقائق جمع شقيقة وهى كل ما يشق اثنين ، وأراد بالأقدام الرجال ، ومعنى المثل إن النساء مثل الرجال ، وشققن منهم ، فلهن مثل ما عليهم من الحقوق^(٥) .

وما من شك فى أن هذه المكانة التى للمرأة مضافة إلى العوامل الأخرى ، من بواعث حب الرجل لها ، لأن الحب عاطفة يمازجها الإعجاب والاحترام ، والمرأة

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١٢ سيد نوفل .

(٢) الأغاني ٣٧/١٤ وفى الأصل النيط بدل الريط .

(٣) عيون الأخبار ١٣١/٤ . (٤) معجم البلدان ١٤٦/٤ يجب من أن

يعذرهم لأنهم فى الحب ثم لا تعذرهم المحبوبات (٥) معجم الأمثال الميدانى ٢٦/١ .

المتهمنة ليست أهلاً لأن تُحب ولا أن يتقرب إليها الرجال . لذلك يقول العلامة مكدوجل : « إن تقدير المرأة وإكبارها أساس لبناء العلاقة الجنسية على الحب ^(١) » .

ويكفي للدلالة على علو قدر المرأة في العصر الجاهلي أن أرسم لها صورة عجي كآنها المعالم إلى الطريق ، أما التفصيل فادعه إلى بحث آخر .

(١) كانت تتمتع بحق الملكية والتصرف فيما تملك ، ويلاحظ أننا بصدد تملكها لا بصدد طريقة هذا التملك ولا بصدد حقها في الميراث ^(٢) .

وحقيقة كانت القبيلة تتكون من المحاربين فحسب ، ولكن النسب إلى القبيلة شيء وحق الملكية شيء آخر ، وقد غفل المؤرخون العرب عن هذه التفرقة وقالوا : إن النساء والأطفال ما كانوا يرثون . فهل هذا صحيح ؟

إننا نميل إلى الشك في ذلك ، فقد كثر ذكر الوصاية على اليتامى في القرآن الكريم وأحاديث الرسول ، ومعنى ذلك أن لهم مالا ورثوه ^(٣) . وظل حق المرأة في الامتلاك والتصرف في ملكها إلى أواخر عصر ما قبل الإسلام وعلى الأخص في مكة ^(٤) .

وأوضح مثال على ذلك السيدة خديجة ، فقد كان لها مال ومتاجر ، وكانت تستأجر رجلاً من قريش ليتاجروا لها ، وقد تاجر لها النبي صلى الله عليه وسلم في اليمن وفي الشام ، وتقاضى أجره منها أربع بكرات في رواية ، وقلوصين في رواية أخرى ^(٥) .

وفي القرآن الكريم ما يدل على هذه الملكية وعلى حق التصرف فيها : « يأيتها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ^(٦) » ويقول الطبري في تفسير

(١) Introduction to Social Psychology. P. 365

(٢) Muslem law An Historical introduction to The Law of inheritance by Russell and Suhrawardy. P. 29—30

(٣) المرجع السابق ٢٧ — ٢٨ .

(٤) المرجع السابق ٢٤ .

(٥) إنسان العيون ١٤٧/٦ — ١٥٢ .

(٦) سورة النساء .

الآية إن ابن المتوفى أوقريه كان أحياناً يعضل زوجته فيمنعها من زواج غيره حتى
تموت أو ترد إليه صداقها لتفتدى به (١) .

ويذكر الزمخشري في تفسير الآية أن الرجل كان إذا تزوج امرأة ولم توافقه
حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدى منه بما لها وتختلع (٢) . وسواء أكان هذا
أم ذلك فإن للمرأة مالا ، وإن لها أن تتصرف في هذا المال .

وقد اختلعت بنت عامر بن الظرب من زوجها في الجاهلية (٣) .

وملكية المرأة صريحة في قول حاتم الطائي لزوجته :

تلوم على إعطائي المال رِضَةً إذا ضنَّ بالمال البخيل وصرَّداً

تقول ألا أمسك عليك فإنني أرى المال عند المسكين معبداً

ذريني وحالي إن مالك وافر وكل امرئ جارٍ على ما تعودا (٤)

وإذا كانت المرأة قد حرمت الميراث في العصر الجاهلي (٥) ؛ فقد كانت هنالك
طرق أخرى للملكية كالتجارة والوصية والهبة والهبة ، وبذلك كانت المرأة
العربية خيراً من الرومانية « لأن زوج المرأة الرومانية كان هو الذي يملك مالها
ويقوم عليها وصياً قبل موته (٦) » فهي محرومة حق الملكية وحق التصرف فيها .
وكانت أيضاً خيراً من المرأة الإنجليزية ، لأنها لم تملك إلا في عام ١٨٨٢ م ،
مع أنها كانت تؤدي أعمالاً مضنية ولكن أباه أو زوجها هو الذي يستولى على
أجرها (٧) ، فهي أيضاً لا تملك ولا تتصرف . وما زالت المرأة الفرنسية إلى اليوم
محرومة حق التصرف في ملكها .

(ب) على أنها إلى حقها في التملك والتصرف في ملكها كانت كثيراً

(١) تفسير الطبري ٢٠٧/٤ — ٢٠٩ .

(٢) الكشف ١٩٧/١ . (٣) عيون الأخبار ٧٦/٤ وبلوغ الألب ٥٣/٢ .

(٤) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠ .

(٥) تفسير الطبري ٧٦/٤ ، ٨٥ و ١٩١/٥ — ١٩٦ والكشف ١٩٠/١ .

والنيسابوري ١٩٥/٤ .

(٦) المرأة في العصور لأحمد خاكي ٢٥ — ٣٠ .

(٧) المرأة في العصور ٩٤ .

ما تستشار في زواجها ، فمثلا خطب دريد بن الصمة الخنساء وألح عليها أخوها معاوية أن تقبله زوجا فرفضت^(١) ، واستشار علقمة بن حفصة ابنته الزباء لما خطبها الحارث بن سليل^(٢) ، وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائي لما خطب إليه الحارث ابن عوف^(٣) ، وتخيرت معاوية بنت عفزر حاتما الطائي من خطابها الثلاثة^(٤) .

(ح) وكانت الزوجة تستمتع بمشاركة زوجها في شئونه ، وينصاع إلى مشورتها ، فقد رفض أوس بن حارثة أن يجيب الحارث بن عوف إلى خطبته ، ثم حملته زوجته على أن يقبل فاستجاب لها^(٥) ، وكذلك فعل غيره^(٦) ، وأطاع الخطيئة زوجته فقعده عن سفر^(٧) .

(د) وكانت المرأة تشارك الرجال في الحياة العامة ، فقد اشتركت عاتكة بنت مرة — زوجة عبد مناف بن قصي وأم هاشم والمطلب وعبد شمس — في حلف الأحابيش^(٨) ، ويقرب من هذا ما صنعه بعد ذلك في حلف المطيبين أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب^(٩) .

(هـ) وكانت تجير كما يجير الرجال ، فيمتنع من تجهيره من الأذى والعدوان ، فقد أجارت سبيعة بنت عبد شمس^(١٠) ، وأجارت أم هاني بنت عبد المطلب اثنتين من أحمائها يوم فتح مكة^(١١) ، وأجارت زينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام زوجها أبا العاص يوم بدر فأطلق بغير فداء ورد عليه ماله^(١٢) ، وأجارت امرأة

(١) الأغاني ٩ / ١١ والأمالى ٢ / ١٦١ والشعر والشعراء ١٢٢ وعيون الأخبار

٤٦ / ٤

(٢) المحاسن والأضداد ١٨٣ وجمهرة الأمثال ٧٠ ومجمع الأمثال ١ / ١١٠ .

(٣) الأغاني ٩ / ١٤٢ وجمهرة الأمثال ١٨٣ .

(٤) الأغاني ١١ / ١٠٤ والشعر والشعراء ٧٢ وجمهرة الأمثال ١٥٤ .

(٥) الأغاني ٩ / ١٤٢ . (٦) مجمع الأمثال للميداني ٢ / ٢٦٣ .

(٧) الأغاني ٢ / ١٧٧ . (٨) تاريخ يعقوبى ١ / ٢٧٩ .

(٩) سيرة ابن هشام والتعليق عليها ١ / ١٤٣ وتاريخ يعقوبى ١ / ٢٨٨ ، ١٦ / ٢ .

(١٠) الأغاني ١٩ / ٧٩ .

(١١) سيرة ابن هشام وفتح الباري ٨ / ٣٧ .

(١٢) الإصابة ٨ / ٩١ .

من دوس جماعة من قريش فأمضى الدوسيون إجازتها ^(١) ، وأجارت ربيعة بنت جذل الطعان دريد بن الصمة حين أسرته كنفانة ^(٢) .

(و) وكانت تشارك في الحياة الأدبية ، فتتنافس الرجال في قرض الشعر ، كالخنساء ، فقد أنشدت النابغة بمكافأ فأعجب بشعرها وقال لها : لولا أن هذا الأعمى — يعنى الأعشى — أنشدنى قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم ، ثم فضلها على حسان ^(٣) ، واحتكم امرؤ القيس وعلقمة إلى أم جندب زوجة امرئ القيس فأنشداها قصيدتين ^(٤) .

(ز) وكانت العصمة بيد الزوجات ، يطلقن رجالهن متى شئن ، والأمثلة على هذا كثيرة ^(٥) .

(ح) وكان العرب حراساً على كرامتها وإعزازها والضم بها ، حتى لقد تنشب حرب من جراء امتهاها ، كما حدث في اليوم الثانى من أيام الفجار الأول ، إذ اعتدى شباب من قريش وكنفانة على امرأة من بنى عامر ، فثار العامريون وقتلوا بنى كنفانة ^(٦) . وكما حدث بين اليمنيين وبين ربيعة ومضر ، إذ اعتدى لبيد بن عتبة الغسانی على زوجته عُمرة بنت الحُباب من تغلب ، وتنقص من قدر كليب بن ربيعة التغلبى ، فاقتتل الفريقان وانهزم اليمنيون ^(٧) .

(ط) وكانت تشترك مع الرجال في الحروب في الجاهلية ^(٨) ، بل قادت المحاربين في ذلك العصر كما فعلت أم قرفة في الجاهلية ، وكما فعلت هى وابنتها

(١) الإصابة ٨ / ٢٦٥ .

(٢) الأملى ٢ / ٢٧١ — ٢٧٣ .

(٣) مقدمة أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ٢٤ .

(٤) الأغاني ٢١ / ١١٢ .

(٥) الأغاني ١٦ / ٩٩ ، ١٠٢ وأخبار النساء لابن القيم ٥٤ والمحرر ٣٩٨ وذيل

الأملى ١٥٣ ومجمع الأمثال ١ / ٣١٨ ومعجم البلدان ٦ / ٣٠٧ .

(٦) الأغاني ١٩ / ٧٤ .

(٧) المرأة العربية ١ / ٥٩ وبكر وتغلب ١٥ — ٢٥

(٨) المعارف لابن قتيبة ٢٨٠ وديوان قيس بن الخطيم ١٤ وديوان حسان ١٣ وشعراء

النصرانية ٢٤١ وأيام العرب ١٣٢ / ١٦٢ .

سلمى في حرب الردة^(١)، وكانت تحرض على الثأر ولا تقر حتى تشفى غليلها^(٢). واحتفظت بهذه المشاركة في الحرب وبالتحريض على الثأر في صدر الإسلام^(٣). وهذه المرأة التي كانت قديرة على إشعال الحرب وتأريثها والاصطلاء بحرها كانت قديرة أيضاً على نشر لواء السلام وحقق الدماء، كما فعلت بهيمنة بنت أوس الطائي إذ حملت زوجها الحارث بن عوف على أن يصلح بين عبس وذبيان قبل أن يدخل بها — وهي عروس — فصعد بمشورتها وأصلح بين الحمين، وتحمل ديات القتلى^(٤).

وليس من موضوعي أن أتوسط في بيان مركز المرأة في الحياة الجاهلية، فإن لهذه الدراسة فرصة أخرى أرجو أن تهيأ لي قريباً، ولكن هذا لا يمنعني من أن ألمّ بمكانة المرأة في العصر الجاهلي إلاماً مجملاً.

وقد اعترف لها بمكانة عالية رسل Russell كما مرّ، كما اعترف لها المستشرق الإنجليزى نيكلسون Nicholson في قوله: «كان مركز المرأة ونفوذها في الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيماً، فقد كانت النساء حرات في اختيار أزواجهن وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيئت معاملتهن، وفي بعض الحالات كن يهبن أنفسهن للزوج، وكان لهن حق الطلاق، ولم يكن يعتبرن عبيداً أو سراري، بل أندداً ورفيقات، وكن يلهمن الشعراء لينشدوا، والمحاربين ليقاتلوا.

ولعل فروسية العصور الوسطى متأثرة بحياة العرب في الجاهلية. وقد جاء بكتاب اليبدي آن ومستر ويلفرد بلانت المسمى «القصائد الذهبية السبع في العصر الجاهلي» بالقدمة ص ١٤ هذه الفقرة: كانت الشهامة والخروج بالخليل بحثاً عن المغامرات وإيقاداً للعداوى من السبي، ومساعدة للنساء اللاتي نزل بهن الضيق،

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٣٤ وتاريخ يعقوبى ٢ / ٧٤ وسيرة ابن هشام ٤ / ٢٩٠

(٢) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ وجميع الأمثال للميداني ٢ / ٢٠٢ وديوان الحسناء ١٠٦ وحسانة البحرى ٣٣ والأمالي ٢ / ٢٢٦ وبلغات النساء لابن طيفور ١٦٧.

(٣) الإصابة ٨ / ٨، ٨٠، ١٩٩، ٢٣٥ وتاريخ ابن الأثير ٢ / ٦١ وألف باء للبلى ٢ / ٢١٠ وسيرة ابن هشام ٣ / ٦، ١٣ و ٤ / ٧٥ وشرح نهج البلاغة ٣ / ٣٥٩، ٣٦٦ والتمدين الإسلامى ٣ / ٥٤، ١٤٧ و ٥ / ٥٧.

(٤) الأغاني ٩ / ١٤٣.

كانت هذه فضائل عربية وأعمالا مجيدة يتحلى بها الفارس ، ذلك الرجل النبيل الأصل^(١) .

ثم شرع نيكلسون يذكر بعض شهيرات النساء ، ويعرض مواقفهن المشرفة
٤ — ثم هم ذوو فراغ ؛ لأن أكثرهم رعاة يسممون الإبل والشاء ، وقليلاً
منهم تجار يترددون على الأسواق بين الفينة والفينة ، وأقل من هؤلاء زراع
وصناع ، وهؤلاء جميعاً في أوقاتهم سعة ، وفي أعمالهم دعة ، وهذا الفراغ في هذه
البيئة مجال خصيب للحب ينبت فيه وتمتد جذوره وتعلو سوقه ، يقول الجاحظ :
« رجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه
يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن ؛ لأن في الرياسة
الكبرى وفي جواز الأمر ونفاذ النهى وفي ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى
العقل عن التوغل في الحب والاحتراق في العشق^(٢) » ، والجاحظ على صواب ؛
لأن الحب لا يعشش ويفرخ إلا في القلوب الفارغة له ، أما القلوب المشغولة بالكدح
في طلب القوت ، أو بالعمل العظيم الذي ينتهب الوقت ، فإنها ليست من أوكاره ،
وإن أوى إليها حيناً من الدهر ، شعر بضيقها ، وفر عنها إلى أوكار أرحب ،
وأهنأ وأنعم .

وقد ردّد داود الأنطاكي رأى الجاحظ ، فجعل أشد الغرام ما كان عن فراغ ،
وبنى على هذا أن أخف الناس عشقاً الملوك ، ثم من دونهم ، لاشتغالهم بتدبير
الملك ، وقدرتهم على مرادهم ، ومن دونهم أفرغ له ، لقلّة الاشتغال ، حتى يكون
المتفرغون له هم أهل البادية ، لأنهم غير مشغولين بعوائق ، ولذا فهم أكثر
الناس موتاً بالحب^(٣) .

وما زال الفراغ إلى اليوم من الظروف المواتية للحب ، ولهذا يقول إميل
لودفيج : إن الحب في أمريكا نادر لأن الناس هنالك مشاغيل بالعمل الذي لا يفتر^(٤)

(١) A Literary History of The Arabs. Nicholson. P. 87—92.

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٦ من رسائل الجاحظ .

(٣) تزيين الانسواق . داود الأنطاكي ٩ .

(٤) الحياة والحب ٦٢ — ٦٣ .

ويقرر أن الريف أكثر ملاءمة للحب من المدن ، لأن الحب يتطلب حياة هادئة لا كد فيها ، وفي الأمثال : العطلة أم كل علة ، ولو استبدلنا كلمة الشهوة بكلمة العلة لم نخطئ إلا قليلا ، ولا يصح أن نزرى العطلة وفق آداب القرون الوسطى ، بل يجب أن ننشدها مصدراً للفلسفة والشعور^(١) .

٥ — وفي البيئة العربية كان الفتيان يخالطون قريباتهم وبنات أعمامهم ، وكثيراً ما كانوا ينشئون معاً في بيت واحد ، فإذا ما كبر الفتى ونضجت الفتاة تحابا ، كما أحب عروة بن حزام عفراء بنت عمه^(٢) ، وكما أحب الصمة بن عبد الله ابن مسعود بن رقاش ريا بنت مسعود بن رقاش^(٣) ، وكما أحب الخبل القيسي ميلاء بنت عمه^(٤) ، وكما أحب المرقش الأكبر بنت عمه أسماء^(٥) .

٦ — ثم كان الفتيان يحدثن ويخالطون غير القريبات ، في مضارب الخيام ، وفي الفضاء ، وفي الترحال ، وفي رعى الأغنام ، كما أحب قيس بن الملوح ليلى — في العصر الإسلامي — وهما يرعيان الغنم معاً ، يدل على ذلك قوله :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابةٍ ولم يَبْدُ للآتراب من ثديها حجم
صغيرين نزعى البُهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البُهم^(٦)

وكانت ظروف الحياة مدعاة للخلاط والحديث ، ولقد يخشى أهل الفتاة مغبة هذا الحديث فيحاولون أن يمنعوها ، وربما لا يستجاب لهم ، فمثلا كان القتال السكابي يتحدث إلى ابنة عم له اسمها العالية ، فرآه أخوها فهناه ، وحلف لأن رآه ثانية يتحدث إلى أخته ليقتلنه ، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها ، فأخذ السيف وبصر القتال به فخرج هاربا^(٧) .

وعلم الإصبع بن محسن بحب مالك بن الصمصامة لأخته جنوب ، فألى

(١) الحياة الحب ٣٨ .

(٢) الأغاني ١٥٢/٢٠ والشعر والشعراء ٢٣٧ والامالي ١٥٧/٣ والنوادر ١٥٧ .

(٣) تزيين الأسواق ٩١ . (٤) الأغاني ١٦٠/٢١ .

(٥) الأغاني ١٨٠/٥ والشعر والشعراء ٥٤ .

(٦) الأغاني ١٨٠/٥ . (٧) الأغاني ١٥٩/٢٠ .

عِيناً لئن عرض لها أوزارها ليقْتَلَنَّهُ ، ولئن عرَّضَ بها في شعره أَوْذَ كرها ليأسرَنَّهُ
ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته في نادى قومه ، فبلغ ذلك مالكا فقال :

فما الحلق بعد الأسر شرُّ بَقِيَّةٍ من الصدِّ والهجرانِ وهى قريبُ
أحقا عبادَ الله أن لستُ خارجا ولا والجاً إلا على رقيب
ولا زائراً وحدي ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مرِيب
وهل ريةٌ في أن تحن نجمة إلى إلفها أو أن يحن نجيب^(١)

ولقد يبيحون الحديث ثقة بعفة الرجال والنساء ، وكرامة أنفسهم عليهم ، قال
سويد بن أبي كاهل اليشكري :

تُسَمِّعُ الحَدَّثَاتُ قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يستمع^(٢)
فلم يكن الحديث محظوراً دائماً ، وإنما كان يباح كثيراً « لما يرون من النقص
في الرِّيب ، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران ، وما يعرف بعضهم عن بعض من
الوفاء والتحرز من العار^(٣) » .

وقد روى أن سبب حب قيس بن الملوح لليلي أنه جلس يحدث نسوة وفيهن
ليلى ويقص عليهن شعراً فأعجب ليلي وأعجبته^(٤) .

وطالما تغنى الشعراء بعدوبة حديث النساء وسجره ، ووصفوه بالجد والحياء
والعفة كما سيجىء في حديث المرأة ، وهذا أدعى إلى تعلق الفتى بالفتاة ، وإعجابه
بنبلها ، قال عدى بن زيد :

هَمَّجِ الداءَ في فؤادك حورُ ناعمت بجانب المِلْطاط
أنسات الحديث في غير فحش رافعات جوانب الفُسطاط^(٥)

ولقد يجر الحديث إلى مجالسة ، ومؤانسة ، قال حسان :

ولقد تجالسنى فيمنعنى ضيق الذراع وعلة الخفر^(٦)

(٢) الفضليات ١/١٩٠ .

(١) الأغاني ١٩/٨٣ .

(٤) الأغاني ٢/١٢٠ ، ٤٢ .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ .

(٥) معجم البلدان ٨/١٤٩ المِلْطاط : طريق على ساحل البحر (٦) ديوان حسان ٤٤

ولقد يلتقى المتحابون فيتباثون الشكوى ، وينفض الشاعر ما بدخلته أمام محبوبته ، ويسكب في سمعها وقلبها من رُقَى شعره ، ثم لا يزيد على ذلك ، قال محمد بن يحيى المدني : « سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها يفرح إن رأى من رآها ، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتنشدا الأشعار ، فالיום يشير إليها وتشير إليه ، فإذا التقيا لم يشكوا حبا ولم ينشدا شعرا ، وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه ^(١) .

٧ — وكانت النساء والرجال يجتمعون في طوافهم بالأصنام ، يدل على ذلك قول الأزهري : الدَّوَّار صنم كانت العرب تنصبه ويجعلون حوله موضعاً يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدَّوَّار ، ومنه قول امرئ القيس :

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نَعَاجِهِ عَذَارَى دَوَّارٍ فِي مُلَاءٍ مُذَلِّلٍ

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة ^(٢) ، ويرى هشام بن محمد الكلبي أن الدَّوَّار هو الطواف بالأصنام والأوثان والحجارة الغُبر المنصوبة ^(٣) .

وسواء أكانت اللغة قد أطلقت الكلمة على صنم أم على موضع الطواف به ، أم على الطواف نفسه ، فإن بيت امرئ القيس يكشف عن صلة بين العذاري والطواف بالأصنام .

ولا بد أن الطائفت بالأصنام والأوثان والأنصاب كن يتخذن زيتنهن ، ويظفن في رشاقة ودلٍ فيصبن الرجال ، يدل على ذلك قول عامر بن الطفيل — وقد أتى أخواله غني بن أعصر يوماً وهم يطوفون بنصب لهم ، فرأى في فتياتهم جمالاً وهن يظفن بالانصب — :

أَلَا يَا لَيْتَ أَخْوَإِي غَنِيًّا عَلَيْهِمْ كَلَّمَا أَمْسُوا دَوَّارَ ^(٤)

(١) أخبار النساء ١٨ .

(٢) تاج العروس مادة (دور) وفي القاموس المحيط : الدوار مثل كنان وتضم الدال أيضاً وبتخفيف الواو أيضاً : الكعبة وصنم . وقد شبه إناث البقر الوحشي في مشيها وطول أذنا بها بجوار يدرن حول الصنم وعليهن الملاء الطويل المهذب .

(٣) الأصنام ٣٣ ، ٤٢ .

(٤) الأصنام ٤٢ .

وكان المحب يعنى نفسه أن يلتقى حبيبته فى الدوار إذا كانت حاله لا تتيح له أن يلتقاها فى غيره ، يقول الحادرة : إن سمية هجرتنى وحرمتنى أن أراها ، وليس لى أن أرجو لقاءها إلا فى يوم الدوار ، على أنى فى شك من لقاءها فى هذا اليوم :
أَمَسْتُ سُمَيَّةً صَرَمْتُ حَبْلِي وَنَأْتُ وَخَالَفْتُ شَكْلَهَا شَكْلِي
وَرَجَاؤُهَا يَوْمَ الدَّوَارِ كَمَا يَرْجُو الْمُقَامِرُ نَيْلَةَ الْخُصْلِ^(١)

٨ — على أن الأسواق الكبرى ومواسم الحج فى الجاهلية كانت مشاهد يفد إليها العرب من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ومن طبيعة المرأة أن تأخذ زينتها فى هذه المواطن ، فيراها الفتيان فيعلقون بها ، قال قيس بن الخطيم :
وعهدى بها أيام نحن على منى وأحسن بها عذراء ذات ذوائب^(٢)
وقد بقى موسم الحج والاجتماع مثاراً للحب وللغزل إلى الإسلام ، وهو عصر تصوُّن أكثر من العصر الجاهلى ، فقد روى فى سبب حب جميل لبثينة أنه :
« خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزينن ويبدون للرجال فى كل عيد ، فرأى بثينة وأختها أم الحسين فى نساء من بنى الأحب فأعجبته ، وعشق بثينة^(٣) » .
وانتهز قيس بن الملوح فرصة الحج ليرى ليلى ، فرآها ، وأطال النظر إلى بناتها الخضوب وهى تقذف الجمار :

فلم أرَ ليليَ بعد موقف ساعة خفيف منى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المحصب^(٤)
وأفاض عمر بن أبى ربيعة فى ذكر موسم الحج ، وكان ربيعاً لغزله ، فقد أبصر حسناء ممرّة بين المقام والحجر :

أبصرتها ليلة ونسوتها عشرين بين المقام والحجر
بيضا حسانا نواعماً قُطُفَا عشرين هوناً كمشية البقر^(٥)

(١) ديوان الحادرة ١٤ نيلة الخصل : نيل الغلب ، أى كما يرجو المقامر أن يغلب خصمه لأن الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس . وأحرز خصله أى غلب .
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١١ (٣) الأغاني ٦٧/٧ .
(٤) الأغاني ٢٠/٢ المحصب : موضع رمى الجمار بمعنى .
(٥) الأغاني ١٧٠/١ قُطُف : قريبات الخطأ .

وأبصرها مرة ترمى الجمار :

فلقيتها تمشي بها بَغْلَاتِهَا ترمى الجمار عَيْشِيَّةً في موكب^(١)

لهذا يجب عمر موسم الحج ، فيقول :

حبذا الحج والثريا ومن بالْ خَيْفٍ من أجلها ومُلِقَ الرَّحَالِ^(٢)

وكذلك كان موسم الحج عند عبید الله بن قيس الرقيات ، فقد حجت رقية بنت عبد الواحد العامرية ، فطافت ليلة بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وكان من وراءها عبید الله فأهوى يستلم الركن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفتحته بردتها فارتدع . ثم قال لصاحبه فند : من هذه ؟ فقال له : إنها رقية ، فقال :

من عذیری ممن یضن بمبذو ل لغیری عند الطواف
وقال أيضا :

سائلا فنداً خلی کیف أردان رقیه
إنی علقت خوذاً ذات دلّ بخنّتریه^(٣)

٩ — وكانت الأديار في العصر الجاهلي كثيرة ، وكان العرب على صلة بها ، وكانت ينبوعاً آخر للحب .

منها دير هند الصغرى — بنت النعمان بن المنذر — بالحيرة^(٤) ، ودير هند الكبرى — بنت هند أم عمرو بن هند — بالحيرة أيضا^(٥) ، ودير سعد^(٦) ، ودير عمرو بجبال طيء ، وقد ذكره زهير^(٧) والأخطل يذكر دير أبي على جانب الفرات^(٨) ، وبالحيرة أيضا دير اللج بناء النعمان بن المنذر أبو قابوس^(٩) ، وبها دير حنظلة الطائي وكان قد نسك في الجاهلية وتنصر وبني هذا الدير^(١٠) ، ودير حذّه

(١) الأغاني ٢٠١/١ . (٢) الأغاني ٢١٣/١ .

(٣) الأغاني ٩٦/٥ . بخرية : حسنة المشي والجسم محتالة (٤) معجم البلدان ١٨٢/٤ .

(٥) المعجم ١٨٣/٤ . (٦) المعجم ١٤٦/٤ .

(٧) المعجم ١٥٩/٤ . (٨) معجم البلدان ١٦٧/٤ .

(٩) معجم البلدان ١٦٧/٤ . (١٠) معجم البلدان ١٣٤/٤ .

بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع^(١) ، ودير عبد المسيح بن عمرو بن بقبيلة الغسانى وهو الذى صالح خالد بن الوليد لما غزا الحيرة^(٢) ، وبالقرب من الموصل دير العذارى ، سعى بذلك لأن به نساء عذارى قد ترهبين وأقمن للعبادة^(٣) . ولم يكن الدير محبسا للزهادة والعبادة فحسب ، بل كان مشربا للخمر المعتقة ، ومجلسا محببا إلى الندامى ، قال عدى بن زيد فى دير علقمة بالحيرة :

نادمت فى الدير بنى علقمًا عاطيهم مَشْمُولَةً عَندَما
كأن ريح المسك من كأسها إذا مزجناها بماء السما
علقمُ ما بألك لم تأتِنا أما اشتهيت اليوم أن تنعما
من سره العيش ولداته فليجعل الراح له سُسَما^(٤)

وكان الدير أيضاً مبعث حب وغزل . فإن الفتيات يشخصن إليه زارات مزدانات ، فيسبين قلوب الفتيان ، قال أبو دؤاد الإيادى لصاحبه :

بل تأملْ وأنت أبصرُ منى قصدَ دير السَّوَا بعينِ جليّه
لمن الظعن بالضحا واردات جدولَ الماء ثم رُحْن عَشِيّه
مظهرات رَقَمًا تُهال له العي نِ وَعَقْلًا وَعَقْمَةً فارسية^(٥)

وقيل فى دير اللج إنه حبيب إلى القلب ، يحل به غزال جميل حلو النغم ، إذا رجع الإبحيل وتمايل سبى واجتذب وهاج الحنين :

سقى الله دير اللج غيثا فإنه على بعده منى إلى حبيب

(١) معجم البلدان ٤/ ١٣٥ .

(٢) معجم البلدان ٤/ ١٥٤ . (٣) معجم البلدان ٤/ ١٥٦ .

(٤) معجم البلدان ٤/ ١٥٨ مشمولة : خمر عرضت لريح الشمال فبردت . العندم : دم الأخوين والبقم (وهو شجر أحمر الساق يصنع بطبخة) والمراد أن الخمر حمراء .

(٥) معجم البلدان ٤/ ١٥٠ الرقم : ضرب مخطط من الوشى أو الخرز أو البرود . العقل ثوب أحمر يحلل به الهودج أو ضرب من الوشى . العقمة : بفتح العين وكسرهما المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر ، وبالكسر الوشى .

يَهَيِّجُ ذَكَرَاهُ غَزَالٌ يَحْمِلُهُ
إِذَا رَجَعَ الْإِنْجِيلَ وَاهْتَزَّ مَائِدَا
وَهَاجَ لِقَلْبِي عِنْدَ تَرْجِيْعِ صَوْتِهِ
أَغْنُ سَحُورِ الْمُقْلَتَيْنِ رَيْبُ
تَذَكُّرِ مُحْزُونٍ وَحَنِّ غَرِيبٍ
بِلَالُ أَسْقَامٍ بِهِ وَوَجِيبُ^(١)

ويقول ورد بن الورد الجعدي في دير حبيب :

وَإِنْ مَرَّ رَكْبٌ مُصْعِدُونَ فَقَلْبُهُ
مَعَ الرَّائِحِينَ الْمُصْعِدِينَ حَبِيبُ
سَلِ الرِّيحُ إِنْ هَبَتْ شِمَالًا ضَعِيفَةً
مَتَى عَهْدَهَا بِالنَّوْفَلِيَّاتِ حَبِذَا
شَوَاكِلُ ذَاكَ الْعَيْشِ حِينَ يَطِيبُ^(٢)

وطالما جرّع عبد المسيح بن بقميلة مرارة من حب علق به من دير الجرعة بالحيرة من حسناء زائرة للدير لا راهبة :

كَمْ تَجَرَّعْتَ بَدِيرَ الْجُرْعَةِ
مَنْ بَدُورٍ فَوْقَ أَغْصَانٍ ، عَلَى
غُصَصًا كَبِدِي بِهَا مَنْصُوعَةٌ
كُثْبُ زُرْنٍ احْتِسَابًا بِبَيْعِهِ^(٣)

ولقد تهجّع الحبيبة بالدير ، ومحبتها يقضى الليل أرقاً ، قال المرّار الفقعسي :

أَحَقًّا يَا حَرِيزُ الرِّهْنِ مِنْكُمْ
تَصِيحُ إِذَا هَجَعْتَ بِدِيرٍ تَوْماً
فَلَا إِصْعَادَ مِنْكَ وَلَا قُفُولَا
إِذَا مَا صَحْنُ قَلْتُ : أَحْسُ صَبْحًا
حَمَامَاتُ يَزْدُنَ اللَّيْلُ طَوْلَا
خَلِيلٍ أَقْعَدًا لِي عَلَلَانِي
وَقَدْ غَادَرْتُ لِي لَيْلًا ثَقِيلَا
وَصَدًّا لِي وَسَادِي أَنْ يَمِيلَا^(٤)

وكان سبب عشق عدى بن زيد لهند بنت النعمان بن المنذر أنه رآها في خميس الفصح فتقرب في البيعة فوقع في نفسه ، ثم قصدت بيعة توما بعد ذلك فتبعتها^(٥) ثم تحابا ، وتزوجها .

(١) معجم البلدان ١٦٧/٤ سحور المقلتين : شديد سحرها . ريب : مرئوب معني به وجيب : خفقان .

(٢) معجم البلدان ١٣٢/٤ ولم يعرف ياقوت موضع هذا الدير . وفي البيت الثاني إقواء حبيب : الحبيب ضرب من العدو . النوفليات : شيء من صوف تختمر عليه نساء العرب ، والمراد هنا النساء . شواكل : مذهب وطرق .

(٣) معجم البلدان ١٣١/٤ . (٤) معجم البلدان ١٢٩/٤ .

(٥) الأغاني ١٢٨/٢ — ١٣٢ .

ثم كانت المرأة العربية — على جمالها الجسدى والروحى الذى فصلته —
 لقينة لينة راوية للشعر ، وبحسب الشاعر الغزل أن يجد هذه التى تجاوبه ، وتذكر
 نفثاته وخلجاته ، وتفهم قيمة الدر الذى ينظمه إعجاباً بها وشوقاً إليها ، وأخبارهن
 فى ذلك كثيرة ، منها أن الفارعة بنت أبى الصلت أنشدت النبى صلى الله عليه وسلم
 بعد الطائف قصائد من شعر أخيها أمية ، إحداهما القصيدة التى مطلعها :

باتت همومى تسرى طوارقها أ كُف عيني والدمع سابقها ^(١)

وكانت رياء بنت مسعود بن رقاش حبيبة الصمة بن عبد الله بن مسعود بن
 رقاش تتذاكر معه الشعر ^(٢) .

وقد كان ذلك فى الإسلام أيضاً ، فإن قيس بن الملوح جلس يحدث نسوة
 فيهن ليلى ويروى لهن شعراً فأحب ليلى وأحبته ^(٣) .

١١ — ثم كانت هنالك مجالس للغناء مشهودة ، وطالما تغنى الشعراء بجمال
 القيان ، كقول طرفة :

ندامى بيض كالنجوم وقينةٌ
 رحيب قطاب الجيب منها رفيقةٌ
 إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا
 إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها
 تروح علينا بين بردٍ ومجسد
 بجس الندامى بضة المتجرد
 على رسلها مطروفة لم تشدد
 تجاوب أظار على ربع ردى ^(٤)
 وقول سلامة بن جندل :

وعندنا قينةٌ بيضاء ناعمة
 مثل المهابة من الحور الخرايب

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة . ابن حجر ١٥٦/٨ .

(٢) تزيين الأسواق ٩١ — ٩٢ . (٣) الأغانى ١٢/٢ ، ٤٢ .

(٤) ديوان طرفة ٢٥ ندامى : صجى على الشراب . بيض : أعلام مشاهير . برد :
 ثوب موشى . مجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران . أى تروح إلينا وعليها برد ومجسد . قطاب
 الجيب : مجتمعة . ووصفه نالسة لأنها كانت تجعله كذلك ليبدو صدرها . رفيقة بجس الندامى :
 يامسونها ويمسونها فلا تخش لهم أو المراد بالجلس الطلب أى تجيبهم إلى ما يطلبون من غنائها .
 بضه : بيضاء ناعمة . المتجرد : ما سترته الثياب من الجسد . على رسلها : على مهلبها . مطروفة :
 قاترة الطرف . لم تشدد : لم تجتهد وتجهد وإنما أخذت تغنى بغير مشقة .

تُجْرَى السواك على غُرٍّ مُفَلَّجَةٍ لم يَغْرِها دَنْسٌ تحت الجلايب (١)

وقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيآن يعزفن بالدفِّ لفتيانا وعيشاً رَحِيّاً

يتبارن في النعيم وَيَصْبُهُ من خلال القرون مسكا ذكيا

إنما همهن أن يتحلين من سموطاً وَسُنْبُلًا فارسيا

من سموط المِرجان فصل بالدر فَأَحْسَنُ بِحَلِيْهِنَّ حُلِيّاً (٢)

ويظهر أن أكثر القيآن كن غير عربيات ، ولعل العرب أنفوا من صناعة الغناء وإن كانوا قد طربوا له . يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه في الجاهلية عند جبلة بن الأيهم ، وجاء في وصفه أنه سمع عشر قيآن : خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة (٣) . ولكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللاتي يغنين غناء أهل الحيرة ، أهن فارسيات أم عربيات ؟ ويدل على ذلك أيضاً أن الدكتور بيرون ذكر في كتابه عن النساء العربيات أن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ويستنتج أن أكثرهم من الأحباش لأن أكثر العبيد كانوا أحباشاً (٤) . ومما يؤيد رأيه هذا أن العرب عرفوا القنين واستعملوه في الجاهلية ، والقنين من أسماء الطنبور عند الأحباش ، ولا شك أن أدوات الموسيقى وثيقة الاتصال بالغناء ، وقد ذكر الجاحظ من مفاخر السودان تفوقهم في الغناء والرقص (٥) .

ويدل على ذلك أيضاً أن المستشرق ليال Lyall يقول إنهن كن فارسيات أو يونانيات من سوريا وأنهن كن يغنين بالعربية وربما كن يغنين بلهجة أجنبية (٦)

(١) الفضليات ١١٨/١ المهابة : البقرة الوحشية . الخرايب : جمع خرعوب ، وهي الشابة الحسنة القوام الرخصة اللينة . غر : بيض . مفلجة : ذوات فلج وهو تباعد ما بين الأسنان . لم يغرها : لم يلصق بها ، أراد أنها عفيفة .

(٢) الأغاني ١٦٤/٩ الدار . سموط : قلائد .

(٣) الأغاني ١٤/١٦ . (٤) بلال راعي السماء . العقاد ١٥٠ .

(٥) رسالة نحر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٥٤

(٦) الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية ٥٤ شوقي ضيف .

وأن فون كريمر يذهب إلى أنهم كن فارسيات أو يونانيات يغنين بلسانهم اليوناني أو الفارسي (١).

كانت القيان يغنين بلغات غير عربية أحياناً ، كما سبق في قول حسان ، وكما ذكر أبو الفرج عن الأعشى أنه كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي ، وفي ذلك يقول الأعشى :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تنأخي بأبوابها
زور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها
وشاهدنا الجُل والياسم بين والمسمعات بقصائبها
وبربطنا دائم معمّل فأى الثلاثة أزرى بها ؟ (٢)

ولكن هنالك نصوص صريحة الدلالة في أنهم أيضاً كن يغنين باللغة العربية ، من ذلك قول عبدة بن الطيب :

ثم اصطبحت كميتاً قرّفاً أنفاً من طيب الراح ، واللذات تعليل
صرفاً مزاجاً وأحياناً يعللنا شعر كمذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداء آنسة في صوتها لسماع الشرب ترتيل (٣)

ومن ذلك أنه كان بمكة قينتان فارسيتان لعبد الله بن جدعان تغنيان الناس (٤) والغناء للناس يترجح أن يكون بالعربية ليفهموه ، لأنه غناء للشعب ، ومن ذلك أيضاً أنه كانت بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء ، فتعقل له وأصلحه (٥).

(١) A History of Arabian Music. Farmer. P. 17.

(٢) الأغاني ٦/٦٩ — ٧٠ ومعجم البلدان ٤/١٧٩ المسامع : المغنيات . القصاب :

الزمار . البربط : العود (مغرب) .

(٣) المفضليات ١/١٤٣ كميتا : خمر في لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها رعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفاً مزاجاً : نشر بها خالصة لطيفها وكأنها ممزوجة بالماء سهولتها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التي تزوق بها السقوف . محمول : مروي ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريباً وترجيحاً . حواشيه : أطرافه . جيداء : طويلة الجيدة . آنسة : منبسطة متجدثة . نصفدها : نعطيتها . سرايل : ثياب .

(٤) الأغاني ٩/١٥٧ ساسي

(٥) الأغاني ٨/٣٢٧ الدار

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبد مناف ، وكان مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأسألت ، وشكت إليه حاجتها وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان في غنائك ما يغنيك ؟ فقالت : إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل بيدركوا الغناء ، فوصلها صلى الله عليه وسلم ، ثم رجعت إلى قريش حاملة كتاب حاطب بن أبي بلتعة وارتدت عن الإسلام ^(١) .

وقد تغنت القيان بشعر المهجاء أيضاً ، فقد كان لابن خطل قينتان تغنيانه بهجاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يوم فتح مكة أمر رسول الله بقتله وقتلهما ، فقتل وقتلت إحدى قيمتيه ، واستؤمن رسول الله للأخرى فأمنها وأسلمت ^(٢) .

وكانت هريرة — محبوبة الأعشى — وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مَرثَدٍ ، وكانتا تغنيانه النصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان ^(٣) ، والنصب غناء عربي صرف .

لهذا لا أوافق على أنهن كلهن كن غير عربيات ، كما ذهب ليال وفون كريم ، وأرى أن بعض القيان كن عربيات . ويعزز ذلك أيضاً أن ماوية بنت عفزر كانت على سمو مكانتها تلقى فتيان العرب فيفيضون إليها بأشعارهم فتوقعها ، وتلقيها عليهم بصوت يهزهم هزاً ^(٤) .

وقد كانت القيان ينبوع متعة ومبعث حب ، افتنَّ فيه الشعراء افتناناً ، لأنهم كانوا يجتمعون في مجالس الغناء ، فيشربون ويسمعون ويطربون ويعشقون . وقد أحب الأعشى هريرة ، وتغزل فيها كثيراً ، وكانت هريرة وأختها خليدة قيمتين لبشر بن عمرو بن مَرثَدٍ ^(٥) .

وظلت القيان ينبوع حب إلى ما بعد العصر الجاهلي كما كن في العصر الجاهلي ، فمثلا يتحدث أبو الجديده أنه سمع رقطاء الحبشية ، فأحبها وزف خلفها زفيف النعامة ثم أودعها قلبه ، وخلفه لديها ، وعاد يهوى كالرخصة بغير قلب ^(٦) ، وقد أحب ابن

(١) إنسان العيون ٨٧/٣ . (٢) إنسان العيون ١٠٥/٣ .

(٣) الأغاني ٧٧/٨ ساسي . (٤) الأغاني ١٧/١٠ ساسي .

(٥) الأغاني ٧٧/٨ . (٦) الأغاني ٢٨٨/١ .

الرومي المغنية مظلومة وتغزل فيها ^(١) ، وأحب المغنية وحيد ، وأوحى إليه حبها بقصيدة حارة رائعة صرح فيها بأنه متيم معمود ^(٢) .

واشتهر عبد الرحمن بن أبي عمار القسّ بحب سلامة ^(٣) .

ثم كانت الإمامة ماثرة نوع آخر من الحب والغزل كما سأوضح في الغزل الحسي ١٢ — وقد اتصف كثير من رجال العرب بصفات نفسية تجبهن إلى النساء ، وسأوضح هذا في آثار الحب والحبيبة في نفس الشاعر ، كما اتصف بعضهم بحال جسد ، حتى لقد كانوا يتعممون بمكة — كما قيل — مخافة الافتتان بهم ، وقد ذكر محمد بن حبيب كثيراً منهم ، كخنظلة بن عثمان بن عمرو ، والحضر ، والزبرقان بن بدر ، وسليع الطهوي ، وأعفر اليربوعي ، وزيد الخليل الطائي ، وقيس بن الخطيم ، وامرئ القيس بن حجر ^(٤) .

* * *

في هذا المجتمع الذي تواتى ظروفه الحب كانت الرؤية الأولى كافية لأن تصيب سهامه القلوب ، والحب في أكثر حالاته وليد نظرة ولقّية ، فما هو إلا أن ينظر الفتى العربي فتاة من قريباته أو من غيرهن ويروقه جمالها حتى يعلق بها وتصير ليلاه . وليس العاشق بالخيار في هذا ، وليس لأحد أن يسأله : كيف أحبت من النظرة الأولى ؟ كيف أحبت قبل أن تتعارفا ؟ لأن روح النوع هي التي ألهمت وأوحت .

وليس يقع الحب من النظرة الأولى نادراً ، بل إنه الأعم الأكثر ، وأمثله شتى ، منها « غرام الصبي دانتى بالصبية بياتريس ، والرجل بترارك بالمرأة لورا ، وقد استأثر هذا الحب على ما فيه من حرمان بمجامع قلب الشعراء مدى حياتهما ، وقد جلا شكسبير هذه الحقيقة في قوله : لم يحب قط من لم يحب لأول نظرة » ^(٥)

(١) ديوان ابن الرومي ٢١٥ .

(٢) ديوان ابن الرومي ٩٨ .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ١٧ والأغاني ١٣٦/٦ و ٦/٨ .

(٤) المحبر لأبي جعفر محمد بن حبيب ٢٣٢ .

(٥) ملخص رأى شوبنهاور . هلال نوفمبر ١٩٣٤ .

وقد أحب عبد الله بن علقمة حبيبته من أول نظرة لما رآها تحلب ناقة وقد ضرب الهواء سبباً أخضر على وجهها فانكشف^(١).

وروى أن قيس بن الملوح أحب ليلي من أول لقاء ومن أول نظرة^(٢) كما أحب دريد بن الصمة تماضر بنت عمرو — الخنساء — من النظرة الأولى وعبر عن حبه بقصيدة منها :

حيُّوا تماضر وارْبِعُوا صَحْبِي وَقِفُوا فَإِنْ وَقَوْفَكُمْ حَسْبِي
أَخْنَأْسُ قَدْ هَامَ الْفَوَادُ بِكُمْ واعتاده داءٌ مِنْ الْحُبِّ^(٣)
ويكاد الأدباء والمجربون للحب يدينون بأثر النظرة الأولى ، فإذا كان شكسبير يرى أن الذي لم يقع في شرك الحب من النظرة الأولى فليس بمحب حياً حاراً ، غالباً فإن إميل لودفيج يرى كذلك أن الحب مبدؤه نظرة : « بدء الحب نظرة ، والذي يدفع أحد العاشقين إلى الآخر ويجعل من الغريبيين شخصين متحابين يتبادلان التأثير إنما هو مقابلة ولو هنيئة على الأقل ، يكون فيها تبادل نظرتين ناظقتين عند التقائهما بكلمة (أحبك) ، فالعين رسول تلك الجاذبية التي بين الأرواح ، ومن النادر أن يفتن شخص آخر بالصوت وحده غناء ، أو نداء أو كلاماً »^(٤).

ويقول شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء^(٥)
فلست أوافق ابن حزم في أن الحب من النظرة الأولى يتصف دائماً بأنه سريع الزوال وبأن الحب سريع السلو عنه ، لأن أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناء ، ولأن أبطأها حدوثاً أبطؤها نفاداً ، لذا يدوم الحب إذا كان بعد طول مخافة ومشاهدة وأنس ، لأن ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً^(٦) ، ولست أوافق ابن داود

(١) تزيين الأسواق ٧٧ . (٢) الأغاني ١٢/٢ .

(٣) الأمالي ١٦١/٢ .

(٤) الحياة والحب ١٨ . (٥) الشوقيات ١٣٩/٢ .

(٦) طوق الحمامة ٢٠ — ٢٢ .

الظاهري في هذه النظرة إلى الحب الذي ينشب سريعاً ، فهو يرى كما رأى ابن حزم أنه لا يستقر في القلب ، بل يزول إذا ما ابتلى بطارىء ، ومن عشق بأول النظر سلا مع أول الظفر^(١) .

لا أوافقهما لأنهما يقيسان العاطفة بالمادة فيطبقان على العواطف ما يجري على المواد من بقاء النماء وبطء الفناء ، وسرعة النماء وسرعة الفناء ، وكأنهما يقولان إن الحب البطيء كالماء يمتص الحرارة في بقاء ويفقدها في بقاء ، وإن الحب السريع كاليابسة تمتص الحرارة في سرعة وتفقدها في سرعة. والحق إن العواطف لا تخضع لهذا الحكم ، لأن العبرة في الحب بالشرارة الأولى التي تنبعث من عيني أو من قلبي ، أما هذا الحب الذي لا ينشب إلا بعد طول التلاق ، فإنه ألف وصدقة لاحب وهيام . فليس كل حب من النظرة الأولى ضحلاً ، وليس كل حب بعد طول المعاشرة عميقاً ، لأن التعميم هنا يفضي إلى تعسف وخطأ .

ولقد يحب الشاعر ويعيض معين حبه ، ولكنه يذكر ماضيه في حسرة تشوبها لذة ، وفي عزة تخالطها كآبة ، ولسنا نستطيع أن نقول له إنك غير محب فلماذا تتغزل ؟ لأنه في الحقيقة محب ولكنه محروم ، يعتز بماضيه ، ويستريح إلى أحاديث الصباية . يمثل ذلك أن عمر بن أبي ربيعة كان قد آلى ألا يتغزل ببيت شعر إلا أعتق رقبة ، ولكنه رأى محباً ، فتأثر واهتاج وحن ، وقال شعراً^(٢) .

وفي مثل هذا يقول هكسلي : « لعل أجمل ما كتبته دانتى من شعر رقيق ، ذلك الذي أوحى به ذكرياته التي انقضت وحرمها »^(٣) .

وسنرى أن كثيراً من الشعراء الجاهليين كانوا يحنون إلى ماضيهم السعيد ، يقول ابن حزم : « وإنك لتجد الإنسان السالى بزعمه وذا السن المتناهية إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين »^(٤) .

(١) الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الظاهري ٣٣٠ .

(٢) الأغاني ١/١٤٥ .

(٣) Huxley. P. 121.

(٤) طوق الحمامة ٧ .

وقد أحب العرب حباً واقعياً ، أحبوا نساء وذكروا أسماءهن حقيقة مراراً
ومجازية مراراً ، وسنجد في وصفهم لهؤلاء النساء أن حبهم واقعي لا خيالي
كأوائك الذين يتحدث عنهم أدلر أنهم يصورون لأنفسهم في عالم الخيال غراماً مثالياً
لا يتحقق في عالم الواقع ، فيقضون الحياة سعياً وراءه ، ويقضون العمر تقريباً لمحبيته ،
فينقضى بهم العمر دون أن يتحقق لهم ما التمسوه ، فيكون لهم من ذلك ما يبرر
قصورهم عن أن يعيشوا كما يعيش الناس ، فيخرجون عما ألف الناس ، ويزهون
بذلك (١) .

وبعد فالحب عاطفة فردية محصورة في نفس الحب لا تتعداه إلى غيره ، فلماذا
نحفل بالغزل المصور لهذه العاطفة ؟ .

نحفل به « لأن التشابه في ألوان الحياة والتجانس في مظاهرها وأحوالها ،
يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجاً لعواطف غيره ، ولا سيما إذا كان
صادق الحس صافي الوجدان ، ولهذا يكون هذا النوع الفردي سهل الاستساغة
سريع الاتصال بالنفوس ، وإن قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النوع من
العواطف تأثيراً وقوة ، وتجعل ما نقرؤه له مما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصال
بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا » (٢) .

(١) علم النفس الفردي ١٥١ .

(٢) الأصول الفنية للأدب . عبد الحميد حسن ٧٢ .

الفصل الخامس

أنواع الغزل

- ١ -

الغزل العذرى

تمهيد :

انتهيت فى فصل (الغزل) وفصل (الحب) إلى أن الغزل ينبعث عن عاطفة الحب، وأن هذا الحب إما أن يصطبغ بصبغة روحانية عفيفة فيوحى بالغزل العذرى، وإما أن يصطبغ بميل حسى شهوى فيوحى بالغزل الحسى، وإذا فالغزل الصادق الصادر عن العاطفة المصور لها لا يعدو هذين القسمين .

على أن هنالك نوعين آخرين من الغزل هما الغزل التمهيدى، والغزل الكيدى، وسيتضح من دراسة التمهيدى أنه أحياناً يصور عاطفة فيكون عذرياً أو حسياً، وأحياناً لا تبعثه عاطفة فيكون هو والكيدى غزلاً فى شكله لا فى حقيقته، وباسمه لا بمعناه .

حقيقة الغزل العذرى :

أريد بالغزل العذرى هذا الضرب من الغزل الذى تشيع فيه حرارة العاطفة، وتيسع منه الأشواق، ويصور خلجات النفس وفرحات اللقاء وآلام الفراق، ولا يحفل بجمال المحبوبة الجسدى بقدر ما يحفل بمجاذيبها وسحر نظرتها وقوة أسرها،

ثم يقتصر فيه الشاعر على محبوبة واحدة طيلة حياته أو ردحاً طويلاً من حياته .
ولست أجازي القائلين بأنه غزل روحى خالص لا تخالطه نوازع جسدية وإن
ضوّلت ، فقد انتهيت فيما سبق إلى أن هذا الحب ليس مما يقع بين الرجل والمرأة .
فهذا الغزل عذرى إذا قيس إلى الغزل المكشوف أو الحسى ؛ لأن نصيب الجسد
منه قليل وضئيل ، ونصيب الروح منه غلاب على الجوع الجسدى .

وقد اشتهر بالحب والعذرى والغزل العذرى بنو عذرة ، حتى نسب إليهم ، قال
عمرو بن الزبير لعذرى : « إنكم أرق الناس قلوباً — يريد أصباهم إلى الحب — فقال
نعم لقد تركت ثلاثين شاباً خامرهم السل ما بهم داء إلا الحب ^(١) . وقال فزارى يوماً
لعذرى : « أتعبدون موتكم فى الحب مزية ، وهو من ضعف اليقين ووهن العقيدة
وضيق الروية ؟ فقال : أما والله لو رأيتم المحاجر البليج ترشق بالعيون الدُّعج من
تحت الحواجب الزُّج ، والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الأغر كأنها شذر الدر لجعلتموها
اللات والعذرى وتركتم الإسلام وراء ظهوركم » ^(٢) .

وقيل لأعرابى من بنى عذرة : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنمات كما ينمات
الملح فى الماء ؟ أما تتجلدون ؟ فقال : إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها » ^(٣) .
والذى يظهر من هذا أن بنى عذرة كانوا مشهورين بالركة والحساسية وتذوق
الجمال ، وأن فى نساءهم جمالاً لم يكن فى نساء غيرهم ، لذا كثر عشاقهم ، واشتهر
أمرهم ، وكثر موتاهم من الحب ، قيل لأعرابى : ممن أنت ؟ فقال : أنا من قوم
إذا أحبوا ماتوا ، فقالت جارية سمعته : عذرى ورب الكعبة ^(٤) .

ولكن الموت من الحب لم يكن مقصوداً على بنى عذرة ، فقد قيل لرجل من
بنى عامر : هل تعرفون فيكم المجنون الذى قتله العشق ؟ فقال : هذا باطل ، إنما يقتل
العشق هذه اليمانية الضعاف القلوب ^(٥) .

والعفة — ناشئة عن حرمان أو عوائق — سمة من سمات هذا الغزل العذرى ،

(١) تزيين الأسواق لداود الأنطاكي ٩ ومصارع العشاق لأبى جعفر السراج ٢٠ .

(٢) تزيين الأسواق لداود الأنطاكي ٩ ومصارع العشاق لأبى جعفر السراج ١٧ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٢٠٣ وعيون الأخبار ٤/١٣١ .

(٤) وفيات الأعيان ١/٢٠٣ وعيون الأخبار ٤/١٣١ . (٥) الأغاني ٨/٢ .

وقد امتدحها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « من عشق فعف فمات مات شهيداً » (١)

وفي رواية أخرى « من عشق فعف فكتمه فمات فهو شهيد » (٢).

وفي رواية ثالثة « من عشق وكرم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » (٣) وامتدحها الأدباء ، فعمد لها أبو بكر الظاهري فصلا عنوانه : « من كان ظريفاً فليكن عفيفاً » استدلل فيه بالحديث السابق ، ورأى أنها مع أمر الدين بها وحرص الناس عليها تبقى الحب وتصونه من الدنس ، ولو لم تكن الفاحشة منكراً في الشرائع لوجب على كل من المتحابين أن يتركها إبقاء لوده عند صاحبه وإبقاء على ود صاحبه عنده (٤) . ويظهر أن ابن سينا وجد أن الحب العذري لا يبرأ من قبلة وعناق فحاول أن يفلسف هذه النزعة الجسدية فقال : « وأما المعانقة والتقبيل فإذا كان الغرض منهما هو التقارب والاتحاد — لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها المسمى ونيلها له بحسها البصري فتشتاق إلى معانقته وتشتاق إلى تقبيله — فليس بمذكّر في ذاتهما ، لكن استتباعهما بالعرض أموراً شهوانية يوجب التوقى عنهما » (٥) .

متى نشأ الغزل العذري ؟

يرى الدكتور طه حسين أنه نشأ في العصر الإسلامي ، إذ طرأت على المجتمع الإسلامي في الحجاز عوامل اجتماعية وسياسية « فكان أهل مكة والمدينة يأسين ، ولكنهم كانوا أغنياء فلهموا كما يلهو كل يأس ، وكان أهل البادية الحجازية يأسين ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة ، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص وليس بالبدوي الخالص ، ولكن فيه سداجة بدوية وفيه رقة

(١) محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهاني ٢/٢٦ .

(٢) الزهرة لابن داود الظاهري ٦٦ .

(٣) مصارع العشاق لأبي جعفر السراج ٤ . (٤) الزهرة ٦٦ .

(٥) رسالة العشق ٨٣ .

إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلي كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم فانكبوا عليها واستخلصوا منها نعمة لا تخلو من حزن ولكنها نعمة زهد وتصوف ، وأنا أعلم أن لفظ التصوف هنا لا يؤدي معناه الذي أريده ، فقل إنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية ، وظهر هذا الزهد وهذا الميل إلى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافاً شديداً ؛ أحدهما الزهد الديني الخالص والثاني هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى في الحب ، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى» (١)

ويرى الأستاذ ماسينيون أنه مقتبس من الحب الأفلاطوني عند اليونان ومتأثر به ، ولكنني لا أرتضى هذا ولا ذاك ، وأبدأ بمناقشة رأي العلامة ماسينيون بأن المسلمين في صدر الإسلام وأوائل العصر الأموي — على فرض أنهم لم يعرفوا الحب العذري إلا حينئذ — لم يكونوا قد عرفوا شيئاً عن فلسفة اليونان ونظريات أفلاطون . ثم إن هذا الحب نشأ في البادية ، فعلى فرض أن العرب كانت لهم صلة بالفلسفة اليونانية فليس من الطبيعي أن تتأثر البادية بما لم تتأثر به الحاضرة ، وأهل الحواضر أرقى مدنية وعقلية وأكثر تجارة وأسفاراً وخلطاً .

على أن الغزل العذري تصوير لعواطف سامية في شعر ، والشعر لا يجنح إلى الأفكار الفلسفية ، وبخاصة في العصور القديمة ، ثم إن هذا الغزل وليد عواطف ملتزمة ، يصور لواعج الشرق ، وآلام البعد ، وسعادة القرب ، أما الحب الأفلاطوني — كما سبق — فمؤسس على فكرة خرافية لا يسيغها ذوق الموحد ، وهو حب شاذ Homosexual Love لأنه حب ذكر لذكر ، وليس حب ذكر لأنثى ، فليست المرأة محوره ، وقد كان اليونان في عهد أفلاطون يقيمون صلة الرجل بالمرأة على أساس مادي جسدي ، الغرض منه قضاء الحاجة الجسدية .

لم ينشأ الحب العذري إذاً متأثراً بفلسفة يونانية ، فهل نشأ في الإسلام متأثراً بعوامل اجتماعية وسياسية كما ذهب الدكتور طه حسين ؟

ليس من الطبيعي أن ينسى الفقير اليأس نفسه وهوموه وحاجاته والفوارق التي بينه وبين الأغنياء القادرين على تحقيق رغباتهم ثم يتجه إلى التفكير في مثل أعلى ينتج الحب، وجسمه أشد حاجة إلى الطعام والشراب من حاجة روحه إلى مثل أعلى. والجاحظ على حق في قوله إن الفقير المدقع مشغول عن الحب ^(١). والمثل اللاتيني يقول : « لا يغنى الحب عن الطعام والشراب ، وإذا احتاج المحب إلى طعام وشراب نسي حبه » ^(٢).

ومن الذى حال بين البادين واللهو ؟ نحن نعلم أن الأمويين مدوا للفتيان من أشرف الحجاز فى اللهو ، وأغدقوا عليهم المال ليحولوا بينهم وبين الطموح إلى الحكم أو الاشتغال بالسياسة ، فكان ذلك مساعدا على تقشى الغناء والحب الجسدى لا منشئاً لهما ، فإن العبث واللهو ، والغناء ، والحب العاثر ، والخمر ، والميسر وغيرها كانت من أشاغيل العرب فى الجاهلية ، لا فرق بين متحضرين ومتبدين ، فلم تكن سياسة الأمويين إذن خالقة لهذه الأنواع ، كذلك لم تكن سياستهم سبباً فى حرمان أهل البادية ، ولم يكن الدين الإسلامى سبباً فى انصرفهم إلى أنفسهم يستخلصون منها نعمة حزينة زاهدة ، ويرسمون لأنفسهم مثلاً أعلى يتمثل فى الزهد تارة ، وفى الغزل العفيف تارة ، فإن الإسلام قد أكسبهم خيراً لم يكن لهم فى الجاهلية ، أ كسبهم مالا وأ كسبهم سموافى العقيدة ، وكفل لهم أمناً وعدالة ، فأى حرمان هذا الذى جعلهم يوقعون على أوتار حزينة ويفرون من الحقائق الواقعة إلى مثل عليا متخيلة ؟ وهل كان الزهاد فى البادية أكثر عدداً من زهاد الحواضر ؟ لم يكن الأمر كذلك ، فإن الحواضر التى سمرت ليالها بالجمان واللاهين كانت تتجاوب فيها صلوات المصلين ، وضراعات العابدين ، وتوسلات الزاهدين ، ودروس الفقهاء والمفسرين والمحدثين

وقد يقال إن الغزل لم يتميز ولم يستقل بنفسه فيصبح فناً قائماً بذاته إلا فى العصر الأموى ، وفى ذلك يقول الأستاذ جب : « لقد وجد الشعراء فى البلاط

(١) رسالة العشق والنساء ١٦٦ من مجموعة رسائل الجاحظ.

(٢) Benham's New Book of Quotations P. 658.

الأموى استعداداً للترحيب بهم ، وفي قصور الأمويين صدح الشعراء بالشعر كما كان يصدح أسلافهم في بلاط الحيرة وغسان ، ومضوا ينظمون القصائد في مدح ساداتهم الجدد ، ومدح أسلافهم ، وهجاء خصومهم ، وكان سادة هذا الفن الجديد — ذلك الذى لا يتصل بشعر ما قبل الإسلام لا فى الأسلوب ولا فى الطريقة — الأخطل وجريز والفرزدق .

وبدأت أولى خطوات التجديد فى جو التمدن المحيط بمكة ، ومن الجائز جدا أن هذا الوحي الجديد جاء من بلاد الفرس ، وربما جاء أيضاً من اليونان ، ولكن المهم فى الأمر أن النسيب وهو لم يخرج عن أنه جزء من القصيدة قد تطور فأصبح فناً قائماً بذاته يقال فيه القصيدة كاملة . وهنا يُذكر عمر بن أبى ربيعة أو دون جوان مكة ، وينطوى شعره على رقة تختلف كل الاختلاف عن العواطف الجياشة البدوية التى تملأ بها قصائد امرئ القيس « (١) » .

ولكن ما المقومات التى يعتمد عليها فى أن الغزل فن قائم بذاته ؟ ؟ يذكر العلامة جب أن الغزل صار يستغرق القصيدة كلها ، فلا يقال تبعاً لغيره . وقد كان من الممكن أن أسكت عن هذه الدعوى أو أن أقنع بإثبات أن الغزل العذرى قد نشأ منذ العصر الجاهلى ، ولكن أرى أن دعوى الفنية المستقلة غير صحيحة أيضاً ، فلا هو نشأ فى العصر الأموى ، ولا هو صار فناً مستقلاً فى هذا العصر يشغل القصيدة من أولها إلى آخرها .

١ — ذلك بأنى سأبين فى خصائصه أن كثيراً من شعراء الجاهلية قالوا الغزل فى قصائد كاملة . فلم يتخذوه مقدمة وتمهيداً لغرض آخر ، وفى هذا الدليل غناء ومقنع .

٢ — ولكن الدعوى تضطرنى إلى مناقشة أخرى ؛ ذلك بأنهم قد اشترطوا فى الغزل ليصير فناً مستقلاً أن تحبس القصيدة كلها عليه ، ولا أدرى وجهاً لهذا الاشتراط فى الغزل وحده ، فلماذا لم يشترط أحد مثل هذا فى الأغراض الأخرى ؟ لماذا لم يروا هذا الرأى فى المدح مثلاً ؟ لقد كانت قصيدة المدح تتناول غزلاً ووصفاً

وتتناول أحياناً فحراً وأحياناً حكمة ، ونذر أن تنحصر في المدح وحده ، وظلت كذلك إلى العصور اللاحقة ، فلماذا لم يقولوا إن المدح لم يصرفنا مستقلاً ، لأنه لم يستقل بقصائد كاملة ؟ .

وقد يقال إنه صار فناً مستقلاً لما قصر بعض الشعراء شعرهم عليه ، ولم يقرضوا في غيره ، كما صنع عمر بن أبي ربيعة وقيس بن الملوح .
لكن هذه الدعوى ليست بأصح من سابقها :

١ — لأنه إذا كان عمر وقيس قد حصرا شعرهما في الغزل فإن أشباههما من الغزلين لم يصنعوا صنيعهما . ذلك بأن جميل بن معمر قال في غير الغزل ، فافتخر^(١) وهجا^(٢) ، ومدح أخواله .

وكذلك لم يحبس كثير عزة قريضه على الغزل ، فإنه « كان غالباً في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ ، وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك ، لجلالته في أعينهم ولطف محله في أنفسهم ، ولم يدرك أحد في مدح الملوك ما أدرك كثير »^(٣) ، وقد مدح عبد الملك بن مروان^(٤) وتشيع^(٥) ، ومدح عمر بن عبد العزيز^(٦) .

وتناول عبيد الله بن قيس الرقيات فنوناً أخرى غير الغزل ، فتمعصب ضد بني أمية وجاهرهم بالعداء^(٧) ، ومدح عبد الملك بن مروان^(٨) ، ومدح عبد الله ابن جعفر^(٩) .

٢ — ولأن أغراض الشعر الأخرى فنون مستقلة منذ العصر الجاهلي ، ولم يقصر بعض الشعراء عليها قصيدهم ، كالمدح والوصف والثناء ، فمن من الشعراء قصر شعره على المدح مثلاً حتى يصح القول بأنه لم يصرفنا مستقلاً إلا حين اختص به بعض الشعراء ولم يتعدوه إلى غيره ؟

٣ — على أن بعض الشعراء في العصر الجاهلي قد قصرُوا على الغزل شعرهم

(١) الأغاني ٧/٧٤ و ٩٣ . (٢) الأغاني ٧/٨٨ و ٩٦ .

(٣) الأغاني ٨/٢٦ . (٤) الأغاني ٨/٢٨ . (٥) الأغاني ٨/٣١ .

(٦) الشعر والشعراء ١٩٨ . (٧) الأغاني ٥/٧٨ .

(٨) الأغاني ٥/٧٩ . (٩) الأغاني ٥/٨٠ و ٨٢ .

فلم يصلنا من نتاجهم غير الغزل مثل عمرو بن حزام .
 إذا لم ينشأ الغزل العذرى فى العصر الإسلامى ، ولم يصرفنا مستقلاً فى العصر الإسلامى ، وإنما نشأ وكان فناً مستقلاً فى العصر الجاهلى .
 فلم يكن وليد القرن الهجرى الأول كما قال الدكتور طه والعلامة ماسينيون ، وسأذكر بعض رجاله وأبين من غزلهم أنه يتسم بخصائص الغزل العذرى الإسلامى ، وأوضح من تاريخهم أنهم استشهدوا فى حبهم ، كما استشهد بعض العذريين فى الإسلام ، ولكن هذا لا يعنى من تقرير أن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة الحب وعذرية الغزل ، لأن الإسلام نظم علاقة الرجال بالنساء ، وحظر الاستجابة للغريزة الجنسية إلا من طريق الزواج ، وحرّم البغاء — وقد كان نادراً فى الجاهلية — وسما بالعقيدة والأخلاق ، فكان منمياً لا منشئاً .

وقد كانت الحياة الجاهلية صالحة لإنشاء الحب العذرى كما فهم فى الإسلام ، فالمرأة ذات مكانة رفيعة كما سبق ، وإن كنت لا أستطيع أن أجعل هذا الحكم عاماً ، لأن تعميمه ينافى طبائع الاجتماع ، فنحن فى عصرنا هذا نقدر المرأة ، ويبيح لها بعضنا أن تساوى الرجل فى حقوقه ، ونراها تنافسه فى كثير من الميادين ، ولكن لا يستطيع أحد أن يعمم هذا الحكم على كل النساء فيقول : إنهن جميعاً عليات القدر ، وكانت ذات جمال وجاذبية وسلطان على قلوب الرجال ، وكان العرب غيراً على النساء ، حراساً على عاداتهم البدوية التى تصون العرض ، وتحمى النساء من قالة السوء ، ثم كان بعضهم يحب حباً عنيفاً حاداً لا يبرده وصل ولا أمل ، ومن هنا نشأ الحب العذرى لأنه كما يقول فرويد « انحراف عن الغاية الجنسية ناشئ عن تعذر إشباعها وعن التسامى بها » ويقول مكدوجل : « إن تقدير المرأة وإكبارها أساس لبناء العلاقة الجنسية على الحب » (١) .

خصائص الغزل العذرى :

نحكم بأن الحب عذرى أو بأن الشاعر عذرى ، إذا أحسنا فى شعره بعاطفة

حارة تنبئ عن حب عميق غلاب ، فغزله مقصود لذاته ، وإذا وجدناه ثابتاً على حبه لمحوبة واحدة ، وعرفنا من حياته ومن شعره أنه يؤثر سعادتها وهناءتها وسلامتها على سعادته وهناءته وسلامته ، وأنه يأتي بعظائم الأمور مرضاة لها ، واستجلاباً لإعجابها ، ثم وجدنا حياته مصدقة لشعره ، وشعره مصدقاً لحياته . فهو كما يقول تيوفيل جوتييه : « يسلم نفسه لحبيته فلا يرى إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنيها ، لأنه يرى الحياة فيها ، ويكون مستعداً لأكبر التضحيات وإنكار الذات ، ويحس أنه يتضاعف وهو يبذل » (١) .

هذه هي الأسس التي نقيس عليها غزل بعض الشعراء في العصر الجاهلي ، ونقيس عليها حياتهم ، لثبت أهم أحبوا حباً عذرياً ، وتغزلوا غزلاً عذرياً .
أما خصائص الغزل العذري فهي :

(١) قصر بعضهم على الغزل قصائد كاملة ، فلم يمهده لغرض آخر ، لأنه غاية يقصد إليها ، وهدف يرمى إليه ، فهو إذاً تعبير متميز عن عاطفة الحب ، فمثلاً لعروة بن حزام نونية مشهورة ، عدتها اثنان وثمانون بيتاً كلها غزل حار (٢) ، ولضرّس بن قُرط بن الحارث الزني قصيدة عددها ستة وعشرون بيتاً كلها غزل وروحي يصور أشواق الحب (٣) ، ولهمنخل بن عامر بن ربيعة اليشكري قصيدة غزلية أبياتها أربعة وعشرون ، في ثنائها سبعة أبيات في الفخر ، ولكنه مما يقترب به الشاعر إلى محبته (٤) ، ولهمرقش قصيدة أو مقطوعة كلها غزل أبياتها ثمانية (٥) ولقيس بن الحداية قصيدة عدتها أربعة وأربعون بيتاً كلها غزل (٦) ، وله أخرى عدتها ستة عشر بيتاً وهي أيضاً لا تتناول غير الغزل (٧) ، ولحسان بن ثابت قصيدة غزلية أبياتها سبعة عشر ليس بها غير الغزل (٨) ، ولطرفة قصيدة غزلية في عشرة أبيات (٩) ، ولعنبرة قصائد غزلية مستقلة منها قصيدة في إحد عشر بيتاً (١٠) ،

(١) كيف تفهم الناس . دكتور إبراهيم ناجي ١١٨ .

(٢) النواذر لأبي على القالي ١٥٨ (٣) الأمالى ٢٥٧/٢ — ٢٥٨

(٤) الأصمعيات من مجموعة وليم البروسي ٣٠/١ (٥) الفضليات ٢٣١/٢

(٦) الأغاني ٥/١٣ (٧) الأغاني ٧/١٣ (٨) ديوان حسان ١٢

(٩) ديوان طرفة ١٤٧ (١٠) ديوان عنبرة ٦٥

وأخرى في ثمانية^(١) ، وثالثة في خمسة عشر^(٢) ، ولسوَّار بن المضرب غزلية مستقلة طويلة^(٣) .

(ب) وهذا الغزل روحي لا أثر فيه لوصف الجسم ومطالب الجسد ، أو فيه أثر ضئيل يشبه ذلك الأثر الذي أسلفته في غزل قيس وجميل وتوبة ، وإنما هو نجوى وشكوى وتنفيس عما يعتلج بالقلب من أشواق ، وما يختلج بالصدر من حنين ولهفة . يقول النابغة الذبياني إنه يحن إلى عهد سعادته بحبيته نُعم ، إذ كانا يتناجيان بالحب ، ويثبها ما يخفى على الناس ، وما يظهر للناس ، وإن حبها ممكن في نفسه ، ولولا تمكنه لنسيها ، ويظهر أنها قد صدت عنه ، أو زوجت من غيره ، ولذلك يتمنى هذا النسيان ، ويرى أنه في غيبوبة من هذا الحب ، فإن أفاق فحق له أن يفيق ، لأن ضلاله قد طال ، ثم يعود إلى الخضوع لحبه فيقول : إن نَعمًا هاجرة ولكنها عاتبة ، ويدعو لهذه العاتبة الهاجرة بالخير ، ويصور حاله وقد رآها على عجل وهي مرتحلة أو وهو مرتحل فوجب قلبه وجيباً ، واضطربت نفسه اضطراباً :

وقد أراني ونُعماً لاثنين معاً	والدهر والعيش لم يهْمُ بأمّار
أيام تخبرني نعم وأخبرها	ما أكتُمُ الناسَ من بادٍ وأسرار
لولا حبال من نعم علقتُ بها	لأقصر القلب عنها أيّ إقصار
فإن أفاق فقد طالت عمائته	والمرء يُخلَقُ طَوَّراً بعد أطوار
تبیت نعم على الهجران عاتبةً	سَقياً ورَعياً لذاك العاتب الزَّارِ
رأيت نعماً وأصحابي على عَجَل	والعيسُ للبين قد شدَّتْ بأكوار
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت	حيناً وتوفيق أقدار لأقدار ^(٤)

وكان غمّرة قد خرج يوماً في سفر ، ولما طالت غيبته عن بني عبس نفّس همهم بقصيدة يقول فيها : إنه يتجلد ويقنع بطيف عبلة ، ويتمنى أن تمر به ريح الحجاز لتبرد كبده ، وأن يحیی البرق بني عبس ، ويمطرهم السحاب ، ثم يدعو على نفسه

(١) الديوان ١٧٣

(٣) الأُصمعیات ٧٣/١

(٢) الديوان ١٧٣ — ١٧٤

(٤) ديوان النابغة ٣٨ إمرار : تكدير . العيس : النوق البيض . أكوار : رحال .

ألا ينعم بلقائها إن كان قد غفل عن ذكرها في بقضة أو منام ، ثم يقول إن طائراً
ينوح على غصن قد شجاه وشاقه ، ويشبه حال الطائر بحاله :

إذا رشقت قلبي سهاماً من الصد وبدل قربي حادثُ الدهر بالبعد
لبست لها درعا من الصبر مانعا ولاقيت جيش الشوق منفردا وحدي
وبت بطيف منك يا عبل قانعا ولوبات يسرى في الظلام على خدي
فبالله ياريح الحجاز تنفسي على كبد حرّى تذوب من الوجد
ويابرق إن عمرضت من جانب الحمى فحيّ بنى عبس على العلم السعدي
وإن خدمت نيران عبلة موهيناً فكن أنت في أكنافها نير الوقد
وخلّ الندى ينهل فوق خيامها يذكّرهما أتي مقيم على العهد
عدمّت اللقا إن كنت بعد فراقها رقدت وما مثلت صورتها عندى
وما شاق قلبي في الدجى غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرند
به مثل ما بى فهو يخفى من الجوى كمثل الذى أخفى ويدي الذى أبدى
ألا قاتل الله الهوى كم بسيفه قاتل غرام لا يوسد في اللحد^(١)

وقد صور عمرو بن حزام مشاعره حين تعتريه ذكرى غفراء ، ومشاعره
حين يراها ، تصويراً مؤثراً كهذا الذى نجده عند جميل وأبى صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك روعة لها بين جلدي والعظام ديب
فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبهرت حتى ما أكاد أجيب
وأصْدِف عن رأي الذى كنت أرتى وأنسى الذى أزمعت حين تغيب
ويظهر قلبي عذرها ويعيبها على فالى فى الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسى مكان شفائها قريباً وهل ما لا ينال قريب ؟
حلفت ربّ الساجدين لربهم خشوعاً وفوق الساجدين رقيب
لئن كان برّد الماء حرّاً نادياً إلى حبيبها إنها لحبيب^(٢)

(٢) الأغاني ١٥٥/٢٠ والشعر والشعراء ٢٣٨ ،

(١) ديوان عنتره ٦٥ ،

وتمنى لقاءها وتمنى لكل متحابين أن يلتقيا ، وأضفى عطفه حتى على الأنعام
المتحابة ، واشتاق إلى يوم الحشر ليلقاها ، وتمنى أن يعيشا معاً وأن يموتا معاً ،
ثم زين له حرمانه أن يود لو أنهما راعيان يبعدان في الصحراء :

فيا لثكل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان
قيقضى حبيب من حبيب لبانة ويرعاها ربى فلا يران
وإني لأهوى الحشر إذ قيل إننى وغفراء يوم الحشر ملتقيان
فيا ليت محيانا جميعا وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان
ويا ليت أننا الدهر في غير ريبة خليان نرى القفر مؤتلفان^(١)

ويصف المرقش الأصغر وجدانه ، وكان قد أحب فاطمة بنت المنذر ، ثم كاد
يسلوها بأن الأرض تدور به إذا تذكرها ، وقد آثرها على النساء جميعا وهام
بحبها :

رمتك ابنة البكرى عن فرع ضالة وهن بها خوصم يخلن نعائما
صحا قلبه عنها خلا أن رؤعه إذا ذكرت دارت به الأرض قائما
أفأطم لو أن النساء بيلدة وأنت بأخرى لاتبعتك هائما^(٢)

ويحمن الصّمة بن عبد الله إلى ربا وهو بالعراق ، بعد ما تنازع أبوه وعمه على
المهر ، فأقام بالعراق آنفا أن يعود إلى وطنه فحن حنيننا روحانيا خالسا :

أمن ذكردار بالرقاشين أعصفت به بارحات الصيف بدءاً ورجعا
حننت إلى ربا ونفسك باعدت مزارك من ربا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجزع إن داعى الصباة أسما
كأنك لم تسمع وداع مفارق ولم تر شعبى صاحبين تقطعا

(١) النوادر لأبي على ١٥٨

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٦ الضالة : السدرة وهى الشجرة التى تعمل منها السهام
يريد أن نظرتها سهم . هن : الضمير عائذ على النوق التى كانت مطايا الحبسية ومن معها يوم
فقهه نظرها . خوص : جمع خوصاء : غائرة العينين . نعائم : جمع نعامه

بكت عَيْنِيَ اليمنى فلما زجرتها
ولما رأيت اليشعر أعرض دوننا
تَلَفَّتْ نحو الحى حتى وجدته
وأذكر أيام الحى ثم أنشئ
فليست عشيات الحى برواجع
أما وجلال الله لو تذكرينى
فقلت : بلى والله ذكرى لَوَانِه

عن الجهل بعد الحلم أسبَلْتَا معا
وجالت بنات الشوق تحتى مُزَعَا
وَجَعْتُ من الإصغاء لَيْتَا وأخذعا
على كبدى من خشية أن تصدعا
عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا
كذكراك ما كفكفت للعين مدمعا
تضمنه صم الصفا لتصدعا^(١)

هذا الغزل ونظائره روحانى خالص ، لا تشوبه متعة جسدية ، ولا يفترق فى شىء عن غزل قيس وجميل .

(ح) وإذا كانت أشواق الروح فى هذا الغزل أغلب لرغبات الجسد ، فليس معنى هذا أنه روحى خالص الروحانية ، فقد أسلفت أن حب الرجل للمرأة لا يخلو من شوائب جسدية ، إعجابا بجهاها ، واشتياقا إلى لمسها أو تقبيلها ، وضربت على ذلك أمثلة من حياة العذريين فى الإسلام ومن شعرهم ؛ وهكذا كان الغزل العذرى فى الجاهلية ، فيه لفتات إلى الجمال الجسدى ، وشوق إلى متعة ضئيلة مما لا يخرج بهذا الضرب من الحب والغزل عن نوعه إلى الغزل الحسى .

قال عبد الله بن العجلان :

خَوْدُ رَدَاحٍ طَفْلَةٌ ما الفُحْشُ من أخلاقها
ولقد ألدّ حديثها وأسرّ عند لقاءها^(٢)

وعروة بن حزام وصف بعض جمال عفرأ ، وتحدث عن بياضها ، ودقة خصرها ، ولدونة ردفها :

لَا دُوْنَ من بِيضَاءَ خَفَافَةِ الْحَشَا بُنْيَمٍ ذِي قَاذُورَةٍ شَنَانِ

(١) تزين، الأسواق ٩٢ ، الرفاشان : جبلان بأعلى الشريف (بضم الشين وفتح الراء) ، بارحات : رياح حارة فى الصيف . الليت : صفحة العنق ، الأخدع : عرق فى المحجمتين . الصفا : الحجر المصلد (٢) الأغاني ١٩/١٥٢ الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ، رداح : ثقبلة الأوراك ، طفلة : رخصة ناعمة .

كَانَ وَشَاحِيهَا إِذَا مَا ارْتَدْتُهُمَا وَقَامَتْ عِنَانَا مُهْمَرَةً سَلِسَانِ
يَعَصُّ بِأُبدَانٍ لَهَا مَلْتَقَاهَا وَمَتْنَاهَا رِخْوَانٌ يَضْطَرِبَانِ
وَتَحْتُهُمَا حِقَقْفَانٌ - قَدْ ضَرَبْتُهُمَا قَطَارٌ مِنَ الْجُوزَاءِ - مُلْتَبِدَانِ^(١)

وتحدث عن أمنية اللقاء حديثاً لم يصرح فيه بشيء ، لأنه اللقاء الذي يتمناه لنفسه وللمحبين جميعاً ، حتى لقد تمناه للأنعام المتحابة .

الغرض منه قضاء اللبانة ، ولقد تكون هذه اللبانة حديثاً ونجوى وشكوى ، ولقد تكون عناقاً وقلبات :

فِيَالَيْتَ كُلِّ اثْنَيْنِ بَيْنَهُمَا هَوًى مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ يَلْتَقِيَانِ
فَيَقْضَى حَبِيبٌ مِنْ حَبِيبِ لُبَانَةٍ وَيَرْعَاهَا رَبِّي فَلَا يُرْيَانِ
فِيَالَيْتَ مَحْيَانَا جَمِيعاً وَلَيْتُنَا إِذَا نَحْنُ مَتْنَا ضَمْنَا كَفْنَانِ
وِيَالَيْتَ أَنَا الدَّهْرُ فِي غَيْرِ رِيَّةٍ خَلِيَانٍ تَرَعَى الْقَفْرَ مُؤْتَلِفَانِ^(٢)

على أن الوصف الجسدى والشوق إلى المتعة أكثر ندرة عند العذريين في العصر الجاهلي من العذريين في الإسلام ، وهو إلى ندرته أشد خفاءً ، وأين هذا من قول جميل :

تَجُودُ عَلَيْنَا بِالْحَدِيثِ وَتَارَةٌ تَجُودُ عَلَيْنَا بِالرُّضَابِ مِنَ الثَّغْرِ
وَقَوْلُهُ :

كَأَنَّ فَتَيْتَ الْمَسْكِ خَالَطَ نَشْرَهَا تَعَلُّ بِهَ أُرْدَانُهَا وَالْمِرَافِقُ
تَقُومُ إِذَا قَامَتْ بِهِ مِنْ فِرَاشِهَا وَيَغْدُو بِهِ مِنْ حِضْنِهَا مِنْ تَعَانِقِ
وَقَوْلُهُ :

حَلَفْتُ يَمِيناً يَا بَثِينَةَ صَادِقاً فَإِنْ كُنْتُ فِيهَا كَاذِباً فَعَمِيتُ

(١) النوادر لأبي على القالى ١٦١ خفافة الحشا : ضامرة . بنية ذى قاذورة : بنت رجل قذر . شَنَّان : بغض ، أى أن أباه ذو قدارة وذو بغض . الحقف : السكيب من الرمل ، يصف رد فيها بالضخامة . قطار : قطرات مطر . ملتبدان : متماسكان .

(٢) النوادر لأبي على القالى ١٥٨ وتزين الأسواق ٧٧ .

إذا كان جلد غير جلدك مسني وباشرنى دون الشعار شريت^(١)
وقوله :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظلم إذا لم أسق ريقك صايا
(٥) وهو أيضاً تحليل لنفسية الشاعر ، يصور دخيلته ويفصح عن آلامه
وآماله ؛ لأنه منبعث من أعماق نفسه . فمثلا المرقش الأكبر حيران فى أمره بين
وجدانه وزوعه : أيتغلب وجدانه فيظل محباً أم يتغلب زوعه فينسى ؟ ولكنه
يأس من أن يتغلب زوعه لأن قلبه هائم بأسماء ، ومن شأن الحب أن يملك القلوب ،
ويعجب من أن يلام فى حب أسماء ، لأنه لا جدوى من لومه ، فقد أصر على حبها
واستمسك قلبه بها متغلباً على الوشاة وإن غمته وشايتهم ، وكيف يستمع لمن يلموه
أو يسلوها قلبه وهى هم نفسه وشغلها ، وأحاديث قلبه كلها ماخفى منها وما استتر ؟
ويصف حاله إذا ذكرها فيصور جسمه يرتعد كأنه محموم :

أغالبك القلب اللجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهم ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه
أيلجى امرؤ فى حب أسماء قد نأى بغم من الواشين وازور جانبه ؟
وأسماء هم النفس إن كنت عالماً وبأدى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلت كأنى يزعرنى قفقاف ور دو صالبه^(٢)

وعروة بن حزام يكشف عن أمنيته التى حرم تحقيقها حين يتمنى لكل حبيبين
من الناس والأنعام أن يلتقيا ، ولا يغفل عن استكناه شعور الناقة التى ركبها إلى
المحبة ، فهى تحن إلى ما وراءها لأن لها فصيلا خلفته ، وهو يحن إلى من أمامه لأنه
مقبل على ديار من يحب ، ثم يصور حبه العظيم بأنه لا طاقة له باحتماله ولا طاقة
للجبال به ، ويصور قلبه الخفاق المضطرب بأنه قد ربطت به قطعة من جناحها فهى
لاتفتأ تهز جناحها لتتخلص من هذا الإسار ، ثم يكشف عن استسلام الحب

(١) شريت : أصبت بمرض جلدى اسمه الشري .

(٢) الأغاني ١٨٣/٥ . ورد : اسم للحمى أو يوم من أيامها . صالب : حمى فيها رعدة

قفقاف : ارتعاد واصطكاك أسنان .

للأوهام حين يقول إنه استطب عراف اليمامة ، وعراف نجد ، وزعما أنهما
قديران على شفاؤه من الحب اليأس ، فرقياه وسقياه السلوة ولكنه لم يبرأ ،
فاستسما للقضاء ودعوا الله أن يشفيه لأنهما لاطاقة لهما بشفاؤه :

على كبدي من حُبِّ عَفْرَاءِ قَرَحَةٍ وعيناي من وجدى بها تَكِيفَانِ
فعَفْرَاءُ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِي مُودَّةً وعَفْرَاءُ عَنِ الْمَعْرِضِ الْمُتَدَانِ
فِيالَيْتَ كُلَّ اثْنَيْنِ بَيْنَهُمَا هَوَى مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ يَلْتَقِيَانِ
فَيَقْضِي حَبِيبٌ مِنْ حَبِيبِ بُبَانَةٍ وَيَرَعَاهَا رَبِّي فَلَا يُرِيَانِ
هَوَى نَاقَتِي خَلَقِي وَقَدَّامِي الْمَهْوَى وَإِنِّي وَإِيَّاهَا لِمُخْتَلِفَانِ
يَقُولُ لِي الْأَصْحَابُ إِذْ يَعْذِلُونَنِي أَشُوقُ عِرَاقِي وَأَنْتَ يَمَانِي ؟
تَحْمِلْتِ مِنْ عَفْرَاءٍ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ
كَأَنَّ قَطَاةً عُلِّقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبْدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَلْفَانِ
جَعَلْتَ لِعِرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعِرَافُ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِ
فَقَالَا نَعَمْ نَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كُلِّهِ وَقَامَا مَعَ الْعَوَادِ يَنْتَدِرَانِ
فَمَا تَرَكَ مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْلَمَانَهَا وَلَا سُلُوةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِ
وَمَا شَفِيَا الدَّاءَ الَّذِي بِي كُلِّهِ وَلَا ذَخْرًا نَصْحًا وَلَا أَلْوَانِي
فَقَالَا شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا بَنَا عَمَّا خُضِّمَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ^(١)

ولما انتجع أهل جنوب بنت محسن الجمعدى وأرادوا الرحيل وقف مالك بن
الصمصامة محب جنوب فى طريقهم يتحسر ويتفجع ، ويستوثق من جنوب أنظله
راعية للعهد أم ينسبها البعد ؟ وهو لا يريد إلا جوابا يطمئنه ويعزیه عن هذا الفراق
البيغض ولو أنه يستطيع أن يزور محلها لزارها ، فتلك أمنية نفسه ، ولكن دونها
عوائق ، دونها غيره أخيها الإصبع بن محسن الذى هددته بالقتل وبالأسر ، فهو فى

(١) الأغاني ١٥٥/٢٠ وتزيين الأسواق ٧٧ . تكفان : تدمعان بغزارة . سلوة :
خرزة يشرب المحب ماءها فتسليه . ألوانى : قصرا فى علاجى ، والشاعر عدى الفعل اللازم .

حيرة من أمره لأنه يحب حباً يائساً ، لا مرجع عنه ولا أمل فيه :

أَرَيْتِكَ إِن أَرْمَعْتُمَ الْيَوْمَ نَيْيَةً
أَتَرَعَيْنَ مَا اسْتُودِعْتَ أَمْ أَنْتَ كَالَّذِي
أَلَا إِنَّ حَسِيًّا دُونَهُ قُلَّةُ الْحُمَى
وَكَيْفَ وَمِنْ دُونِ الْوَرُودِ عَوَائِقُ
فَلَا أَنَا فِيمَا صَدَنِي عَنْهُ طَامِعُ
وَعَالِكُ مُصْطَافِ الْحُمَى وَمِرَابِعِهِ
إِذَا مَا نَأَى هَانَتْ عَلَيْهِ وَدَائِعِهِ
مُنَى النَّفْسِ لَوْ كَانَتْ تُنَالُ شَرَائِعِهِ
وَإِصْبَعُ حَامِي مَا أَحَبَّ وَمَانِعِهِ
وَلَا أَرْجُو وَصَلَ الَّذِي هُوَ قَاطِعُهُ (١)

* * *

(هـ) وكثيراً ما يصور هؤلاء المحبون عواطفهم وعواطف حبيباتهم في أسلوب شبه قصصى ، كما يصور شعراء الغزل الحسى لذاتهم في هذا الأسلوب ، ففقيس بن الحداية يصف في حوار مشاعره ومشاعرهم بنت ذؤيب الخزاعى ، وقد مضت مع أخيها قبيصة وبطون من خزاعة إلى مصر والشام راحلين لما أصابهم من جذب ، فيعبر عن ألمه لرحلتها ، وعن بخلها بالوصل ، ثم يعبر عن حديث دار بينهما بقوله :

وَقَلْتُ لَهَا فِي السَّرِّ بَيْنِي وَبَيْنِهَا
فَقَالَتْ لِقَاءٌ بَعْدَ حَوْلٍ وَحِجَّةٍ
وَقَدْ يَلْتَقَى بَعْدَ الشَّتَاتِ أَلُو النَّوَى
وَيَصُورُ أَذَاهَا مِنَ الْوَشَاةِ بِقَوْلِهِ :

سَعَى بَيْنَهُمْ وَاشْ بِأَفْلَاقِ رُمَّةٍ
بَكَتْ مِنْ حَدِيثِ بَشَّةٍ وَأَشَاعِهِ
بَكَتْ عَيْنٌ مِنْ أَبْكَالٍ لَا يَعْرِفُ الْبُكَاءَ
فَلَا يَسْمَعَنَّ سَرِّي وَسِرِّكَ ثَالِثُ
وَكَيْفَ يَشْمِعُ السَّرُّ مَنِيَّ وَدُونَهُ
لَيْفَجِعُ بِالْأَطْعَانِ مَنْ هُوَ جَازِعُ
وَرَصَّعَهُ وَاشْ مِنَ الْقَوْمِ رَاصِعُ
وَلَا تَتَخَالَجِيكَ الْأُمُورُ النَّوَازِعُ
أَلَا كُلُّ سَرٍّ جَاوَزَ اثْنَيْنِ شَائِعُ
حِجَابٍ وَمِنْ دُونِ الْحِجَابِ الْأَضَالِعُ

ويصف حاله وحالها وقد نادى مناد بالرحيل فيقول إنه جاء إلى منزلها

كستضيف أو سائل ، يتوسل بذلك لأن يلقاها ويحدثها ، فردته ، فاخنتي تحت
الستر حتى بلله العرق من الحر ، فدهشت من فعله وعضت إصبعها :

وما راعني إلا المنادى ألا اظعنوا وإلا الرواعي غدوةً والقعاقع
فجئت كأني مستضيف وسائل لأخبرها كل الذي أنا صانع
فقلت ترحح ما بنا كبر حاجة إليك ولا منا لفقرك راتع
فما زلت تحت الستر حتى بكأني . من الحر ذو طمرين في البحر كارع
فهزت إلى الرأس مني تعجبا وعضض مما قد فعلت الأصابع ^(١)

وفي مثل هذا الأسلوب يصور عمرو بن حزام آلامه في نونيته المطولة ^(٢) .

(و) وقد قضى كل محب من هؤلاء الغزليين حياته كلها وقلبه يخفق بحبيبة
واحدة لم يبد لها ، وتحمل في حبه أهوالاً أضنت بعضهم وأذهلته ، وقتلت آخرين ،
والموت من الحب سمة الغدريين .

فمثلاً أضنى الحب مالك بن الصمصامة ^(٣) ، وأذهل المرقش الأصغر حتى قطع
إبهامه ^(٤) ، وطوح بعمر بن كعب بن المنذر بن ماء السماء في تيه فلا يدرى أين
مذهبه ^(٥) ، وقتل عبد الله بن العجلان ^(٦) والمخبل القيسي ^(٧) والصمة بن عبد الله ^(٨)

(١) الأغاني ٦/١٣ . أفلاق برمة : قدر مكسرة ، أى سعى بينهم الواشى سعاية تفسد
ما بينهم كما يحدث للقدر المكسرة لا تشعب . الرواعي : الماشية الراعية . القعاقع : صوت
العمد عند تقويض الحيام . راتع : من رتعت الماشية أى رعت في خصب وسعة ، وأرتعها
صاحبها ، وكان السياق يقتضى (مرتع) ولعل صواب الكلمة (راقع) أى مصلح ،
أو (رافع) أى مزيل .

(٢) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ — ١٦٢ .

(٣) الأغاني ٨٣/١٩ .

(٤) الشعر والشعراء ٥٦ وجمع الأمثال ١٣٤/١ .

(٥) الدر المنثور ٣٤٨ .

(٦) الأغاني ١٩/١٠٢ ، والشعر والشعراء ٢٧٤ ، وتزيين الأسواق ٧٩ ، ومصارع

العشاق ٨ .

(٧) الأغاني ٢١/١٦٠ .

(٨) تزيين الأسواق ٩١ .

والمرقش الأكبر^(١) ومسافر بن أبي عمرو^(٢) وعروة بن حزام^(٣) .

ويشير طرفة بن العبد إلى موت المرقش من حبه بقوله :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله فهل غير صيد أحرزته حباله
كما أحرزت أسماء قلب مرقش بحب كلع البرق لاحت مخائله
وأنكح أسماء المرادى يبتغي
فلمأ رأى أن لا قرار يُقره وأن هوى أسماء لا بد قاتله
ترحل من أرض العراق مرقش على طرب تهوى سراعاً رواجه
إلى السر وأرض ساقه نحوها الهوى ولم يدر أن الموت بالسرو غائله
فغودر بالفردين أرض نطية مسيرة شهر دائب لا يواكله
فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نجه وجداً عليها مرقش وعلمت من سلمى خبالاً أماطله^(٤)

— وأشار قيس بن ذريح إلى موت عروة وموت عمرو بن العجلان في قوله :

وفي عروة العذري إن مت أسوة وعمرو بن عجلان الذي قتلت هند
وبى مثل ماماتا به غير أننى إلى أجل لم يأتني وقته بعد^(٥)

— وأشار مجنون ليلى إلى قصة عروة أيضاً .

عجت لعروة العذرى أضى أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً وها أنا ميت في كل يوم^(٦)

(١) الأغاني ١٨٠/٥ وديوان طرفه ١١٩ والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨ .

(٢) الأغاني ٤٦/٨ .

(٣) الأغاني ١٥٢/٢٠ والأمالى ١٥٧/٣ والشعر والشعراء ٢٣٧ وتزيين الأسواق

٧٣ والنوادر ١٥٧ والدر المنثور ٣٤٦ .

(٤) ديوان طرفه ١١٩ . المرادى : رجل من مراد تزوج أسماء . وتقدير البيت وأنكح عوف أسماء من المرادى ليصيب مقاتل مرقش . السرو : سرو خير وهو أعلى بلادهم . الفردين : اسم أرض . نطية : بعيدة . لا يواكله : لا يحتبس في سيره ولا يضعف والضمير عائذ على السير .

(٦) الأغاني ٨٤/٢ .

(٥) الأغاني ١١٦/٨ .

(ز) وحياة هؤلاء العذريين بليغة الدلالة على ما كابدوا في حبهم من آلام
جسام ، وما بذلوا في سبيل حبيبتهم من تضحيات عظام ، وليس ينقصها شيء
مما حفلت به حياة أبطال الحب العذري في الإسلام . ويمتد بي القول لو استعرضت
حياتهم جميعاً في تفصيل . فأجتزئ بالمعالم البارزة والأحداث المثيرة .
ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل التي تروى عن حياة هؤلاء المحبين ،
لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثاً ومثيرات ، لذا نجد اختلافاً في الروايات
وتناقضاً أحياناً ، ونجد تشابهاً بين نهاية محب ونهاية محب آخر ، ولكن هذا
لا يتعارض مع العنصر الأصيل في حياة الشاعر وهو أنه أحب واصطلى بنار الحب ،
واحتمل في حبه مبرح الآلام .

١ - المرقش الأكبر :

يقول أبو الفرج إن اسمه عمرو أو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس
بن بكر بن وائل ^(١) ، ويقول ابن قتيبة إن اسمه ربيعة بن سعد بن مالك أو عمرو
ابن سعد بن مالك ^(٢) . ويتردد داود الأنطاكي بين عمرو وعوف ^(٣) . ولكنهم
جميعاً متفقون على أنه من قبيلة بكر ، وأنه كان يهوى أسماء بنت عوف بن مالك بن
ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بنت عمه ، وقد أغرم بأسماء منذ صغره وخطبها إلى عمه
فرفض أن يزوجه إلا إذا عرف بالبأس — وقيل إلا إذا ترأس وزار الملوك ^(٤) —
وصار يماطله ، ثم انطلق مرقش إلى ملك فأقام عنده زماناً ومدحه فنال جوارزه .
وفي غيبته نزلت بعوف أزمة فأتاه رجل من مراد وأرغبه في المال ، فزوجه أسماء على
مائة من الإبل ، فلما عاد المرقش خشى إخوته أن يخبروه فيهلك ، فادعوا أن أسماء
قد ماتت ، وأروه قبرها ، في قصة تناوبها الخيال فزاد فيها كثيراً ، فضنى ضنى شديداً .
ثم علم بالأمر مصادفة ، فارتحل إلى بلاد المرادي ، واصطحب معه وليدته وزوجها
المخلص له ، فرض في الطريق حتى ما يحمل إلا معروضاً ، فنزلوا بكهف أسفل
نجران وهي أرض مراد ، وبينما هم في الكهف سمع زوج وليدته يقول لها : لقد

(٢) الشعر والشعراء ٥٤ .

(٤) الأغاني ٥/١٨٠ .

(١) الأغاني ٥/١٨٠ .

(٣) تزيين الأسواق ٨٨ .

هلك مرقش سقماً وهلكنا معه ضراً وجوعاً ، فبكت الوليدة ، فهددها زوجها أن يتركها مع مرقش إن لم تصخ إلى أمره ، فأصاحت وانطلقا وتركاه ، ولكن القدر ساق إليه راعياً فأبصره ، وتحدث معه مرقش ، فعرف أنه راع عند المرادى زوج أسماء ، فحملة إليها رسالة لعب فيها الخيال كثيراً ، وأعلمت زوجها ، وطلبت أن يعجل في طلبه ، فركب فرسه وحمل أسماء على فرس آخر ، وسارا حتى وصلا إليه فاحتملاه ، فمات عند أسماء ودفن بأرض مراد (١) .

ويستنتج الأب لويس شيخو اليسوعي أن المرقش مات سنة ٥٥٢ م (٢) . وقد ذكر طرفة قصة المرقش وموته من حبه (٣) كما ذكرها مجنون ليل (٤) .

٢ — وللمرقش الأكبر قريب أذهله الحب هو المرقش الأصغر ، وهو أخو المرقش الأكبر (٥) أو ابن أخيه (٦) ، واسمه أبو عمرو ربيعة بن سفيان بن سعد ابن مالك ، وقيل اسمه عمرو بن حرمة بن سعد بن مالك (٧) ، كان يهوى فاطمة بنت النذر الملك ويتشبه بها ، وكان له — كما كان للمرقش الأكبر — مكانة ممتازة في بكر بن وائل وحروبها مع بني تغلب ، وبأس وشجاعة ونجدة وتقدم في المشاهد ونكاية في العدو وحسن أثر (٨) .

وقد كانت فاطمة تبادلها حباً بحب ، فلما أفشى سرها لصديق وعلمت قطعت صلته فندم وعض على إصبعه فقطعها وجداً عليها .

وعبر عن ندمه في قصيدة طويلة منها :

صحا قلبه عنها على أن ذُكِرَتْ إذا خطرت دارت به الأرض قائماً
أفاطم لو أن النساء يبيلدة وأنت بأخري لا تبعتك هائماً

(١) الأغاني ١٧٩/٥ ، والشعر والشعراء ٥٤ ، وتزيين الأسواق ٨٨ ، وديوان

طرفة ١١٨ .

(٢) شعراء النصرانية ٢٨٢ . (٣) ديوان طرفه ١١٨ — ١٢٠ .

(٤) الأغاني ٨٤/٢ . (٥) الشعر والشعراء ٥٦ .

(٦) الأغاني ١٧٩/٥ ، ١٨٣ .

(٧) الأغاني ١٧٩/٥ والشعر والشعراء ٥٦ .

(٨) الأغاني ١٧٩/٥ .

ألم تر أن المرء يجذم كفه وَيَحْسَمُ من لوم الصديق المجاشما^(١)

٣ — وهذا الحب هو عبد الله بن علقمة العامري ، أحب حبيش ، وقد ارتبطت قصة حبه وموته بحرب كان يقودها خالد بن الوليد . ذلك أنه بعد فتح مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش إلى قبائل شتى . فبعث خالد بن الوليد إلى بني عامر ، فوافاهم بماء يقال له الغميصاء ، فقاتلهم حتى انهزموا ، ويقص خالد بن الوليد نفسه قصة ابن علقمة العامري^(٢) . ويقصها أحد المشتركين في الواقعة واسمه ابن أبي حدرد الأسلمي^(٣) . وملخصها أن خالد بن الوليد بعد هزيمة بني عامر رأى غلاما له ذوائب يسير بفروسه في أخريات القوم ، فوضع خالد رمح بين كتفيه ، فقال الغلام « لا إله » . فقبض خالد عنه الرمح . فقال الغلام : « إلا اللات أحسنت أو أسأت » . فأسر خالد وشد وثاقه . ثم كلمه فلم يجب ، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بني جذيمة قد سباهن المسلمون فقال : يا خالد هل أنت واقفي على هؤلاء النسوة ؟ فأجابه إلى طلبته . فأقبل على النسوة وفيهن جارية تدعى حبيش فقال لها : ناوليني يدك . فناولته يدها في ثوبها فقال لها : « أسلمي حبيش . قبل نفاد العيش » . فقالت : « حيث عشرأ وتسعا وترأ وثمانيا تترى » . فقال :

أَرَيْتَكَ إِنْ طَالَبْتُكَ فوجدتك بِحَلِيَّةٍ أَوْ أَدْرَكْتُكَ بِالْخَوَانِقِ
أَلَمْ يَكْ حَقٌّ أَنْ يُنَوَّلَ عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق
وقد قلت إذ أهلى لأهلك جيرة أثبني بود قبل إحدى الصفائق
أثبني بود قبل أن تشحط النوى وينأى أمير بالحبيب المفارق

فتقدم إليه خالد ف ضرب عنقه . فأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتقول :

لا تبعدن يا عمرو حياً وهالكا فحقَّ بحسن المدح مثلك من مثلى
لا تبعدن يا عمرو حياً وهالكا فقد عشت محمود الثنا جيّد الفعل

(١) الأغاني ١٨٥/٥ وجمع الأمثال للميداني ١٣٤/١ والشعر والشعراء ٥٦ .

(٢) الأغاني ٢٣/٧ ، ٢٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥٩/٤ .

فمن لطراد الخليل تُشَجَّر بالقنا وللغفر يوما عند قرقرة البزل

وجعلت تبكي حتى ماتت ورأسه في حجرها^(١)

٤ — وعروة بن حزام بن مهاصر بطل من أبطال الحب العذرى والغزل العف ، قصر حبه على عفراء بنت عمه عقال بن مهاصر ، وقصر غزله عليها . وهو شاعر مخضرم توفي سنة ٣٠ هـ^(٢) . وذكر الذهبي أنه توفي في خلافة عثمان سنة ٣٠ وقيل سنة ٢٨ هـ^(٣) . وكان قد نشأ مع عفراء منذ الصغر ، لأن أباه مات وترك عروة في حجر عمه عقال ، فكانا يلعبان حتى تألف كل منهما صاحبه إلفاً شديداً ، وكان عمه يمنيّه أن تكون عفراء زوجة له . فلما نضج عروة ونضجت عفراء أرسل عروة عمته إلى عمه ليزوجه بعفراء ، فاعتذر بأن عروة فقير وليست عليه عجلة . فسكن عروة بعض السكون ، ولكن أم عفراء كانت سيئة الرأي فيه وتريد لابنتها زوجاً غنياً لأنها ذات كمال وجمال . فلما تكاملت سن عروة وبلغ أشده علم أن غنياً من قومه يخطب عفراء ، فلم يطق صبراً ولم يرسل إلى عمه رسولا بل كلمه بنفسه وكشف له عن حبه وأن عفراء لو تزوجها غيره لمات . فعطف عليه ووعدته خيراً ، وطلب منه أن يضرب في الأرض لعله يفتنى ، وحاول عروة أن يتودد إلى قلب أم عفراء لعلها تخفف من شططها في المهر فأبت ، فأيقن أن المال وسيلة إلى عفراء ، فعزم أن يقصد ابن عمه موسر بالرى ، وأخبر والدى عفراء فصوباً رأيه ووعداه ألا يحدثا أمراً حتى يعود . وشد على راحلته ، وصحبه صديقان من بني هليل ابن عامر ، وكان في طريقه مشدوها يكلمه صاحباه فلا يفهم حتى يعيدا عليه القول ، لأن فكره مرتبط بعفراء ، ومقسم بين الأمل واليأس ، وأحسن ابن عمه لقاءه ووصله بمائة من الإبل ،

(١) الأغاني ٢٣/٧ — ٢٨ ، وسيرة ابن هشام ٥٩/٤ وتزيين الأسواق ٨٥ ، وتاريخ الأمم والملوك ١٢٥/٣ . حلية والخوانق : موضعان ، وفي طبعة ساسي حيلة ، ولكنها في طبعة دار الكتب حلية ٢٩٠/٧ . الودائع : جمع وديقة وهي شدة الحر . الصفائق : النوايب . تشجر : تطعن . قرقرة : هدير الإبل ، ودعاؤها . البزل : جمع بازل وهو البعير في السنة التاسعة ، وفي الأصل « وللعجز يوما عند قرقرة البذل » وهو تحريف .

(٢) فوات الوفيات ٣٥/٢ .

(٣) تزيين الأسواق ٧٦ .

فانصرف بها إلى أهله مسروراً عظيم الأمل في زواج عفراء . ولم يكن يدرى أن أمويًا غنيًا قدم من الشام فنزل في حي عفراء فنحروا وأطعموا ووهبوا ، ورأى عفراء فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فاعتذر بأنه قد سماها لابن عمها العزيز عليه ، فرغبه الأموي في عظم المهر فلم يرغب . فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولاً ، وما زالت بزوجها حتى قبل ، ولكن عفراء كانت على عهد لعروة ، وكان هذا الزواج بالرغم منها ، فقد قالت قصيدة منها :

يا عرو إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا^(١)
وفي رواية أخرى أن الذي تزوجها ابن عم لها من البلقاء^(٢)

وصب عروة غضبه على عمه لأنه نكث بعهده ، فهجاء ، ودعا عليه أن يصيبه من الهم ما أصاب عروة ، وأن يبتلى بشوق عفيف إلى حبيب ميثوس منه كما ابتلى عروة :

فيا عرو إذا الغدر لا زلت مبتلى	حليفاً لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية	فألزمت قلبي دائم الخفقان
وأورثتني غما وكرباً وحسرة	وأورثت عيني دائم الهملان
فلا زلت ذا شوق إلى من هويته	وقلبك مقسوما بكل مكان
فيا عرو لا أسقيت من ذى قرابة	بلا لا فقد زلت بك القدمان
ومنيته عفراء حتى رجوتها	وشاع الذي منيت كل مكان
فوالله لولا حب عفراء ما التقى	على رواقا بيتك الخلقان
رواقان هفافان لا خير فيهما	إذا هبت الأرواح يصطفقان ^(٣)

ويقول في قصيدة أخرى :

فقلت لعراف اليمامة داوئى فإنك إن أبرأتني لطبيب

(١) الأغاني ١٥٣/٢٠ وفوات الوفيات ٣٠/٢ .

(٢) الشعر والشعراء ٢٣٧ .

(٣) النوادر للقالى ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٧ .

فأبى من مُحسَى ولا مس حِينَة ولكنَّ عَمَى الحَمِيرَى كَذُوبٌ (١)

ويأبى الخيال إلا أن يعمل هنا ما عمله في قصة المرقش الأكبر ، فهو يضيف إلى قصة عروة ما أضافه إلى قصة المرقش من عنصر التعمية على الحب ، ثم طريقة وصول الحقيقة إليه ، لأن عم عروة عمد إلى قبر عتيق فجده ، وسأل الحى كتمان أمر عفراء ، وقدم عروة بعد أيام فنعاهما عقال إليه وأراه القبر ، فصار يختلف إليه أياماً وهو هالك مضنى ، حتى أخبرته جارية الخبر فركب إلى الشام يريد الأموى ، ولقيه وانتسب إليه في عدنان ، فأحسن الأموى ضيافته ، ومكث عنده أياماً ثم بعث إلى عفراء خاتمه كما بعث مرقش إلى أسماء خاتمه ، وطرحه في قعب اللبن كما فعل عبد أسماء بخاتم مرقش ، فعلمت أنه خاتم عروة كما علمت أسماء من قبل ، ثم أعلمت زوجها كما أعلمت أسماء زوجها ؛ فعاتبه الأموى على كتمان نفسه ، وزاده إكراماً وتركه يتحدث مع عفراء ، وأوصى خادماً له أن يستمعهما . وهذا خيال أيضاً لأنه يتنافى مع الغيرة العربية ، ولأن تجسس الخادم منقصة من قدر عفراء ، فتشاكيا ، وبكى عروة وعرضت عليه عفراء قدحاً من خمر فرفض . ثم أعلمها أنه لا يستطيع البقاء بعد أن علم الأموى حقيقته ، فبكت وبكى وانصرف ، فلما جاء زوجها أعلمته الخادم حديثهما ، وأعلمته عفراء أن عروة مزمع الرحلة ، فدعاه وألطف له القول ووعدته ألا يحول بينهما وبين الاجتماع ، بل تذهب الرواية إلى أكثر من ذلك ، فتدعى أنه قال له : « لئن شئت لا فارقتها ولأترن لك عنها » (٢) فجراه عروة خيراً وأثنى عليه وتجلد ، وادعى أن أموراً تضطره إلى الرجوع إلى وطنه ووعد أن يعود ، ولكنه بعد رحيله نكس وأصابه غشى وخفقان ، وتخلق القصة شهياً بينه وبين يعقوب عليه السلام ، فتصوره أنه كان كلما أغمى عليه ألقى صاحبه على وجهه خمرا لعفراء زودته إياه فيفيق ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يصل إلى حيه بثلاث ليال ، وعلمت عفراء فجزعت جزعاً شديداً ورثته بأبيات لم تزل ترددها وتندبه حتى ماتت بعده بأيام قلائل (٣) . وأرجح أن تشبيه حاله بحال يعقوب تخيل إسلامي متأثر بقصة

(١) تزيين الأسواق ٧٤ .

(٢) الأغاني ١٥٥/٢٠ .

(٣) الأغاني ١٥٤/٢٠ .

يوسف في القرآن الكريم .

وفي رواية أخرى أنه لم يميت في طريقه ، وأنه قد بلغ أهله نحيلاً مضى ، وكانت أخواته وخالته وجدته يعظنه ولكن لا يؤثر فيه وعظهن ، فجن له بأبي حكيمة رباح بن شداد وهو عراف حجر ليدأويه فلم ينفعه دواؤه ، أو أنه أصيب بالهلاس حتى لم يبق منه شيئاً ، فاستطبوا له عند طبيب باليمامة اسمه سالم ، فجعل يسقيه الدواء فلا ينفعه ، فخرجوا إلى طبيب بحجر فلم ينتفع بعلاجه ، وهو يشير إلى ذلك بقوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه	وعراف حجر إن هما شفياني
فما تركا من حيله يعلمانها	ولا سُلوّة إلا بها سقياني
فقالا شفاك الله والله ما لنا	بما حملت منك الضلوع يدان
فويلي على عفراء ويلاً كأنه	على الصدر والأحشاء حدّ سنان
أحب ابنة العذرى حباً وإن نأت	ودانيت فيها غير ما متدان
تحملت من عفراء ما ليس لي به	ولا للجبال الراسيات يدان (٢)

وبلغ به الشوق أنه كان يأتي حياض الماء التي كانت تردها إبل عفراء فيلصق بها صدره ، فيقال له : مهلاً فإنك قاتل نفسك ، فاتق الله فلا يقبل (٣) ، وما زال على غرامه وهيامه حتى قضى نحبه .

وعلمت عفراء بموته فقالت لزوجها : قد كان من خبر ابن عمي ما كان بلغك ، ووالله ما عرفت منه قط إلا الحسن الجميل ، وقد مات بسببي ولا بد لي من أن أندبه ، فأذن لها ، فندبته ثلاثاً حتى توفيت في اليوم الرابع (٤) ، أو أنها استأذنت زوجها في زيارة قبر عروة ، فأذن لها ، فصارت تتمرغ على القبر وتبكي (٥) .

ويحاول الخيال القاص أن ينضر المحبين في موتهما بما حرماه في حياتهما ، فيقول إن عفراء رثت عروة بشعر على قبره وألقت نفسها عليه فماتت ، فدفنت

(١) الأغاني ١٥٦/٢٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٢٣٨ والأغاني ١٥٥/٢٠ والنوادر لأبي على القالي ١٦١ .

(٣) الأغاني ١٥٦/٢٠ .

(٤) الأغاني ١٥٧/٢٠ .

(٥) تزيين الأسواق ٧٥ .

بجانبه ، فنبتت من القبرين شجرتان حتى إذا صارتا على حد قامة التففتا ، فكان المارة ينظرون إليهما ولا يعرفون من أى ضرب من النبات ، وكثيراً ما أنشدوا فيهما شعراً^(١) .

ومن رثاء عفراء له ما يكشف عن أنها كانت تبادله الحب ، فهي تدعو على من نَعَوْه ، وتدعو على الفتیان ألا ينعموا بعده بلذة ولا سلامة ، وتوئس النساء أن يلدن مثله وأن يفرحن بوليد :

ألا أيها الركب الخبثون ويحكم
بحقٍ نعيم عروة بن حزام ؟
فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا
بأن قد نعيم بدرٍ كل ظلام
فلا تهنأ الفتیان بعدك لذّة
ولا رجعوا من غيبة بسلام
وقل للجبالي لا ترجين غائباً
ولا فرحاتٍ بعده بغلام^(٢)
وقد ذكر مجنون ليلي قصته :

عجبت لعروة العذرى أمسى
أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً
وهأنا ميت في كل يوم^(٣)

٥ — وكذلك قتل الحب عبد الله بن العجلان بن عبد الأجب من نهد ، فقد رأى على ماء غسان بنجد هنداً في بنات من العرب كن يقصدن هذا الماء ، ويخلعن ثيابهن ويغتسلن ، وكانت هند طويلة الشعر شفافة الجسم ، فأسره جمالها ، وسحرته نظراتها ، وعبر عن حبه بقوله :

لقد كنتُ ذا بأس شديد وهمّة
إذا شئتُ لماً للسماء لمسّتها
أنتنى سهام من لحاظ فأرشقت
بقلي ولو أسطيعُ ردّاً ردّتها

وشكا لصديقه فقال له : اكنتم مابك واخطبها إلى أبيها ، ففعل وتزوج بها^(٤) . وكانت من أقاربه من نهد أيضاً ، وظل أسعد الناس سبع سنوات أو ثمانى سنوات حتى فرق بينهما أبوه .

(١) تزيين الأسواق ٧٥ ،

(٢) الأغاني ١٥٥/٢٠ وتزيين الأسواق ٧٥ ،

(٣) الأغاني ٨٤/٢ .

(٤) تزيين الأسواق ٨٠ ،

ذلك أن العجلان كان سيداً في قومه ، وورث ابنه عنه سيادته ، وكان العجلان أكثر بني نهند مالا ، ولم يكن له ولد غير عبد الله ، ولم تكن هند قد ولدت في هذه المدة ، فقال العجلان لابنه : إنه لا ولد لي غيرك ولا ولد لك ، وهذه المرأة عاقر ، فطلقها وتزوج غيرها ، فأبى .

فأبى ألا يكلمه حتى يطلقها ، ولكنه أقام على أمره فعمد إليه أبوه يوماً وهو سكران وعأوده في أمرها وأتته وجمع عليه مشيخة الحى وفتيانهم ، فتناولوه بالسنتهم وعيروه شغفه بها وضعف حزمه ، ولم يزالوا به حتى طلقها ، ولكنه أسف عليها أسفاً شديداً ، وعلم أن أباه زوجها لرجل من بني نمير فدفن عبد الله وسقم ، وعرضوا عليه فتيات الحى جميعاً فلم يقبل واحدة منهن ، وما زال يقول فيها الشعر ويكيها حتى مات أسفاً عليها ^(١) ، وكان موته كما ذكر في « الزهرة » قبل عام الفيل بأربعة أعوام ^(٢) ، وقد ذكر بعض الشعراء موته من الحب .

فإن مات من الحب فقد مات ابن عجلان ^(٣)

وذكر ابن رشيقي في كتابه « بلغة الإشفاق في ذكر أيام العشاق » أن عبد الله ابن العجلان عاش يكابد المحنة وغصص الشوق ثلاثين سنة ، ولذا ضرب المثل به كما ضرب بعروة ، من ذلك قول قيس .

فما وجدتُ وجدى بها أم واحد ولا وجد النهدى وجدى على هند
ولا وجد العذرى عروة فى الهوى كوجدى ولا من كان قبلى ولا بعدى
وهو يشير إلى عبد الله بقوله « النهدى » ^(٤) . وقال البحتري

هوى لا جميل فى بثينة ناله بمثل ولا عبد بن عجلان فى هند
ومن أسفه عليها قوله :

فأرقت هندا طائعا فندمت عند فراقها
فالعين تدرى دمعها كالدر من أماقها

(٢) تزيين الأسواق ٨٠ .

(٤) تزيين الأسواق ٧٩ .

(١) الأغاني ١٩/١٠٢ .

(٣) الشعر والشعراء ٢٧٤ .

متحلباً فوق الرداء يجول من رقرقها^(١)

٦ — وكان مسافر بن عمر بن أمية يحب هند بنت عتبة وتجهه ، فخرج إلى الحيرة وأتى النعمان بن المنذر ، ثم أقبل أبو سفيان في بعض ما كان يأتي الحيرة ، فلقى مسافراً ، فسأله مسافر عن حال قريش والناس ، فأخبره وقال له فيما يقول : وتزوجت من هند بنت عتبة . فدخله من ذلك ما اعتلّ معه حتى استسقى بطنه ، وقال :

ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً وأصبحت من أدنى حموتها حماء
وأصبحت كالقمور جفن سلاحه يقلب بالكفين قوساً وأسهما

فدعا له الملك الأطباء فكوه فما ازداد إلا ثقلاً ، فخرج يريد مكة فلما انتهى إلى موضع يقال له « هباله » مات فدفن هناك^(٢) .

٧ — وتعلق عمرو بن كعب بن النعمان بن ماء السماء عقيلة بنت عمه أبي النجاد ، وكان قد رباه عمه بعد وفاة أبيه فنشأ معها في بيت واحد ، فلما كبرا خطبها إلى عمه فطلب مهرأ أعجزه ، فأشار عليه بعض أصحابه بالخروج إلى إربوز ابن كسرى لما كان بين أجدادهما من الصلة ، ولكنه علم من عرّاف في الطريق أنه ساعفياً لا يدرك ، فعاد فوجد عمه قد زوج عقيلة لفزاري ، فهام على وجهه باليامة ، لا يرى إلا شاخصاً إلى السماء وهو ينشد :

إذا جن ليل فاضت العين أدمعاً على الخد كالغدران أو كالسحاب
فما أسقى إلا على ذوب مهجتي ولم أدر يوماً كيف حال الجباب

وكانت عقيلة تبادله حباً بحب ، فلم تمكن الفزاري منها ، حتى قالوا إنها كانت تشده في الليل إلى كسر البيت وتبيت في الخدر ، فإذا أصبح الصبح تطلقه فيستحى أن يخبر أحداً بذلك ، ومكثا على ذلك سبعين ليلة ، فلما كثرت ظنون الناس فيه

(١) الأغاني ١٠٣/١٩ وتزيين الأسواق ٨٠ ،

(٢) الأغاني ٤٦/٨ ، ٤٨ وقد ذكر أن مسافراً أتى عمرو بن هند أو النعمان بن المنذر وليس من الممكن أن تكون هند معاصرة لعمرو بن هند صاحب عمرو بن كلثوم والحارث بن حنظلة ،

خرج فلا يُدْرَى أين ذهب ، وعادت عقيلة إلى بيت أبيها لا تتناول إلا الأقل من الطعام ، وأذا بها البكاء على عمرو حتى ماتت ^(١) .

٨ — وهناك غير هؤلاء أحبوا حباً عذرياً أحرقتهم وصبروا على حرقة ، أو توسلوا به إلى زواج ، كأبي مالك بن عبد الله بن مسعود ، أحب ريا بنت مسعود ابن رقاش ^(٢) ، وعتبة بن الحباب بن المنذر بن الجوح ، أحب ريا بنت الغطريف السلمي ^(٣) ، والمجمل القيسي ، أحب ميلاء بنت عمه ^(٤) ، وعدى بن زيد العبادي أحب هند بنت النعمان بن المنذر ، وتزوجها على كره من أبيها ، ثم قتله النعمان فترهبت بعده في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة ، وقد أدركت الإسلام وخطبها المغيرة بن شعبة فردته ^(٥) ، ومالك بن الصمصامة أحب حباً عذرياً جنوب بنت محسن الجعدى ^(٦) .

(١) الدر المنثور ٣٤٨ .

(٢) تزيين الأسواق ٩١ .

(٣) تزيين الأسواق ٩١ .

(٤) الأغاني ٢١ / ١٦٠ .

(٥) الأغاني ٢ / ١٢٨ — ١٣٢ .

(٦) الأغاني ١٩ / ٨٣ .

الغزل المحسنى

تمهيد :

الأدب المكشوف والأدب المستور

هل كانت هنالك ضرورة لتصوير الشعراء هذه العلاقة الخاصة بينهم وبين النساء ؟ ألم يكن الأخلق بهذه الأسرار أن يسدل عليها الستار ؟ فلماذا كشف الشعراء عن نفوسهم ما كان يجب أن يخفوا ؟ وهل نجد مدعاة لدراسة هذا الغزل المكشوف الذى كان من واجب الشعراء أن يستروه ؟

نحن الآن أمام مذهبين من المذاهب الأدبية ، يختلف حكمهما على هذا الغزل : مذهب يرى أن الأدب يجب أن يبت في النفوس خلال الخير والحق والجمال ، وهو إذاً يزور عن دراسة هذا الأدب المكشوف ، لأنه يجافى الخلق الكريم ، ومذهب يرى أن الأديب حر في تعبيره عن مشاعره ، بصرف النظر عما في مضامين أدبه من خير أو من شر ، وهو إذاً يحفل بدراسة هذا الضرب من الغزل .

يقول سدنى فى كتابه (دفاع عن الشاعر) Defence of Poet الذى نشره ١٨٥١ « إن الأدب يرمى إلى أن بصرف العقل عن السوء إلى الخير فى غير ادعاء ، كما تضاف المشهيات إلى طعام الطفل ليستسيغه ^(١) » .

ويرى الداعون إلى المذهب الأخلاقى أن بين تقدير الجمال ورقى السلوك علاقة خفية متبادلة « لأن تقدير الجمال يرقى السلوك ، ورقى السلوك يؤدى إلى زيادة الميل

إلى خَلْق الجمال ، ويظهر أن وردسورث ورسكن وتولستوى قالوا بهذا الرأي ، ولكنهم لم يستمسكوا به على الدوام^(١) .

أما المذهب الآخر فيذهب إلى أن الفنان حر ، لأن الغرض من الفن ليس التهذيب ولا الترقية ، وإنما الغرض منه تعبير الفنان عن خلجاته ، وتصويره لما يحس به ، ولما يروقه أو يؤلمه .

فالغاية من الفن الإمتاع وبعث السرور والإعجاب ، أما المذهب الخلقى ، فإنه كما يقول جارت « يغض من قيمة جمال الشعر وجاذبيته ، ويصوره حيلة وخداعا . ولعل دريدن Dryden كان أول كاتب إنجليزي عاب هذا المذهب في كتابه دفاع عن مقال في الشعر التمثيلي بقوله : إن المتعة هي الغرض الرئيسي للشعر إن لم تكن هي الغرض الوحيد ، أما التعليم فلا يمكن إلا أن يكون الغرض الثاني^(٢) » .

وإذا كنا نحس الفن والأدب في دائرة التثقيف والتهذيب فإننا نفرض من قيمة التمثيليات والروايات الخيالية التي تصور صراعا بين العدل والظلم والخير والشر والأمانة والخيانة ؛ لأن هذه الرذائل عناصر لا غنى عنها ، لذا يلجأ القصاص والوعاظ والكتاب الأخلاقيون إلى تصوير الشخصيات الشريرة وما يليق أصحابها من محن ليوازنوا بين حالها وحال الأخيار ، ولقد يتأثقون في تصوير هذه الشخصيات تأثقا .

وكثير من الشعر العالي حافل بنزوات الشاعر وشذوذه ومجافاته للعرف ، ولكنه ممتع ، كخمريات أبي نواس والأعشى ، وغزل عمر بن أبي ربيعة وامرئ القيس « ولعل أقذع ما توصف به قصيدة أنها تهذيبية أو تثقيفية ، ولا يفوق ذلك الوصف إقذاعا إلا قولنا إنها قبيحة^(٣) » .

فليس حكمنا على إنتاج الأديب راجعا إلى ما فيه من خير أو من شر ، وإنما يرجع إلى روعة الإنتاج نفسه ، وصدق الشعور الذي ابتعثه ، والبراعة في إبرازه . وليست الأخلاق بحاجة إلى تعهد متكلف لتثبت في تيار الحياة ، ولتدس في

(١) المرجع السابق ٦٥ .

(٢) فلسفة الجمال ٦٢ .

(٣) فلسفة الجمال . جارت ٦٤ .

الفن على هذا النحو المصطنع ، وكما كان الفن حراً في تصويره للواقع كان أتم
« وليس الوجدان الفني بحاجة إلى الوجدان الأخلاقي يستمد منه العفة ، لأنه
ينطوى في ذاته على هذه العفة التي هي الحياء الفني ، ويعرف متى يجب ألا يستعمل
من صور التعبير غير الصمت . بل إن الفنان حين يتجاوز هذا الحياء فيخرج على
الوجدان الفني ويدس في الفن ما لا تدعو إليه حاجة فنية أو يسوغه مسوغ فني
— ولو كان من أنبل المسوغات وأشرفها — فإنه لا يكون قد أخطأ من الناحية
الفنية فحسب ، بل يكون قد أجرم من الناحية الأخلاقية ، لأنه أخل بواجبه من
حيث إنه فنان ^(١) » .

وبعد فقد صور هؤلاء الشعراء نزعاتهم خاضعين لفهم وحده ، كما صور آخرون
من بعدهم في الشرق والغرب هذه النزعات ، وإن أنكرها الدين والعرف ، ولا ننسى
هنا مجون أبي نواس والحسين والضحاك وبشار بن برد وابن سكرة ، ولا ننسى
اعترافات روسو ، وقصائد بيرون .

وما من شك في أن في آثارهم متعة فنية وحيوية ، وأن شعرهم صادق التعبير
عن خيلجاتهم ، صادق التصوير لأحوالهم وأحوال مجتمعاتهم الخاص ، فمن حقهم
أن يدرسوا ، ومن حق أدبهم أن يفرد بكثير من العناية .
ولست أقصد أن ندرس أدبهم لتطبيقه في حياتنا ، أو ندعو غيرنا إلى أن يعيد
ظروفه ويحييها ، فإن هذه الدراسة الفنية أبعد ما تكون عن هذا الغرض .

وأنا أدين بما ذهب إليه أفلاطون في قوله : « يجب أن نراقب شعراءنا فنوجب
عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد وإلا فلا ينظموا ، أو نوسع نطاق
مراقبتنا فتشمل أساتذة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن
والفساد والسفالة والسماجة ، لكي لا ينشأ حكمانا في وسط صور الرذيلة نشوء
الماشية في مراعى رديئة ، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها » ^(٢) .

وهو قد هاجم الشعراء في كتابه القوانين ، ذلك بأنه يجد هوميرو ، وبلبل ثراه

(١) المجلد في فلسفة الفن . كروتشة ١٧١ .

(٢) جمهورية أفلاطون ٧٧ ترجمة حنا خياز .

بندى الزهر والريحان ، ثم قرر أن هؤلاء الفنانين (شعراء وخطباء) لا يصح أن يكونوا أمثلة لشباب أثينا . وكثيراً ما أغرى بهم الحكام ليحولوا بينهم وبين التأثير في نفوس الشباب إلا إذا كتبوا عن فضيلة خلقية ، وإلا إذا صانوا أخيلتهم عن الأوهام الفاسدة التي لا تجد لها ظلالاً في الحقيقة^(١) .

وكذلك فعل أرسطو ، لأنه رأى أن الأدب قد يتعرض للذيلة ولكن ليحاربها ، ويجب أن يمنع من أن يقررها ويشيمها^(٢) .

أما شيوع مذهب الفنية أو كما يقال خطأ (الفن للفن) فإنه استغلال للمذهب في غير ما أريد به ، ذلك أنه شاع في فرنسا وغير فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وجرّد من ملابساته التاريخية حتى انصرف إلى معان لم يقصدها من دعوا إليه أول الأمر ، فمن الناس من يظن أن معنى (الفن للفن) هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى فيما يسمى الأدب المكشوف ، وهذا فهم خاطئ ، ومن واجبنا أن نفهم مدلول هذا المذهب فهما تاريخياً يبين المراد منه والظرف الذي نشأ فيه .

ظهر هذا المذهب كما فهمه الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم (تيوفيل جوتييه) رداً على المذهب الرومانتيكي الذي اتخذ من الأدب وسيلة للتعبير عن المشاعر الشخصية قبل كل شيء ، وأسرف في هذا الاتجاه حتى أصبح في كثير من الأحيان صرخات عاطفية أو أنات شعورية ، ولم يحفل بغير الترجمة عن العاطفة الشخصية ، وكان في هذا نزول بالأدب إلى مستوى الوسيلة .

وثار على هذا الاتجاه أدباء رأوا أن من حق الأدب أن يصبح غاية في ذاته ، وفناً مقصوداً لا مجرد وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، وأخذوا يتجهون نحو الوصف بنوع خاص .

وعلى هذا يبدو أن مذهب (الفن للفن) لاهلاقة له بالمسألة الأخلاقية وارتباطها بالأدب ، والقول بأن الفن غاية في ذاته لا محل للحكم عليه حكماً أخلاقياً بأن يقال

(١) كتاب الخطابة لأرسطوطاليس . مقدمة ٢٥ إبراهيم سلامة .

(٢) المرجع السابق ٣٣ .

إن المذهب يماشى الأخلاق أو يعارضها^(١) .

حقيقته :

« هو الغزل الحسى المادى الذى أساسه حب تترج به ميول شهوانية ، أو عواطف خالية من التخرج وأوصاف ربما لا يرضى عنها إلا أنصار الأدب المكشوف »^(٢) هو تعبير عن نوع من الحب أساسه الشوق إلى الاستمتاع بالمرأة الجميلة فى نظر الشاعر ، فليس متسا بالروحانية التى وجدناها عند العذريين ، ولا حافلا بالأشواق الملتهبة والنغم الحزين ، ولا مقصوراً على امرأة واحدة يتغنى الشاعر حياته بحبها وينفى لها ويحتوى غيرها من النساء ، وليس فيه بسطة فى تحليل عاطفة الشاعر كما حلل العذريون عواطفهم ؛ لأنه تصوير لحب عابث من طبيعته الإعجاب المؤقت بالجمال حتى يقضى الشاعر وطراً فينقلب إلى جميلة أخرى وهكذا .

ولقد يجتمع فى قلب الشاعر حب اثنتين فى آن واحد ، فى كل منهما ضرب من الجمال يروقه .

وأصحاب هذا الغزل لاطاقة لهم بالصبر على واحدة ، يقول أدلر : « إن بعض الناس يهوى أكثر من اثنتين فى وقت واحد ، لأنهم يرون أن الحب قيد يحد من سطوتهم ، فهم يلتمسون فى حبين تحففاً من قيود الحب الواحد وما يلقى عليهم من تبعه ، ويرون فى التردد بين أعطاف الواحد إلى أعطاف الآخر ما يبق عليهم قدرهم ويخفف من التبعة الملقاة عليهم^(٣) » .

فحبهم قائم على الاستطراف المؤقت ، ولذلك قلما يحفلون بهجر ، ولم يحفلون ؟ أليست الجميلات كثيرات ؟

أليسوا قادرين على النقلة السريعة من امرأة إلى أخرى ؟ بل لقد يتهددون المهاجرة بحب جديد ، قال امرؤ القيس :

(١) فى الأدب والنقد ٢٩ محمد مندور .

(٢) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ٧٤ .

(٣) علم النفس الفردى إسحق رمزى ١٥١ .

أَسْمَاءُ أُمِّى وَدُّهَا قَدْ تَغَيَّرَا سُبَيْدِلْ إِنْ أَبْدَلْتُ بِالْوَدِّ آخِرًا ^(١)
ولم يتحرج أبطال هذا الضرب من الغزل من التصريح بلذاتهم ، أو دعوة
غيرهم إلى مثلها كما سيجىء .

نشأته

لم ينشأ نشأة عربية .

١ — أرى أن هذا الضرب من إعلان الرجل لذاته ، وتصريحه باستمتاعه
بالمرأة ، ومجاهرته بالفحش يناقض الخلق العربى القسائم على العفة أو التعفف ،
والغيرة على النساء ، والشهامة والسيادة .

وكيف لا يناقض الخلق العربى وقد كانت العفة من الموازين التى توزن بها
أقدار الرجال ؟ ولم تكن المجانة والخلاعة مما يتغاضون عنه ، فامرؤ القيس طرده
أبوه لخلاعته ، والمنافرة التى كانت بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل
كان سببها قول علقمة له : « إنك أعور البصر عاهر الذكر وأنا عفيف » ^(٢) ،
فلما تنافرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب قال لعلقمة : « بأى شىء أنت أسود
من عامر ؟

قال : « أنا بصير وهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو
عاهر » ^(٣) .

كانت العفة كالشجاعة والكرم فى وزن واحد مما يفخر بها الرجال ، ومما
يسوِّدون لها ، لذا كانت السبب فى تفضيل بسطام بن قيس على منافسيه « ومما
فضل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب أن
بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلاً ، وكان عامر فارساً
جواداً عاهراً ، فاجتمعت فى بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلهما » ^(٤) .

(١) ديوان امرئ القيس ٦٩ .

(٢) طهارة العرب . الشنقيطى ١٢ .

(٣) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ .

(٤) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ .

وقد لقبوا حسان ملك حمير — وهو أحد الأذواء — بلقب ذو معاهر لأنه كان يرمى بالفجور^(١).

ولم تحم قيس بن الحداية شجاعته وفتكه من أن تخلعه خزاعة وتشهد الناس أنها خلعتة بسوق عكاظ. لأنه كان خليعاً^(٢)، وطالما تباهى الرجال بعفهم^(٣)، وطالما مُدحوا بها ورثوا^(٤).

وكانت النساء أكثر من الرجال عفة وتصوناً، حتى لقد عجبت هند بنت عتبة وهي تعاهد الرسول مع نسوة من قريش من أن يعاهدن على ألا يزنین، وقالت: وهل تزني الحرة يا رسول الله؟^(٥).

وقد أشاد الشعراء بعفة الجيبات وتمنعهن وبعد منالهن^(٦)، وكانت الغيرة من أبرز أخلاق العرب^(٧).

٢ — وكانت علاقة الرجال بالنساء قائمة على زواج يخطب فيه الرجل المرأة إلى أبيها أو أخيها أو الولي عليها، ويمهرها، أما أنواع العلاقات الأخرى التي وردت في حديث السيدة عائشة^(٨)، فقد كانت مقصورة على فئة خاصة من النساء هن أصحاب الرايات، «بغايا يقصد إليهن الفتيان»^(٩)، وكن ينصبهن على أبوابهن لتكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن^(١٠)، ولم يكن من مفاخر الرجل أن يتسلل

(٢) الأغاني ١٣ / ٢.

(١) طهارة العرب ١٢.

(٣) بردع بن عدى الأوسى. مجالس ثعلب ١ / ٢٥٣ وشاعر آخر. الأمل ١ / ٤٥ وعنتره. الديوان ١٨٥.

(٤) الخنساء في رثاء صخر. ديوان الخنساء ٨٢، ٦٨، ٧٠ وبلاغات النساء ١٦٨ والخرنق. ديوانها المخطوط. وأعشر ياهله في رثاء المنتشرين وهب. طهارة العرب ٣٤.

(٥) الروض الأنف للسبيلي شرح سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧٧ والإصابة ٨ / ٢٩٥.

(٦) علقمة بن عبده المفضليات ٢ / ١٩١ وسويد بن أبي كاهل المفضليات ١ / ١٩٠.

وأخبار النساء ٨٦.

(٧) مجمع الأمثال للسيداني ٢ / ٧٠ وطهارة العرب ٦ والأغاني ٢٠ / ١٥٩، ٨٣ / ١٩.

وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٩ و ١١٠ والحاسن والأضداد ٢١٩ والأغاني ١٥ / ٨٢، ٩ / ١٧.

(٨) إنسان العيون ١ / ٤٧.

(٩) العقد الفريد ٣ / ٢.

(١٠) إنسان العيون ١ / ٤٦.

إليه، قالت العوراء بنت سُبَيْعٍ في رثاء أخيها عبد الله بن سبيع :
 أبكى لعبد الله إذ حُشَّتْ قُبَيْلُ الصبح ناره
 طيان طاوى الكشح لا يَرُخَى مُظْلِمَةٌ إزاره (١)
 وكان هؤلاء البغايا من الإماء ، وكن يوهبن ، ويُستمتع بهن ، كما كانت
 القيان يوهبن .

قال الأعشى مادحاً بهبة القيان :
 هو الواهبُ المُسَمِّعاتِ الشُّرو بَ بين الحرير وبين الكَتَن (٢)
 وقال النابغة يمدح النعمان بهبة الإماء :
 الواهب المائة المَعكَاءَ زِينها سَعْدانُ توضح في أوبارها اللُّبد
 والرا كضاتِ ذِيوَلِ الرِّيطافانِها بَرْدُ المِواجِرِ كالغزلانِ بالجَرَدِ (٣)
 وقد مدح الأعشى بذلك (٤) وكرره النابغة (٥) .
 وكانت القيان والإماء جميلات كما وصفهن طرفة (٦) ، وعبد بن الطبيب (٧)
 وسلامة بن جندل (٨) .

وكن لا يتحرزن ولا يتصوّن ، لذا كان يستمتع بهن الرجال ، قال الأعشى :
 والبِيضُ قد عَنَسَتْ وطال جِراؤُها ونشأن في قَنٍّ وفي أذواد
 ولقد أخْلِسْهُنَّ ما يَمْنَعُنِي عُصراً يَمْلُنَ على بالأحياد (٩)
 وقد أحب الأعشى واحدة منهن وأكثر من التشبيب بها ، أحب هريرة ،

(١) مراثي شواعر العرب . لويس شيخو ١٤٧ .

(٢) لسان العرب ١٧ / ٢٣٥ المسمعات : القيان . الشروب : الشاربون . الكتن :
 الكتان وثيابه معتدلة في الحر والبرد .

(٣) ديوان النابغة ٢١ المعكاء : الغلاظ الشداد — سعدان . نبت جيد التغذية للابل
 توضيح : موضع . اللبد : ما تلبد من الوبر . فانقها : نعم عيشها . الجرد : الموضع المجذب .

(٤) لسان العرب ١٨ / ٨٣ (٥) ديوان النابغة ٣٨

(٦) ديوان طرفة ٢٥ (٧) المفضليات ١ / ١٤٣

(٨) المفضليات ١ / ١١٨

(٩) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الفتاء والشباب . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل

وكانت هي وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (١) .

وكانت لهن بيوت للهوى يسمر فيها الفتيان ويلهون ، يدل على ذلك قول امرئ القيس إنه دخل بيتاً منها آمناً ، وحق له أن يأمن لأن بيت الريبة لا يحميه حام :
وبيت يفوح المسك في حَجَرَاتِهِ بعيدٍ من الآفات غير مُرَوِّقٍ
دخلت على بِيضَاءِ جُمٍّ عَظَامِهَا تعني بذيل الدرع إذ جئت مودقي (٢)
وهي تعني على آثار موضعه لأنها تخشى على نفسها ، بل لأنها تخشى عليه أن يفتضح لأنه يغشى بيتها .
ويقول أيضاً :

وبيت عذارى يوم دَجْنٍ وَلَجَّتُهُ يَطْفَنَ بِجَبَاءِ المرافقِ مَكْسَالِ

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بِمَقْلِي الخلال ولا قالي (٣)
ويقول عبید بن الأبرص :

وبيت عذارى يرتمين بِخِذْرِه دَخَلْتُ وفيه عانسٌ ومريض
فأقرضتها ودي لأجزأه إنما تدقُّ أيادي الصالحين قرُوض (٤)

وكان بعضهم يقتنى الإماء ويكرههن على البغاء ، يدل على ذلك قوله تعالى :
« ولا تکرهوا فتیاتکم على البغاء إن أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحیاة الدنيا » .
وكان ممن فعل ذلك عبد الله بن أبي بن سلول ، كانت له جارتان : مسيكة وأميمة أو جارية واحدة اسمها مسيكة أو معاذة ، وكان يؤجرها ويكرهها على البغاء

(١) الأغاني ٨ / ٧٧

- (٢) ديوان امرئ القيس ١١٩ حجراته : نواحيه . غير صروق : ليس له رواق . جم عظامها : لينة بضعة كأنها لا عظام لها فهي جماء . مودقي : موضعي .
(٣) ديوان امرئ القيس ١٤٢ الدجن : ظل الغمام المطبق أو المطر الدائم . جباء المرافق : عظامها متوارية لسننها . مكسال : مترفة . مقلي الخلال : مكروه الأخلاق أو الصداقة .
(٤) ديوان عبید القصيدة ١٠ ص ٣٢ عانس : بكر طال مكثها في بيت أهلها ولم تزوج . أقرضتها ودي : تقدمت إليها بحبي . تدق : تظهر . أيادي : معروف وجميل

فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَشَكَتَ إِلَيْهِ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ .
وعن ابن عباس أن بعضهم كانوا يكرهون إمامهم على الزنا ويأخذون
أجورهم ^(١) ، ولذا عيّر عمرو بن معد يكرب أعداءه بأنهم أبناء إمام درّبن على
الفسوق :

وكنتم أعبداً أولاد غيّلٍ بنى آمٍ مَرَنَّ عَلَى السَّفَادِ ^(٢)
ودليل على أن البغاء كان مقصوراً على الإمام أن القرآن الكريم عبر عنهم
بالفتيات ، وكلمة الفتيات لم تطلق في القرآن الكريم إلا على الإمام ، قال تعالى
(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيماكم من
فتياتكم المؤمنات » .

فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ماخص النهي عنه بالإمام . وقد كانت
أنفة العرب وغيرتهم على النساء الحرائر مغنية عن نهيهن عن إكراه الحرائر
على البغاء .

وقد عبر الأعشى عن الإمام بالبغايا في مدحه الأسود بن المنذر اللخمي أو المنذر
ابن الأسود :

يَهَبُ الْجِلَّةَ الْجَرَاجِرَ كَالْبُ
والبغايا رَ كُضْنَ أ كَسِيَةَ الْإِضْرَ يَجِ وَالشَّرْعِيَّ ذَا الْأَذْيَالِ ^(٣)
والبغى فى اللغة : الأمة ، أو الحرة الفاجرة ^(٤) ، ومن إطلاقها على الأمة
قول الشاعر :

نَحْرُ الْبَغِيِّ بِحِجِّ رَبَّتِهَا ^(٥)

(١) تفسير الطبرى ١٨ / ١٠٣ — ١٠٤ والإصابة ٨ / ٢١ ، ١٨٩

(٢) لسان العرب ١٨ / ٤٧ الغيل : اللبن ترضعه المرأة ولدها وهى تؤتى أو وهى
حامل . آم : إماء .

(٣) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨ / ٨٣ البغايا هنا الإمام . الاضريح : خز
أصفر أو أحمر ، الشرعى نوع من البرود ، الجلة : الإبل المسنة ، الجراجر : جمع جرجور وهو
الضخم من الإبل . دردق : صغار الإبل .

(٤) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى ، (٥) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٥٣

ويذكر أبو علي القالي أن البغاء : الفجور في الإماء خاصة ، وأن البنى : الأمة^(١) وكانت البغايا محقرات ، ولذا افتخر الرجال ومدحوا بالتعفف عنهن ، ولم يكن عربيات غالباً^(٢) ، يدل على احتقارهن وبخاصة في نظر النساء أن عاصية بنت ثابت بن أبي الأفلح زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت اسمي ، فسمني ، فقال أنت جميلة . فغضبت وقالت : ما وجدت اسماً تسميني به إلا اسم أمة ؟ وأتت النبي صلى الله عليه وسلم واستسمته فسمها جميلة أيضاً فغضبت . وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه^(٣) .

هذا الوضع الذي كان للأمة في الجاهلية كان له ما يشبهه عند الإغريق ، فإن أرسطو أقر الرق ، وما كان للمرأة التي تباع أو تؤسر أن تمتنع من سيدها^(٤) وكان الرومان يسرقون النساء ليستمتعن بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان لأنهن يجلبن لما لكهن ثروة من الفجور^(٥) .

وكان لزاماً على كل امرأة في بابل وأشور أن تزاول العهارة المقدسة مرة في حياتها ، وكان هيكل مليتارية الجمال يغص بهؤلاء النساء^(٦) ، وقد شهد هيرودوت هذه الحفلات في آشور تقديساً للالهة « استار » جرياً على عادة الفينيقيات^(٧) . وقد عرف بنو إسرائيل هذه العهارة المقدسة ، فعُدت ضروب البغاء تكريماً لعشتروت^(٨) .

وربما كان اقتناء بعض العرب إماء للبغاء أثراً مشوهاً للعهارة المقدسة التي عرفها الآشوريون والبابليون والفينيقيون واليهود ، والعرب على صلة بهؤلاء جميعاً ، وعبد الله بن أبي بن سلول الذي اشتهر بهذا في الجاهلية كان يهودياً .

(١) الأمل ٢ / ١٧٥

(٢) الأسرة والمجتمع على عبد الواحد ٧٤ — ٧٥ (٣) الإصاية ٨ / ٤٠

(٤) الرق في الإسلام ١٩ أحمد شفيق . (٥) الرق في الإسلام ٣٤

(٦) P. A. Rosler, La Question Feministee. P. 137

(٧) المرجع السابق ١٤٠

(٨) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ٥١ جوستاف ولوبن .

ومهما يكن من شيء فإن بغاء الإمام لا يناقض ما سبق من غيرة العربي وأنفته ، وعفة المرأة العربية وعزتها .

الغزل الحسى أجنبي النشأة

ليست المجاهرة بالفاحشة من أخلاق العرب ، لأن العربي يعد العفة من مزايا الرجولة ومرجحات السيادة ، فيتعفف إن لم يكن عفيفاً ، ويتستر ولا يعلن للناس فحشه .

فلماذا جهر بعض الشعراء بهذا الأدب المكشوف ؟

ومن أين جاء هذا الغزل الذى لا يتأثم من ذكر اللذة والعورة والقبیح ؟ أرى أنه ضرب من الأدب دخيل على العرب ، لم يجيء من الفرس ولا من الروم ، وهما الشعبان اللذان عنى تاريخ الأدب بذكر علاقة العرب بهما وتأثيرهما فى الأدب العربى ، وإنما جاء من بلاد اليمن أولاً ، لأنها وَصلة بين العرب والأحباش ، وصادف فى بعض الشبان حياة ماجنة توأمه فما وازدهر . والأدلة على هذه النظرية :

١ - فتح الأحباش بلاد اليمن وحكموها أربع مرات .

(الأولى) فى القرن الأول قبل الميلاد حيث نصرُوا بنى همدان على ملك سبأ وحلفائه من بنى ريدان الحميريين ، وتحالف علهان نهفان زعيم الهمدانيين مع جذرت ملك الحبشة ، وكان هذا التحالف هجومياً ودفاعياً ، ثم اتسع الحلف فشمل يدعاب غيلان ملك حضرموت ، واستطاع ولدا يريم أيمن الهمدانيان أن يحجزا لقب ملكى سبأ وذى ريدان ، ولكن الملك السبئى لم يستسلم ، ولم يستسلم حلفاؤه الحميريون ، وظلوا يدافعون عن ملكهم المغصوب ، والأحباش يعاونون الهمدانيين ردحا من الزمن ، ثم انجلى الصراع عن انتصار الملك السبئى ، واتخاذ الأحباش مدينة (سحرت) فى الجنوب الغربى من اليمن . قاعدة حربية لهم ، واستقرت جاليات حبشية فى اليمن من ذلك الحين ^(١) .

(والثانية) حدثت في القرن الثالث ، إذ غزا الأحباش اليمن في عهد إيلاميدا سنة ٣٤٠ م وقضى هذا الملك على حكم شمر يهرعش وابنه ياريم ، واتخذ لنفسه لقب ملك أكسوم وحمير وذى ريدان وحبشة وسبأ وسلع وتهامه^(١) . وكان سبب هذه الحملة الحد من توسع شمر يهرعش في الجنوب وصد عدوانه على سحرت قاعدة الحبشة في بلاد العرب .

ويستنتج من دراسة النقود أن حملة الحبشة على اليمن كانت في نهاية القرن الثالث ، وكان من آثارها أن حكم الأحباش بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع^(٢) .

ويستنتج جلاسر أن السبئيين كانوا قد احتلوا جزءاً من الحبشة قبيل ذلك^(٣) .
(والثالثة) حدثت في القرن الخامس ، وكان سببها أن دميانوس أو دمنوس ملك حمير اليهودى أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومانيين الذين كانوا يجتازون مملكته إلى بلاد الحبشة ، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج Aidog (٤٨٠ م) وأوغر صدر امبراطور الروم ، فجردا على دميانوس حملة انتهت بهزيمته وقلته ، وولى الأحباش أميراً نصرانياً على حمير ولكنه لم يعيش طويلاً ، فانهز اليهود الفرصة وولوا على حمير ملكاً يهودياً هو ذو نواس^(٤) .

(والرابعة) كانت حوالى ٥٢٣ م^(٥) لأن ذا نواس اليهودى أغضب النصارى وعدا عليهم . وتختلف الروايات في سبب عدوانه ، ولكن ذلك ليس من موضوعنا ، وكان طبيعياً أن يلجأ النصارى إلى الحبشة ، وأن تسارع إلى الانتقام من الملك الثائر؛ لأنه تولى بالرغم من إرادة الرومان والأحباش ، ولأن طريق التجارة الرومانية مخوف بالمخاطر حتى لقد انقطعت القوافل ، ولأنه يضطهد النصارى .

وكانت هذه الحملة بقيادة أرياط أو أبرهة ، وانجملت عن هزيمة العرب وغرق

(١) Jhe Back ground af islam. glaser. P. 132.

(٢) بين الحبشة والعرب ٣٢ — ٣٤

(٣) Jhe Back ground af islam P. 1١8

(٤) بين الحبشة والعرب ٤٥ — ٤٧

(٥) بين الحبشة والعرب ٥٦

ذى نواس ، وانتقام أرباط من أهل اليمن شر انتقام ، ولم تسلم قصورها وحصونها من حنقه^(١) .

وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز ، وكانت غزوة الفيل ، ويختلف المؤرخون في زمنها ، فالذين يرون أن النبي عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل يحددون تاريخها بأنها كانت عام ٥٧٠ م ، ولكن في السيرة روايات أخرى عن مولده صلى الله عليه وسلم ، بعضها يذكر أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وبعضها يرى أنه ولد بعده بثلاث وعشرين سنة أو بثلاثين وقيل بسبعين^(٢) .

والذى يستنتج من ذلك أن غزوة الفيل كانت بين ٥٠٠ و ٥٧٠ م « ولكن كثيراً من الباحثين يرجحون أنها كانت حوالى ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم للأحباش كان فى ٥٧٠ م ، ويجعلون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم يكسوم ومسروق ابني أبرهة^(٣) » .

وكان حكم الحبشة باليمن منذ دخلوها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجوا الأحباش من اليمن ثنتين وسبعين سنة^(٤) .

وإذا صح تاريخ بدء الغزوة وهو ٥٢٣ م^(٥) وأن أبرهة مات ٥٤٤ م وحكم بعده يكسوم ١٩ عاماً ثم مسروق ١٢ عاماً^(٦) كان الزمن الذى حكمت فيه بلاد اليمن فى هذه المرة ثنتين وستين سنة لاثنتين وسبعين كما ذكر الطبرى .

٢ — على أن العرب كانوا على صلة بالحبشة والأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من طريق الغزو والحكم ، أقصد التجارة ، حتى ليرى بعض مؤرخى الأفرنج « أنه كان فى مكة يموت تجارية رومانية تزاوّل الشئون التجارية للرومان وكان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية^(٧) » .

(١) تاريخ الطبرى ١٠٧/٢ — ١٠٩ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومعجم البلدان ٢٤٣/٢

(٢) إنسان العيون ١ / ٦٥

(٣) تاريخ الطبرى ١١٥ / ٢

(٤) بين الحبشة والعرب ٦٥

(٥) بين الحبشة والعرب ٦٧

(٦) بين الحبشة والعرب ٥٦

(٧) خبر الإسلام أحمد أمين ٥١

وكانت بين الحبشة والعرب معاهدة تجارية بلغة العصر الحاضر ، فقد ذكرنا
أن بني عبد مناف أخذوا الغصم لقريش من الملوك ، وكان الذي أخذ حبلاً من
النجاشي عبد شمس .

وبذلك اختلف القرشيون إلى الحبشة متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس
والعراق واليمن (١) .

وإذا ما رجعنا إلى فجر الإسلام وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهاداً
يلجىء مئات منهم إلى الفرار بدينهم ، فإلى أين فروا ؟ فروا إلى الحبشة التي تربطهم
بها صلات تجارية ، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان ، وأبي حذيفة بن عتبة
ابن ربيعة ، وبعثت قريش مندوبين عنها ليزينا للنجاشي ألا يبقى في مملكته هؤلاء
الوافدين ، ها عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وجمعت قريش لهما هدايا
لنجداشي ولبطارقه ، وتجاوز مندوبوا قريش والمسلمون في مجلس النجاشي ، وانتصر
المسلمون وطاب لهم المقام مدة من الزمان (٢) .

ولم يكن اختيار النبي عليه الصلاة والسلام بلاد الحبشة مهاجراً ناشئاً عن أنها
مسيحية مستقلة فحسب ، فليست وثنية تعادى الدين السماوي فتضطهده وتعتدى
على معتقيه ، وليست مسيحية خاضعة لدولة أخرى خضوعاً فعلياً يحول بينها وبين
حماية دين سماوي كما كان شأن الحيرة وغسان واليمن ، وإنما نشأ هذا الاختيار عن
شئئين : صلة تجارية وثيقة بالحبشة ومسيحية الحبشة واستقلالها ، وإن كنت
لا أغفل عاملاً ثالثاً له أثره في هذا الاختيار هو أن المناذرة والغساسنة واليمنيين
كلهم عرب ، وقريش التي تناوى النبي عليه الصلاة والسلام وتناصبه العداء عربية
مثلهم ، ولها بهم صلات ليست له ، فهم ينفسون على رجل عربي أن يستلب نفوذهم
كما نفست عليه قريش .

٣ -- ثم كان بين العرب والحبشة طريق آخر للاتصال هو أن أكثر العبيد
والإماء كانوا أحباشاً ، وكان العرب ميالين إلى الزواج بالحبشيات والسود عامة ،

(١) تاريخ الطبري ٢ / ١٨٠ وجمع أمثال الميداني ٢ / ٦٦

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٤٤ — ٣٦١

فقد روى الأصمعي أن رجلاً قيل له : أى الرجال أخف أرواحاً ؟ قال الذين أعمرت فيهم السودان ، وقال على بن أبي طالب : من تزوج سوداء فطلقتها فعلى مهرها ، وكان أبو حازم المدني ينشد :

ومن يك معجباً ببنيات كسرى فإني معجب ببنيات حام^(١)

وكان اليمينيون يؤثرون في الزواج الحبشيات وبنات الحبشيات^(٢) .

ولم يك هذا ناشئاً عن المساواة التي بثها الإسلام ، فإن كثيراً من العرب في الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأُم عنترة زبيبة وهي أمة حبشية^(٣) وأُم خفاف بن عمير أمة سوداء اسمها ندية^(٤) وإليها نسب ، وأُم السليك بن عмир أو عمرو أمة سوداء اسمها السُلَكة وإليها نسب^(٥) ، وكان سحيم عبد بن الحسام عبداً أسودنوياً^(٦) . وكانت بركة أم أيمن مولاة النبي صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد الخزرجي فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبي صلى الله عليه وسلم من زيد بن حارثة فولدت أسامة^(٧) .

وهناك بركة غيرها تكنى بأم أيمن (أيضاً) وهي حبشية كانت خادم أم حبيبة وقد ترجم لها ابن حجر^(٨) .

ويذكر صاحب المحبر عدة من الحبشيات الزوجات والأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبد مناف وولدت نضلة بن هاشم بن عبد مناف ونفيل بن عبد العزى ابن رباح وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حبة كانت لجابر بن حبيب وهي أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصاري عمر بن الخطاب بقوله : « يابن السوداء » ، فأُنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٠

(٢) رسالة نثر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥

(٣) الأغاني ٧ / ١٤١ والمحرر ٣٠٦

(٤) الأغاني ١٦ / ١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢

(٥) الأغاني ١٨ / ١٣٣ والشعر والشعراء ١٣٤

(٦) الأغاني ٢٠ / ٢ (٧) الإصابة في تمييز الصحابة ٨ / ٣١٢

(٨) الإصابة ٨ / ٢٧

عسى أن يكونوا خيراً منهم » ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، وأم معمر بن عثمان التيمي ، وأم المتلمس الضبي ، وأم قرظة بن عبد عمرو بن نوفل وهو أبو فاختة بنت قرظة زوجة معاوية بن أبي سفيان ، وأم عثمان بن الحويرث إلخ^(١)

٤ — الحبشي قد اشتهر بهذا الضرب من الغزل الذي ينتهي به إلى المجون ، وهو إذا ما انفعّل عبر عن انفعاله في غير تخرج ، وقد عرف العرب فيهم هذا الطبع ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في عبيد الحبشة : « إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا »^(٢) وأراد عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أن يهدي الشاعر الحبشي سُحُيماً — وقد اشتراه — إلى عثمان بن عفان فكتب إليه : « أنا قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً » فكتب إليه : « لا حاجة لنا فيه ، وإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن يشب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم »^(٣) ، وفي رواية أخرى أنه قال : « إن الشاعر لا حريم له »^(٤) .

٥ — في بعض الأناشيد الدينية الحبشية نوع يسمونه ملكيء ، وهو شعر يصف القديس أو الشهيد من رأسه حتى أطراف أصابع رجليه ، لا يتخرج من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الإنشاد في التوراة^(٥) .

٦ — إذا تقصينا شعراء الغزل الفاحش الذين مهدوا طريقه لشعراء الإسلام وجدناهم إما أحباشاً وإما عرباً متأثرين بالأحباش .

فامرؤ القيس أستاذ هذا الفن من كندة « وكانت متجه الغزاة من الأحباش منذ قديم الزمان ، غزاها إفيلاس في القرن الثالث الميلادي ، ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشة في القرن السادس الميلادي »^(٦) .

والأعشى كان كثير الشخوص إلى الجنوب ، يزور كل ستة بني عبد المدان فيمدحهم ويقيم عندهم ، ويسمع الغناء^(٧) يقول في ذلك :

وكعبة نجران حتم علي ك حتى تنأخي بأبوابها

(٢) الأغاني ١ / ٦٥

(١) المحبر ٣٠٦ — ٣٠٩

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ٧١

(٣) الشعر والشعراء ١٥٢ والأغاني ٢٠ / ٣

(٥) بين الحبشة والعرب ١٢٥

(٧) الأغاني ١ / ٦٥

(٦) بين الحبشة والعرب ١٢٣

زور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها
وشاهدنا الجل والياسمي بن والسمعات بقصابها
وبربطنا دائم معمّل فأى الثلاثة أزرى بها ؟

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويمدحهم ويمدح العاقب
والسيد وهما ملكا نجران ، ويقم عندهما ماشاء ، يسقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء
الرومى (١) .

وفى شعره ما يدل على أنه زار الحبشة مثل قوله :

وطوفت للمال آفاقه عمان وحص وأريشلم
أتيت النجاشى فى داره وأرض النبط وأرض العجم (٢)
وكان سحيم عبد بن الحسحاس أسود نوبياً (٣) حبشياً قبيحاً (٤) ، اشتراه
عبد الله بن أبى ربيعة الخزومى ، فلما رفض عثمان بن عفان أن يقبله ، ردّه ، فاشتراه
أحد بنى الحسحاس (٥) .

فإذا ما خطونا إلى العصر الإسلامى ، وجدنا عمر بن أبى ربيعة يتزعم هذا اللون
من الغزل ، ولم يكن متأثراً بهؤلاء الذين مهدوا له الطريق فحسب ، بل كانت له
صلة بالحبشة واليمن ، فقد كان لعبد الله بن ربيعة ، عبيد من الحبشة يتصرفون فى
جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، حتى روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم
حين خرج إلى حنين : هل لك فى حبش بنى الغيرة تستعين بهم ؟ وكان عبد الله
عاملاً للنبي صلى الله عليه وسلم على الجند ومخاليفها ، ولم يزل عليها حتى قتل عمر
ابن الخطاب ، وقيل إن عثمان استعمله عليها أيضاً (٦) ، وكانت أم عمر بن أبى ربيعة

(١) الأغاني ٦ / ٦٩ ومعجم البلدان ٤ / ١٧٩

(٢) ديوان الأعشى .

(٣) الأغاني ٢٠ / ٢

(٤) الشعر والشعراء ١٥٢ والأغاني ٢٠ / ٣

(٥) الأغاني ٢٠ / ٣

(٦) الأغاني ١ / ٦٥ الجند : ولاية إسلامية من ولايات اليمن الثلاث : الجند وصنعاء

وحضر موت . المخاليف : ج خلاف وهو الكورة والرساق (القرى والأصقاع) .

أم ولد يقال لها (مجد) سببت من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل ، يقال غزل يمانٍ ودل حجازي .

وقال عمر بن شبة : هي أم ولد ، سوداء من حبش يقال لهم فرسان ، وقيل إن هذه أم أخيه الحارث لا أمه ^(١) .

وكانت جدته لأبيه أسماء بنت مخرّبة عطارة ، يأتيها العطر من اليمن ، وكان ابنها عبد الله تاجراً موسراً يتجر إلى اليمن ، وقد تزوجها هشام بن الغيرة ، فولدت له أبا جهل والحارث ، وكانت تبيع العطر بالمدينة ^(٢) .

ثم وجدنا نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، وكانت أمه سوداء حملت به من سيدها ، وقيل كان أبوه وأمّه نوبيين سبيين لخزاعة ، ثم اشترت امرأة من خزاعة سلامة أم نصيب وهي حامل به ، وأعتقت ما في بطنها ^(٣) .

* * *

أجدني بعد هذا في حل من أن أذهب مطمئناً إلى أن الغزل الفاحش نبتٌ أجني نقل من الحبشة إلى اليمن ، فساعدت حضارة اليمن على نمائه ، وتعهده بعض الشعراء المتأثرين باليمن والأحباش ، فغلظت سوقه وبسقت فروعه ، وكانت ثمراته هذه القصائد العابثة التي أبدع صوغها امرؤ القيس والأعشى وسحيم من قبل ، ثم عمر بن أبي ربيعة من بعد .

خصائصه

١ — جاهر بأبطاله بما لا يصح إعلانه من صلة بين الرجل والمرأة ، وزينوه للناس ، ودعوهم إلى الاقتداء بهم ، فامرؤ القيس يصف بعض لذاته ، ويجب إلى غيره الاستمتاع بها ، ويخص النساء الحسان بالذكور :

ليالِي يدعوني الهوى فأجيبه وأعينُ من أهوى إليَّ رَوَانِ
تتمعُّ من الدنيا فإنك فان من النِّشَوَات والنِّساء الحسانِ

من البيض كالآرام، والأدْم، كالدمي حَوَاصِنُهَا والمُبْرِقَاتُ رَوَانُ (١)

ولقد يتباهى بصواته أمام من يريد إغواءها ليغريها ، فلا يتحرز ، وإنما يجهر بما لا يصح الجهر به ، كقوله :

فَمَلِكٍ حُبْلَى قَدْ طَرَقَتْ وَمَرْضَعٍ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ

وقوله :

وَمِثْلِكَ بِيضَاءِ الْعَوَارِضِ طَفَلَةٍ
لَطِيفَةِ طَيِّ الْكَشْحِ غَيْرِ مَفَاضَةٍ
سَمَوْتَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا
فَقَالَتْ سَبَّكَ اللَّهُ إِنْكَ فَاضِحِي
فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهُ أَبْرَحَ قَاعِدَا
حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحْتُ
وَصَرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا
فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقًا وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا

وسحيم عبد بنى الحسحاس شبب بعميرة بنت سيده أبي سعيد وأخفش :

وَبَتْنَا وَسَادَانَا إِلَى عَلَجَانَةٍ
وَهَبْتَ شِمَالًا آخَرَ اللَّيْلِ قَرَّةً
تُوسِدُنِي كَفَا وَتَنِي بِمَعْصَمٍ

(١) ديوان امرئ القيس ١٨٨ الأدم : السمر . حواصن : ج حاصن وهي المفيفة أو المتروجة أو الحبل . المبرقات المتزينات بحلى يبرق . الآرام : الظباء . روان : ناظرات .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٢٧ ذى قوائم محول : طفل صغير عمره حول .

(٣) الديوان ١٤٠ مرتجة مهترزة . متفال : كرهية الرائحة . صال : مستدقى . القتام :

فما زال بُردى طيِّباً من ردائها إلى الحول حتى أنهجَ البُردُ بالياً
وأشهد عند الله أن قد رأيتهما وعشرين منها إصبعا من ورائيا^(١)
وكان تشبيهه وغرامه ببنت مولاة سبب قتله ، فلما غدوا به ليقتلوه رأته امرأة
كانت بينها وبينه مودة ثم فسدت ، فضحكت به شماته ، فنظر إليها وقال :
فإن تضحكي مني فيأرب لي ليلة تركتك فيها كالقبا المفرج
ولما قدم ليقتل قال :

شدوا وثاق العبد لا يُفْلِتْكُمْ إن الحياة من المات قريب
فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرق على متن الفراش وطيب^(٢)
وافتخر المزار بن منقذ بأن له في هذا الضرب جولات :

وتعللت وبالي ناعم بغزال أحور العينين غر^(٣)
وافتخر ثعلبة بن صعير المازني بأنه طالما قضى ليالى في متعة :

ولرب واضحة الجبين غريرة مثل المهاة روق عين الناظر
قد بت ألعبا وأقصر همها حتى بدا وضح الصباح الجاشر^(٤)
وكذلك كان يفعل الأعشى ، فهو يثير الغيرة في نفس خولة بذكر صبواته مع
غيرها حتى لا تضن عليه وحتى لا تظن أنه غير محرب :

يا خول ما يدريك ربّت حرّة خود كريمة حبيها ونساءها
قد بت مالکها وشارب رية قبل الصباح كريمة يسبائها^(٥)

-
- (١) ديوان سحيم ١٩ وطبقات الشعراء لابن سلام ٧١ والأغانى ٢٠ / ٥ وأخبار
النساء لابن قيم الجوزية ٤٣ علجانة : شجرة معروفة تنبت في الرمال . الحقف : الكتيب من
الرمال . تهاده الرياح : تنقله من موضع إلى موضع . قرة : باردة . أنهج : بلى .
(٢) ديوان سحيم ٦٠ والأغانى ٢٠ / ٥ وأخبار النساء ٤٣ وطبقات الشعراء لابن

سلام ٧١

- (٣) المفضليات ٨١ / ١ تعللت : تمتعت مرة بعد مرة .
(٤) المفضليات ١ / ١٢٩ الجاشر : الدال على إقبال الصباح .
(٥) المفضليات ٢ / ٣٤ خود : حسنة الخلق ناعمة . الرية : المراد بها الخمر . السباء :
شراء الخمر ، أى أنه اشتراها ولم يشرب مع قوم اشتروها دونه .

وطرفة بن العبد يعدد من لذاته التي تحب إليه الحياة أنه يقصر اليوم الغائم
المطير بامرأة ناعمة شابة في خيمته العالية :

وتقصير يوم الدَّجْن والدَّجْن مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ المَعْمَدِ
كَأَنَّ البُرَيْنَ والدَمَالِيحَ عُلِّقَتْ عَلَى عُشْرِ أَوْ خُرُوعٍ لَمْ يُخَضِّدْ^(١)

وكان هؤلاء المجان يجتمعون للهو والعبث ، وتربطهم آصرة واحدة هي الخروج
على العرف المألوف ، قال الأخنس بن شهاب التغلبي :

وقد عشت دهرًا والغَوَاةُ صحابي أولئك خُلَصَانِي الَّذِينَ أَصَاحِبِ
قَرِينَةٍ مِنْ أَسْنَى وَقُلْدِ حَبَلِهِ وَحَاذَرَ جِرَّاهُ الصَّدِيقِ الْأَقَارِبِ^(٢)

٢ — ويفخرون بأنهم تجاوزوا إلى المرأة حراسها ، وتغفلوا قومها ونالوا منها أربا .
قال امرؤ القيس إنه تجاوز إلى محبوبته المحمية معشراً حراساً على قتله لو أنهم
أمسكوه ، وأنه تسلل إليها في جنح الظلام وقد نضت ثيابها إلا قيصاً ، فعجبت
من جراته وخرج بها ، واستمتع ، ثم وصف جمالها :

وبيضة خَدِرٍ لَا يُرَامُ خَبَاؤُهَا تَمَتَّتْ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ
تَجَاوَزَتْ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا عَلَى حِرَاصًا لَوْ يُسْرُونَ مَقْتَلِي
فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لَنُومِ ثِيَابِهَا لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبَسَةَ الْمُتَفَضَّلِ
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهِ مَالِكِ حَيْلَةٍ وَمَا إِن أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي
خَرَجْتَ بِهَا أَمْشَى تَجَرُّ وَرَاءَنَا عَلَى أَثَرِنَا ذِيلِ مَرُطٍ مُرَحَّلِ^(٣)

(١) ديوان طرفه ٢٩ البرين : الخلاخيل . الدماليج : ج . دملوج : مايلبس في العصد .
العشر : شجر أملس لين العود . الخروج : كل نبت ناعم : لم يخضد : لم يثن ليكسر . شبه
ساقها وعصدها في لينهما بالعشر والخروج .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٢ / ١٢٤ — بقيت زماناً طويلاً لا يطيب عيشي إلا مع
النداء الخلاء فعشت قرين السفهاء الذين أطلقوا لأنفسهم العنان وتبرأ منهم الأقارب والأصدقاء
هروباً من جنائهم .

(٣) ديوان امرؤ القيس ١٢٨ بيضة خدر : غادة مخدرة : لبسة المتفضل : مايلبس عند
النوم . مرط : لزار خزم معلم . مرحل : فيه صور الرجال . ويروى مرجل فيه صور الرجال .

ويقول :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حَبَاب الماء حالا على حال
فقلت سباك الله إنك فاضحي ألت ترى السَّمَّار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قَطَعُوا رأسى لديك وأوصالى
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلمها عليه القَتَامُ سبى الظن والبال^(١)
ويقول الأعشى إنه استمتع بشابة مطيبة ، تسلل إليها فى الظلام وقد غفلت
عين زوجها ، فصار سيدها وسيده :

ومثلك معجبة بالشبا ب صَاكُ العبيرُ بأجسادها
تسدتها عادنى ظلمة وغفلةُ عين وإيقادها
فبت الخليفة من زوجها وسَيِّدُ نَعْمٍ ومستادها^(٢)

وفصل هذا التسلل فيقول إنه قد صار يراقب زوجة الغيور الحذر الذى لا تغفل
عينه . وصار يرعاها ، فلما أقبل الليل انسل إليها منتهزاً غفلة من الزوج ، فتميمها ،
وسخر من هذا الزوج الذى راقب نهاراً وغفل ليلاً :

وَمَصَابِ غَادِيَةِ كَأَنَّ تَجَارَهَا تَشَرَّتْ عَلَيْهِ بِرُودِهَا وَرَحَالَهَا
قَدِ بَتُّ رَائِدِهِ ، وَشَاةٍ مُحَاذِرٍ حَذَرًا يُقِيلُ بَعِينَهُ إِغْفَالَهَا
فَظَلَّتْ أَرْعَاهَا وَظَلَّ يَحُوطُهَا حَتَّى دَنَوْتَ إِذَ الظَّلَامِ دَنَالَهَا
فَرَمَيْتْ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَأَصَبْتَ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطَحَالَهَا
حَفِظَ النَّهَارَ وَبَاتَ عَنْهَا غَافِلًا نَحَلْتُ لِصَاحِبِ لَذَّةٍ وَخِلَالَهَا^(٣)

٣ — ويلجئون فى تصوير استمتاعهم الجسدى إلى لون من الحوار أو الأسلوب
القصصى يكسب شعرهم طرافة وجمالاً ، قال امرؤ القيس إنه أحب حسناء ذات
طفل ، وهى حيرى بين أن تستجيب لامرئ القيس وتدع طفلها يبكى ، أو لا تستجيب

(١) ديوان امرئ القيس ١٤٠

(٢) ديوان الأعشى ٥١ . صاك : لصق . تسديتها : تناولتها . مستادها : سيدها .

(٣) ديوان الأعشى ٢٣

فتغضبه ، وقد بعث إليها في هُدًى من الليل حتى لا يحس بها أحد ، فجاءت متمهلة
الخطا متهيبة السرى ، ولم تجيء وحدها بل كان معها أربع من رفيقاتها الكواعب ،
وقد جردتها من ثيابها ، وأقسمت له أنها ما خاطرت إلا لمرضاته ، ولم يكن همها
أن تحذنه ويحدثها ، فهذا الحديث مأثور بينهما فليس لذيهما جديد ، وإنما كان
همها شيئاً آخر :

ومنهن سوفُ الخود قد بللها الندى تراب منظوم التمام مُرضعا
يعزُّ عليها ريتي ويسوءها بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعا
بعثت إليها والنجوم ضواجع حذاراً عليها أن تهَب فتسَمعا
جاءت تطوف المشى هيَّابة السرى يدافع ركنها كواعب أربعاً
تقول وقد جردتها من ثيابها كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجددك لو شيء أنا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
تصد عن المأثور بيني وبينها وتدنى على السابري المضلعا
إذا أخذتها هِزَّة الرُّوع أمسكت بمنسكب مقدم على الهول أروعا (١)

وقال المنخل إنه دخل عليها في يوم ماطر ، ودفعها ، فشئت كما تمشى القطاة
إلى الغدير ، وعطفها فانعطفت ، وأحست حرارة جسمه فسأله ، فأجاب بأنها
من لهب الحب :

ولقد دخلت على الفتا ع الخدر في اليوم المطير
الكعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعها فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
وعطفها فتعطفت كتعطف الظبي البهير
فدنت وقالت يامنخ ل ما بجسمك من حرور ؟
ما شف جسمي غير جب ك فاهدني عنى وسيري (٢)

(١) ديوان امرئ القيس ١١٢

(٢) الشعر والشعراء ١٥٠ الأصمعيات ١ / ٣٠

٤ — ويحرصون على ألا ينفو أحد آثارهم ، فالحجوبة تمشي معفية بذيل
جلبابها على آثار أقدامها .

أو يعنى الشاعر بذيله ، قال امرؤ القيس :

فلما دنوت تسديتها فثوباً نسيتُ وثوباً أجر
ولم يرنا كاليء كاشح ولم يَفُشْ منا لدى البيت سر (١)
وقال :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أرّينا ذيل مرطٍ مرَّ حل (٢)
وقال سحيم :

ومثلك قد أبرزت من خدر أمها إلى مجلس تجر بُرداً مسهما
فنفّضتُ ثوبها ونظّرت حولها ولم أخش هذا الليل أن يتصرما
أعفى بآثار الثياب مبيتها وألقط رضاء من وقوفٍ تحطأ (٣)

٥ — وفي شعرهم ما يدل على أنهم استعانوا برسل يسفرون بينهم وبين
عشيقاتهم ، ولعل نساء كن يتولين هذا ، بدليل قول السيدة عائشة « ليست
الواصلة بالتي تعرفون ، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن
الواصلة أن تكون بغياً في شببتها ، فإذا أسنت وصلته بالقياده (٤) » . وهذا طبيعي
من نسوة كن بغايا في شبابهن ، لأنهن إذا ما تغضنت وجوههن ويست أعوادهن
وانصرف الرجال عنهن ، غلبتهن طبيعتهم فسفرون بين الرجال والنساء ، وربما كان
من دوافعهن إلى ذلك أيضاً ، أنهن يجدن في شيوع الفاحشة عزاء لهن ، وثأراً
من المجتمع الذي كان يعيبهن ، ويجدن أيضاً مرتزقا .
قال امرؤ القيس :

بعثت إليها والنجوم ضواجم حذاراً عليها أن تهب فتسمعا (٥)

(١) الديوان ٧٩ (٢) الديوان ١٢٩

(٣) ديوان سحيم ٣٥ والأغاني ٢٠ / ٥ رضا : فتاتاً من مسكها كان قد تسكسر من
ملاعبها .

(٤) عيون الأخبار ٤ / ١٠٢ (٥) ديوان امرئ القيس ١١٣

وقال الأعشى :

فَعَشْنَا زَمَانًا وَمَا بَيْنَنَا رَسُولٌ يَحْدُثُ أَخْبَارَهَا
وَأَصْبَحْتُ مَا أَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ سَوَى أَنْ أُرَاجِعَ سَمْسَارَهَا (١)

وقال :

لَيْثَاءٌ إِذْ كَانَتْ وَأَهْلَكَ جَبَرَةً رِئَاءٌ وَإِذْ يَفْضِي إِلَيْكَ رَسُولُهَا (٢)

٦ - وكثيراً ما كانت العشيقه توافى عاشقها ومعها صواحبها ، قال امرؤ القيس :

جَاءَتْ قُطُوفُ الْمَشَى هَيْبَابَةَ الشُّرَى يَدَافِعُ رُكْنَاهَا كَوَاعِبَ أَرْبَعَا (٣)

وقال سحيم :

تَجْمَعُنْ مِنْ شَتَى ثَلَاثًا وَأَرْبَعَا وَوَاحِدَةً حَتَّى تَكْمُلُنْ ثَمَانِيَا

وَأَقْبِلُنْ مِنْ أَقْصَى الْخِيَامِ يَعْدُنُنِي بَقِيَّةُ مَا أَقْبَيْنَ نَصْلًا يَمَانِيَا

يَعْدُنْ مَرِيضَاهُنْ قَدْ هَجَنَ دَاءَهُ إِلَّا إِنَّمَا بَعْضُ الْعَوَائِدِ دَائِيَا (٤)

٧ - وإذ كان هذا الغزل منبعثاً عن شهوة جسدية ، فلسنا نجد فيه تحليلاً للنفس وخواججها ، وتصويراً لحرقه الشوق ولذع الحرمان ، وتعبيراً عن تحمل الآلام واستطابتها ، كما وجدنا في غزل العذريين .

على أنه لا يخلو من لمحات عاجلة خاطفة تتحدث عن ألم الفراق أو الهجر ، ولكنه حديث سطحي لا يتغلغل إلى أعماق نفس الشاعر ، ولا يعدو أن يكون بكاء كما قال امرؤ القيس :

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا لَدَى سَمَرَاتِ الْحَى نَاقِفَ حَنْظَلٍ (٥)

وقال :

أَمِنْ ذَكَرِ نَبْهَانِيَّةٍ حَلَّ أَهْلُهَا بِحِزِّعِ الْمَلَا عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ

(١) ديوان الأعشى ٢١٤ (٢) الديوان ١٢٢

(٣) ديوان امرؤ القيس ١١٣

(٤) ديوان سحيم ٢٣ والأغاني ٢٠ / ٥

(٥) ديوان امرؤ القيس ١٢٥ . ناقف حنظل : أشقه بأسناني فتدمع عيناى من مرارته

قدمهما سَحَّ وسَكَبٌ ودِيمَةٌ ورشٌ وتَوَكَّافٌ وتَهْمَلَانِ
 كأنهما مَرَادَتَا متعَجَّلَ فَرِيَانٍ لَمْ تُسَلِّقَا بِدِهَانٍ (١)
 وهذه المبالغة التي يصور بها دموعه ، وهذه الألفاظ المترادفة التي يصفها بها ،
 دليل على أن شعوره مصطنع متكلف . وما الذي يلجئه إلى الحزن أو البكاء الحار ؟
 ليست عواطفه مشبوبة نحو هذه المرأة المرتحلة أو الهاجرة ، فليست هي الأولى
 أو الأخيرة التي أحبها لجسده ، فقد استمتع بغيرها من قبل ، قال امرؤ القيس :
 ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسيني إذا قت سربالي
 سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال (٢)
 وقال الأعشى :

ومثلك معجبة بالشباب ب صاك العبير بأجسادها
 تسديتها عادنى ظلمة وغفلة عين وإيقادها
 فبت الخليفة من زوجها وسيدٌ نعيمٍ ومستادها (٣)
 وهو قدير على أن يحب غيرها إن هجرت ، قال امرؤ القيس :

أأسماء أمسى ودها قد تغيرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا (٤)
 ٨ — وهم لا يحفلون في غزلهم بالجاذبية الروحية التي يحسونها في المرأة بقدر
 ما يحفلون بأوصافها الجسدية ، وذوقهم في الجمال قائم على أن هذا الجسم للاستمتاع ،
 كما سبق في فصل آخر — جمال المرأة — وبحسبي هنا أن أقول إنهم برعوا في
 الوصف الجسدي براعة تناولت كل عضو من أعضاء المرأة ، كما نجد في شعر
 امرئ القيس (٥) ، وفي شعر المتخل (٦) ، وفي شعر الأعشى (٧) ، وفي شعر طرفة (٨) .

(١) الديوان ١٨٨ — سح وسكب وديمة : انهمال في غزارة وكذلك الرش والتوكاف .
 مزادتان : قربتان كبيرتان . فريان : محروقتان . لم تسلقا : لم تلتصقا .

(٢) الديوان ١٤٠

(٣) ديوان الأعشى ٥١ (٤) ديوان امرئ القيس ٦٩

(٥) ديوان امرئ القيس ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٩ — ١٤٠

(٦) الأصمعيات ١ / ٣٠ (٧) ديوان الأعشى ٤٢ — ٤٣

(٨) ديوان طرفة ٤٥

٩ — والمتصفح لغزل هؤلاء الشعراء ، لا بد أن يسترعى انتباهه ترديدهم لأسماء حبيبات عدة ، ولست أريد أن الشاعر سواء أكان من العذريين أم من الحسينيين يذكر دائماً الاسم ويريد به علماً خاصاً على امرأة معلومة ، فإن الشاعر كثيراً ما يرمز بالعلم إلى المحبوبة دون أن يكون اسماً لها ، وإن كان الغالب في غزل العذريين أن يصدقوا في الدلالة بالاسم كما يصدقون في قصر الحب على واحدة ، فغنترة يذكر عبلة ولا يذكر سواها ، وعروة يذكر عفراء ولا يتعدها .

وقد ردد هؤلاء الشعراء عديد أمن الأسماء ، لأنهم متنقلون في جبههم أو في لهوهم فهم كالنحلة ما تلبث أن تمتص من الزهرة رحيقها حتى تطير عنها إلى غيرها ، وتعدد الأسماء دليل على تنقل الحب ، حتى وإن كانت الصنعة هي التي ألجأت إلى هذا التعدد ، وحسبي هنا أن أمثل من شعر امرئ القيس والأعشى .
أما امرؤ القيس فقد ردد أسماء كثيرة منها :

١ — هر

وهر تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو وحجر (١)

٢ — هند

تذكرت هنداً وأترابها فأصبحت أزمعت منها صدودا (٢)

٣ — سليمي

سما بك شوق بعد ما كان أقصرا
وحللت سليمي بطن قيو فعرعرا (٣)

٤ — فرتنا :

أغادى الصبوح عند هير وفرتنا
وليداً وهل أفنى شبابي غير هر ؟ (٤)

٥ — ماوية :

أماوى هل لى عندكم من معرس
أم الصرم تختارين بالوصل نياس ؟ (٥)

(٢) الديوان ٦٤

(١) ديوان امرئ القيس ٧٨

(٤) الديوان ٨٣

(٣) الديوان ٦٦

(٥) الديوان ١٠٠

٦ — سلمى :

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص^١ فتقصُر عنها خطوةً وتبُوص^(١)

٧ — أم الحويرث وأم الرباب :

كد أبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسَل^(٢)

٨ — فاطمة :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى^(٣)
وأما الأعشى فقد كرر أسماء عدة منها :

١ — هريرة :

ودع هريرة ابن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟^(٤)

٢ — ليلي :

أزمتُ من آل ليلي ابتكارا وشطت على ذي هوى أن تزارا^(٥)

٣ — سمية :

رحلتُ سُمَيَّةُ عُذْوَةً أجمالها غصبي عليك فما تقول بدالها^(٦)

٤ — جبيرة :

لات ههنا ذِكْرِي جبيرة أو مَنْ جاء منها بطائف الأهوال^(٧)

٥ — سلمى :

أوصَلت صرم الجبل من سلمى لطول جنبها ؟^(٨)

٦ — وكرر في عدة مواضع هذه الإشارة (تَيَّما) :

عرفت اليوم من تَيَّما مقاما بجوٍّ أو عرفت لها خياما^(٩)

(١) الديوان ١٠٤ تنوص : تتأخر . تبوص : تعجل .

(٢) الديوان ١٢٥ (٣) الديوان ١٢٨

(٤) ديوان الأعشى ٤١ (٥) الديوان ٣٤

(٦) الديوان ٢٢ (٧) الديوان ٣

(٨) الديوان ١٧٥ (٩) الديوان ١٣٣

ألا قل لتيالك ما بألها ألبين مُتَحَدِّجُ أَجْمَالِهَا^(١)
تذكرتيا وأنى بها وقد أَخَلَفَتْ بعض ميعادها^(٢)
ألا قل لتيا قبل مررتها اسلمى تحيةً مشتاق إليها متم^(٣)
أتشفيك تيا أم تُرِكَتَ بدائكا وكانت قَتُولاً للرجال كذالك^(٤)
ولقد تكون الإشارة إليها بهذه الكلمة فيها خشونة وقلة مبالاة ، ولكن
هكذا كان شعراء المتعة الجسدية لا يبالون .

أثر الجاهلي فيما بعده :

وبعد فإن عمر بن أبي ربيعة قد كان تلميذاً لسحيم وامرؤ القيس والأعشى ،
وقد فصل ما أجملوا ، وضخم ما لم يضخموا ، ولكنه جرى على عرقهم في كثير
من غزله .

فهو يواعد نسوة من قريش على أن يلتقى بهن بالعقيق ليتحدث معهن
ويتحدثن معه ، كما كان يفعل امرؤ القيس وسحيم ، ثم يصور هذا في شعره^(٥) ،
وهو يوسط رسولا كما وسط امرؤ القيس والأعشى ، ولكنه يصف التي بعثها
بأنها قوادة ذات حيلة ودهاء وسياسة :

فأتتها طَبَّةٌ عالمة تخططُ الجِدَّ مراراً باللعب
تغلظ القول إذا لانت لها وتراخى عند سورات الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيها وتأنأها برفق وأدب^(٦)
ويكرر ذلك في مواضع أخرى^(٧) .

وهو يدب إلى محبوبته كما دب امرؤ القيس والأعشى :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيحُ سُبَّتْ بالعشاء وأنورُ

(٢) الديوان ٥٠

(٤) الديوان ٦٤

(٦) الأغاني ١/١٣٥ : تأنأها : تتمهل عليها .

(١) الديوان ١١٦

(٣) الديوان ٩١

(٥) الأغاني ١/١٥١

(٧) الأغاني ١/٩٢ ، ١٤٠ / ١٤٠

وغاب قُمَيْرٌ كنت أرجو غُيُوبه
ونَفَضْتُ عني النومَ أَقبلت مشية ال
ورُوحَ رُعيانٍ ونومٍ سمر
حُبَابٍ وشخصى خشية القومِ أزور^(١)
ويخرج بمحبوبته إلى الخلاء فتغنى هي وصواحبها على أثار الأقدام بذيولهن كما
سبق في شعر امرئ القيس وسحيم :

عَفَلَنَ عن الليل حتى بدت
بأ كسية الخرز أن تُقَفِّرَا^(٢)
تباشير من واضح أسفرا
وهو يجهر بفحشه كما جهروا :

وناهدة الشديدين قلت لها اتكى
فقلت على اسم الله أمرك طاعة
على الرمل من جَبَّانة لم تُوسِّد
فلمَّا دنا الإصباح قالت فضحتني
وإن كنتُ قد كُفِّت ما لم أُعَوِّد
فهو يسلك سبيل الحوار والقصص الذى سلوكوا^(٤) .
فقم غير مطرود وإن شئت فازدد^(٣)

وكذلك فعل جرات العود النيرى ، إذ اقتفى أثر امرئ القيس وسحيم
والأعشى ، ويمثل مذهبه هذه الأبيات التى أسوقها من فائتيه الطويلة ، وفيها
يذكر ما دار بينه وبين حبيته من تواعد ولقاء وتعفية على الأثر ، ويذكر أن
صاحباتها كن معها :

فموعدك الشط الذى بين أهلنا
وتكفيك آثارا لنا حيث نلتقى
وأهلك حتى تسمع الديك يهتف
ومسحب ريط فوق ذاك ويمتية
ذبول نعفيها بهن ومطرف
فمنصبح لم يشمر بنا غير أنهم
يسوق الحصا منها حواش ورقرق
فلمَّا علانا الليل أَقبلتُ خفية
على كل ظن يحلفون ونحلف
فأقبلن يمشين الهوينا تهاديا
لموعدها أعلو الإكام وأظلف
قصار الخطا منهن راب ومزحف

(٢) الأغاني ١ / ١٥١

(١) الأغاني ١ / ١٤٤ .

(٤) الأغاني ١ / ٨٥ ، ٧٩

(٣) الأغاني ١ / ١٩٢ جيانة : صحراء .

فلما التقينا قلن أُمْسَى مُسَلَّطًا فلا يُسْرِفَنَّ الزائر المتلطف
 وقلن تمتع ليلة اليأس هذه فإنك مرجوم غدا أو مسيف
 وأحرزن مني كل حُجْزَةٍ مَترٍ لمن ، وطاح النَوَفَلِيُّ المزخرف
 فبتنا قـوداً والقلوب كأنها قطا شَرَعُ الأشرار كما تخَوَّف
 علينا الندى طورا وطورا يَرُشُّنا رذاذ سري من آخر الليل أوطف (١)

بين المذهبين في الغزل :

يختلف مذهب العذريين ومذهب الحسين في النظرة إلى المرأة ، فالأولون ينظرون إليها على أنها محبوبة ملهمة تسمو بهم إلى سماء عالية من الروحية والصفاء والمتع العنصرية ، والآخرون ينظرون إليها على أنها جسد جميل تلذ المتعة به . والأولون لا يصرحون باشتاء إلا شوقا إلى قبلة أو لمسة ، والآخرون يجاهرون بالاشتاء ويفتنون في ضروب من الحيلة والوسيلة ليصلوا إليه .

الأولون يحللون نفسياتهم تحليلا يصور آلامهم وتضحياتهم وقلما يحفلون بوصف الجسد ، والآخرون قلما يكشفون عن حرق وأشواق ولكنهم يحفلون بوصف الجسد .

ثم يختلف المذهبان اختلافا جوهريا في موضوع الحب نفسه فالذهب العذري قائم على حب امرأة واحدة قلما تتبدل ، والمذهب المادي قائم على حب النوع ممثلا في كل امرأة يستحلها الشاعر . فهو يحب الجنس لا الشخص ، وهو لذلك لا يُعْنَى نفسه بتوحيد الحبيبة والوفاء لها واحتمال الآلام في حبها .

(١) ديوان جبران العود التيمري ١٧ — ٢٤ مطرف : رداء من خز . أظلف : أُمْسَى على الغليظ من الأرض لثلا يظهر أثري . راب : منقطع النفس . مزحف : عاجز عن المشي لوعورة الأرض . النوفلي : ما يدار على الرأس تحت الحمار أو هو ضرب من الحلي أو هو المشط . شرع الأشرار : نشبت فيها الأشرار . أوطف : سحب متدل له أطراف .

الغزل التمهيدى

حقيقته :

وهذا ضرب ثالث من الغزل ، فيه من العذرى ، وفيه من الجسدى ، وفيه لون ثالث لا هو عذرى ولا هو جسدى ، وإنما هو فن من القول مصطنع ، وكان لا يقال إلا فى مطلع القصائد .

١ — أما العذرى فيمثله غزل عنتره فى مطالع بعض قصائده مثل قوله :

أشاقك من عبل الخيال المبهج فقلبك منه لاعج يتوهج ^(١)
ثم افتخر . ومثل قوله :

بين العتيق وبين برقة شهـمـد طلل لعبلة مستهل المعهد ^(٢)
ثم افتخر أيضاً .

٢ — وأما الجسدى — وإن كان هنا أقل خشاً — فيمثله غزل امرئ القيس فى أول المعلقة ^(٣) .

٣ — وأما الصناعى الذى لم تبعثه عاطفة حب عذرى أو جسدى فكثير ، منه افتتاح لبيد نغره بهذين البيتين :

عفا الرسم أم لا بعد حول تجرماً لأسماء رسم كالصحيفة أعجماً
لأسماء إذ لم تفتننا ديارها ولم نخش من أسبابها أن تجذماً
ثم انتقل إلى غرضه بقوله :

فدع ذا وبلغ قومنا إن لقيهم ^(٤)
وهل يخطئ اللوم من كان ألوما

(١) ديوان عنتره ٣١ (٢) الديوان ٦٨

(٣) الديوان ١٢٨ — ١٣١ (٤) ديوان لبيد ٣٩

ومثل هذا الغزل العاجل يقول عمرو بن الأهتم :

أَجْدَكَ لَا تُبْلِمُ وَلَا تَزُورِ وَقَدْ بَانَتِ بَرَهْنُكُمْ الْخُدُورِ
كَأَنَّ عَلَى الْجَمَالِ نَعَاجَ قَوِّ كَوَانِسَ حُسْرَا عَنْهَا السُّتُورِ
وَأَبْكَارًا نَوَاعِمَ الْحَقْتَنِى بَهْنِ جُلَالَةٍ أُجْدُ عَسِيرِ
فَلَمَّا أَنْ تَسَايَرْنَا قَلِيلًا أَذِنَّا إِلَى الْحَدِيثِ فَهْنِ صُورِ (١)
ثم انتقل إلى وصية ابنه رَبِيعٍ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، ثم افتخر بقلبته الأعداء
وبمآثره ومآثر أبيه .

كثرة الغزل التمهيدى ، والغرض منه

وكثيراً ما افترض القصائد الجاهلية بهذا اللون من الغزل ، فى كل فن من
أفانين الشعر ، حتى الرثاء نفسه كما سيجىء ، ولم يك هذا الافتتاح عبثاً أو لغواً
من القول ، وإنما كان عملاً فنياً مقصوداً .

١ - يريد الشاعر المحب أن يتناول غرضاً من الأغراض كالحماسة أو الفخر
أو الهجاء أو المدح أو وصف الناقة أو الرحلة ، فيبدأ يشق القول بتعبير عن عاطفته
يعد به نفسه لتمثل موضوعه ، والاندماج فيه ، فيسهل عليه المقال ، وتنثال عليه
الصور والفكر ، مثله فى ذلك مثل المغنى أو المغنية ، لا بد له قبل الغناء من جو
موسيقى يثير كوامن المشاعر ، ويهيئه لأن يطرب ويطرب .

٢ - والشاعر الذى لا يحب يتكلف هذا الغزل التمهيدى ويصطنعه ، ليثير
نفسه بأن يتقمص نفسية المحب ما استطاع ، ثم يهين السامع لأن يتلقى ما يسمع
بمatitude متفتحة ، ووجدان يقظ .

وأى حديث أشهى إلى النفس وأحلى موقعاً فى الأذن من حديث الصباية ؟
وأى افتتاح أدعى إلى الإنصات والانتباه من وصف المرأة فى جمالها الساحر ، وفى

(١) المفضليات ٢/٢٠٩ أجدا منك . الرهن : القلوب هنا . الخدور : ما جللت
به الهودج . الجلالة : الجلية الخلق يصف ناقته . الأجد : الموثقة . العسير : التلم تروض . صور :
جمع صوراء أى مائلات .

وصلها ، وهجرها ، ورضاها ، وصدها ؟

يقول ابن قتيبة : « إن الشاعر ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى وخطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفطر الصبابة ، لميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، ثم يصف الرحلة ومشقاتها ، ثم يمدح ^(١) » .

ويوافقه ابن رشيق في هذا التعليل حيث يقول : « ولشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول ، بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج لما بعده . . . » ^(٢) وقد علل ابن الرومي بدءه قصائد الهجاء بالغزل تعليلًا لا يخرج عن هذا ، بقوله :

ألم تر أني قبل الأهاجي أقدم في أوائلها النسيبا
لتخرق في المسامع ثم يتلو هجائي محرقا يكوى القلوبا
كصاعقة أتت في إثر غيث وضحك البيض يُتبعه النحيب ^(٣)

ولكن هذا التعليل لا ينطبق إلا على النوع الثاني من هذا الغزل ، لأن الشاعر فيه لا يصدر عن عاطفة خاصة ، وإنما يتصنع هذا اللون من القول ليستميل إليه القلوب .

لهذا لا نجد له تأثيراً في عواطفنا يجعلنا نشارك قائله مشاركة وجدانية كما تتأثر ونشارك في النوع الأول ، وشتان بين غزل نابع من القلب ، وآخر صادر من العقل .

وإنما مثل هذا النوع من الغزل مثل المقدمة في الخطبة يعهد بها الخطيب للموضوع ويهيئ الحفل لسماعه .

(١) الشعر والشعراء ١٤

(٢) العمدة ١ / ١٥٠

(٣) ديوان ابن الرومي ١٥

هل اقتصر الغزل التمهيدى على بعض فنون الشعر :

(١) فى الرثاء :

لم يحبس الشعراء غزلهم التمهيدى بنوعيه على بعض الفنون دون بعض ، وقد كان
الرأى الشائع فى دراسة تاريخ الأدب أن قصائد الرثاء لم تبدأ بالغزل لأنه لا يلائم
العاطفة الحزينة والقلب المتألم . وفى ذلك يقول ابن رشيق : « وليس من عادة
الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء . قال ابن
السكبي : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرثَّ جديدَ الجبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعد
وأنا أقول إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام إلى وقتنا هذا وما بعده ، لأن
الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو من الحسرة والاهتمام
بالمصيبة ، وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته «^(١)
ولكن هذا الرأى فى حاجة إلى تمحيص ، فقد وجدت كثيراً من المراثى
مصدرة بغزل . منها :

١ — مرثية دريد بن الصمة ، فى رثاء أخيه عبد الله ، وقد افتتحها بهذه
الآيات :

أرثَّ جديدَ الجبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعد
وبانت ولم أحمد إليها نوالها ولم تُرجَ فينا ردةً اليوم أو غد
ثم انتقل إلى موضوعه بقوله :

أعاذلَ إن الرزء فى مثل خالد ولا رزء فيما أهلك الرء عن يد
وقلت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السوداء والقوم شهدي
علانيةً ظنُّوا باللقى مدججٍ سَراتهم فى الفارسىَّ المَسرَدِ
.....

تنادوا فقالوا أُرِدَّتْ الخيل فارساً فقلت أعبد الله ذلكم الردي؟^(١)
وَأَتَمَّ رثاءه لأخيه .

٢ — إحدى مرثي الملهل لأخيه كليب ، أولها :

الدار قفر عفاها بعد ساكنها بالريح بعد ارتحال الحى عافها
وغالها الدهر إن الدهر ذو غيل فأصبحت بلقماً قفراً مغانها
دار لمضومة الكشحين خرَّ عبة كالشمس حين بدا فى الضوء باديها^(٢)

٣ — مرثية الحارث بن عباد لابنه بجير الذى قتله الملهل ، مطلعها :

بانت سعاد وما وفَّتك ما تعد فأنت فى إثرها حرَّانُ معتمد^(٣)
وقد تغزل فى عشرة أبيات ، ثم انتقل إلى تهديد ووعيد .

٤ — مرثية عريقة بن مسافع العبسى لأخيه ، أولها حديث عن المرأة :

تقول سليمان ما لجسمك شاحبا كأنك يحميك الشراب طيب
فقلت ولم أَعَى الجواب ولم أُلح وللدهر فى صم السلام نصيب
تتابع أحداث تَحَرَّ من إخوتي وشمين رأسى والخطوب تشيب
ثم انتقل إلى رثاء أخيه^(٤) .

٥ — مرثية من مرثي الملهل لكليب ، أولها :

طفلة ما ابنة المحلل يمضا لعوب لذيدة فى العناق
فاذهبي ما إليك غير بعيد لا يؤاتى العناق من فى الوناق
ضربت نحرها إلى وقالت يا عديا لقد وقتك الأواق
ما أُرَجى العيش بعد ندما ي أراهم سُقُوا بكأس حلاق^(٥)
ثم تحسر على ثمانية من تغلب .

(١) الأسمعيات من مجموعة وليم البروس ٢٣ / ١

(٢) المرأة العربية ١ / ٢٠ وبكر وتغلب ٤٤

(٣) المرأة العربية ١ / ٢٠ وبكر وتغلب ٧٦

(٤) الأسمعيات من مجموعة وليم البروس ١ / ١٥ السلام : جمع سلعة وهى الحجارة .

(٥) الأغاني ٥ / ٥٤

٦ — مرثية النابغة الذبياني للنعمان بن الحارث الغساني^(١) .

٧ — مرثية حسان بن ثابت لمحزة بن عبد المطلب^(٢) .

ولست أقصد إلى أن هذا عرف غالب بين الشعراء ، وإنما أقصد إلى أنه لم يكن من الندرة إلى الحد الذي كان مقرراً في الأذهان ، أو إلى الحد الذي ذهب إليه ابن رشيق .

على أن مواقف الفجعية كانت تفجر القصيد الرائي في كثير من الأحيان غير مصدر بغزل ، وغير مصرع ، من ذلك ثلاث مرات لعمر بن حمم الدوسي ألقاها على قبره الحمد بن امرئ القيس ، وعتيك بن قيس ، وحاطب بن قيس^(٣) ، ومن ذلك مرثية عنتره لتماضر زوجة الملك زهير بن جذيمة العبسي ، فإنها غير مبدوءة بغزل^(٤) .

(ب) في المدح :

ولكن مقدمة الغزل في قصائد المدح كثير الشيوع ، حتى لقد يستغرق الغزل أحياناً نصف القصيدة ، فمثلاً مدحة كعب بن زهير للنبي صلى الله عليه وسلم التي مطلعها « بابت سعاد^(٥) » عدد أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً ، استغرق الغزل ووصف النوق ثمانية وثلاثين بيتاً ، وبقي للمدح والاعتذار عشرون .

وفي مدحة المسيب بن علس للقعقاع غزل في ستة أبيات ، ووصف للناقعة في ثمانية ، ومدح في اثني عشر^(٦) .

وفي مدحة عنتره للملك زهير بن جذيمة العبسي غزل في ثمانية أبيات ومدح في أربعة^(٧) .

وفي مدحة الأعشى لأبي الأشعث قيس غزل في اثنين وعشرين بيتاً ، ومدح في خمسة أبيات^(٨) .

(١) ديوان النابغة ٥٧ (٢) ديوان حسان ٨٥

(٣) الأمالي ٢ / ١٤٣ (٤) ديوان عنتره ٦٠

(٥) جهرة أشعار العرب ٣٠٨ (٦) ذيل الأمالي ١٣٠

(٧) ديوان عنتره ١٦١ (٨) ديوان الأعشى ٢٢٧

(ح) في الفخر :

وربما كان الغزل أكثر ملاءمة في مطالع الفخر من مطالع المدح ، لأن النفس في الفخر منفعة مهتاجة ، ولأن الغزل ضرب من القدرة والفتوة والسمو يسائر الفضائل التي يفخر بها الشاعر .

فمثلاً افتخر الشنفرى بقتله حراماً قاتل أبيه ، واستفتح نخره بهذا الغزل :
أرى أم عمرو أزمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت
فقد سبقتنا أم عمرو بأمرها وقد كان أعناق المطى أظلت
فوانداً على أميمة بعدما طمعت فهبها نعمة العيش زلت^(١)

وواصل غزله في أحد عشر بيتاً ثم افتخر وهدد خصومه .
وكذلك فعل خفاف بن ندبة^(٢) ، والعباس بن مرداس^(٣) ، وسلامة بن جندل^(٤) ، وذو الإصبع العدواني^(٥) ، وعنترة^(٦) .

ولقد يكون الغزل أطول من الفخر كما في قصيدة قيس بن الخطيم التي مطلعها :
رد الخليط الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا؟^(٧)
فإن أبيات الغزل فيها تسعة عشر ، وأبيات الفخر والتهديد تسعة ، وكما في قصيدة عبيد بن الأبرص التي مطلعها :

ليس رسم على الدفين يبال فيلوى ذروة فنجي أنال^(٨)
فأبياتها الغزلة تسعة عشر ، وأبياتها الفاخرة ستة عشر ، وليس من المصادفة أن يكون أكثر نخر عنترة وأضرابه من الصناديد مبدوءاً بغزل ، لأن هذا الفخر نزعة فنية ونفسية عند هؤلاء الأبطال ، وما من شك في أن نخر عنترة كان موجهاً إلى عبلة ، ومراداً به التقرب إليها ، ونيل رضاها وإعجابها ، كما يتبين ذلك من دراسته .

(٢) الأصمعيات ١ / ١٦

(٤) الأصمعيات ١ / ٥٠

(٦) ديوان عنترة ٤١ ، ٥٦ ، ٨٧

(٨) ديوان عبيد القصيدة ١١

(١) الأغاني ٢١ / ٩٠

(٣) الأصمعيات ١ / ٣٥

(٥) المفضليات ١ / ١٦٤

(٧) الأصمعيات ١ / ٤٥

(٥) في الهجاء :

كذلك كانت قصائد الهجاء أحياناً تصدر بالغزل ، ولعل ذلك كان لأن الهجاء كان لا يخلو من نخر ، فالهاجى يعير خصومه ويفخر بفضائل قومه من نجدة وكرم وشجاعة وسطوة الخ ، ثم هو يصدر هجاءه بغزل ليكسبه حلاوة وطلاوة فيذيع ويروى .

فثلاثاً هجا الأعشى علقمة فبدأ هجاءه بثلاثة عشر بيتاً غزلية^(١) .

وهجا شيبان بن شهاب بقصيدة عدتها سبعون بيتاً تغزل في سبعة وعشرين منها^(٢) . وكذلك فعل في هجاء يزيد بن مسهر إذ تغزل في سبعة أبيات^(٣) .

وهجا عبيد بن الأبرص امرأ القيس بقصيدة بدأها بخمسة أبيات غزلة ثم افتخر وهجا^(٤) .

وهدد امرؤ القيس بنى أسد وهجاهم بادناً بغزل في بيتين :

يا دار ماوية بالحائل فالتسهب فالتجبتين من عاقل
صم صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل
قولاً لدودان عبيد العصا ما غر كرم بالأسد الباسل^(٥)

(هـ) ولقد يكون الغزل تصديراً لقصائد ذات موضوعات عدة ، فيها وصف للناقة وللرحلة وفيها مدح وفيها نخر وفيها حكمة ، وهو في تصدره القصيدة المتعددة الموضوعات كتصدره القصيدة الموحدة سواء بسواء .

البدء بغير غزل :

على أن كثيراً من القصائد كانت تبدأ بغير غزل حتى من الشعراء المحبين الذين أكثروا من البدء بالغزل ، فثلاثاً امرؤ القيس يبدأ بالموضوع في كثير من قصائده مثل قصيدته التي يتوعد بها بنى أسد^(٦) وقصيدته التي يمدح بها المعلى من تيم بن

(٢) الديوان ١١١

(١) ديوان الأعشى ١٠٤

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١٧

(٣) الديوان ٥٦

(٦) ديوان امرئ القيس ٦٠

(٥) ديوان امرئ القيس ١٥١

ثعلبة^(١) ، وقصيدته التي يمدح بها بنى عوف^(٢) .

والأعشى بدأ قصيدته في مدح قيس بن معد يكرب الكندي بحكم استغفرقت
أحد عشر بيتاً ، ثم عرج على بعض صباه الماضية في عشرين بيتاً ثم مدح^(٣) .
وعنترة بدأ بعض فخرياته بغير غزل^(٤) .

وعبيد بن الأبرص هدداً امرأ القيس وهجاء بقصيدة لا غزل فيها^(٥) .
وعمر بن الطفيل افتخر ببلائه ولم يبدأ بغزل^(٦) .

الختام بالغزل والبدء به

وهناك قصائد شذت عن الطريقتين معاً ، فليست مبدوءة بالغزل فحسب ،
ولكنها مبدوءة بالغزل ومختومة به ، وقد يكون هذا من خلط الرواة ، ولكني
أستبعد ، لأن الراوى ليس من الغفلة بحيث لا يروى الغزل متلاحقاً وهو يعلم
أن هذا نظام شائع في الشعر . وأرى أن الشاعر أنشد قصيدته على هذا الغرار ،
لأن الغزل الأول لم يشف ما بنفسه ، أو لأنه كان قد فتر فأنصرف عن غير الغزل
إلى الغزل مرة ثانية .

ومثال ذلك قصيدة عبيد التي مطلعها :

يادارَ هنيءَ عفاها كل هطال بالجوِّ مثل سحيق المئنة البالي^(٧)

فقد تغزل أولاً في خمسة أبيات ثم وصف ناقته ، وافتخر بشجاعته وشربه الخمر
في تسعة أبيات ، ثم عاد إلى الغزل في أربعة أبيات ، وقصيدته التي مطلعها :

أمن منزل عافٍ ومن رسم أطلال بكيت وهل يبكي من الشوق أمثالي^(٨)

فقد بدأها بغزل في عشرة أبيات ، ثم وصف الناقة في ثلاثة ، ثم عاد إلى الغزل
في أربعة .

(١) الديوان ١٧٩

(٢) الديوان ١٨٩ (٣) ديوان الأعشى ١٣

(٤) ديوان عنترة ١٧٨ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ، ١٠٦

(٥) ديوان عبيد القصيدة ٦ (٦) ديوان عامر القصيدة ١١

(٧) ديوان عبيد القصيدة ٥ (٨) ديوان عبيد القصيدة ١٥

وقد حاكاه في ذلك من بعد المرآر بن منقذ في إحدى قصائده (١) .

الانتقال من الغزل إلى غيره

ليس الغزل منفك الصلة بما بعده في نفس الشاعر ، وإن بدا كذلك في الظاهر ؛ لأن الشاعر كما قلت ، إما محب وإما متصنع للحب ، ومتصنع الحب يحاكي الحب في فن القول . والعلاقة بين الغزل وما بعده علاقة نفسية ، لأنهما معاً صادران عن عاطفة ، ويشغلان تفكير الشاعر ، ولأنهما معاً من صور الحياة البدوية التي يحياها الشاعر ويعجب بها ، ولقد يرتبطان في بعض الحالات ارتباطاً وثيقاً ، كأن ينتقل الشاعر من الغزل إلى الحماسة ، لأن الحماسة فتوة ، ولأن الحب فتوة ، أو ينتقل الشاعر من الغزل إلى وصف الناقة مركب الشاعر إلى حبيبته النازحة ، ومركبه في التسلي عن حبه ، فهي وثيقة الصلة بالحُب .

وقد فطن فرويد إلى أنه « لا بد من علاقة بين أى فكرتين تلي إحداهما الأخرى سواء أ كانت تلك العلاقة ظاهرة أم غير ظاهرة ، فالعقل لا يستطيع أن يغير الموضوع حينما يشاء من غير إشارة إلى ماضيه القريب » (٢) .

ولقد يترسم الشاعر هذا الطريق وهو لا يقصد ؛ لأن الذكريات أفكار مرتبطة ، وحتى في التفكير المتعمد تكون الروابط لاشعورية ، فيفيض التيار العصبي من غير تفكير في المسالك العصبية ، ولا يستثير شرارة الشعور إلا عند ما يقفز من طرف لآخر (٣) .

« والحق إن الصحراء هي التي أوحى للشاعر بأسلوب القصيدة وعناصرها ، فهو يمر على ديار الأحبة — وقد ظعنوا — فتهيج آثار الديار مشاعره ، ويتذكر في حسرة أوقات أنسه وساعات سمره ، ويتذكر الحبيبة فيقف يذرف دمعاً على ذلك الماضي الجميل ، ثم يثوب إليه رشده ، فينقطع حبل الذكريات ، وينصرف الشاعر إلى رحلته . وهو في هذه الرحلة يعتمد على ناقلته ، فلا بدع إذا خصها بالذكور ووصفها

(٢) كيف يعمل العقل ١ / ٥٥

(١) المفضليات ١ / ٨٠

(٣) كيف يعمل العقل ١ / ٣٠

وصفاً جميلاً ، ولقد يستطرد في وصفه هذا فيصور مناظر حية من الصحراء لا تزال لها روعتها وجمالها ، ثم يصل إلى نهاية رحلته ، ويصل في نفس الوقت إلى الغاية من قصيدته فيمدح أو يحرض على القتال أو يسوق الحكمة أو يعتذر إلى غير ذلك .

ولا شك أن ثمة وحدة فكرية تربط بين هذه الأجزاء في نفس الشاعر ، وأن هذه المراحل والعناصر الطبيعية في تلك البيئة الصحراوية ، وعند أمة ناشئة في الأدب ، لأن الأدب الغربي لم يتطور ويتغلب على هذه المهنة إلا في العصور الوسطى . والغربي كان ينشد الشعر ولم يكن يؤلفه تأليفاً ، إنه كان يرتجل في كثير من الأحيان وكان شعره نوعاً من الخطابة المنظومة .

يقول العلامة جب في ذلك « الخلق الفني لدى العرب سلسلة من بواعث منفصلة ، كل منها تام ومستقل بنفسه ، لا تربط بينها غاية أو انسجام أو إنقان ، اللهم إلا وحدة العقل الفردي الذي أبدعها .

أما الفن الغربي ولا سيما منذ العصور الوسطى فقد تطور حتى عاد سلسلة من الأمور المعقدة تضاف على الفن انسجاماً ، وتربط بين عناصره الكثيرة ، وتروق العقل كما تروق الشعور .

بيد أن فن القول — من جهة أخرى — عند الغربيين وعند العرب على السواء لا يزال يحتفظ بطابع البساطة والتفكك ، بل لنا أن نقول بطابع بدائي ، ولهذا السبب كان له سطوة وقوة قاهرة على خيال الفرد وعلى خيال الجمهور ، وقد تبلغ هذه القوة حداً تعوق فيه المقدرة عن تكوين وحدة أو انسجام » (١) .

فإذا كانت القصيدة العربية قد جرت على تعدد موضوعاتها في الغالب الأعم ، فإن هذه الموضوعات المتعددة تلتقي عند نقطة واحدة هي أنها مشغلة الشاعر ، وأنها وحي البيئة التي يعيش فيها ، وإن بدت في القصيدة مناحي متفرقة من القول .

وندع القول لمستشرق غربي يتحدث عن هذه الأجزاء التي تضمها القصيدة لنرى حكم الذوق الغربي على هذا التعدد ، يقول الأستاذ جب : « إن القصيدة

تتألف من سلسلة من الصور تعرض جوانب متعددة من الحياة العربية ، ليس بينها من الروابط إلا القليل ، يطبعها التقليد بطابعه في ترتيبها وتسلسل أفكارها ، ففي مطلع القصيدة نرى الشاعر على ظهر جملة مع صاحب أو صاحبين ، وينطلق إلى حيث نخيمه أو نخيم قبيلة صديقة رحلت وبقيت أطلالها ، إنه يدعو صاحبيه للوقوف لحظة ، ثم يبدأ في أسف وأسى يصف أيامه السعيدة التي قضاها مع حبيبته منذ سنين ، أما الآن فقد باعدت بينه وبين حبيبته تصاريث الأيام ، وضربه التوالى في الأرض . وبين الأطلال وحواليها يقف الشاعر يندب حظه ، ثم يطنب في وصف الحبيبة في تفصيل دقيق .

ثم يستعيد شعوره ، ويمضى في رحلته ، ثم ينتهز الفرصة ليصف في خبرة وفي إعجاب جملة أو حصانه ، وسرعة حصانه تقوده إلى أن يوازن بينه وبين الحمار الوحشى أو النعامة أو الضبع ، وسرعان ما ينسى هذه الموازنة ويستغرق في وصف الحيوان الذى شبه به ، أو في وصف منظر من مناظر الصيد ، وهذا الجزء هو أقرب الأجزاء إلى الذوق الغربى . ثم ينتقل إلى موضوع القصيدة الذى يريده ويتبين من ذلك كيف سهل الأمر على المصنفين فيما بعد ففصلوا أجزاء القصيدة بعضها عن بعض واعتبروا كل جزء وحدة قائمة بذاتها ^(١) .

وقد أخذ النقاد على الشعراء الجاهليين أنهم ينتقلون من الغزل إلى غيره فجاء بغير أن يربطوا بين الغرضين ويتسلسلوا من الغزل إلى ما بعده في مهارة وحبك ، وآثروا أن يتطرق الشاعر من الغزل إلى غيره في لطف وحيلة كما يفعل أبو تمام وأبو الطيب في أكثر الأحيان ^(٢) ومسلم بن الوليد ومنصور النمرى ^(٣) . ولكنى لا أوافق على هذا المأخذ ، لأن الانتقال المفاجئ دليل على أن الشاعر لم يستوح عقله ومنطقه وتفكيره ، وإنما استوحى عاطفته وقلبه وشعوره ، ولو أنه استوحى عقله ما عجز عن براعة الانتقال التى برع فيها المتنبي مثلاً . والشاعر صادق في تعبيره عن شعوره ؛ لأن المرأة تشغله ، والناقة تشغله ، ولأن الفخر أو المدح

أو الهجاء يشغله أيضاً ، فهو يتابع هذه الأغراض في قوله كما تتتابع في شعوره ، لذا لم يحاول أن يعقد صلة مصطنعة في انتقاله من غرض إلى غرض .

وليس أدل على أن هذا التحايل والتلطف في النقلة من الغزل إلى المدح مثلاً عمل عقلي لا فني من أن البارعين فيه هم الذين تفلسفوا في شعرهم كأبي تمام وأبي الطيب ومن تأثر بهما إلى العصر الحاضر ، مثل شوقي في تكريم سعد زغلول ، فقد تغزل في تسعة أبيات ، وصف فيها جمال الحسناء وإعجاب الحسان بها ثم انتقل إلى المدح بقوله :

لو كنتَ سعداً مطلق السجناء لم تطلق لساحر طرفها مصفوداً^(١)

في حين نرى شاعراً فذاً لا صلة لشعره بالفلسفة كالبحتري ، لا يتلطف هذا التلطف ، فكثيراً ما انتقل من غزله التمهيدى إلى المدح فجأة بغير وشائج ، كقوله في مدح المتوكل :

أخفى هوى لك في الضلوع وأظهر وآلام في كد عليك وأعذر وأتم غزله في تسعة أبيات ، ثم انتقل إلى المدح بقوله :

الله مكرن للخليفة جعفر ملكا يحسنه الخليفة جعفر^(٢)

وأكثر مدائحهم على هذا الغراز ، يبدوها بالغزل ولا يتحايل في الانتقال^(٣) ، وإنما كانت طريقة الشعراء أن ينتقلوا من الغزل إلى غيره بقولهم دع ذا ، قال لبيد .

عفا الرسم أم لا بعد حول تجرماً لأسماء رسم كالصـ حيفة أعجبا
لأسماء إذ لم تفتنا ديارها ولم نخش من أسبابها أن تجدماً
فدع ذا وبلغ قومنا إن لقيتهم وهل يخطئ اللوم من كان ألوما^(٤)

وقال امرؤ القيس بعد أن تغزل في خمسة وعشرين بيتاً :

فدع ذا . وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجراً^(٥)

(١) الشوقيات ١ / ١٢٥

(٢) ديوان البحتري ١٠ مطبعة الجوانب بالقسطنطينية ،

(٣) الديوان ، ١٢ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٩٨ الخ (٤) ديوان لبيد ٣٩

(٥) الديوان ٧٠ جسرة : ناقة قوية . ذمول : سريعة ، صام النهار : قامت الظهيرة ،

(م — ١٥)

أو ينتقلون بغير هذا ، كما فعل النابغة الذبياني في مدحته لعمر بن الحارث المعروف بالأعرج ، فإنه تغزل في ثلاثة أبيات ثم انتقل إلى المدح مباشرة :
 علىَّ لعمر بن نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب ^(١)
 وكقول الأعشى في مدحه قيساً دهقان اليمن بعد أن تغزل :
 عدَّ هذا في قريض غيره واذكرن في الشعر دهقان اليمن ^(٢)
 وكذلك فعل المسيب بن علس ، فقد تغزل في ثمانية وعشرين بيتاً ، ثم طفر إلى المدح بقوله :

وإليك أعلمت المطية من سهل العراق وأنت بالقفر
 وآتم مدحته في اثني عشر بيتاً ^(٣) .

وهذا الانتقال المفاجئ كثير ، ومن أمثله قصيدة لطرفة ^(٤) ، وقصيدة لحسان بن ثابت ^(٥) ، وقصيدة لقيس بن الخطيم ^(٦) ، وقصيدة لعمر بن الأهتم ^(٧) .
 ولقد يعرض الشاعر قوله وفيه ما يصح أن يسمى ربطاً ، ولكنه أيضاً غير مقصود ، لأنه خواطر تتساوق ومعان تتداعى ، وذلك كقصيدة لامرئ القيس وقف فيها على الربع واستنطقه ، ثم ذكر الطعام ووصفهن ، وصور حزنه لما ارتحلن ، وهذه كلها مرتبطة في نفسه ، ثم شرع يصف ناقته بقوله .

فعرَّيتُ نفسي حين بأواً بحسرةٍ أُمونٍ كبنيان اليهودى خيفق ^(٨)

وواصل وصفها ، ولكن الناقة مرتبطة بوقفته على ربع الحبيبة وبرحلتها وبالألم لفراقها ، وهي وسيلة إلى الرحلة التي يأمل أن تسليه .

(١) ديوان النابغة ٥ (٢) ديوان الأعشى ٢٢٨

(٣) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٣

(٤) ديوان طرفه ٧٠ (٥) ديوان حسان ١١

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ٢٥ (٧) الفضليات ٢ / ٢٠٩

(٨) الديوان ١١٨ . بنيان اليهودى : حصنه . خيفق : سريعة .

٤ — الغزل الكيدى

حقيقته :

هذا نوع من الغزل لا هو عذرى ولا هو حسى ولا هو تمهيدى . فليس عذريا ولا حسيا لأنه غير منبعث عن عاطفة ، وليس تمهيديا لأن الغرض منه لم يكن إعداد النفس للانتاج وتمهئة الجول للموضوع ، وإنما كان الغرض منه الكيد والإغابة وتجريح الخصم والنيل من عرضه بشبهة اللسان .

لهذا صح أن أجعله نوعاً مستقلاً عن الأنواع السابقة . وهو أقل منها كماً ، وأضال كيفاً وفناً ، وآخرها ظهوراً لأنه لم يعرف إلا فى آخر العصر الجاهلى ، ولكنه من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية دليل على صيانة العرب لأعراضهم ، وغيرتهم على نسائهم ، ودليل على أن العداوة لم تقتصر على انتضاء السيوف والرماح واللقاء فى ميدان الحرب ، فقد كانت بجانب هذه المعارك المادية معارك أخرى فنية أداتها اللسان والخيال وميدانها الفن ، يمثلها الهجاء ويمثلها هذا الغزل الكيدى . وهو من حيث المظهر وطريقة العرض لا يختلف عن الغزل التمهيدى فى شيء ، وسأضرب أمثلة له .

١ — فى يوم بعث تغزل قيس بن الخطيم بعمرّة بنت رواحة أخت عبد الله ابن رواحة وهى أم النعمان بن بشير ، ثم نخر بانتصار الأوس على الخزرج :

أُتَعْرِفُ رَسْمًا كَأَطْرَادِ الْمَذَاهِبِ	لِعَمْرَةٍ وَحْشًا غَيْرَ مَوْقِفِرَاكِبِ
دِيَارِ الَّتِي كَانَتْ وَنَحْنُ عَلَى مَسْنَى	نَحْمِلُ بِنَا لَوْلَا نَجَاءُ الرَّاكِبِ
تَرَأَتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ	بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَعَتْ بِحَاجِبِ
وَلَمْ أَرَهَا إِلَّا ثَلَاثًا عَلَى مَنَى	وَعَهْدِي بِهَا عَذْرَاءُ ذَاتِ ذُرَائِبِ
وَمِثْلُكَ قَدْ أَصْبَيْتُ لَيْسَتْ بِكِنَّةٍ	وَلَا جَارَةٍ وَلَا حَلِيلَةٍ صَاحِبِ (١)

وهو غزل لا إغشاء فيه . بل إنه فى مظهره أقرب إلى أن يكون من الغزل

العذرى . ولكن عبد الله بن رواحة لم يطق صبرا . فرد العدوان بمثله . فتغزل في ليلي بنت الخطيم على الوزن والقافية نفسها :

أشقتك ليلي في الخليط المجانب نعم فرشاش الدمع في الصدر غالي^(١)

٢ — واقتتل الأوس والخزرج في يوم الربيع قتالا كاد يفنيهم ، وانهزمت الأوس وتبعها الخزرج إلى الدور ، ولحسان قصيدة في هذا اليوم تغزل فيها بليلى بنت الخطيم في مطلع الفخر :

لقد هاج نفسك أشجارها وعاودها اليوم أديانها
تذكرت ليلي أنى بها إذا قطعت منك أقرانها
وحجّل في الدار غربانها وخف من الدار سكانها
وغيرها معصرات الرياح وسحّ الجنوب وهنّانها
مهاة من العين تمشى بها وتتبعها ثم غزلانها
وقفت عليها فساءلتها وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فعميت وجاوبى دونها بما راع قلبى أعوانها^(٢)

فأجابه قيس بن الخطيم بقصيدة من الوزن والقافية وتغزل بعمرة زوجة حسان :
أجدّ بعمرة غنّياؤها فتهجر أم شأننا شأنها ؟
وإن تمس شطت بها دارها وباح لك اليوم هجرانها
ثم انتقل إلى مناقضة حسان في نغره^(٣) .

وقيل إن قصيدة قيس هذه إنما قالها في عمرة بنت رواحة أم النعمان بن بشير وأخت عبد الله بن رواحة .

٣ — وبعد غزوة بدر شب كعب بن الأشرف بأمر الفضل بنت الحارث يغيظ المسلمين ، فقال :

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦

(٢) ديوان حسان ٤١٦ والأغاني ٣ / ١٢ أديانها : ج دين وهو الداء والمراد

الحب القديم .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغاني ٣ / ١٢

أراحلُ أنت لم تحلل بمنقبةٍ وتاركُ أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تُعصرُ انعصرت من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج ما بين كعبيها وصر فيها إذا تأتت قياما ثم لم تقم
وأشباهُ أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بنى عامرُ جنَّ الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعبا من السقم
فرعُ النساء وفرعُ القوم والدها أهلُ المحلة والإيفاء بالدمم
لم أر شمسا بليعل قبلها طلعت حتى تجلّت لنا فى ليلة الظلم
ثم شبب بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم فأمر النبي بقتله (١)

خصائصه

وتيسم الغزل الكيدى بالتصون فى التعبير والتعفف فى المعنى ، فليس فيه
إفحاش كهذا الذى جدّ فيما بعد فى تهاجى شعراء العصر الأموى والعباسى . لهذا
لا نعجب حين نقرأ أن النعمان بن بشير دخل المدينة أيام يزيد بن معاوية واشتاق
إلى الغناء فذهب هو وخواص أصحابه إلى عزّة وقال لها : غنّينى ، فغنّته :

أجد بعمره غنيانها فتهجر أم شأننا شأنها (٢) ؟
فأشار بعض أصحابه إلى عزّة وأفهمها أن عمره أم النعمان فسكتت ، فقال النعمان
غنّينى ، فوالله ما ذكرت إلا كرما وطيبا ، لا تغنّينى سائر اليوم غيره ، فلم تزل تغنيه
هذا اللحن فقط حتى انصرف (٣) .

ولكن العربى لا يطيقه وإن كان عَفًّا متصوناً . لأنه تعرض للحرم وتسميع
بالنساء ، وقد أسبق أن العرب كانوا لا يزوجون شاعرا فتاة أعلن حبه لها وتغزل
فيها حمية وأنفة .

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣ / ٣

(٢) الأغاني ٣ / ١١ ، ١٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٩

(٣) الأغاني ٣ / ١٣

لذلك كان الغزل الكيدى أحياناً سبباً في قتل الشاعر ، كما حدث لكب بن الأشرف ، فإنه بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله محمد بن سلامة ورهطاً من الأنصار بقتله فقتلوه ^(١) . ولم يكن سبب قتله أنه بكى قتلى بدر ، فقد بكاهم كثير من الشعراء ولم يأمر رسول الله بقتل واحد منهم ، وبكاهم أمية بن أبي الصلت وحرث قريشا على أن ثأر من المسلمين ليوم بدر ، فنهى النبي عن رواية القصيدة ، فكفوا عن روايتها حيناً من الدهر ، فلما تمت للإسلام النصر زالت علة المنع فرويت القصيدة ^(٢) .

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٠

(٢) الأغاني ٤ / ١٢٢ والبيان والتبيين ١ / ٢٣٦ وسيرة ابن هشام ٢ / ٤٠٥

الفصل السادس

صور غزلية من آثار الحب والجمية في نفس الشاعر

(١) الأخلاق

١ — أثر الحب في الطباع :

الحب ولا سيما الموسوم بحرارة العاطفة وصدقها روح يسرى في الروح ، فيصقل النفس ويجميل الطبع ويهذب الخلق ويغرس في الحب كثيراً من الفضائل التي تحببه إلى المرأة وتستبنيها ، قيل لسعيد بن سالم : إن ابنك يحب ، فقال : دعوه ، فإنه يلفظ وينظف ويظرف^(١) ، ولو أحسن ما اقتصر على اللطف والنظافة والظرف ، بل لأضاف إليها خلالات آخر كالشجاعة والغيرة والكرم الخ ..

وفي الحق إن الحب يرقق الطباع الجاسية ، ويلين النزعات الجافية ، قال أبو عثمان : « قد ترى الأعرابي وظاهره ظاهر الجفاء فما هو إلا أن يمشق حتى تجده أرق من الماء وألطف من الهواء ، ومع ذلك يلقي أحدهم عشيقته فيترشفها ويعانقها دون الثياب ، ويمنعه التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته ، قال ابن هرمة :

ولرب لذة ليلة قد نلتها وحرامها لحلالها مدفوع^(٢) »

٢ — المثل الأعلى للرجل في نظر المرأة :

وقد كانت المرأة المحبوبة ملهمة للشاعر قال عنتره :

(١) تزيين الأسواق ١١

(٢) أخبار النساء لابن القيم ٢٠

عبيلةٌ هـَذَا دُرٌّ نَظْمٌ نَظْمَتُهُ وَأَنْتَ لَهُ سِلْكٌ وَحُسْنٌ وَمَبْهَجٌ ^(١)
وكان حبها باعثاً على المحامد ، فهي تعجب بالرجل الشجاع الكريم الغلاب ،
وهذا هو مثلها الأعلى في الرجال ، يدل على ذلك أن ابنة الخُس سئلت . أى الرجال
أحب إليك ؟

فقلت ، السهل النجيب ، السمح الحسيب ، النذب الأديب ، السيد المهيب ،
وأفضل منه . الأهيف الهفاف الأنف العياف ، المفيد المتلاف الذى يُخيف
ولا يُخاف ^(٢) .

وسئلت أى الرجال أبغض إليك ؟ قالت : « الأَوْرَةُ النَّثُومُ ، الوركل السُّثُومُ
الضعيف الحيزوم ، اللثيم الملوم ، وشر منه الأحمق النَّزَّاعُ الضائع المضاع الذى
لا يُهاب ولا يُطاع ^(٣) » .

وفى حديث بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يكرب قال عمرو « كنا نغير
على بنى مالك فأتينا على قوم سراً ، فجلست فى موضع أسمع كلامهم ، وإذا بجارية
قد خرجت من خيمتها ، وجلست بين صواحب لها ثم دعت وليدة من ولاندها ،
فقلت : ادعى لى فلانا ، فدعت لها رجلاً من الحى . فقلت له ، إن نفسى تحدثنى
أن خيلاً تغير على الحى فكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ فقال : أفعل وأصنع
وجعل يصف نفسه ويفرط . فقلت له : انصرف حتى أرى رأى ، وأقبلت على
صواحباتها فقلت . ما عنده خير . وقالت لوليدتها : ادعى لى فلانا ، فدعت آخر ،
فخاطبته فأجابها بمثل جوابه ، فقلت له : انصرف حتى أرى رأى ، وقالت
لصواحباتها : وما عند هذا خير أيضاً ، ثم قالت للوليدة : ادعى لى ربيعة بن مكدم
فدعته فقلت له مثل قولها للرجلين ، فقال لها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه
ولكنى إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يُعذر ، فقلت له : قد زوجتك
نفسى ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك ^(٤) .

(١) ديوان عنتره ٣٢ (٢) ذيل الأمالى ١١٩

(٣) ذيل الأمالى ١١٩ الأوره : الأحمق . الوكل : العاجز . الحيزوم : ما يشد عليه الحزام

(٤) الأغاني ١٥ / ١٣٢

فهى لا تريد من الرجل أن يكون قولاً ، بل أن يكون فعلاً ، وهى تعلم بتجارها أن أكثر الناس قولاً أقلهم عملاً ، لهذا اختارت ربيعة بن مكدّم زوجاً لها ؛ لأنها علمت من جوابه أنه شجاع ذو بلاء .

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريماً أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية ، تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنابعة ورجل من الأنصار من النسييت يخطبونها ، فطلبت منهم أن يقول كل منهم شعراً يذكر فيه فعّاله ، ثم ينشدونها فى الصباح ما قالوا ، وستصطفى أكرمهم زوجاً لها ، وفى الصباح أنشدوها النسييتى ، ثم النابعة ، ثم حاتم ، وكان من قوله :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
فقلت إن حاتماً أكرمكم وأشعركم ، ثم قالت له : خل سبيل امرأتك فأبى ، ثم ماتت امرأته فرضيت ماوية به زوجاً وولدت له عدياً ^(١) .

وقد أبت حسنية بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها لأنه فرّ عنها فى الحرب وتركها تُسبى ^(٢) . وقد ذكر أبو على القالى حديثاً طويلاً بين ثلاث بنات وصفن ما يحببن من أزواجهن ، ملخصه أنهن جميعاً يتطلبن من الزوج أن يكون كريماً شجاعاً ^(٣) . وكان السمو الخلقى مفخرة البنت بأبيها كما كان ميزاناً تزن به رجلها ، قالت إحدى صواحب العجفاء فى حديث بينهن :

« كان أبى يكرم الجار ، ويعظم الخطّار ، ويحمل الكبار ، ويأنف من الصغار » . وقالت أخرى : « أبى والله صدوق اللسان ، حديد الجنان ، ردّوم الجفان . شديد الطعان ^(٤) » . وفى رثاء ليلى الأخيلية لتوبة مدح بالفروسية والكرم والشجاعة ^(٥) .

هذه لمحة عن المثل العالية الخلقية التى تتطلبها المرأة فى الرجل ، فمن الطبيعى إذاً أن يحرص الرجال ولا سيما المحبون على التحلى بهذه الأخلاق ، لهذا أكثر نخر

(١) الأغاني ١٦ / ٩٩ — ١٠١ وذيل الأمالي ١٥٤

(٢) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ — ٥٩

(٣) الأمالي ٣ / ١٦ (٤) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٦٢

(٥) الأغاني ١٠ / ٧١ — ٧٧

الشعراء بمحامدهم ، ووجهوا هذا الفخار إلى المرأة ، ويحسب الفاجر أن تصدقه المرأة في قوله ، أو أن تشهد بنفسها محامده ليحتل من قلبها المكان الذي يريد .
ومن الطبيعي أن يحرص الرجل على التحلي بالفضائل ، ليمتدح إلى المرأة ، فهو « يبدل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ليمدح محاسنه ويرغب في نفسه ، فكلم بخيل جاد ، وقطوب تطاق ، وحبان شجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل ترين ، وفقير تجمل ، وذى سن تقى (١) .
وهذا هو السر في أن الشاعر أشاد بمفاخره بعد الغزل ، يهدف إلى استمالها ونيل إعجابها » فيثنى الشاعر على نفسه ويحب ذلك كما يحب الملك أو الأمير أن يثنى عليه الشعراء ، فالعرب كانوا كالإغريق في عصر البطولة يحبون أن يسمعوا شعراءهم يشيدون بمفاخرهم (٢) » .

٣ — صور من تأثير الحب في الأخلاق :

وفي الشعر الجاهلي صور كثيرة من هذا ، فمثلاً مُضَرَّس بن قُرْط بن الحارث المزني يقول لحبيبتة : إن كنت لم تخبري أخلاق فاسألني الرجال عني ، وستعلمين أنني لم يقطع صديق صداقتي ، ولم يذم صديق سفري ، وأن صحابتي من الكرام الذي بلوني في الشدائد ، وأنني كتوم لحي لا أفشي سره لأحد إذا أفشي سره المازح :

وإن كنت لما تخبريني فسألي	فبعض الرجال للرجال رُموق
سلي هلي سلافي من عشير محبته	وهل ذم رحلي في الرجال رفيق ؟
وهل يحتوي القوم الكرام صحابتي	إذا اغبر نخشي الفجاج عميق
وأكتم أسرار الهوى فأميته	إذا باح مزاح بهن بروق (٣)

ولقد قال عنتره لعبلة إنه ذكرها في أخرج أوقاته ، وأعظم مفاخره ، ذكرها

(١) طرق الحمامة لابن حزم ١١

(٢) مضارة العرب . جستاف لوبون ٥٣٩

(٣) الأمل ٢ / ٢٥٨ رموق : لاحظ خطأ خفيفاً أو حاسداً . بروق : مهدد .

والسيوف تتصافح ، والرماح تشتجر ، وبلغت به شجاعته وحبه معا أنه ودَّ أن
يقبل السيوف لأنها تبرق كما تبرق ثناياها :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلُ منيَّ وبيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دمي
فوددتُ تَقْبِيلَ السيوفِ لأنها لمعت كبارقِ مُغِيرِكَ المتبسِّمِ (١)

وطلب منها أن تسأل المحاربين من قومها عن بطولته وخوضه بجر المنايا :

سلي يا عبل قومك عن فعالي ومن حضر الواقعة والطرادا
وردتُ الحربَ والأبطالُ حولي تهز أكَفُّهَا السُّمَرُ الصَّعَادَا
وخضتُ بمهجتي ببحر المنايا ونار الحرب تَتَّقِدُ اتِّقَادَا (٢)

وأقسم بعبلة أنه لولا حبها ما كثر أعداؤه ، وقل أصدقاؤه ، لأن الرجال
ينفسون عليه هذه الشجاعة ، وإما يشجع ليرضى عبلة ويخاطر ليكون أهلا لها :

أيا عبل ما كنت لولا هواك قليل الصديق كثير الأعادي
وحقَّكَ لا زال ظهْرُ الجواد مَقِيلٍ ، وسيفي ودري وسادي
إلى أن أدوسَ بلادَ العراق وأُفْنِي حواضرها والبوادي (٣)

وكثيراً ما تبرم بالذين عيروه سواد لونه ، وأراد ألا يصرف هذا السواد عبلة
عنه ، لأن له ما يعوضه من بعض الخصال :

تغيرني العدا بسواد لوني وبيض خصائلي تمحو السواد
سلي يا عبل قومك عن فعالي ومن حضر الواقعة والطرادا (٤)

ولقد يفتخر عنتره ببطولته وبطولة قومه ، ويذكر أنهم قتلوا وأسروا من
أعدائهم ، وتركوا نساءهم متفجعات يلطمن الحدود ، وهو في سبيل تقرير الحقيقة
الواقعة لم يكتف عن المرأة ما يستثير إشفاقها على بنات حواء :

سلي عنا الفزاريين لما شَفَيْنَا من فوارسها الكبودا
وخلَّينا نساءهم حيارى قَبِيلُ الصبح يلطمن الحدودا (٥)

(١) ديوان عنتره ١٥٠ . (٢) ديوان عنتره ٥٧ .

(٣) ديوان عنتره ٥٣ . (٤) الديوان ٥٧ . (٥) الديوان ٥٦ .

ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيته :
 فلو علمت سُليْمى علم مثلى غداة الروعِ واصلت الكراما (١)
 ويقول لها إنك لو رأيت قومك في الحرب لنعمت عينك .
 وإنك لو رأيت أميم قومي غداة قراقرٍ لنعمت عينا (٢)
 ويحضها على أن تسأل عن بلائه يوم انتصروا على عبس وأسروا هند حبيبة
 عنتره :

هلا سألت بنا وأنت حفيّةُ بالقاع يوم تورّعت هند (٣)
 وإذا ما عاد من جربه تشوق إلى إعجاب زوجته به ، وسؤالها الصناديد عن
 إقدامه ، قال في يوم فيف الريح يخاطب زوجته إنها طالق إن لم تسأل الشجعان
 عن بلاء زوجها :

طلّقت إن لم تسألنى فارس حليلك إذ لاقى صداء وخمعا
 أكرُّ عليهم دعلجاً ولبائهُ إذا ما اشتكا وقع الرماح تحمحا (٤)
 وود سوّار بن المضرب أن تسأل سلمى سراة الحى عنه من موالين وأعداء
 لتعلم أنه كريم شجاع إذا لم يحن فإنه نصير للجنة :

ولو سألت سراة الحى عنى على أنى تلوّف بي زمانى
 لنبأها ذوو أحساب قومي وأعدائى فكلُّ قد بلانى
 بدفى الذمّ عن حسبي بمالى وزبونات أشوس تيجان
 وإنى لا أزال أها حفاظ إذا لم أجبن كنت مجنّ جان (٥)

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهي جازعة مخافة السبي باعثاً أى باعث على بطولة
 تحقق النصر ؛ فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيته ليس تجرى كاشفة عن محاسنها

(١) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

(٢) ملحق الديوان ٢٢

(٣) الديوان القصيدة ٣ (٤) ديوان عامر بن الطفيل الملحق ١٩

(٥) الأصمعيات وليم البروسى ٧٣/١ : زبونات : دفعات . أشوس : حصان ينظر
 بمؤخر عينيه غيظاً أو تكبراً ، تيجان : فرس يعترض فى مشيه ويميل على قطريه .

هلعاً وذعراً ، ونساء قومه يجرين ، فهجم على رئيس الأعداء فقتله ، وكسب النصر ، وصور ذلك في قوله :

لما	رأيت	نساءنا	يفحصن بالمعزاء شداً
وبدت	لميس	كأنها	بدر السماء إذا تبدى
وبدت	محاسنها	التي	تخفى وكان الأمر جداً
نازلت	كبشهم	ولم	أر من نزال الكبش بدا ^(١)

وقد عير عامر بن الطفيل عنترة أنه فر من الموقعة وترك عبلة سبية ، فهو يفخر بالقلب ويعير بترك المرأة :

ونجا بعنترة الأغر من الردى	يهوى على عجل هوى الأجل
وتركت عبلة في السواء لفيتية	باتوا على كتف الخيول الجول
راحوا بهند والوجهية عنوة	يوم الوقاع على نجائب ذمل ^(٢)

وليس في حياة عنترة حسرة كهذه الحسرة التي يصور بها ألمه من سبي عبلة :
 فالقتل لي من بعد عبلة راحة^٣ والعيش بعد فراقها منكود
 يا عبل قد دنت المنية فاندبى إن كان جفئك بالدموع يجود
 يا عبل إن تبكى على فقد بكى صرف الزمان على وهو حسود
 لهفى عليك إذا بقيت سبية^٤ تدعين عنتر وهو عنك بعيد^(٣)
 وهذا خفاف بن ندبة يباهى بأنه زعيم المنسر الجرى :

يا هند يا أخت بنى الصّادر	ما أنا بالباق ولا الخالد
إن أمسر لا أملك شيئاً فقد	أملك أمر المنسر الحارد

ثم واصل نخره بحصانه^(٤) .

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى ٩٢/١ . المعزاء : الأرض الصلبة . يفحصن : يوثرن من شدة الجرى . لميس : اسم حبيته ، وقد برزت كاشفة عن وجهها تشبهاً بالأمة لتأمن السبي أو رعباً .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ١٧ . الأجل : الصقر . نجائب ذمل : نوق سريعة

(٣) ديوان عنترة ٦٤ . (٤) الأصمعيات من مجموعة وليم بن الورد البروسى ٣٥/١ .

ولقد يضطر المحارب الشجاع إلى الفرار . فلا يأبه بأحد من الناس إلا حبيته
يكشف لها عن عذره ، قال تميم بن أسد الخزاعي :

الله يعلم ما تركت قتالهم عن طيب نفس فأسألي أصحابي^(١)
وفصل أوس بن حجر عذره ، وإن كان في تفصيله إشادة بشجاعة أعدائه
بنى عبس وحلفائهم ودافع عن نفسه بأنه مشهور الإقدام فلا معرفة من فراره اليوم :
أجاعة أم الحصين خزاية على فرارى إذ لقيت بنى عبس ؟
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى إذا جربت منه الشجاعة بالأمس^(٢)
وكما أشهد الشاعر الحبيبة على شجاعته وقوته أشهدا على وفائه بالعهد ، وقناعته
عند الغنيمه ، وكرمه ، وبطولته إلخ . قال الحادرة :

أُسميَّ ويحك هل سمعت بغيردٍ رُفِعَ اللواءُ لنا بها في جمع ؟
إنا نَعفُ فلا نُزيب حليفنا ونكفُ شحَّ نفوسنا في المطمع
ونقي بآمن مالنا أحسابنا ونُجِرُّ في الهيجا الرماح ونُدعى^(٣)

وأشهدا على كرمه ، وشجاعته ، قال عروة بن الورد :

وقد علمت سليمي أن رأيي ورأيَ البخل مختلف شتيتُ
وأني لا يُريني البخل رأيي سواء إن عَطِشت وإن رَويتُ
وأني حين تشتجر العوالى حوالى اللبِّ ذو رأي زميتُ^(٤)

(١) حماسة البحتري ٦٧

(٢) ديوان أوس بن حجر ٧ وحماسة البحتري ٥٢ وفي العقد الفريد أنها لعمر بن معد

يسكرب مع بعض تغيير ١ / ١٧٢

(٣) ديوان الحادرة ٧ والفضليات ٤٣/١ وحماسة البحتري ٢١٦ الحارة : لقب قطبة

ابن محسن . رفع اللواء : كانوا في الجماهلية إذا غدر الرجل رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا
به . لا نزيب : لا نغدر . آمن المال : خالصه وشريفه . نجر : نطعن العدو ونترك الرمح فيه
ندعى : نتنسب . لأن الطاعن أو الضارب كان يقول : خذها وأنا ابن فلان أو : وأنا الفلاني
ليعرف .

(٤) ديوان عروة بن الورد . زميت : وقور .

وإذا لم يشهداها على محامده فإنه يحدثها بهذه المحامد ليجتنبها ، وهذا كثير أيضاً في الشعر الجاهلي .

على أنه يستمد من حبها شجاعة خارقة . ولا سيما إذا شهدته يصارع أو يحارب فيغلب وهي تراه ، وقد يغلب إن لم تره ، من ذلك أن توبة خرج إلى الشام فر بنى عذرة فرأته بثينة ، فجعلت تنظر إليه ، فسق ذلك على جميل ولم يكن قد أظهر لها حبه — فقال له جميل : من أنت ؟ قال أنا توبة بن الحمير ، قال : هل لك في الصراع قال : ذلك إليك ، فشدت بثينة على جميل حلة موروثة فآثر بها ، ثم تصارعا فصرع جميل توبة ، ثم تناضلا ففضل جميل توبة ، ثم تسابعا فسبق جميل توبة ، ثم قال له توبة : يا هذا ، إنما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة ، ولكن اهبط بنا الوادي ، فهبطا وتصارعا فصرع توبة جيلا ، ونضله ، وسبقه ^(١) .

كان الحب إذاً فحولة ودافعاً إلى المجد ، وهكذا فهمه العرب ومن هنا تجدوا به ، بل إن الحجاج في العصر الإسلامي وهو المشهور بجده وبطشه كان رقيقاً كل الرقة في معاملة نسائه . قال له عنيسة بن سعيد : يُفدّي الأمير أهله ؟ قال : والله إن تعدوني إلا شيطانا ، والله لربما رأيتني أقبل رجل إحداهن ^(٢) . ولكن لم نجد عربياً محباً اندفع في حبه إلى ما يقعد به عن المجد أو ما يصمه بين الرجال ، في حين نجد أن الإمبراطور قسطنطين constantin في أوائل القرن الرابع الميلادي ينصاع لعشيقته فيقدم على فعلة شنيعة لا يفعلها أب ، فيقتل ابنه كريستوس خضوعاً لرغبة حظية فاجرة كانت تستفيد من قتله ^(٣) وقد يقال في الدفاع عنه إنه كان مسيحياً صورة للاحقيقة ، ولكن هذا لا يبرئه من الجرم الشاذ ولا يخفف عنه اللوم ؛ لأن العرب كانوا وثنيين ولكن لم يستخز عربى في حبه .

(ب) قوة حب الرجل لها

(١) كانت المرأة المحبوبة ذات تأثير عميق في قلب الرجل ، يحبها ما وسعه الحب ، قال سويد بن أبي كاهل :

(١) الأغاني ١٠ / ٧٦

(٢) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١٦٥

بَسَطَتْ رَابِعَةً الْحَبْلَ لَنَا فَبَسَطْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ^(١)
وَكُلَّهِمْ لَمْ يَرْضَهُمْ إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ الْحَبْلَ بِجَذْوَرِهِ فِي أَعْمَاقِهِمْ فَاصْطَنَعُوا لَهُ مَا يَقْوِيهِ ،
فَكَانَ مِنْ خِرَافَتِهِمْ أَنْ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ إِذَا تَحَابَا وَلَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِمَا رِءَاءُهُ وَتَشُقَّ عَلَيْهِ
بَرْقَعُهُمَا فَسَدَ حُبُّهُمَا^(٢) وَقِيلَ إِنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِيَتَذَكَّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
صَاحِبَهُ ، وَقَالَ الْعَيْنِيُّ : كَانَتْ عَادَتُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَلْبَسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ
رُءْدَ الْآخَرِ ثُمَّ يَتَدَاوِلَانِ عَلَى تَمْزِيْقِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ لُبْسٌ طَلِبًا لَتَأْكِيدِ الْمَحَبَّةِ^(٣) .
يَقُولُ سَحِيمُ عَبْدِ بَنِي الْحُسَيْنِ إِنَّهُ كَانَ يَشُقُّ رِءَاءَهُ وَإِنْ حَبِيبَتُهُ كَانَتْ تَشُقُّ
بَرْقَعَهُمَا إِبْقَاءً عَلَى الْحَبْلِ . وَمِنْ شَأْنِ الْحَبْلِ أَنْ يَنْخَدِعَ بِهِذِهِ الْوَسَاوِسُ :

فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِءَاءٍ مُحَبَّرٍ عَلَى طِفْلَةٍ مَمْكُورَةٍ غَيْرِ عَانِسٍ
إِذَا شُقَّ رُءْدُ شَقِّ بِالْبَرْدِ بَرْقَعٍ دَوَّالِيكَ حَتَّى كَلْنَا غَيْرَ لَابِسٍ
زُومَ بِهَذَا الْفَعْلِ بُقْيَا عَلَى الْهَوَى

وَالْفُ الْهَوَى يُغَرِّى بِهِذَى الْوَسَاوِسِ^(٤)

وَعَجِبَ شَاعِرُ آخِرِ مَنْ فَتَوَّرَ الْحَبْلَ وَزَوَّالَهُ بَعْدَ مَا شُقَّ بَرْقَعُ حَبِيبَتِهِ وَشَقَّتْ رِءَاءُهُ :
شَقَقْتُ رِدَائِي يَوْمَ بُرُقَّةٍ عَاجِلٍ وَأَمَكْبَتِي مِنْ شَقِّ بَرْقَعِكَ السَّحْقَا
فَا بَالُ هَذَا الْوَدِّ يَفْسُدُ بَيْنَنَا وَيَحْقُقُ حَبْلُ الْوَصْلِ مَا بَيْنَنَا مُحَقَّقًا^(٥)

(ب) أَحَبُّ الرَّجُلِ الْمَرْأَةَ حَبًّا قَوِيًّا جَارِفًا ، ذَهَبَ بِعَقْلِهِ ، حَتَّى لَقِيَ آثَرَ الْمَوْتِ
عَلَى حَبِّهِ الْيَائِسِ الَّذِي لَا يَبْرَحُ ، قَالَ طَرْفَةُ :

وَقَدْ ذَهَبَتْ سَلْمَى بِعَقْلِكَ كُلِّهِ فَهَلْ غَيْرُ صَيِّدٍ أَحْرَزْتَهُ حَبَائِلُهُ
لِعَمْرِي لَمَوْتٌ لَا عَقُوبَةَ بَعْدَهُ لِذِي الْبَثِّ أَشْفَى مِنْ هَوًى لَا زَائِلَهُ^(٦)

وَهُوَ نَفْسُهُ يَشْكُو لِصَاحِبِيهِ هَمَّهُ ، وَيَرْجُوهَا أَنْ يَصِفَا لِحَوْلَةِ سَهْدِهِ :

(١) المفضليات ١ / ١٩٠

(٢) المستطرف للأبشي ٢ / ٧٢

(٣) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣٨١

(٤) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣٨٢ وديوان سحيم ١٩

(٥) السحق : الرقيق (٦) ديوان طرفه ١١٨

يا حليلى قفا أخبركما بأحاديث تَغَشَّتني وَهَمٌ
وابلغا خولة أتى أرقُ لا أنام الليل من غير سَدَم
كلما نام خلى بالله بتُ اللهم نَجِيًّا لم أنم
منع التغميضَ جفنى ذكرُها فهي همى وحديثى والسَّقم^(١)

وكذلك صور معن بن أوس حبه بأنه خيال وسقم لا نظيره^(٢) ومثله لبيد^(٣) .
واشتد بالمرار بن منقذ حبه حتى حار أحى هو أم ميت ، وصور الناس حارَّين
في أمره يتساءلون أحموم هو أم مسلول ؟ ثم قال إن حبيبته داؤه ودواؤه ، ولكنها
ضنت عليه بالدواء ، وإنه قتييل غرامها ، فلو أن إخوته قتلوها ثأراً له ما أخطئوا
واترهم ، على أنه مع ذلك لن ينساها :

تركتنى لست بالحي ولا ميتٍ لاقى وفاةً فقبرُ
يسأل الناسُ أحمى داؤه أم به كان سَلالٌ مُستَسِرٌ
وهى دائى ، وشفائى عندها مَنَعَتْهُ فهو مَلوئى عَيسِر
وهى لو يقتلها بى إخوتى أدرك الطالب منهم وظِيفر
ما أنا الدهرَ بناسٍ ذكرها ماغدت ورقاءُ تدعوساق حُر^(٤)

وكذلك صور الحب بالحمى عبدة بن الطبيب لأنه يرعده ويعاوده^(٥) . أما المرقش
الأكبر فقد تخيل أنه الحب الوحيد الذى يميت حبه ، يقول لحبيبته : إذا سمعت بأن
حبيباً قد مات أو أشرف على الموت فتقى أننى هذا الحب الشهيد ، وابكى لمن أسره
حيك ولم يقبل منه فدية :

وإذا ما سمعت من نحو أرض يحجب قد مات أو قيل كادا

(١) ديوان طرفة ١٤٧ سدم : هم أو هم مع ندم أو غيظ مع حزن .

(٢) ديوان معن بن أوس ٣ (٣) ديوان لبيد ١٧

(٤) المفضليات ١ / ٩١ سلال : سمل . مستسر : باطن . ملوى : ممطول . ساق

حر : ذكر الحمام القمارى ، سمى بذلك أخذاً من صوته ويسمى صوته أيضاً (ساق حر) اللسان

(٥) المفضليات ١ / ١٣٣ ٣٦ / ١٢

٧ فاعلمى غير علم شك بآنى ذاك وابكى لمصفد أن يفادى^(١)

(ح) وإذا ما ذكرها دارت به الأرض . قال المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها على أن ذكررة إذا خطرت دارت به الأرض قائماً^(٢)

وقال حسان إن ذكرها يفقده رشاده كأنه مخمور :

وكلت قلبى بذكرتها فلهوى لى فادح غالب

وكأنى حين أذكرها من مُمَيّا قهوة شارب^(٣)

٤ - والمحب لهذا تواق إلى أن يدوم قربها ، ويتمنى ألا يرحل أهلها ، فإذا

ما كان رحيل دعا الله أن يرتحل قومه مع قومها ، قال قيس بن الخطيم :

والله ذى المسجد الحرام وما جليل من يمنة لها خنف

إنى لأهواك غير ذى كذب قد شف منى الأحشاء والشغف

ياليت أهلى وأهل أئمة فى دار قريب من حيث تختلف

يارب لا تبعدن ديار بنى عذرة حيث انصرفت وانصرفوا^(٤)

(هـ) وإذا ما ارتحلت لم يطق صبراً ، وود لو يلحق بها ، قال عنترة :

ألا هل ترى إن شط عنى مزارها وأزعجها عن أهلها الآن مزعج

فهل تبلغنى دارها شدة نية هملعة بين القفار همليج^(٥)

ومثل ذلك يتمنى علقمه^(٦) .

و - وحب الشاعر لحبيته حب إليه أرضها ، لأنها مقرها وموطنها ، فهو

يضىء حبه على ما حولها حتى الجماد . قال القتال السكلابى :

لعمرك إننى لأحب أرضاً بها (خرقاء) لو كانت تزار^(٧)

(١) المفضليات ٢ / ٢٣٢ أن يفادى : ألا يفادى . مصفد : مقيد أسير .

(٢) المفضليات ٢ / ٤٥ (٣) ديوان حسان ١٦

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ خنف : جمع خنيف وهو ثوب من كتان أبيض غليظ

(٥) ديوان عنترة ٣٢ شدنية : ناقة يمنية . هملعة : سريعة . همليج : تسرع وتنقاد .

(٦) شعراء النصرانية ٤٩٩ (٧) معجم البلدان ٢ / ١٤٠

وقال سَوَّار بن المضَرَّب إنه يحب عمان ، لأنها موطن سليمي ، ويحب ناحية اليمن ، لأن منزلها هناك :

أَحِبُّ عُثْمَانَ مِنْ حَبِي سَلِيمِي وما ظني بحب قري عُثْمَانَ ؟
علاقة عاشق وهوى متاحا فإنا والهوى متدانيان
فإنَّ هَوَايَ مَا عَلِمَتْ سَلِيمِي يمانٍ إنَّ منزلها يمانِي^(١)

(ز) وإذا ما أو مض برق من سمائها خفق قلبه وأرق ليله ، وإذا ما شم ريح الخزامى ذكره بنسيم بلادها ، قال عنتره :

إذا خفق البرق من حُبِّهم أَرَقْتُ وَبْتُ حَلِيفَ السَّهَادِ
وريح الخُزَامِي يذكِّرُ أنفي نسيمَ عَذَارَى وَذَاتِ الْأَيْدِي^(٢)

(ح) لكن حبه العنيف قد يفقده الرشد ، فيقدم على ما يهلكه أو يوقر بالضعف صدر حبيبته ، مثل ذلك أن خزيمة بن نهد علق بفاطمة بنت عامر الملقب ببذكر ، وتغزل فيها ، كقوله :

إذا الجوزاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظننتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظَّنُونَا
وحالت دون ذلك من هموي هموم تخرج الشَّجَنَ الدِّفِينَا
أرى ابنةَ يَذْكُرٍ ظَعَفَتْ فَخَلَّتْ جنوب الحَزْنِ ياشحطا مَبِينَا

وخطبها إلى أبيها فرفض أن يزوجه ، فقتله غيلة ، ثم قال :

فتاة كأن رضاب العصير فيها يُعَلُّ بِه الزَّجْجِيلُ
قتلت أباها على حُبِّها فتمبخل إنَّ بُحَّيَّتْ أَوْ تَنْيِلُ^(٣)

(ط) ويلج الحب بالشاعر ، فيهيجه الحمام الذي ينوح على إلفه ، ويشاركه الشاعر مشاركة وجدانية ، لأن بينها رابطة الألم والحرمان من الحبيب .

(١) الأصمعيات لوليم البروسي ٧٢ / ١

(٢) ديوان عنتره ٥٢ الخزامى : نبت زهره أطيّب الأزهار ، عذارى وذات الأيدي ؛

(٣) الأغاني ١١ / ١٥٤

موضعان ،

قال عنتره :

وما شاق قلبي في الدجى غير طائر
به مثل ما بى فهو يخفى من الجوى
فيا الله يا ريح الحجاز تنفسى
وقال الأعشى :

ويوم الخُرْج من قَرْماء هاجت
وقال المرار الفقعسى :

تصيح إذا هجعت بدير توما
إذا ما صَحْنٌ قلت أحس صباحا
حمامات يزدن الليل طولا
وقد غادرن لى ليلا ثقيلا^(٣)

وعلى هذا التجاوب بين الشاعر الحب والحمام النائح قال الشاعر فيما بعد العصر
الجاهلى :

رب ورقاء هتوف فى الصخا
ذكرت إلفا وعيشا سالفا
فبكأى ربما أرقها
ولقد تشكو فما أفهمها
غير أنى بالجوى أعرفها
أتراها بالبكا مولعة
ذات شجو صدحت فى فن
وبكت جزنا فهاجت حزنى
وبكها ربما أرقنى
ولقد أشكو فما تفهمنى
وهى أيضاً بالجوى تعرفنى
أم سقاها البين ما جرعى ؟

وهو يمتاز من شعراء العصر الجاهلى ببسطة القول وتوليد المعانى وقوة المشاركة
الوجدانية بينه وبين الحمامة .

(ح) الوشاة

يأبى بعض الناس إلا أن يرقنوا على الحب صفوه ، غيرة منه أو حسداً له ،
فيجدون فى الواقعة بينه وبين حبيبته ، وهم أعداء الحب وأعداء المحبوبة . لذا أكثر

(١) ديوان عنتره ٦٥

(٢) ديوان الأعشى ١٣٤

(٣) معجم البلدان ٤ / ١٢٩

الشعراء من التبرم بهم ، وإن كان ذو الإصبع العدواني قد غاظهم هو وحبيته بتبهمهم وتكذيبهم ، والثبات على صفاء غير مشوب :

فقد غَنِينَا وشملُ الدارِ يجمعنا أطِيع رِيًّا ورِيًّا لا تعاصيني
نرمي الوُشَاةَ فلا نُخْطِى مقاتلهم بخالص من صفاء الود مكنون^(١)

ولكن حبيبة قيس بن الحداية صدقت الواشى لأنه بارع في اختلاقه ، فسكت ، فدعا عليه قيس أن يبكيه الله حتى يحف دمه . وأكده لحبيته أنه لم يطلع أحداً على ما بينه وبينها :

بكت من حديث بثه وأشاعه ورصَّعه واش من القوم راصع
بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا ولا تتخالجك الأمور النوازع
فلا يسمعن سرى وسرك ثالث ألا كل سرٍّ جاوز اثنين شائع
وكيف يشيع السرُّ منى ودونه حجاب ومن دون الحجاب الأضالع^(٢)

وكذلك فعلت قتيلة محبوبة الأعشى ، فقد أخلفت مواعده ولم يكن الخلف من شيمتها ، وهو لا يشك في أن الوشاة هم الذين غيروها :

أخْلَقْتَنِي به قُتَيْلَةٌ مِيعَا دى وكانت للوعد غير كذوب
كنت أوصيتها بالألا تطيعي في قول الوُشَاةِ والتخيب^(٣)

وقطعت شعناء محبوبة حسان ما كان بينهما من حب لأنها استمعت إلى الوشاة :

قد أدرك الواشون ما حاولوا فالحبلُ من شعناء رث رهام^(٤)

وكذلك هجرت حاتما حبيته متأثرة بالوشاة^(٥)

لكن الأعشى لم يصدق الوشاة فعصاهم وسعى إلى من يحبها :

ومثلك خَوْدٍ بادن قد طلبتها وساعيت مَعْصِيًّا إليها وشاتها^(٦)

(٢) الأغاني ١٣ / ٦

(١) الأغاني ٣ / ١٠٤ والأمل ١ / ٢٥٥

(٣) ديوان الأعشى ٢١٩ وشعراء النصرانية ٣٧٤

(٤) ديوان حسان ١٠٠ رهام : ضعيف

(٦) لسان العرب ١٩ / ١٠٩

(٥) ديوان حاتم ١٢

أما حاجب بن حبيب الأسدي فقد صدقهم وهجر^(١) .

واحترق عمرو بن حزام بالوشاية والواشين فقد وشى به واشيان فأياهما من أن ينالا منه أو من عفراء ، وغازهما بأن حبا قد هزله وقرح كبده وأبكى عينيه ، فهما يريدان أن يزول حبه فأكد لهما أنه لن يزول ، ثم زادهما غيظا بأن لعن الوشاة وفضولهم ، وترنيقهم على المحبين ، وعجب من ترصد الوشاة له واهتمامهم إليه من بعيد :

وما وإلى من جئنا تَشِيان ؟	فيا واشيَّ عفراءَ ويحكما بمنْ
ومن لو رآني غائباً لفداني	بمن لو أراه غائباً لفديته
جديداً وبرداً يُمنِّة زهَيَّانِي	أغرَّ كما مني قميصٌ لبسته
بِالضَّرِّ من عفراء يا فتیان	متى تَكشِفَا عني القميص تبَيَّنَا
بَلِينٍ وقلباً دائم الرَّجَفَانِ	إذن تريا لحماً قليلاً وأعظما
وعيناي من وجدى بها تكيفان	على كبدي من حب عفراء قُرْحَةً
فلانة أضحت خلةً لفلان	ألا لعن الله الوشاة وقولهم
تواشوا بنا حتى أملَّ مكاني	إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه
ولو كان واشٍ واحدٌ لكفاني	تكنفني الواشون من كل جانب
أحاذره من شؤمه لأتاني ^(٢)	ولو كان واش باليمامة أرضه

(د) العذال

يقول أبو بكر محمد بن داود الظاهري :

« يبتلى المحب بمن يلوم في حبه ، ويريد أن يثنيه عن حبه ، فإن كان حبه مكيئاً ارتد عنه العازل خاسئاً وهو حسير ، ويتوهم بعض المحبين أن العزل زادهم تشبهاً بالمحبوب ، والحق إنه لم يزدهم شيئاً ، وإنما أثار العذل في نفوسهم إشفاقاً على

(١) الفضليات ٢ / ١٧٠

(٢) تزئين الأسواق ٧٧ والنوادر ١٦٠

من عوتبوا في محبته ، فيخافون أن يتأثروا بالعدل ، فيقاوموا ويتشبثوا بالمحجوب^(١)»
 لكن العزل لا يثير الإشفاق فحسب ، بل قد يزيد الحب ؛ لأن النفس مولعة
 بالعناد ، وهذا العناد يضخم محاسن المحجوب ويحسمها ، ويعظم من قيمة الوفاء
 في نظر المحب .

قال المزد بن متقذ إن عواذله ملئن نصحه ، ولم يزايله حب سلمى إلا
 بعد المشيب :

صحا القلب عن سلمى وملّ العواذل وما كاد لأياً حب سلمى يُزِيل
 فؤادي حتى طار غي شيبتي

وحتى علا وخط من الشيب شامل^(٢)
 ووجد القتال الكلبي أن السلامة والراحة في أن يقلل صاحبا من لومه ،
 فإنه لا يعذل أحدا فلا يحب أن يعذله أحد ، ورجاها أن يستجيبا من عذله :
 يا صاحبي أقلّ بعض إملالي لا تعذلاني فاني غير عذّال
 واستجيبا أن تلوما أو ألومكما إن الحياء جميل أيما حال^(٣)
 أما سوّار بن المضرب فقد جبه عاذلتيه بأنه لا يطيعهما ، وطلب منهما أن
 تكفا عن عذله لأنه لا جدوى فيه وإنما الجدوى أن تعللاه بذكر حبيته :

أعاذلتني في سلمى دعاني فإني لا أطاوع من نهاني
 ولو أني أطيعكما بسلمى لكنت كبعض من لا تُرشدان
 دعاني من أذاثكما ولكن بذكر المذحجيّة عللاني^(٤)

(١) الزهرة لابن داود الظاهري ٣٢٥

(٢) الفضليات ٩١/١ لأيا : بعد جهد ومشقة . فؤادي مفعول يزايل . وخط الشيب : انتشاره في الرأس .

(٣) معجم البلدان ٢ / ١٤٠

(٤) الأصمعيات . وليم البروسي ١ / ٧٣

(هـ) كتمان الحب

١ — أماذا يكتبكم الحب حبه ؟

هؤلاء وشاة يسعون بين الحب وحببيته ، وهؤلاء عذال يلومونه أو يلومونها ، فالخير له ولها أن يكتبكم حبه عنهم ، ولكن هل يستطيع أن يكتبكم ؟ إن دلائل الحب لا تخفى ، وإن نظراته وإشاراته تم عليه .

يقول ابن حزم « وللمحب علامات يقفوها الفطن ، أولها إدمان النظر ، والعين باب النفس ، تنقب عن سرائها ، وتعبّر عن ضمائرها ، وتعرب عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بازوائه ، ويميل حيث مال ^(١) » .
لكنه لا يستطيع أن يكتبكم حبه عن أحبها ؛ لأن الكتمان « جبن قد يودى بالمحب الكتوم ^(٢) » . بل لأن الحب كما يقول توماس ديكر T. Dekker : مثل السن لا يمكن إخفاؤه ^(٣) .

٢ — مظاهر كتمان المحبين لبعضهم

لهذا أقسم عمرو بن حزام أنه لم يكشف لصديق عن سره ، لكنه قال له يوما — وهما على ناقتهما — مالي أصبر على زفرات الضحا ولا أصبر على زفرات الليل ؟ :

فوالله ما حدثتُ سركُ صاحباً	أخألى ولا فاهتُ به الشفقتان
سيوى أنى قد قلت يوماً لصاحبى	ضحاً وقُلوصانا بنا تخدان
تحملت زفرات الضحا فأطقتها	ومالى بزفرات العشى يدان ^(٤)

(١) طوق الحمامة لابن حزم ١٠

(٢) الزهرة لابن داود الظاهري ٥١

(٣) Benhams New book of Quotations. P. 108

(٤) النوادر لأبي على القالى ١٦٠ وتزيين الأسواق . داود الأنطاكي ٧٨

وعنترة معجب بتجلده وكتمانه والتليس على عداله وأعدائه :

إذا لعب الغرام بكل حُرٍّ حمدت تجلدى وشكرت صبرى
وفضلت البعاد على التدانى وأخفيت الهوى وكتمت سرى
ولا أبقي لعدالى مجالا ولا أشفى العدو بهتك سترى^(١)
ويكرر ذلك^(٢) .

ولقد يتسلل الواشى أو العاذل إلى الشاعر بأنه مخلص أمين ، يريد أن ييوح
له بسرّه ، فيرده المسئول حيران لا يدرى شيئاً ، قال جابر بن المعلب الطائى :
وَمُسْتَخِيرٍ عَنْ سِرٍّ لَيْلِي رَدَدْتَهُ بَعْمِيَاءَ عَمَّا سَالَ غَيْرَ يَقِينِ
فَقَالَ انْتَصِرْ حَنِي إِنْ نِي لَكَ نَاصِح وَمَا أَنَا إِنْ نَبَأَتْهُ بِأَمِينِ
وَقَدْ عَلِمْتُ رِيًّا عَلَى النَّأْيِ أَنُنِي لِمُسْتَوْدَعِ الْأَسْرَارِ غَيْرَ خُنُونِ^(٣)
وكتّم عطار د بن مَرَّان حبه وإن دمت عيناها^(٤) .

٣ - لكن المحب كثيراً ما يعجز عن الكتمان . وكيف يكتم عاطفة غلاية
لا طاقة له باحتباسها أو إخفاء مظاهرها ؟

يقول عنترة إنه عاجز عن كتمان حب تنطق آثاره :

وهيئات يُخْفِي مَا أَكِنُّ مِنَ الْهَوَى وَثُوبَ سَقَامِي كُلَّ يَوْمٍ يُجَدِّدُ
أَقَاتِلْ أَشْوَاقِي بِصَبْرِي تَجْلِدَا وَقَلْبِي فِي قَيْدِ الْغَرَامِ مَقِيدِ^(٥)
ويقول مرة أخرى إنه كان يخفى حبها ، ولكنه الآن ييوح به :

وقد كنتَ تخفى حب سمراء حَقْبَةً فَبُحِّحْ لَأَنَّ مِنْهَا بِالَّذِي أَنْتَ بَاحٌ^(٦)

(١) ديوان عنترة ٨١

(٢) الديوان ٣٩

(٣) حماسة البحتري ٢٢٥

(٤) معجم البلدان ٢ / ١٨٩

(٥) ديوان عنترة ٧٤

(٦) ديوان عنترة ٤٢

(و) تبادل الحب

١ — الرجل العربي أهل لأن تحبه المرأة

تبين مما سبق أن العربي كان يتحلى بصفات نفسية تأخذ بمجامع قلب المرأة ، وكان فيه جمال أيضاً ، حتى لقد كان بعض الرجال يتعمم بمسكة كيلا تفتتن النساء بجماله ، منهم على سبيل التمثيل « حنظلة بن عثمان ، والحضر ، والزرقان ، وسبيع الطهوى ، وأعفر اليربوعي ، وقيس بن حسان بن عمر ، وزيد الخيل ، وعمر بن حممة وقيس بن سلمة ، وقيس بن الخطيم ، وامرؤ القيس بن حجر » ^(١) .

وقصة عمر بن الخطاب مع نصر بن سيار مشهورة ، وهى دليل على جمال بعض الرجال إلى درجة تخشى معها الفتنة ، فإذا كان الرجل قد أحب المرأة فإنها أيضاً قد أحبتة ، ومن الطبيعى أن ينفى كل منهما لصاحبه ، « لأن وفاء الإنسان لمن ينفى له فرض لازم وحق واجب على الحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خبيث المحمّد لاخلاق له » ^(٢) .

٢ — حبا له يسعده

ماذا يريد الحب غير الوصال ؟ إنه لا يريد غيره ، فإذا ما وصلتته حبيبته انتشى وطرب وسعد ، وصور سعادته فى تعبير جميل ، وإذا ما قلته وصدت عنه ابتسر واكتأب واسودت الحياة فى عينيه ، وضج بشعر باك حزين .

يقول بارنفيلد Barnfield : « إذا ما اقترن السرور بالحب كان نعيماً ، وإذا ما اقترن به الألم كان جحيماً » ^(٣) .

يقول الأعشى إنها كانت تواصله وتعصى عواذها :

إذ هي الهمُّ والحديث وإذ تعصى إلى مقالة العُدَّال ^(٤)

(١) الخبر لابن حبيب ٢٣٢

(٢) طوق الحمامة لابن حزم ٧٤

(٣) Benhams New Book of Quotations. P. 17

(٤) ديوان الأعشى ٥

ويقول طرفة إنها كانت تمنيه ، وتحقق ما تمنى :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى وإذ حبلى سلمى منك دانٍ تواصله
وإذ هي مثل الرّئم صيد غزاها لها نظرٌ ساجٍ إليك تواغله
غنيّنا وما نخشي التفرق حقة كلانا غير ناعم العيش باجله
ليالى أفتاد الصّبّا ويقودنى يحول بنا ريعانه ونجاوله (١)

وربما تعد وتنفى بوعدها ، قال الأعشى :

أخلفتنى به قُتَيْلَةٌ مِيعَا دى وكانت للوعد غير كذوب
كنت أوصيتها بألا تطيعى فى قول الوُشاة والتّخريب (٢)

وقد تحدث بعض الشعراء عن حب حبيباتهم لهم فى تصوير عابر عجلان ،
فسلامة بن جندل يقول إن الطلل لأسماء التى تهوى أن يواصلها :

لأسماء إذ تهوى وصالك ، إنها
كذى جُدَّةٍ من وحشٍ صارةٍ مُرَشَقٍ (٣)

وقيس بن الحداية اعترم الرحلة فبكت حبيبته ، واستحلفت أن يبين لها موعد
عودته ، فلما لم يستطع غضبت وتلثمت وبكت :

فقلت وعيناها تفيضان عَبرَةً بأهلى بَينٍ لى متى أنت راجع ؟
فقلت لها تالله يدرى مسافر إذا أضمرت الأرض ما الله صانع
فشدت على فيها اللثام وأعرضت وأمعن بالسكحل السحيق المدامع (٤)

ولما اعترم أهل الحارثية حبيبة سلامة بن جندل أن يرحلوا ، حزنت لأنها
لا تريد فراقه :

هاج المنازل رحلة المشتاق دَمْنٌ وآياتٌ لبثن بواق

(١) ديوان طرفه ٣٨ تواغله : تسارقه . باجل : حسن

(٢) شعراء النصرانية ٣٧٤ ومعجم البلدان ٣ / ٤٣٦ وديوان الأعشى ٢١٩

(٣) ديوان سلامة بن جندل ١٦ . المرشق : الظبية التى تمد عنقها لتنظر .

(٤) الأغاني ١٣ / ٧

للحارثية قبل أن تنأى النوى بهم وإذا هي لا تريد فراق^(١)
وعبلة وعدت عنثرة أن يلقاها غداً بمنعرج اللوى^(٢) .
وقد قص بشامة بن عمرو ما حدث إذ ارتحل ، وصور حبيبته تسائله وتألّم من
رحلته وتبكي :

هَجَرْتُ أَمَامَةَ هَجَرًا طَوِيلًا وَحَمَلْتُ النَّأْيُ عِبْنًا ثَقِيلًا
وَحَمَلْتُ مِنْهَا عَلَى نَائِيهَا خِيَالًا يَوَافِي وَنَيْلًا قَلِيلًا
وَنَظْرَةَ ذِي شَجَرٍ وَامِقٍ إِذَا مَا الرَّاكِبُ جَاوَزَ مِيلًا
أَتَيْنَا تَسَائِلَ مَا بَثْنَا فَقَلْنَا لَهَا : قَدْ عَزَمْنَا الرِّحِيلَا
فَبَادَرَتَاهَا بِمُسْتَعْجَلٍ مِنَ الدَّمْعِ يَنْضَحُ خُدا أُسَيْلَا^(٣)

والمرأة هي المرأة ، تحب فتبتدع الحيلة ، وتخترع الوسيلة ، حيلة تخفى ، ووسيلة
لا تنكشف إلا للحبيب ، فقد تمارضت حبيبة عنثرة ليزورها ، فزارها فأسقمتها
نظراتها الساحرة :

شَكَتْ سَقَمًا كَيْمَا تَعَادُ وَمَا بِهَا سِوَى فِتْرَةِ الْعَيْنَيْنِ سَقَمٌ لَعَائِدُ^(٤)

ولقد يصطبغ حبها بصبغة أخرى فتبين آثاره ولا يبين ، كأن تحرص على سلامة
الحبيب ، فتخاف عليه من الغارة أن يقتل فتحرم منه ، ولكنه يعصها ويفامر ،
قال عنثرة :

بَكَرْتُ تَخَوِّفُنِي الْخُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْخُتُوفِ بِمَعْزَلٍ
فَأَجَبْتُهَا إِنْ الْمَيِّتَةَ مَنَهَلْتُ لَا بَدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهْلِ^(٥)

وقد يقال إن هذا تخيل من الشاعر يريد أن يطرّق منه إلى الفخر بشجاعته ،
وأنا لا أنكر ذلك ، ولكنه على الحالين تصوير لإشفاق الحبيبة على حبيبها سواء

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ (٢) ديوان عنثرة ٧٠

(٣) الفضليات ١ / ٥٤ : وامق : شديد الحب . ما بَثْنَا : ما حالنا . بادرتها : الضمير
عائد على عينيها ولم يسبق ذكرها . ينضح : يبذل . الحد الأسيل : اللين ، المستوى الدقيق .

(٤) ديوان عنثرة ٧٣ فترة العينين : فتور النظرات وسحرها .

(٥) ديوان عنثرة ١٢٠

أكان حقيقياً أم متخيلاً . وهذه قصة لا تخيل فيها ، فقد أغار رجل من همدان اسمه حريم على إبل وخيل لعمر بن براق ، وذهب بها ، فأتى عمرو امرأة كان يهواها فأخبرها بما حدث ، وأعلمها أنه يريد الغارة على حريم فقالت له : ويحك لا تتعرض لتلفاته فإنى أخافه عليك ، نخالفها ، وأغار عليه فاستاق كل شيء له . فأتاه حريم يطلب أن يرد عليه ما أخذ منه فقال : لا أفعل ، وأبى عليه فانصرف . وفى ذلك يقول عمرو بن براق :

تقول سليمان لا تعرّضْ لتلفَةٍ وليك عن ليل الصعاليك نائم
ثم افتخر بسيفه وشجاعته وقلة نومه ^(١) .

لكن تبادل الحب ليس قاعدة ، فقد يحب الرجل من لا تحبه ، وقد حاول أن يعمل ذلك ابن حزم فى قوله إن المحبة ربما لا تتساوى عند المتحابين « لأن بعض النفوس قد تكتنفها أعراض سائرة وحجب محيطية ، فلا تحس بالجزء الذى كان متصلاً بها قبل حلولها فى هذا الجسم ، ولو تخلصت لتساويا فى الاتصال والحب ، ونفس الحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاة جاذبة له ^(٢) » وهذا التعليل مشتق من نظريته التى تحدث عنها . ولكن الواقع أن المرأة ربما لا تجاوب الرجل حبه ؛ لأنه لا يحقق مثلها الأعلى أو لأنها مشغوفة بغيره ، أو لغير هذين من الأسباب ، والأعشى يصور هذه الحالة تصويراً لطيفاً فى قوله :

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلًا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل
وعُلِّقْتُهُ فَتَاةً مَا يَحَاوِلُهَا ومن بنى عمها مَيَّتٌ بِهَا وَهَلْ
وعُلِّقْتَنِي أُخَيْرَى مَا تَلَامُنِي فاجتمع الحب حباً كله تَبِيل
فكُنَّا مُغْرَمٌ يَهْدِي بِصَاحِبِهِ ناءٍ ودانٍ ومخبولٍ ومختبِل ^(٣)
وليس أقتل فى نظر المحبين من حب لا مبادلة فيه ، قال طرفة إن الموت

(١) الأغاني ٢١ / ١١٣

(٢) ديوان الأعشى ٤٣

(٣) طوق الحمامة ٧

— وهو أفسى عقوبة — أهون منه :

لعمري لموت لا عقوبة بمـده لدى البثّ أشقى من هوّى لا يزائله
فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نجبـه وجـداً عليها مرقش وعلّقتُ من سلمى خـبالاً أماطله^(١)
ولكن الشعراء الجاهليين ، أقلوا من تصوير الجبيديات مبادلات لهم حباً بحب ،
وأعتقد أن الذوق العربي كان ينفر من ذلك ، لأن العرب حراس على إظهار المرأة
بمظهر البخيلة المنمّعة البعيدة المنال ، وهم يحدون في تصويرها طالبة للرجل
أو متهاككة عليه غضاً من حياؤها وأنوثتها ، وإعجاباً من الرجل بنفسه لأنه يتغزل
في شخصه لاني حبيبتـه .

وإذا كان عمر بن أبي ربيعة قد أكثر من هذا نحو قوله :

قالت ليترّب لها تحدّثها كنفسِـدَنّ الطواف في عمر
قومي تصدّي له ليعرفنا ثم اغمز به يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثرى^(٢)
وكرر مثل ذلك^(٣) ، فقد كان خارجاً على الذوق العربي حتى في العصر
الإسلامي . ولذا استهجن كثير قوله : « ثم اسبطرت تسعى على أثرى » وفي رواية
أخرى : « ثم اسبطرت تشتد في أثرى » . وقال : « لقد أسأت وقت الهجر ،
ولو أنك وصفت بهذا هرة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء
والإباء والالتواء والبخل والامتناع^(٤) » .

وقال ابن عتيق لما أنشده أبياتاً منها :

قالت الصغرى وقد تيمّتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟
أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغي أن تقول : قلت لها فقالت

(١) ديوان طرفة ١٢٠ خيال : فساد عقل

(٢) الأغاني ١ / ١٠٣

(٣) الأغاني ١ / ١١٩ ، ٩٤ ، ٨٥

(٤) الأغاني ١١ / ١١

لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه^(١) .

(ز) الفراق : الهجر والرحلة

١ — لم يتألمون منه ؟

الفراق جسيم لا يطيقه الحب ، لأن القرب يحيمه ، سواء أ كان يسعد باللقاء أم يأمل أن يسعد ، بل إن القرب يندى حرارة قلبه وإن لم يأمل أن يلقى محبوبته ، ويكفيه أنه يحيا بقربها ، ويتنفس من الجو الذي تعطره بأنفاسها .

على أن « الفراق مستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق فى وصفه^(٢) » .

ولكن الحياة العربية كانت ذات نجمة وتنقل ، فكان فراق الحبيبة كثير الحدوث متوقعه ، وسأبين فى تأثر الغزل بالحياة البدوية أن هذا الترحال أوحى بنزل بالك متفجع .

« ورحيل الحب أو المحبوب من المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب عين كل جمود ، ويظهر مكنون الجوى . ولعمري لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع لكان معذوراً وإنها سامة ترق القلوب القاسية ، وتلين الأفتدة الغلاظ ، وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لها تكة حجاب القلب وموصلة إليه كثيراً من الجزع^(٣) » .

٢ — تشاؤمهم بنعيم الغراب :

وقد كرهوا الغراب ، وتشاءموا بنعيمه ، لأنهم اعتقدوا أنه ينذرهم بفراق الأحباب^(٤) ، وكيف لا وقد اشتقت من اسمه الغربية والاعتراب والغريب^(٥) ، واعتراب الأحباب^(٦) ، وقد فصلت ذلك فى كتاب آخر^(٧) . ويكفى هنا قول

(٢) الزهرة ١٩٢

(١) الأغاني ١ / ١١٩

(٣) طوق الحمامة ٨٥

(٥) الحيوان ٣ / ١٣٥

(٤) الحيوان للجاحظ ٣ / ١٣٦

(٦) ديوان حسان ١٢

(٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٧٩ — ٣٨١

عنترۃ إن الغراب الأبقع قد أنذرہ بین أحبائه ، وإنه غراب کرہ المنظر منسول
الريش مولع بتفريق الأحبة ، كأن فكیه مقص يقطع الأواصر :

ظعن الذين فراقهم أتوقعُ وجرى بينهم الغراب الأبقعُ
حرقُ الجِـنَاحِ كأن لحى رأسه جـالـمان ، بالأخبار هـشُّ مولع
فـزجـرتـه ألا يُفرِّخُ عـشـه أبداً ويصبح خائفاً يتفجع
إن الذين نعت لي بفراقهم هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا^(١)

٣ — تصوير ألهم من الرحلة :

وقد برع الشعراء في تصوير آلامهم من الرحلة ، وافتنوا في هذا التصوير .
قال سويد بن أبي كاهل إنها رحلت وقلبه مقيد معها ولن يرد :

بَكَرَتْ مُزْمِعَةً نِيَّتَهَا وحدا الحادى بها ثم اندفع
وكريمٌ عندها مُكْتَبِلٌ غَلِقُ إِثْرَ القَطِينِ التَّبَعِ^(٢)

وبشر بن أبي خازم يرى قوم الحبيبة مرتحلين ، وينظر ولكن يكذب نفسه
لأنه لا يريد أن يوقن برحلتهم ، فيسأل صاحبه أحقاً هم مرتحلون ؟ ويتابعهم
بنظره ودمعه القانى ، ولعله ساءل صاحبه أيضاً ليعمى عليه فلا يفتن إلى وجده
الذى يخفيه .

ألا بأن الخليطُ ولم يُزاروا وقلبك في الطعائن مستعار
أسائلُ صاحبي ولقد أراى بصيراً بالطعائن حيث ساروا
فلا يَأْ ما قَصَّرتُ الطرفَ عنهم بقانيةٍ وقد تَلَعَّ النهارُ^(٣)

(١) ديوان عنترۃ ١٠٣ الأبقع : الذى . فيه بقع . حرق الجناح : نسل شعره وتقطع
وصفه بهذا تطيراً به . لحياه : جانباً وجهه . الجلم : المقص الكبير . شبه منقاريه إذا نعب
بالجلمين لأنها يفرقان مثلهما . ألا يفرخ عشه : يصير وحيداً . فزجرتہ : تطيرت عليه .

(٢) المفضليات ١٩٤/١ مكبتل : موثق ومقيد ، يريد أن قلبه معها . غلق : ذاهب .
القطين : الأهل والخشم .

(٣) المفضليات ٢ / ١٣٨ الخليط : الأحباب . قانية : عين محمرة من الدمع ، وقد
فسرها شارحاً المفضليات بأنها ماء لبي سليم . تلغ النهار : ارتفع .

وكذلك تابع الحادرة ركب المحبوبة بنظره الذى لا يطرف^(١) .

وضور بعضهم الفراق أليماً حتى لقد تمنوا الموت قبل أن يصطلوا بناره . قال
قيس بن الحداية : إنه كان يؤثر أن يموت ذبحاً :

وإن الذى أملتُ من أم مالك أشاب قذالى واستهام فؤاديا
فليت المنايا صبححتنى غُدِيَّةً بذبح ولم أسمع لبَّينٍ مناديا
وقد أيقنتُ نفسى عشيةً فارقوا بأسفل وادى الروح أن لا تلاقيا
إذا ما طوَّكَّ الدهر يا أم مالك فشانُ المنايا القاضيات وشانِيا^(٢)
وجعله أوس بن حجر هلاكا .

وكان له الحَينَ المتاحُ حموها وكل امرئ رهناً بما قد تحملا^(٣)
وأيقن حسان بن ثابت لما رأى قوم الحبيبة يقوضون خيامهم بفرقة تشعل
رأسه شيئاً :

وأيقنتُ لما قوض الحى خيمهم بروعات بين يترك الرأس أشياء^(٤)
وجزع عروة بن حزام من البين ، وتمنى لو أن الغربان تأكله على أن تبقى
جنبيه ، يريد ألا تأكل قلبه لأن فيه عفراء :

ألا يا عُرابي دِمْنَةَ الدار يدينا أبا لهجر من عفراء تلتحبان ؟
فإن كان حقاً ما تقولان فاذهبا بلحيمي إلى وكرَيْكُما فكلاني
كلاني أكلاً لم يرَ الناسُ مثله ولا تهضبا جنبى وازدرداني
ولا تملسان الناس ما كان قصتي ولا يا كلسن الطير ما تذران^(٥)
وجعل ربيعة بن مقروم الفراق ذاهباً بعقله^(٦) .

(٢) الأغاني ١٣ / ٧

(١) المفضليات ١ / ٤٢

(٣) ديوان أوس بن حجر ٢٠

(٤) ديوان حسان ١٢ الخيم : الخيام .

(٥) النوادر ١٦٠ وتزيين الأسواق ٧٧

(٦) المفضليات ٢ / ١٣

وصور بشر بن أبي خازم عقله ذاهباً أيضاً :

فطللت من فرط الصبابة والهوى طرِفاً فؤادك مثل فعل الأيهم^(١)

ويصور امرؤ القيس حزنه وبكائه حين الفراق بقوله :

كأنى غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمّرات الحىّ ناقف حنظل^(٢)

٤ — تذرّع الحب بألمه حين الفراق لتثيله الحبيبة .

وإذا كان من خلق الحبيبة الاحتجاز والامتناع والدل فإن الحب يتذرّع إليها حين الفراق بشوقه ولطفته لعلها أن تثيله بعض الوصال .

قال المثقّب العبدى :

أفاطم قبل بينك متّعيني ومنعك ماسأت كأن تبيني

ولا تعدي مواعد كاذبات تمرُّ بها رياحُ الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي عنادك ما وصلتُ بها يميني

إذاً لقطعتهما ولقلت بيني كذلك أجتوى من يجتويني^(٣)

٥ — عاطفة الشاعر بعد الفراق .

(١) وتفارق الحبيبة حبيبها فلا يفتأ يذكرها ويحن إليها ، ويدعو لدارها

بالسقيما ، قال النابغة :

سقى دارَ سُعدى حيث حلت بها النوى

فأفعمَ منها كل رُبْعٍ وفدّ^(٤)

(١) الفضليات ٢ / ١٤٦ الأيهم : المجنون .

(٢) الديوان ١٢٤ سمّرات : شجرات من نوع يشبه السنط . ناقف حنظل : من يشق الحنظل بأسنانه فتدمع عيناه .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٨ ومنعك ما سألت كأن تبيني : بخلك بتمتعي يماثل الفراق . وشطر البيت في الطبقات كان (ومنعك ما سألتك أن تبيني) ولا معنى له . رياح الصيف : خصصها بالذكر لأنها تثير الغبار ولا تمطر . أجتوى : أكره .

(٤) ديوان النابغة ٥٠ ربع : منزل . فدّد : فلاة أو المكان الصلب الغليظ ، والمرقع والأرض المستوية .

(ب) ويكره المكان الذي نأته به ؛ لأنه مرتبط بذكري مرة ، قال عبيد :

وحنت قلوصى بعد وهن وهاجها مع الشوق يوماً بالحجاز وميض

فقلت لها لا تضجري إن منزلاً نأتى به هند إلى بغيض^(١)

(ح) ويستشرف من بعيد لعله يرى ناراً في ربعاها ليأنس برؤيتها ، كأنها جبل

يصل بينهما ، قال الصمة بن عبد الله القشيري :

نظرتُ وطرف العين يتبعُ الهوى بشرق بُصرى نظرةً المتناول

لأبصر ناراً أوقدت بعد هجمةٍ لرياً بذات الرمث من بطن حائل^(٢)

(د) يشيم البرق من ناحيتها .

ويتحسس مهب النسيم لعل نسمة تمر به حاملة شذى محبوبته ، ويشيم البرق

إذا أومض من ناحيتها . قال ضبعان بن عبّاد النخري :

ألا حبذا البرق اليماني وحبذا جنوبُ آتانا بالغَيْطِ نسيمها

هي المسك أو أشهى من المسك نشوة إذا هي اُشمتْ لو يُنال شميمها^(٣)

(هـ) يرتاح إلى ريح الصبا .

وهم جميعاً تهيج ذكراهم إذا ما هبت الصّبا ، فما الصبا ؟ ومن أين تهب ؟ ولم

أولعوا بها ؟ ولم اقترنت بذكري الحبيبة ؟

قال النويري : إنها ريح تهب من المشرق إلى المغرب . وسميت كذلك لأن

النفوس تصبو إليها ، لطيب نسيمها وروحها . والعرب تحبها لرقتها ، ولأنها تجيء

بالسحاب ، وفيها المطر والخصب^(٤) . ونقل عنه الألوسى تعريفه لها وسبب حب

العرب لها^(٥) ويظهر أنها اقترنت بذكري الحبيبة لأنها نوع من نسيم البحر يهب

على الصحراء بعد توهجها فيلطف الجو ، ويبعث في النفس نشاطاً وخفة فتصفو

من أوهاق الحر وضيقه ، وإذاً تنتعش النفس وينطلق الخيال ، وتوافد الأحلام

(١) ديوان عبيد القصيدة ١٠ قلوصى : ناقتي الفتية ، وهن : نصف الليل أو بعده بقليل

(٢) معجم البلدان ٢ / ٢١٨ (٣) معجم البلدان ٢ / ١٠٠

(٤) نهاية الأرب للنويري ١ / ٩٥

(٥) بلوغ الأرب للألوسى ٢ / ٣٧٣

والذكريات والأمانى ، وإن حملت الصبا مطراً تمنى الشاعر أن يوجد ديار المحبوبة لأنه الخير العظيم الذى يتمناه الحبيب لحبيبه ، ولأن نزوله يهيج الحب فيود أن تشترك معه في بهجته حببيته . قال طرفة فى هجاء عبد عمرو بن بشر بن مرثد :

فَأَنْتِ عَلَى الْأَعْلَى شِمَالٌ عَرِيَّةٌ شَامِيَةٌ تَرَوِى الْوَجُوهَ بَلِيلٌ
وَأَنْتِ عَلَى الْأَقْصَى صَبَاً غَيْرَ قَرَّةٍ تَذَابُ ، مِنْهَا مُرْزِغٌ وَمُسِيلٌ^(١)
فريح الشمال مكروهة لبرودتها وذهابها بالغيث والخصب ، وهى عندهم الشامية^(٢)
وريح الصبا محبوبة لأنها بشير الخير .

٣ — والمحب يستطيل الأيام وإن قصرت ، قال قيس بن الحداية :

وَحَسْبُكَ مِنْ نَأْيٍ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ وَمِنْ حَزَنِ أَنْ زَادَ شَوْقَكَ رَابِعٌ^(٣)

لذا يعنى نفسه شتى الأمانى ، فيرجو الحداية أن يلقاها يوم الدوار :

أَمْسَتْ مُسَمِّيَّةٌ صَرَّمَتْ حَبْلِي وَنَأْتُ وَخَالَفَ شَكْلَهَا شَكْلِي
وَرَجَاؤُهُمْ يَوْمَ الدَّوَارِ كَمَا يَرْجُو الْمُقَامِرُ نَيْلَةَ الْخِصْلِ^(٤)

وإذا ما هدل حمام أو رجع طير هاج شوقه وذكراه . قال عنتره :

وَمَا شَاقَ قَلْبِي فِي الدَّجَى غَيْرَ طَائِرٍ يَنْسُوحُ عَلَى غَصْنِ رَطِيبٍ مِنَ الرَّندِ
بِهِ مِثْلُ مَا بَى فَهُوَ يَخْفَى مِنَ الْجَوَى كَمِثْلِ الَّذِى أَخْفَى وَيَدَى الَّذِى أَبْدَى^(٥)
وكذلك يحتاج شوق الأعشى^(٦) .

(١) ديوان طرفة ٧٨ شمال عربية : ربيع من الشمال باردة . تروى الوجوه : تقبضها . بليل : باردة : تذاب : تجيء من هاهنا مرة ومن هاهنا مرة : مرزغ : قليل من المطر أو هو دون السيل .

(٣) الأغاني ١٣ / ٦

(٢) بلوغ الأرب ٣ / ٣٧٣

(٤) ديوان الحداية ١٤ يوم الدوار : يوم الطواف بالأصنام . نيلة الخصل : كما يرجو المقامر أن ينال الغلب ، لأن النيلة ما يناله الإنسان والحصل أن يقع السمهم بلزق القرطاس ، وأجرز نصله أى غلب . يشك الشاعر أو يبأس من لقاء الحبيبة يوم الدوار كما يشك لاعب القمار فى فوزه . وفى الديوان (نيل)

(٥) ديوان عنتره ٦٦

(٦) ديوان الأعشى وشعره النصرانية ٣٨٦

٣٦ — تجلد بعضهم عند الرحيل . ورحلة بعضهم للتسلي

على أن بعضهم يتجلد عند الرحيل فلا يبكي أنفة ، أو إخفاء لما به عن الناس
قال أوس بن حجر :

لا تحزني بالفراق فإني لا تسهل من الفراق شؤني^(١)
وقال عنترة إنه يدّرع بالصبر :

إذا رشقت قلبي سهام من الصد وبذلّ قربي حادث الدهر بالبعد
لبست لها درعا من الصبر مانعا ولاقيت جيش الشوق منفردا وحدي
وبت بطيف منك يا عبل قانعا ولو بات يسرى في الظلام على خدي^(٢)
وكذلك عزى نفسه وتجلد النابغة^(٣) والأعشى^(٤) .

وبعضهم يضرب في الأرض ليتسلى ويرى مناظر وأحوالا تنفس عنه . قال
بشامة بن عمرو :

وما كان أكثر ما نوّلت من القول إلا صفاحاً وقيلا
كأن النوى لم تكن أصقبت ولم تأت قوم أديم حلولا
فقرت للرحل غير آنة عذافرة عنتريساً ذمولا^(٥)
وصرح المسيب بن علس بأن الرحلة للتسلي :

فتسلى حاجتها إذا هي أعرضت بخميصه سرح اليمين وساع^(٦)
وصرح ليبيد بأن الرحلة كانت مسلاة له إذا هجر :

وكنّت إذا الهموم تحضرتني وصدت خلة بعد الوصال
صرمت جبالها وصددت عنها بناجية تجلّ عن الكلال^(٧)

(١) ديوان أوس بن حجر ٢٩

(٢) ديوان عنترة ٢٥

(٣) ديوان النابغة ٥٣

(٤) شعراء النصرانية ٣٧٠

(٥) المفضليات ١/٥٤ . صفاح : إعراض . عيرانة : ناقّة صلبة كالعير . عذافرة : شديدة .

عنتريس : جريئة قوية . ذمول : سريعة .

(٦) المفضليات ١/٥٩ وساع : واسعة السير . سرح اليمين : منسرجة الضبعين في المشي .

(٧) معجم البلدان ٢ / ١٤٨ خلة : حبيّة ناجية : ناقّة سريعة .

وكثير من الشعراء رحلوا للتساية كريمة بن مقروم^(١) والمثقب العبدى^(٢)
وبشر بن أبي خازم^(٣) والمرقش الأكبر^(٤).

٧ — رحلة بعضهم وراء المحبوبة .

ولم يطق بعضهم صبراً فرحل وراء المحبوبة ، يصور ذلك قول النابغة :
فلأيا بعد لأى أحقمتنى بأولى الظعن ذعلبة أمون^(٥)
والمثقب العبدى أضجر ناقته من كثرة مارحل :

إذا ما قت أرحلها بليل تأوّه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيئى أهدا دينه أبدا ودينى ؟
أكل الدهر حل وارتحال أما يُبقي على وما يقينى؟^(٦)
٧ — علاج الحب .

مسكين هذا العاشق . يحيا لحبه وحببيته ولا يرى الحياة إلا بعينها . ولا يأنس
إلا بقربها ، فهو كما قالت أعرابية للعتبي : « مسكين ، كل شئ عدوه ، هبوب
الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، ورسوم الديار تحرقه ، والعدل يؤلمه ، والتذكير
يسقمه . وإذا دنا الليل منه هرب النوم عنه^(٧) » .

لهذا لجأ الحريصون على حياته إلى علاج أساسه الوهم والإيحاء ، فيرقونه
أو يسقونه ماء السّلوّة — أو السّلوانة — وهى خرزة شفافة يسقاها قنصله ،
أو تسحق ويشرب ماؤها فيسلو شاربه عن حب ابتلى به :

يأليت أن لقلبي من يعلله أو ساقيا فسقاني عنك سلوانا
وأنشد ابن برى :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

(١) الفضليات ١ / ١٧٩ (٢) الفضليات ٢ / ٩٠

(٣) الفضليات ٢ / ١٤٦ (٤) الفضليات ٢ / ٢٩

(٥) ديوان النابغة . ذعلبة : ناقة سريعة . أمون : متينة الجسد .

(٦) الفضليات ٢ / ٩١ الوضين : الحزام . درأت : مدتت وشددت .

(٧) أخبار النساء لابن قيم الجوزية ٣٤

فما تركا من رقية يعلمانها ولا سَلوة إلا بها سقياني^(١)

(ج) الظعائن والهواذج

ترتحل المرأة الحبيسة في ركب صواحبها فيشهد الحب هذا الركب فيحترق قلبه ، ويشد نظراته بهودج المحبوبة ويعلق به ، ولا ينسى في هذا الموقف أن يصف الهواذج والنساء وصفاً فيه تفصيل أحياناً وإجمالاً أحياناً ، ولا ينسى أيضاً أن يذكر الطريق أو الطرق التي سيقطعها الركب في دقة وإحاطة كأنه جغرافي يرسم طريق السير . وهو في موقفه هذا يصور حزنه ووجيعته من هذا الرحيل كما سبق .

١ — ذكر الشعراء طريق الظعائن في تفصيل كأنهم يتعززون حيناً بمرافقهم لهن في رحيلهن حين يتابعونهن بخيالهم في الانتقال من مكان إلى مكان ، قال المثقّب العبدى :

لمن ظُمنُ تَطالِع من ضُبيبٍ فَا خَرَجَتْ من الوادى لَحِينِ
مَرَرْنَ عَلَى شَرَاةٍ فَذَاتِ رَجُلٍ وَنَكَبْنَ الذَّرَانِجَ بِالْيَمِينِ
وَهُنْ كَذَاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًّا كَأَنَّ مُهَوِّلَهُنَّ عَلَى سَفِينِ^(٢)
وقال عبيد :

تَبْصُرُ صَاحِبِي أَرَى مُهَوِّلاً تَسَاقُ كَأَنَّهَا عَومُ السَفِينِ
جَعَلَنَّ الْفَجْجَ مِنْ رَكَكٍ شَمَالاً وَنَكَبَنَّ الطَّوِيَّ عَنِ الْيَمِينِ^(٣)
وكذلك ذكر زهير طريق الرحلة في تفصيل^(٤) :

٢ — تشبيه الحدوج

وشبهوا الحدوج بالسفن ، وفي هذا تصوير لضخامتها وغنى أهل الحبيسة ،

(١) لسان العرب ١٩ / ١١٩

(٢) المفضليات ٨٨/٢ خبيب : موضع . لحين : بعد حين وإبطاء . شراف وذات رجل والذرائع : مواضع . نكبن : عدلن عنه .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣

(٤) شرح المعلقات العشر للشنقيطي ١٨

وفيه تصوير آخر لنفسية القائل ؛ لأن السفينة تفرق الأحباب ، والفاقة مركب
البين ، قال طرفة :

كأن حُدُوجَ المالِكيةِ عُذْوَةٌ خلايا سفين بالنواصف من كَدِ
عَدَوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يُجَوِّرُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ عِبَابَ الْمَاءِ حِزْوُمَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ الشَّرْبُ الْمَفَايِلُ بِالْيَدِ (١)

وقال المثقب العبدى :

وَهُنَّ كَذَلِكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًّا كَأَنَّ مُحُولَهُنَّ عَلَى سَفِينِ
يُسَبِّحُنَّ السَّفِينِ وَهُنَّ بَخْتٌ عُرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّنُونِ (٢)

وكذلك شبهها معن بن أوس (٣) والنابعة الذبياني (٤) .

وشبهها آخرون بالنخل ، يصورون علو الهوادج ، واهتزازاتها ، كما يهز
الريح النخيل ، قال امرؤ القيس :

وَحَدَّثَ بَأْنَ زَالَتْ بَلِيلُ مُحُولِهِمْ كَنَخْلٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ غَيْرِ مَنْبَقٍ (٥)

وجمع معن بن أوس الصورتين ، فشبّه الحُدُوجَ بالسفائن والنخيل :
بِعَيْنِيكَ رَاحُوا وَالْحُدُوجُ كَأَنَّهَا سَفَائِنُ أَوْ نَخْلٌ مِثْلُكَ عُمُ (٦)

وكذلك النابعة (٧)

وشبهها آخرون بشجر الدَّومِ ، قال عمرو بن شاس :

وَمِنْ ظَمَنِ كَالدَّومِ أَشْرَفَ فَوْقَهَا ظُبَاءُ السَّلَى وَاكْنَاتٌ عَلَى الْحَمْلِ (٨)

(١) ديوان طرفة ٦ الخلايا : السفن العظام . النواصف : متسع الأدوية أو مجارى الماء
إلى الأدوية . دد : اسم موضع . عدولية : نسبة إلى قرية بالبحرين تسمى عدولى . ابن
يا من : ملاح من هجر .

(٢) المفضليات ٨٨/٢ . بخت : جمال طوال الأعناق . عراضات : عريضات . الأباهر :
الظهور . الشئون : مجارى الدموع إلى العينين أو شعب الرأس .

(٣) ديوان معن بن أوس ٣ (٤) ديوان النابعة ٥٦

(٥) ديوان امرؤ القيس ١١٧ غير منبق : غير مسطور فى سطر واحد .

(٦) ديوان معن بن أوس ٣ (٧) ديوان النابعة ٥٣

(٨) السلى : اسم موضع . واكنات على الحمل : جالسات على الطنافس . الوكن : عش الطائر .

فشبه الهوداج بشجر ، وشبه النساء بظباء ، وصور جلستهن في الهوداج على الطنافس في دعة وأمن بطيور في أعشاشها . وشبهها المرقش الأكبر بالدوم والسفن^(١) .

وجمع امرؤ القيس الصور الثلاث ، فشبه الهوداج بالدوم وبالسفن وبالنخيل . فشبهتهم في الآل لما تكممشوا حدائق دَوْمٍ أو سفينا مُقَيَّرَا أو (المَكْرَعَاتِ) من نخيل ابن يامن دَوْنِ الصِّفا اللَّائِي يَلِينُ المَشَقَّرَا وأوغل في وصف النخيل^(٢) .

وقد ظل هذا التصور والتصوير إلى ما بعد الجاهلي ، فمثلا نابغة بني شيبان يقول :

كواعب أترابٍ كأنَّ مُحمولها من النخل عُمرى النخيل المواقِرُ
تَعَلَّقَ ديباج عليهن باجلُ وعَقْلُ ورقٍ يملأ العين فآخر^(٣)

٣ — عزة الطعائن :

ووصفوا الطعائن بأنهن عزيزات مكرمات محميات ، فهن كما قال عنتره :
حفت بهن مناصِلُ وذوايلُ ومشت بهن ذوامل ونواجي^(٤)

٤ — غطاء الهوداج

وكثيراً ما استرعت فُرُش الحدوج وأعطيتها أنظار الشعراء الغزلين وقلوبهم ،

(١) المفضليات ٢ / ٢٧ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٦٧ تكممشوا : جدوا في سيرهم . مقير : مطلى بالفار . مكرعات : نابتات على الماء . ابن يامن : رجل له نخيل بهجر . المشقر : حصن بين نجران والبحرين . (٣) ديوان نابغة بني شيبان ١٣ عمرى : قديم . موقر : مثقلات . باجل : حسن ناعم . عقل : ثوب أحمر تجلل به الهوداج أو هو ضرب من الوشى يكون نقشه طولاً . الرقم : ضرب من الوشى يكون نقشه مستديراً .

(٤) ديوان عنتره ٣٨ مناصل : سيوف . ذوامل : سرعات وكذلك نواج .

فذكروها ، ولقد يدهش بعضنا من هذا الترف الذى كان يستمتع به كثير من سكان البادية ، ولكن الذى يعرف حياة ذوى اليسار من سكان البوادرى فى العصر الحاضر ، والذى درس حياة الموسرين من العرب فى الزمن القديم ، لا يجد فيما ذكر الشعراء إلا تصويراً صادقاً لما رأوا .

قال المسيب بن علس :

ولقد أرى ظُعنًا أخيلها تحدى كأن زهاءها نخل
فى الآل يرفعها ويخفضها ريع كأن متونه سحل
عقلاً ورقاً ثم أردفه كل على أطرافها النخل^(١)

وأجمعوا على أن غطاء الهودج أحمر ، ويظهر أنه كان أحب الألوان إلى العرب كما سبق فى ملابس المرأة ، ووصفوه بأنه منقوش طولاً وعرضاً .

قال امرؤ القيس :

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةَ فَوْقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ أَوْ كَجَنَةِ يَثْرِبِ^(٢)

وقال علقمة :

عَقْلًا وَرَقًّا تَظِلُّ الطَّيْرُ تَتَّبِعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجَوافِ مَدْمُومِ^(٣)

ومن ترف المرأة وغنى آلهة أن تكثر أغطية الهودج وأستاره ، وأن تكون مرقشة ، قال عبيد :

عَاكِنَ رَقًّا وَأَنْطَاظًا مُظَاهَرَةً وَكَأَنَّ بَعِثِيقَ الْعَقْلِ مَقْرُومَةً
لِلْعَبْقَرِيِّ عَلَيْهَا إِذْ غَدَا صَبَحٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَجْمِ الْجُوفِ مَدْمُومَةٍ^(٤)

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٧ ريع : تل مرتفع أو فح وطريق . سحل : ثوب لا يبرم غزله . العقل : وشى مستطيل أو ثوب أحمر تجلل به الهودج . الرقم : ضرب من الوشى نقشه مستدير .

(٢) ديوان امرؤ القيس ٣٢ أنطاكية : منسوجة بأنطاكية . العقمة : ضرب من الوشى . الجرمة : ما صرم من البسر .

(٣) ديوان علقمة ١٣ مدموم : مصبوغ .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٢١ . الرقم : وشى مستدير . العقل : وشى مستطيل . صبح : من الصبغة سواد إلى الحمرة أولون يضرب إلى الشبهة أو إلى الصبهة .

وقال ربيعة بن مقروم إن أنماط الطعائن عتيقة فاخرة ، وإنهن يلبسن الحرير :
 جعلن عتيق أنماط خدورا وأظهرن الكراكي والعهونا
 على الأحداج واستشعرن ريطا عراقياً وقسياً مصوناً^(١)
 ويقول زهير في معلقه إن السكلة تشبه الدم :
 علون بأنماط عتاق وركلة وراد حواشيها مشاكهة الدم^(٢)
 ٥ — جمال الطعائن :

ولم يغفل الشعراء عن وصف جمال النساء الطاعنات ، ووصف حلينهن ، وكيف
 يغفلون وهذا وقت الزينة ؟ إن المرأة إذا ما سافرت أخذت زينتها لأنها تعلم أن
 نساء الحى سيرينها حين يودعنها ، ولأنها تعلم أنها قد تلتقى فى الطريق نساء آخر
 مرتحات مثلها ، فيوم سفرها يوم زينتها ، وهن يسبين ببجاهن وحليهن وحرركاتهن
 قلوب الرجال .

قال المثقب العبدى بعد أن ذكر طرق الرحلة :
 وهن على الرجاى واكنات قوائل كل أشجع مستكين
 كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون
 ظهرن بكلة وسدلن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون
 وهن على الظلام مطلبات طويلات الذوائب والقرون
 أرين محاسنا وكنن أخرى من الأحياد والبشر المصون
 ومن ذهب يلوح على تراب كلون العاج ليس بذى غصون^(٣)

(١) القسية ثياب مصرية حريرية نسبة إلى القس قرب الفرما والعريش أو نسبة إلى
 القس بلد بالهند تجلب منه أنواع من الثياب والمآزر الملونة وهى أخر ما يجلب من الهند من
 ذلك الصنف (معجم البلدان ٧ / ٨٥) والقاموس المحيط مادة قس .

(٢) المعلقات العشر .

(٣) المفضليات ٨٨/٢ . الرجاى : مراكب النساء . واكنات : مطمئات . الأشجع :
 الطويل . خذلن : تخلفن عن صواحبهن وأقن على أولادهن . الضال : السدر البرى . تنوش
 تتناول . الوصاوص : البراقع الصغار ، أراد أنهم حديثات الأسنان فبراقعهن صغار ، وقيل
 إنه لقب بالمثقب لهذا البيت . الظلام : الظلم .

وذكر المرقش الأصغر حلى الطعائن :
تحمّلن ياقوتاً وشذراً وصيغة وجزءاً ظفاريّاً ودُرّاً تَوَاماً^(١)

(ط) الطيف

هذا الحب الذى نأت عنه الحبيبة أو نأى عنها ، لا يفتأ يذكرها ويتذكرها .
ويتمثلها فى حله وارتحالها ويقطّطه ومنامه . ولقد يسعده طيفها فى حلمه فإذا صحا لم
يجد إلا نفسه ، فيصور مشاعره تصويراً يختلف باختلاف طبيعته .

١ — فمن الشعراء من اتجه إلى المعجب من قدرة الطيف على قطع المفاز ،
واحتمال مشاق الرحلة الطويلة ، ويظهر أن هؤلاء كانوا بعيدين عن الحبيبات . قال
طرفة :

سماك من سَلَمَى خيالٍ ودونها سوادٌ كَثِيبٌ عَرَّضَهُ فَأَمَائِلُهُ
فَذُو النِّيرِ فالأعلامُ من جانبِ الحِمَى وَقَفْتُ كظْهِرِ التُّرْسِ تجرى أساجله
وأنى اهتدت سَلَمَى وسائلَ بَيْنَنَا بِشاشَةٍ حبِّ باشرِ القَلْبَ داخله
وكم دون سَلَمَى من عدوٍّ وبلدةٍ يَحَارِبُهَا الحادى الخَفِيفُ ذَلالُه
يَظَلُّ بِهَا عَيْرُ الفِلاقِ كأنه رَقِيبٌ يُخافُ شَخْصَه وَيَضائِلُه

وما خلت سَلَمَى قبلها ذات رحلة

إذا قَسَوْرَى الليل جِيئَتْ سَرابِلُه^(٢)

وكرر مثل هذا فى قصيدة أخرى^(٣) .

(١) المفضليات ٥/٢ : شذرا : لؤلؤا أو قطعاً صغاراً من الذهب . صيغة : مصوغ
من الذهب . الجزع : الخرز اليماني . ظفار : بلد باليمن . تَوَامٌ : مثنى مثنى .

(٢) ديوان طرفة ١١٧ . أماليه : ج أميل وهو جبل من رمل عريض طويل . ذو النير
والحمى : موضعان . القف : ما ارتفع من الأرض . أساجله : سرابله . ذلاله : أسافل قصه
الطويل . قسورى : نصف الليل أو أوله أو معظمه . جيئت : جعلت كالجبب والمراد أنها
قطعت . سرابله : قصانه والمراد ظلامه .

(٣) ديوان طرفة ٤٦ .

واتجه هذا الاتجاه خفاف بن ندبة في قوله :

ألا طرقتُ أسماءَ من غير مَطْرُق وأنىَّ وقد حَلَّتْ بنجران نلتقى ؟
سرتُ كلَّ وادٍ دون رَهْوَةٍ دافعٍ وجلدَانِ أو كرمِ بليّةٍ محقق
تجاوزتُ الأعراضَ حتى توسدت وسادى لى بابِ جِلْدَانِ مغلق^(١)
واتجه الاتجاه نفسه حسان بن ثابت^(٢) . والمرقس الأَكْبَر^(٣) .

واقصر هؤلاء الشعراء على هذه الوجهة . فلم يصفوا شعورهم حين ألم بهم هذا الخيال الزائر .

٢ — واتجه آخرون إلى وصف الشاعر ، فعنترة يجد في طيف عبلة حياته ومسلاته :

أيا عبل مُنىَّ بطيف الخيال على المستهام وطيبَ الرقاد
عسى نظرة منك تحيا بها حُشاشة مَيّتِ الجفا والبعاد^(٤)
والأعشى ألم به طيف قتيلة فهاج ذكرياته وأشعله فصار كأنه ثمل :
ألمَّ خيال من قُتيلة بعدما وهى حبلى من حبلى فتصرما
فبت كَأنى شارب بعد هَجْعَةٍ سُخَامِيَّةٍ حمراء تُحَسِّبُ عندما^(٥)
وسويد بن أبي كاهل وافاه خيال سليمى وهو فى با كورة نومه فأرقه الليل كله :
أرَّقَ العين خيال لم يدع من سليمى فؤادى مُنْزَع
حل أهلى حيث لا أطلبها جانبَ الحصن وحلت بالقرع
لا ألقاها وقلبي عندها غير إلّام إذا الطرف هجع^(٦)

(١) معجم البلدان ١٢٢/٣ . جلدان : موضع قرب الطائف بين لية وشبل . رهوة ولية والأعراض : أما كن .

(٢) ديوان حسان ٤٢ (٣) المفضليات ٥٥/٢

(٤) ديوان عنتره ٥٣

(٥) ديوان الأعشى ٢٠٠ سخامية : خرا سلسلة . العندم : دم الأخوين أو البقم وهو شجر يصبغ بطيخ سوقه .

(٦) المفضليات ١٩٣/١ وشعراء النصرانية ٤٢٩ لم يدع : لم يسكن ويستقر . الحصن : موضع وفي رواية ابن الأنبارى (الحضر) وهى مدينة بالوصل والفرع بين الكوفة والبصرة

ويذكر الخيال في القصيدة نفسها فيسلك مسلكاً فيه مزج بين وصف الرحلة
الشاقة والتأثير في الوجدان :

هيج الشوق خيالُ زائرٍ من حبيب خفيرٍ فيه قدع
شاحطٍ جازٍ إلى أرْحَلِنَا عُصَبَ الغاب طرُوقاً لم يرع
آنسٍ كان إذا ما اعتادني حال دون النوم مني فامتنع
وكذاك الحب ما أشجعه يركب الهول ويعصي من وزع
فأبيت الليل ما أرقده وبعيني إذا نجمٌ طلع^(١)

٣ — وهناك فريق ثالث من الشعراء آلمهم الخيال لأنه أوهم وأحلام
كلرقش الأصغر في قوله :

أمن بنتٍ عجّلانٍ الخيالُ المطرَح ألمَّ ورحلى ساقطٌ مترحزح
فلما انتبهت للخيال فراغني إذا هو رحلى والبلادُ تَوَضَّح
ولكنه زورٌ يُبَقِّظُ نائمًا ويحدث أشجانًا بقلبك تجرح
بكل مبيتٍ يعترينا ومنزل فلو أنها إذ تدلج الليل تُصبح^(٢)

٤ — والشعراء الذين كانوا يصلون بهجر الحبيبة ويروضون أنفسهم على نسيان
الحب لم يأنسوا بالخيال كما أنس غيرهم ، ولم يشقهم كما شاق سواهم ، بل قابلوه
في جفاف وخشونة ، يقول طرفة :

(١) المفضليات ١ / ١٨٩ وشعراء النصرانية ٤٢٧ خفر : حبي . قدع : حياء ،
امرأة قعدة : قليلة الكلام حمية . شاحط : بعيد . عصب الغاب : المراد جماعات الرماح التي
تحمي لأن الغابة الرمح الطويل وليس المراد الأجاث والغابات كما شرح البيت لأن كلمة عصب
تعين أن المراد الرماح ، ولأن الأرض التي تفصل بين الشاعر وحبيته ليست بها غابات ، ولأن
الشعراء كثيراً ما يطرقون هذا المعنى . طروقا . زائرًا في الليل . وبعيني إذا نجم طلع : أرقب
كل نجم يطلع بعيني .

(٢) شعراء النصرانية ٣٢٨ والمفضليات ٢ / ٤٢ بنت عجّلان ، هند بنت عجلان جارية
فاطمة بنت المنذر . المطرح : المتراخي من بعيد . ساقط مترحزح : متباعد . تتوضح أي تظهر
يريد أنه رأى خيالها في نومه فلما انتبه لم يجد إلا رحله والبلاد التي أمامه . زور : زائر ،
تدلج : تسير ليلاً ، أي ليتها إذا زارنا خيالها ليلاً يدوم إلى الصباح .

فقل لخيال الحنظليّة ينقلب إليها فإني واصلٌ حبلٌ من وصل^(١)
ويقول سلمة بن الخرشب :

تَأْوَبُهُ خيَالُهُ من سُلَيْمَى كما يعتاد ذا الدِّينِ الغريم
فإن تُقْبِلْ بما علّمتُ فإني بحمد الله وصالٌ صَروم^(٢)

(ى) الأطلال

١ - لم احتفوا بها ؟

هنا كانت الحبيبة تقيم ، وإلى هنا كان قلب الشاعر يخفق ونظره يمتد وخياله يحوم ، وربما كان هنا لقاء ومناجاة ورجاء ووصل ، ومن هنا ظفعت الحبيبة فى بكرة مشققة مبكية . هنا كان الحب وكان الحبيب ، ثم قضت حياة الانتجاع أن يعطل المنزل الذى كان حالياً ، وأن يقفر المكان الذى كان خصباً موحياً ، وأن يعود إلى طبيعته مجاداً بعدما أضفت عليه الحبيبة حياةً وجمالاً ، فقد تناوبته الرياح والأمطار ، فلم يبق منه إلا أطلال ورسوم ، لكنها كالعنوان من الكتاب .

أليس من حق هذه الأطلال أن يعزها الشاعر وأن يقف بها ويطوف حولها ؟
بلى . وقد وقف واستوقف وبكى واستبكى ونطق واستنطق .

وإذا كانت الحبيبة هى المثير الطبيعى لعاطفة الحب فإن الأطلال هى المثير المقارن أو الصناعى « وتفسير ذلك أن الحبيبة بعيدة عن الشاعر ، فديارها حلت محلها فى إثارة عاطفة حبها ، فحين ثارت هذه العاطفة أقبل الحب يقبل جدران دارها ، فالديار وجدرانها هى المثير الصناعى ، والذى سوغ ذلك أن الحبيبة كانت تسكن الديار فوجود هذه اقترن بوجود تلك . ومرت على ذلك الأيام حتى صارت الحبيبة وديارها وحدة متماسكة الأجزاء ، فإذا كان جزء قد رحل فإن الجزء الآخر

(١) ديوان طرفة ٨٨ الحنظلية . من بنى حنظلة بن مالك .

(٢) المفضليات ١ / ٣٧ تأو به : عاوده ، ومعنى البيت أن خيالها كثير المعاودة .
كالدائن يعاود المدين أو هذا تشبيه يدل على كراهية للخيال . ومعنى البيت الثانى فإن وصلتني وصلتها وإن هجرتني هجرتها . بما علّمت : بما عرفت من المودة التى كانت بيننا .

قد حل محله « (١) » .

لهذا أضافوا الأطلال إلى اسم المحبوبة ، فهما معا مقترنان اقتراناً معنوياً في ذهن الشاعر . وقد كانا مقترنين اقتراناً محسوساً من قبل . قال امرؤ القيس :

يا دارَ ماوِيَّةَ بالحائلِ فالسَّهْبُ فالحَبِيتَيْنِ من عاقلِ (٢)
وقال طرفه :

لخولة أطلالٌ بِبرقةٍ شَهِمد تلوح كباقِ الوشمِ في ظاهر اليدِ (٣)
وقال لبید :

ألم تُلمِّمْ على الدَّمنِ الخوالى لسلامى بالمذائب فالتقال
وقال :

طلُّ لُخولة بالريسيس قديمُ بمعاقلِ فالأنعمين وشومِ (٤)
وقال زهير :

أمن أم أو في دمنة لم تَكَلِّمْ بحوَّمانة الدَّراج فالتَّمَلَّمِ (٥)
وكثيراً ما ذكر الشعراء الأطلال مقترنة باسم الحبيبة هذا الاقتران .

٢ — عنایتهم بتجديدها :

لم يكتف الشعراء بذكر الأطلال مقترنة باسم الحبيبة ، بل حددوا موقعها تجديداً دقيقاً كأنما يرسمونها على الورق ، أو كأنهم جغرافيون يخطون الخرائط والبلدان ، ولعل سبب ذلك تخوفهم من أن تمحوها عواذى الطبيعة ، لأنها ليست دوراً مشيدة ولكنها آثار قوم رحل ضربوا خيامهم حيناً من الدهر ثم ارتحلوا وخلفوا نوباً وأحجاراً وآثاراً تغى عليها الرمال والرياح والسيول ، والشعراء يودون أن تبقى وإن في تصورهم ، فيشيدونها بأحجار صلبة وطيدة لا تقوى على محوها سيول ولا رياح ولا رمال ، يشيدونها بشعر خالد يحدد مكانها ، ويرفع سمكها .

(١) دراسات في علم النفس الأدبي ٥٦ حامد عبد القادر .

(٢) ديوان امرؤ القيس ١٥١ (٣) ديوان طرفه ٥

(٤) الأغاني ١٤ / ٩٧ (٥) المقامات العشر للشنقيطي ٨٠

حدد امرؤ القيس الطلل من جهاته الأربع في قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَخَوْمِلْ
فَتَوْضَحَ فَاْلَمُقَرَّةَ ، لَمْ يَعْفُ رُسْمُهَا لَمَّا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشِمَالٍ^(١)
وقال زهير :

أَمِنْ أُمٍ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحُومَانَةِ الدَّرَاجِ فَلْتَشَلِّمْ^(٢)
وكذلك حدد لبيد^(٣) والحارث بن حنظلة^(٤) والنابعة^(٥) وعبيد بن الأبرص^(٦).

٣ — أثرها في نفس الشاعر :

يقف الشاعر على الأطلال فلا يرى إلا رسوما وبقايا تهيج ذكره ، فيحزن ،
ويسكب عبرات لعل فيها شفاء لنفسه المتعبة ، ويستعيد صوراً من سعادته بقرب
الحبيبة ، ويكي لوعته وحرمانه ، وتدور به الأرض كأنه مخمور ، ولقد يحس برعدة
وسخونة كأنه محموم ، ومع ذلك لا يريد أن يريم عنها ، لأن فيها من الحبيبة أثراً .
وكثيراً ما كان يضيف على الطلل صفات الحى ، فيخبره ويستخبره ، ويناجيه
ويستلهمه ، ويتبرم به حين لا يجيب سؤاله ، ويحييه ، ويدعوه بالسقيا والسعادة .
وكثيراً ما كان يتحسر لأن معنى الحبيبة صار مرتعاً للوحش .
قال عنتره :

ولقد حبست بها طويلاً ناقتى أشكو إلى سَفْعِ رَوَاكِدِ جُثْمِ
يا دار عبلة بالجواء تكلمى ورعى صباحاً دار عبلة واسلمى
فوقفت فيها ناقتى وكأنها فَدَنْ لَأَقْضَى حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ
حَيَّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقْدَمُ عَهْدَهُ أَقْوَى وَأَقْفَرُ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْمِ^(٧)

(١) ديوان امرئ القيس ١٢٤

(٣) المعلقة العشر ٨٧

(٢) المعلقة العشر ٨٠ الشنقيطى .

(٥) المعلقة العشر ١٤١

(٤) المعلقة العشر ١٢١

(٦) ديوان عبيد القصيدة ١ والقصيدة ١٣

(٧) ديوان عنتره ١٤٢ فدن : قصر . أم الهيم : كنية عبلة . السف : الأثافي وهى

أحجار الموقد . الجواء : بلد . المتلوم : المتمكث المتمهل يريد نفسه .

وقال امرؤ القيس :

ألا عِمَّ صباحاً أيها الطلل البالي

وهل يَعِمَّنْ من كان في العُصْر الخالي

وهل يَعِمَّنْ إلا سعيدٌ مَخْلَدٌ قليلُ الهموم ما يَبِيتُ بأوجال^(١)

فهو يحببه ويتمنى له السعادة ، ثم يستدرك فيقول : وهل يشعر بالسعادة من تقادم به الزمن وتناوبته الأحداث ؟ لقد تعاورتك أيها الطلل هموم العمر الطويل ، حتى صار من البعيد أن تتناسى آلامك وتشعر بسعادة ، وإني مثلك في شقاء حاضري ، لأنني هزمت وقوّت إلى الأيام سهامها ، ومثلك في سعادة ماضى يوم كنت شاباً أنعم بالحب ، وما النعيم إلا للصبي الذي لم تعركه السفن أو للرجل الخلى الذي لم يشب .

ولقد يبكي الشاعر لوعته وشوقه وحرمانه ، تحدث بذلك امرؤ القيس ، ووقف واستوقف صاحبيه ، واستبكاها معه ، وأشفقا عليه فنصحا له أن يتجدد حتى لا يبعث نفسه ، فرد عليهما أن شفاءه في أن يبكي ليمتخفف من بعض ما يحمل من هم .

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
فتوضح فالمرقاة لم يعف رسمها
وقوفاً بها صبحي على مطيهم
وإن شفاى عبرة مَهْرَاقَةٌ
بسقط الهوى بين الدخول فحومل
لما نسجتها من جنوب وشمال
يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وهل عند رسم دارس من معول^(٢) ؟

وكذلك بكى المرقش الأكبر :

هل تعرف الدار عفا رسمها
إلا الأثافي ومبني الحميم

(١) ديوان امرئ القيس ١٢٨ عم صباحا : أنعم في الصبح ، وهي تحية جاهلية . مخلد : صبي مقرط ، أو رجل لم يشب وسنه قد تقادمت . أوجال : مخاوف .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٢٤ . سقط اللوى : منقطع الرمل . الدخول وحومل : موضعان شرقي اليمامة . توضح والمرقاة : موضعان قرب الدخول . لم يعف رسمها : لم تذهب آثارها . تجمل : تصبر وتجلد . عبرة : دمة . مَهْرَاقَةٌ : منصبة . معول : معتمد .

أعرفها داراً لأسماء فالدَّ مع على الخدين سَحَّ سَجْمٌ (١)
وبكى عبيد بن الأبرص بكاء حمامة تحن إلى إلفها :

وقفت بها أبكى بكاء حمامة أراكبيَّة تدعو حماما أواركا
إذا ذكرتُ يوما من الدهر شجوها على فرع ساق أذرت الدمع سافكا (٢)
ووقف بها عوف بن عطية الربابي فدارت به الأرض من تباريح الحب
كأنه مخمور :

وقفت بها أصلاً ما تُسبين لساثلها القول إلا سرارا
كأنى اصطبحت عُقارِيَّةً تصعد بالمرء صرفاً عُقارا
سلافة صهباء ماذِيَّة يَفْضُ المِسابي عنها الجرارا (٣)
ووقف بها الأخنس بن شهاب التغلبي فأحس برعدة وسخونة كأنه محموم :

ظلت بها أعرى وأشعرُ سخنة كما اعتاد محموماً بخيبر صالب (٤)
ولم تطاوع طرفه نفسه أن يريم عنها :

حاسبى رسمٌ وقفَت به لو أطيع النفس لم أرمه (٥)
وتبرم امرؤ القيس لأن الأطلال استعجمت فلم تنطق :

يادارَ ماوية بالحائل فالسَّهْبُ فالحَبَّتَيْنِ من عاقل
صمَّ صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل (٦)

(١) الفضليات ٢ / ٢٩ الأثافي : جمع أثفية بضم الهمزة وكسرهما وتشديد الباء وهى الحجر توضع عليه القدر . الحيم : جمع خيمة . أسماء : بنت عمه عوف بن ضبيعة . السح : الصب . السجم : السائل .

(٢) ديوان عبيد القصيدة ١٧ أوارك : ترعى الأراك . السافك : هنا بمعنى المسفوك أى المصبوب .

(٣) الفضليات ٢ / ٢١٣ عقارية : خمر معتقة . صهباء : فى لونها بياض من قدمها . ماذية : سهلة الإساعة . يفض : يكسر . المِسابي : المشتري الحجر ليشر بها .

(٤) الفضليات ٢ / ٤ أعرى : أرتش . أشعر : أبطن . صالب : حمى شديدة وخير مشهورة بها .

(٥) ديوان طرفه ٧ - لم أرمه . لم أتركه . (٦) ديوان امرئ القيس ١٥١

ولكنه في مرة أخرى حيا الطلل . وتمنى أن يتكلم ، وأن يطيل معه الحديث عن الحبيبة وركبها ومشاعرها حين الرحيل صادقا فيما يحدث به :

ألا عم صباها أيها الربيع فانطق

وحدث حدث الركب إن شئت فأصدق

وحدث بأن زالت بليل محو لهم كندخل من الأعراض غير منبثق^(١)

وتمر الأعوام وتبدل الأحداث ولكنها لا تنقص من عزازة الأطلال ، لأن قلب الشاعر خفاق بحب من سكنتها . وتكاد عوادي الطبيعة تمحو معالمها محوا ، ولكن الشاعر يتحسسها بقلبه قبل أن يتنورها بعينه . قال النابغة الذبياني :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع^(٢)

وقال بشامة بن الغدير .

لمن الديار عفون بالجزع بالدوم بين بحار فالشرع

درست وقد بقيت على حجج بعد الأنيس عفونها سبع

إلا بقايا خيمة درست دارت قواعدها على الربيع^(٣)

وإذا كان النابغة وبشامة قد وقفا بالأطلال بعد سنوات سبع فإن كميرة بن جعل قد وقف بها بعد سنوات ثمان :

ألا يا ديار الحى بالبركان خلّت حجج بعدى لمن ثمان^(٤)

وليس أدل من هذا على وفاء الشاعر في حبه .

٤ — معالمها الباقية :

وماذا يبقى في الصحراء من آثار قوم رحل ؟

تبقى نوى وأحجار وأثافي ورمال ودخان يصبغ الأحجار .

(١) ديوان امرئ القيس ١١٧ نخل من الأعراض : ثابت في أغراض الحجاز وهي قرأه .

غير منبثق : غير مستو ولا مهذب ولا مسطور في سطر واحد أى متفرق .

(٢) ديوان النابغة ٤٩ (٣) معجم البلدان ٢ / ٦٥

(٤) معجم البلدان ٢ / ١١٤ والمفضليات ٢ / ٥٨

ولكن هذه البقايا عميقة الأثر في نفس الشاعر ؛ لأنها مرتبطة بمن يجب .
فليست جمادات ولا نسياً منسياً ، وإنما هي أحياء ذوات معان ودلالات . قال الخجل
السعدى إنه لم يبق إلا الرماد وبعض النوى :

وأرى لها داراً بأغدرِ السَّيِّ دان لم يدرُسْ لها رسم
إلا رماداً هامداً دَفَعَتْ عنه الرياحُ خوالدُ سُحْم
وبقية النوى الذى رَفَعَتْ أعضاده فتوى له جِذْمُ (١)
وقال عميرة بن جُعل إنَّه لم يبق منها غير نوى ومواقد وحطب كانت الإماء
تجمعه :

فلم يبق منها غيرُ نُوىٍ مهديم وغيرُ أوارٍ كالرَّكيِّ دِفان
وغير حطوبات الولائدِ ذَعَدَتْ بها الريحُ والأمطارُ كلَّ مكان (٢)
وقال أعشى طرود إن الآثار الباقية هي الموقد المنسوب وساحة الدار :
يادار أسماء بين السَّفَح فالرَّحَب أقوى وعفى عليها ذاهب الحقب
فما تبَّين منها غير مُنتَضِدٍ وراسياتٍ ثلاثٍ حول مُنتَصِب
وعرصةُ الدار تستنُّ الرياحُ بها تحنُّ فيها حنين الواله السَّلَب (٣)
ولقد نبت فيها الزهر ويتزعزع ، لأنه يجد سماده وغذائه ، قال المرقش الأكبر :
أضحت خلاء نبتها تَسُدُّ نورَ فيه زهوه فاعتم (٤)

(١) المفضليات ١١١/١ أغدرة : جمع غدير ولم يرد هذا الجمع في المعاجم ، ونص عليه
ياقوت في معجم البلدان . السيدان : أرض لبني سعد . لم يدرس لها رسم : لم يذهب أثرها .
كاه . هامداً : خامداً . الخوالد : البواقي . أراد بها أثنافى القدور . سحْم : سود ، أى أن الأثافي
حفظت الرماد من أن تذروه الرياح . النوى : الحاجر الذى يرفع حول البيت لينع عنه السيل
أو الحفيرة التى تحفر حول الخيمة لذلك . أعضاده : جوانبه . الجذم الأصل .

(٢) معجم البلدان ١١٤/٢ والمفضليات ٥٩/٢ أوار : جمع أرى وهو ما حبس
الدابة من وتد ونحوه . الركي : جمع ركية وهى البئر . دفان : مدفونة . حطوبات : جمع
حطوبة وهى ما جمعتها الإماء من الحطب . الولائد : الإماء . ذعذعت : فرقت .

(٣) المؤلفات والمختلف للآمدى ١٧ السلب : المسلوب العقل .

(٤) المفضليات ٣٧/٢ تئد . مندى . زهوه : لونه أحمر وأبيض وأصفر . اعتم : كثر .

٥ - مسرح للحيوان :

إذا ما غادر الدار قاطنوها أوى إليها الحيوان الذى كان يألفها ثم فر منها لما خيموا . وأوى إليها حيوان لم يكن قد ألفها ليطعم مما خلفوا ، ولقد صور الشعراء هذا . قال المرقش الأكبر فى حسرة إنها قد خلت من سكانها ، وليس بها إلا أبقار الوحش ترى فى دعة وتمشى محتالة كالفرس فى قلائسهم :

أُمتت خلاء بعد سكانها مقفرة ما إن بها من أرم
إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا فى الكُم^(١)

وصور زهير تصويراً جميلاً منظر البقر الوحشى والظباء وهى ترى فى الدمنة . صورها أسراباً يتبع صغارها كبارها ويمشى بعضها فى أثر بعض ، ويمشى بعضها فى اتجاه وبعضها فى اتجاه ، ترى متنقلة من مكان إلى مكان ، وبين الفينة والفينة تنهض صغارها من مراقدها لتلحق بأمهاتها :

بها العين والآرام يمشين خلفاً وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم^(٢)

ورسم الخبل السعدى صورة أخرى ، وجعل الأبقار تنتقل من مكان إلى آخر وراء العشب . وفى رعييل الأبقار ظباء يبيض البطون سود الظهور ، وظباء يبيض البطون والظهور ، وكأن صغار الأبقار والغزلان معزى .

تَقْرُو بها البقرُ المساربُ واخُ تلطت بها الآرام والأدُم

وكان أطلاء الجأذر وال غزلان حول رسومها السهم^(٣)

وصورها عبيد مرعى للنعام والظباء :

تبدلن بعدى من سليمى وأهلها نعاماً ترعّاها وأدماً ترائكا^(٤)

(١) المفضليات ٢٩/٢ الكُم : القلائس . الفارسيين : الفرس . أرم : أحد . العين :

البقر الوحشى .

(٢) المعلقات العشر ٨٠ الآرام : الظباء . الأطلاء : صغار الظباء والبقر . مجثم .

موضع رقاد .

(٣) المفضليات ١١٢/١ تقرو : تتبع . المسارب : المراعى . إليهم : صغار أولاد المعزى

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١٧ ترائك : جمع تريكة وهى بيضة النعام بعد أن يخرج منها

الفرخ . آدم : فى لونها أدمة وهى هنا البياض الواضح أو اللون المشرب ببياض .

وصورها الأخنس بن شهاب مسرعا للنعام يمشى متمهلاً ماثلاً
تظل بها رُبدُ النعام كأنها إماء تُزجى بالعشى حواطب^(١)
وصورها المرقش الأصغر مرعى للغزلان وصغارها ، وأضاف الحركة إلى الصورة
فجعل الكبار تسوق صغارها سوقاً هينا :
تُزجى بها خُنسُ الطباء سخاها جاذرها بالجو وَرْدُ وأصبح^(٢)
ورأى حميرة بن جُعل سباعاً تتعارك في الدمن فتثير غباراً يسربلها :
قفارٌ مَرَوْرَةٌ يحاربها القطا يظل بها السُّبعان يعتركان
يثيران من نسج التراب عليهما قيصين أسماطاً ويرتديان^(٣)

٦ — الأطلال من الوجهة الفنية

تأنق بعض الشعراء في تصوير أسراب الحيوان التي ترعى بها كما مر في
قول زهير والمرقش الأصغر .
وكانت الأطلال نفسها ينبوعاً آخر للافتنان من حيث تشبيهها بغيرها مما تداعى
إلى خاطر الشاعر حين رآها . فقد شبهها الشعراء بالوشم ، وبالطراز الموشى ، وبالوشى ،
وبالكتابة كما سأفصل . وأرى أن هذا التشبيه ليس قائماً على الشكل والمظهر فحسب ،
ولكنه قائم أيضاً على علاقة نفسية ، لأن الشاعر يتذكر حبيته ويستغرق في ذكرها
وهو واقف بآثارها وقوف الذاكر الخاشع ، فأسرع الصور إلى ذهنه ما يتصل
بالمحوبة من قريب أو من بعيد ، هو يرى الرمال قد موجتها الرياح وتناثرت بها
الآثار ، ونبتت بها الأعشاب الخضراء ، فيشبهها بالوشم ، والوشم من حلى الحبيبة

(١) المفضليات ٤/٢ ربد : جمع أربد وربداء والربدة سواد في بياض . تزجى : تساق .
خص العشى بالذكر لأن المحتبطين يرجعون فيه إلى بيوتهم .

(٢) المفضليات ٤١/٢ تزجى : تسوق سوقاً ضعيفاً . الخنس : جمع خنساء وهى
قصيرة الأنف . سخاها : أولادها . الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقر . الورد : الذى تعلوه حمرة .
الأصبح : أشد حمرة من الورد .

(٣) المفضليات ٥٩/٢ مرورة : لا تنبت شيئاً ولا ماء فيها . يحاربها القطا : بعيدة
لا يهتدى فيها هذا الطير الجبير بالطرق . الأسماط : الأخلاق البالية وليست في العاجم بهذا المعنى

وضروب تجعلها كما سبق في التجميل .

وهو يرى هذا المنظر فيشبهه بالوشى والطراز الموشى ، وذلك من ملابس الحبيبة . ويشبهه أيضاً بالكتابة . فهل كان الشعراء يعرفون الكتابة ، فشبهوا بها التجمعات التي صنعتها الرياح بالرمال ؟ أو أن بعضهم كان على علم بالكتابة فشبه بها ثم حاكاه غيره ممن ليسوا على علم بها ؟ أعتقد أن بعض الشعراء كانوا يعرفون الكتابة ، لأن في تشبيههم تفصيلاً ودقة يدلان على ذلك كقول معاوية بن مالك ، وقول حاتم ، وقول ثعلبة بن صعير ، كما سيجيء ، وأما غير هؤلاء فربما كانوا يعرفون الكتابة وربما كانوا يحاكون تشبيه العارفين .

١ — شبه زهير الأطلال بالوشم :

ودار لها بالرقَّتَيْنِ كأنها مراجيع وشم في نواشٍ معصم^(١)

وشبهها معن بن أوس بالوشم على المعصم الجميل :

يلوح وقد عفى منازله البلى كالأح ففوق المعصم الحسن الوشم^(٢)
وكذلك طرفه :

لخولة أطلال ببرة شهـمـد تلوح كباق الوشم في ظاهر اليد^(٣)

٣ — وارتبطت في خيال عبد الله بن سلمة الغامدى بذيل العروس وبالوشم أيضاً

أُمتست بمُستَنِّ الرياح مُفِيْلَةٌ كالوشم رُجَّع في اليد المنكوس

وكأنما جرَّ الروامس ذيلها في صَحْنِهَا المَعْفُو ذيلُ عروس^(٤)

وارتبطت في خيال طرفه بثوب جميل زخرفه أهل ريدة وأهل سحول

وبالسفح آياتُ كأن رسومها يمان وشتمه ريدة وسحول^(٥)

(٢) ديوان معن بن أوس ٣

(١) المعلقات العشر ٨٠

(٣) ديوان طرفه ٥

(٤) المفضليات ١٠٣/١ مستن الرياح : موضع جريها . مفيلة : مظموسة . خفية العالم .

منكوس : أعيد عليه الوشم : الروامس : الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٥) ديوان طرفه ٧٦ ومعجم البلدان ٣٤٨/٤ . يمان : ثوب يعني . ريدة وسحول :

مدينتان باليمن مشهورتان بالنسيج .

وشبهها قيس بن الخطيم بالثوب المذهب :

أُتُعرف رسمًا كالطراز المذهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب (١)

وشبهها النابغة الذبياني بالوشى :

تذكرنى أطلال هند مع الهوى دعائم منها قائم ومنزع
على العُصر الخالى كأن رسومها بتنهية الركنين وشى مُرجع (٢)

٣ — ولقد أكثر الشعراء من تشبيه هذه الآثار وتموجاتها والخطوط المنتظمة التى تصنعها الرياح فيها بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من هذا التصوير كثرة تدعو إلى أن نصحح نظراتنا إلى العصر الجاهلى ، فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب هذه الجهالة التى تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه بها ينبىء عن معرفة بالورق وبالكتابة عند بعض الشعراء المشبهين على الأقل . ومن خصائص التشبيه فى العصر الجاهلى أنه لا ينجح إلى العلائق الظاهرة والمسابهات السطحية قدر ما ينجح إلى الربط الوثيق بين المشبه والمشبّه به . كذلك التشبيه بالكتابة ليس منبعضاً عن تخيل أو محاكاة فحسب وإنما هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر بين الرسوم والكتابة . وأوثر أن أعرض هنا التشبيه بالكتابة والأوراق أولاً ، ثم الدليل على معرفتهم الكتابة .

(١) قال معاوية بن مالك بن جعفر ، عم لبيد ، إن آثار الدار مثل كتابة ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق ، يتخوف أن يلحقه عيب .

فإن لها منازل خاويات على تملى وقفت بها الركابا
من الأجزاء أسفل من تميل كما رجعت بالقلم الكتابا
كتاب مُحبرٍ هاج بصيرٍ ينمقه وحاذر أن يُعابا (٣)

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٤٧ الطراز المذهب : الثوب المنقوش بالذهب . وحشاً : مقفراً
(٢) ديوان النابغة الذبياني ٣٩ . منزع : مهدم . التنهية : حيث ينتهى الماء من الوادى
(٣) الفضليات ١٥٧/٢ تملى : ماء بقرب المدينة الأجزاء : منعطفات الوادى . تميل : تصغير على حذف الزيادة كما قال البكرى . رجعت الكتابة عدت بالقلم عليها . محبر : محسن . هاج : فارىء والهجاء القراءة .

وقال الأخنس بن شهاب الثعلبي إن الآثار تشبه كتابة العنوان لأن كتابته واضحة مجودة :

لابنة رِحطان بن عَوْفٍ منازل كِارقش العنوان في الرِّقِّ كاتب^(١)
وقال امرؤ القيس ، إن الآثار نخط الزبور في سعف النخل الوارد من اليمن معداً للكتابة :

كِين طَلَلْ أَبصرته فشجاني نَحَطَّ الزَّبور في العَسيب اليماني^(٢)
وقال طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التي نحتها كاتب في وضوح النهار وذلك أحكم :

أشجاك الرِّبْعُ أم قِدمه أم ترابُ دارسُ حُممه
كسطور الرِّقِّ رَقَّشه بالضُّحا مرَقَّشُ يَشِمه^(٣)
وقال حاتم إنها كالكتابة المنسقة المزخرفة :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهـدما كطك في رقِّ كتاباً مُنمَما^(٤)
وقال المرقش الأكبر :

الدار قفر والرَّسوم كما رَقَّش في ظهر الأديم قلم^(٥)
وكذلك صورها ثعلبة بن عمرو العبدى ، وجعل الكاتب لا يسوى سطوره :

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكتيب فواصف
أكب عليها كاتب بدواته يقيم يديه تارة ويخالف^(٦)
(ب) على أن هناك أدلة أخرى على معرفتهم الكتابة والورق ، ولقد تكون هذه الأدلة بعيدة عن موضوعي ولكن الحاجة تدعو إليها .

(١) الفضليات ٢ / ٤ وهو جاهل لاصحابي كما توهم الفيروزابادى ، إذ التبس عليه بالأخنس بن شريق .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٨٦

(٣) ديوان طرفة ٦٨ والأما إلى ٢ / ٢٤٦ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .

(٤) شعراء النصرانية ١١٨

(٥) البيان والتبيين ١ / ٢٨٨ والأما إلى ٢ / ٢٤٦ (٦) الفضليات ٢ / ٨١

يقول الحارث بن حنظلة إن آثار الديار تشبه صحائف الفرس :

لن الديار عَفُونٌ بِالْحَبْسِ آيَاتُهَا كَهَارِقِ الْفُرْسِ^(١)
وهو نفسه يذكر أن حلف ذى الجواز كان مكتوباً .

واذكروا حَلْفَ ذى الجواز وما قُدِّمَ فيه اليهودُ والكُفلاءُ
حَذَرَ الْخَوْنِ والتعمدى وهل تنقُضُ ما فى المهارق الأهواء^(٢)
ويقول البعيث بن حريث الحنفى :

لن طلل كروضات السخال تأبَدُ كالمهاريق البوالى^(٣)
وفى اللغة كلمات كثيرة تدور حول الكتابة وما يكتب فيه وبه^(٤) ، وقد ذكر
ابن سلام أن الناس أصبحوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب :
ألهى قصيًّا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما تُرْسَى السِّقَاسِيرُ
وأكلها اللحم بَحْتًا لا خليط له وقولها رحلت عَيْرٌ أَتَتْ عَيْرَ
فأنكروا ذلك وقالوا ما قالها إلا بن الزبعرى^(٥) . وقد جاء فى حديث رجل كندى
من دومة الجندل يمينٌ على قريش أن بشر بن عبد الملك أخا أكيذر بن عبد الملك
صاحب دومة الجندل قد علم قريشا الكتابة^(٦) ، وروى أن ورقه بن نوفل كان فى
الجاهلية يكتب الكتاب العبرانى أى يكتب كتابة عبرية^(٧)

وقد جاء ذكر الورق الشامى فى وصف طرفه لناقته وتشبيهه بياض خدها
بالقرطاس^(٨) . وجاء ذكر المجلة فى مدح النابغة للفساسنة ، والمجلة الصحيفة^(٩) وقد
تآمرت قريش على النبي والمسلمين فتعاقدوا فى صحيفة مكتوبة على أن يقطعوا بنى

(١) المفضليات ١ / ١٣٠

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٦ والمعلقات العشر ١٢٧

(٣) معجم البلدان ٤ / ٣١٧

(٤) بلوغ الأرب ٣ / ٣٨٥ — ٣٨٨

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٩١ الأساطير : الخرافات . السقاسير : جمع سفير .

ومن معانيه السمسار .

(٦) الأغاني ١٣ / ٢٠

(٧) بلوغ الأرب ٣ / ٣٨٢

(٨) الأمل ١ / ٢٤٥

(٩) ديوان طرفه ١٩

هاشم وبني عبد المطلب ، علقوا الصحيفة في الكعبة . وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاتبها فشمل بعض أصابعه ^(١) .

وقد قلت في كتابي الحياة العربية إن المعلقات أخذت تسميتها هذه من أن الملك أمر بتدوين هذه القصائد وغيرها ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني . وقال ابن رشيقي مثل ذلك ^(٢) ، وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر لأن ابن سلام يقول « وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان أو ما صار منه ^(٣) » وابن جني يقول « أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج — وهي الكراريس — ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له إن تحت القصر كنزا فاحتفره فأخرج تلك الأشعار ^(٤) » .

واستدللت على أن الشعر قد دون بعضه في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام في عهد عمر بن الخطاب ^(٥) .

٧ — بين الأدب الغربي والأدب العربي

لم ينفرد شعراء العرب بوقفاتهم على الأطلال ، فإن شعراء الغرب يشركونهم في مثل هذه الوقفات وإن لم تسكن على أطلال بل كانت على بحيرات . وقف لا مرتين على بحيرة بورجيه ، ووقف روسو في قصته (هلواز الجديدة) وفي (أحلام متنزّه وحيد) ووقف هيجو في قصيدته (أحزان أوليميو) وألفريد دي مسيه في قصيدته (الذكرى) ^(١) . ولبيرون قصيدة على بحيرة ليان تحسر فيها على حبه الذي انقضى ، وتذكر أنعام محبوبته على خير أمواه البحيرة . ويصح أن آخذ لا مرتين مثالا لهؤلاء جميعاً ، فأورد قصيدته على بحيرة بورجيه ،

(٢) العمدة ١ / ٦١

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٢

(٤) الخصائص لابن جني ٣٩٣

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧

(٥) الأغاني ٤ / ١٤١

(٦) في الأدب المقارن ٦٦ عبد الرزاق حميدة

وأوازن بينها وبين وقفات شعرائنا القدامى على الأطلال ، وأستخرج وجوه التشابه
ووجوه التغاير بين الفنانين والنفسيتين :

هكذا ندفع دائماً نحو شيطان جديدة
ونُحْمَل في الليالى الخالدة ولا نعود
ألا نستطيع على خضم الزمن
أن نلقى المرساة يوماً واحداً ؟

أيتها البحيرة أوشك العام أن ينقضى
أنظري . إننى قادم وحدى لأجلس على ذلك الحجر
الذى رأيتها تجلس عليه

قريباً من تلك الأمواج التى كان يجب أن تراها ثانياً

إنك كنت ترأرين — كفعلك الآن — تحت هذه الصخور الغائرة
وكنت تقحطمين كذلك على جوانبها المحطمة
وكذلك كانت الرياح تلقى زبد الأمواج
على قدميها المحبوبين

وفى إحدى الليالى — ألا تذكرين — سار بنا الزورق فى صمت
وما سمعنا — إلى مدى بعيد — فوق الماء وتحت السماء
إلا ضربات النوتى ، المستوية للحن
لأمواجك المؤتلفة الأنغام

ثم فاجأتنا ألحان لاعهد للأرض بمثلها
من الشاطئ الساحر ، هاجت الصدى
وأصغى الموج ، وذلك الصوت الحبيب إلى نفسى
أطلق فيه تلك الكلمات :

أيها الزمن قف دورتك ، وأنت أيتها اللحظات المسعدة
كفى عن المسير

ودعينا نستمتع بهذا السرور العاجل
الذى ننعم به فى أهنا الأيام

هناك كثير من البائسين يضرعون إليك
فأسرع أسرع إليهم
واقض آجالهم ، وأفن معها ما يحطمهم من الأوصاب
وانس السعداء

لكن رجأى أن أستمتع لحظات أخرى كان خائباً
لقد أفلت منى الزمان وطار
قلت لتلك الليلة : لا تعجلى ولكن طلع الفجر
فمحا آية الظلام

فليحب بعضنا بعضاً ، وفى الزمن الفانى
فلنسرع إلى الاستمتاع
ليس للانسان مرفأ وليس للزمن من شاطئ
إنه يسير ، ونحن ذاهبون

أيها الزمن الغيور : أيمكن لساعات الجبور هذه
وهى التى سقانا فيها الحب السعادة ونحن فوق الأمواج
أن تنأى عنا مسرعة
كما تسرع إلينا أيام الشقاء ؟

عجباً ألا نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ؟
ما هذا ؟ أنتقضى ولا تعود ؟ ما هذا ؟ أكلها قد نسيت ؟
ذلك الزمن الذى جاد بها ، ذلك الزمن الذى محاه
ألا يردّها من جديد ؟

أيها الأبدية ، والعدم ، والزمن الغابر ، وغيابات الماضى
ما ذا فعلت بالأيام التى التهمتها ؟

انطقى أتردين إلينا تلك المسرات العظيمة
التي انتزعناها من أيدينا ؟

أيتها البحيرة والصخور الصامدة والمغارات ، والغابات الغامضة
أنت أيتها التي يبقى عليها الزمن ، أو يعيد إليها الشباب
لتحفظي تلك الليلة ، ولتعينها أيتها الطبيعة الحسنة
أو — على الأقل — فلتذكريها .

احفظيها في وقت سكونك وفي ثورتك
أيتها البحيرة الجميلة ، وفي مرأى جنباتك الباسمة
وفي أشجار الأرز المظلمة ، وفي تلك الصخور القاسية
التي تشرف على أمواهك

احفظيها في نسيمك الذي يخطر ثم يسير
احفظيها في اصطخاب شطآنك الذي تردده هذه الشيطان
وفي لمعان وجهك الفضي الذي يلالى سطحك
وفي أنوارك الناعمة

فلتنطق الريح الحنون ، واليراع الزافر
والشذى الخفيف الذي يحمله هواؤك العاطر
وكل شيء يرى أو يسمع أو يتنفس
ولتقل جميعها : إنهما قد تحابا^(١)

الموازنة :

١ — ابتعثت الذكريات قصيدة لامرتين كما كانت تبتعث قصائد الشعراء
الجاهليين . وهي تصور عواطف الشاعر نحو المكان ، وحسده على سمادة منقضية
كما تصور قصائدهم .

(١) في الأدب المقارن ٦١ عبد الرزاق حميدة

ولامرتين يضاف على البحيرة صفات الأحياء كما أضفى بعض الجاهليين صفات الأحياء على الأطلال ، فقد ناجى البحيرة ، وأسمعها نفثاته ، ودعاها ودعا ما حولها من صخور ومغارات ونسيم وغابات ، وثورة وسكون ، ونسيم وشذى ، دعاها كلها أن تذكر ليلة الزورق ، ولا تنساها ، وتسجل أنه وجول قد تحابا ، وكذلك حيا الجاهليون الأطلال ، ودعوا لها أن يسقيها المطر ، وأن تسعد ، وناجوها واستخبروها ، وبرموا حين لم تحب .

٢ — على أن لامرتين يمتاز ببسطة في التأمل ، وبنزعة إلى التفلسف في حياة الإنسان وأنه يضرب في طريقه إلى غير رجعة .

ويمتاز بطول النفس في تصوير صلة المحبوبة بالبحيرة ، حين قال إن البحيرة كانت تصطخب أمواجه وتتحطم وكان زبد الموج يرتعى على قدمي جولي . وإن الموج كان ينصت إلى صوتها الرخيم . وتحدث عن ليلة الزورق حيث كان السكون مطبقاً ، فلم يسمع غير صوت المجداف المنتظم الوقعات على صفحات الماء المتسق النغمات .

وامتازوا هم بالحديث عن معالمها الباقية من نوى وأحجار وأثافي ورمال ودخان ، وبالحديث عن النعام والغزلان والحيوان الذي يعمرها ، وبالتصرف في تشبيه الأطلال بصور شتى .

٣ — وبذلك اتفق لامرتين مع شعراء العصر الجاهلي في أشياء ، وتميز منهم بأشياء وامتازوا هم بأشياء .

وليس المقام مقام موازنة بين الأدبين ، لأن ثمة اختلافا في البيئة والعقلية ، وزمناً متطاولاً يفصل بين لامرتين وشعراء الجاهلية ، ولا بد من مراعاة ذلك في الموازنة .

على أن هذه الموازنة توضح أن الطلل وأن البحيرة يشتركان في أنهما المثير المقارن لعاطفة الحب ، وأنهما يبعثان في نفس الشاعر ذكرى سعادته الماضية ، وحسرة على نعيم لم يعود ، وفي أنهما عزيزان على الشاعر ، لأنهما متصلان بالحبيبة اتصالاً يخوله أن يتمثلهما من الأحياء الأعزاء ، فيناجيها ، ويستخبرها ، ويتمنى لها السعادة .

٨ — الأطلال بعد الجاهلي

كان الشاعر الجاهلي يعزى قلبه الموله بوقفة أو وقفات على أطلال الحبيبة ، يحاول بها أن يستعيد أطيافاً من ماضيه ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الأطلال مرابع الحبيبة ومراتع لهو العاشقين ولقاءهما ؟

حدث عصمة بن مالك أنه وافق ذا الرمة في زورة لحبيته حتى وأنه كان يختلف إليها حتى تقضى الربيع ، ثم أتى ذو الرمة إلى عصمة وقال : قد رحلت مي ولم تبق إلا الآثار والنظر في الديار ، فاذهب بنا ننظر في ديارها ونقفو آثارها ، فخرجنا حتى أتينا منزلها ، فوقف ينظر ، ثم قال :

ألا يا اسلمى يا دار حتى على البلى ولا زال مُسَهَّلاً بِجَرَ عَائِكَ الْقَطَر

قال عصمة : فما ملك عينيه ، فقلت : مه . فالتبه ، وقال : « إني لجلد وإن كان مني ما ترى » ، فما رأيت أحداً كان أشد منه يومئذ صباية ، وأحسن عزاء وصبراً ، ثم انصرفنا وتفرقنا (١) .

ولم يفك الشعراء في كل عصر يفتتحون بعض قصيدهم بالوقوف على الأطلال ، ولقد يكون هذا الضرب من الغزل صادق التعبير عن العاطفة إذا كان الشاعر ممن خبروا البادية وقرأوا بها حيناً كالخطيئة وابن الدمينية ، أما الشعراء الذين لم يقرأوا بالبادية ، بل لم يعرفوا عنها إلا مثل ما نعرف لأنهم عاشوا في بيئات متحضرة كالبحترى وأبي نواس وابن الخياط والبارودي فإنهم في غزلهم بالأطلال محالون مقلدون ، غير ما تحين من عاطفة ولا مصورين لشعور .

وسأضرب أمثلة من العصر الإسلامي والعباسي والحاضر تكشف عن تغفل تأثير العصر الجاهلي فيما يليه من عصور ، من حيث الوقوف بالأطلال ، والبكاء عليها ، واستنطاقها ، والتحصن على أنها عطلت من ساكنيها وعمرت بالوحش ، ومن حيث التعبير نفسه ،

١ — في العصر الإسلامي .

تردد ذكر الأطلال في شعر الحطيئة وعمر بن أبي ربيعة وذى الرمة وجبران
المود النخري وجريز والفرزدق وغيرهم .

قال الحطيئة :

لمن الديار كأنهن سطور يَلْوِي زَرُودَ سَفَاعِلِهِنَّ الْمُور
نُؤْيٌ وَأَطْلَس كَالْحَمَامَةِ مَائِل وَمُرَقَّع شَرْفَاتِهِ مَحْجُور ^(١)
وكذلك بدأ مدحته لأبي موسى ^(٢) ، والوليد بن عقبة ^(٣) ، وسميد بن
العاص ^(٤) .

وقال عمر بن أبي ربيعة :

لمن الديار رسومها قفر كَعَبَتْ بِهَا الْأَرْوَاحُ وَالْقَطَر ^(٥)
وقال :

لمن خلل موحش أقفرا فَأَصْبَحَ مَعْرُوفُهُ مِنْكَرًا ^(٦)
وقال :

أوقفت من طلل على رسم بلوى العميق يلوح كالوشم
أقوى وأقفر بعد ساكنه غير النعام يَرُودُ وَالْأُدُم
فوقفت من طرب أسائله والدمع مني بين السَّجَم ^(٧)
وقال إنه استوقف أصحابه معه :

ألم تَرَبَّعْ عَلَى الطَّلَل وَمَعْنَى الْحَى كَالْخِلَل
فلمّا أن عرفت الداء رُمِجَتْ لِرَسْمِهَا جَمَلِي
وقلت لصُحْبَتِي عوجوا فعاجوا هِزَّةَ الْإِبِل

(١) ديوان الحطيئة ١٣ المور : التراب . أطلس : المراد به الرماد .

(٢) ديوان الحطيئة ٣٥

(٣) ديوان الحطيئة ٣٧ (٤) ديوان الحطيئة ٣٩

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ١٨ الأرواح : الرياح .

(٦) ديوان عمر ٢١ (٧) ديوان ٥٧

وقالوا قف ولا تعجل وإن كنا على عجل^(١)
وقال ذو الرمة :

وقفت على ربع لمة ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبته تكلمني أحجاره وملاعبه^(٢)

وحاكي الكميت امرأ القيس بن عابس بن المنذر بن السمط في وقوفه على
الأطلال وتعبيره ، قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتأيّ إنك غير آنس
ماذا عليك من الوقوف بهامد الطلّين دارس
فأخذه الكميت فقال :

قف بالديار وقوف زائر وتأيّ إنك غير صابر
ماذا عليك من الوقوف بهامد الطلّين دائر^(٣)

وافتح جرير كثيراً من أهاجيه ونغرياته بالوقوف بالأطلال مثل قوله :
عرفت الدار بعد بلى الخيام سُقِيَتْ نَجَاءً مُرْتَكِز ركام
كأن أبا اليهود يخط وحيّاً بكافٍ في منازلها ولام^(٤)

ومثل قوله في هجاء جفنة بن جعفر :

ألا قل ربع الأفاقين يا اسلم يُحْيِيّ على شحط وإن لم يكلم^(٥)
وقال في هجائه لعمر بن لجأ :

حي الديار وأهلها بسلام ربعا تقادم أو صريع خيام^(٦)
وفي مدح مسامة بن هشام :

ماهاج شوقك من عهود رسوم بادت معارفها بذى القيصوم^(٧)

(١) الأغاني ١ / ١٨٢ تربع : تحسب نفسك عليه . الخلل : ج خلة وهى بطانة يغشى بها جفن السيف تنقش بالذهب وغيره .

(٢) ديوان ذى الرمة ٣٨ . وراجع أيضاً ٦٤٩

(٣) المؤلف والمختلف للأمدى ٩ (٤) ديوان جرير ٢ / ٨٩

(٥) ديوان جرير ٢ / ٩٦

(٦) ديوان جرير ٢ / ١٠٤ (٧) ديوان جرير ٢ / ١١٠

وفي هجاء الأخطل :

قل للديار سَقَى أَطْلَالُكَ الْمَطَرِ
قَدْ هَجَتْ شَوْقًا فَمَاذَا تُرْجِعُ الذِّكْرُ^(١)
وقال الفرزدق :

أَلِمَّا عَلَى دَارٍ بِمَنْقَطَعِ الدَّوَى
خَلَاءَ تَعْفِيهَا رِيَّاحُ الْجَنَائِبِ^(٢)
وقال :

عَرَفْتُ الْمَنَازِلَ مِنْ مَهْدَدٍ
كُوحَى الزُّبُورِ لَدَى الْفَرْقَدِ^(٣)
وقال :

أَعْرِفْتُ بَيْنَ رُؤَيْتَيْنِ وَحَنْبَلٍ
دَمْنَا تَلُوحُ كَأَنَّهَا الْأَسْطَارُ^(٤)
٢ — في العصر العباسي :

وأكثر الشعراء من الوقوف بالأطلال في العصر العباسي ، وكرروا معاني
سابقهم .

قال أبو تمام في مطلع مدحته لأبي الحسن محمد بن عبد الله الهاشمي :
إِنْ بَكَاءٌ فِي الرَّبْعِ مِنْ أَرْبِهِ
فَشَايَعًا مَغْرَمًا عَلَى طَرَبِهِ^(٥)
وقال :

قَفْ بِالطَّلُولِ الدَّرَاسَاتِ عُلاَنَا
أَضَحَّتْ حِبَالُ قَطِينِهِنَّ رَثَانًا^(٦)
وقال البحترى في مدح المتوكل :
سُقِيتِ الْغَوَادِي مِنْ طُلُولٍ وَأَرْبَعٍ
وَحِيَّتْ مِنْ دَارِ الْأَسْمَاءِ بَلْقَعُ^(٧)
وفي مدح إبراهيم :

وَقُوفُكَ فِي أَطْلَالِهِمْ وَسُؤَالُهَا
يَرِيكَ غُرُوبَ الدَّمْعِ كَيْفَ أَنْهَمَالُهَا^(٨)

(١) ديوان جرير ١١٤/١

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩/١

(٣) ديوان الفرزدق ٢٠٢/١

(٤) ديوان الفرزدق ٤٦٥/٢

(٥) ديوان أبي تمام ٥١

(٦) ديوان أبي تمام ٦٣ وراجع ١١٤

(٧) ديوان البحترى ٥٦

(٨) ديوان البحترى ١٤٤

وفي رثاء المتوكل .

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره (١)
وكان أبو نواس برماً بالاستهلال الطللي ، ساخراً من البادئين به ، يؤثر أن
يفتتح بعض قصائده بالخرجات والزهريات أو لوم من يستهلون بالأطلال .
مثل قوله :

لا تبك رسماً بجانب السند ولا تجدد بالدموع للجرد
ولا تعرج على معطلة ولا أثاف خلّت ولا وتد
ومل إلى مجلس على شرف بالكوخ بين الحديق معتمد (٢)
ومثل قوله :

عاج الشق على رسم يسائله وعجت أسأل عن خسارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درك قلبي من بنو أسد (٣)
ويكرر هذا الاتجاه في مواضع شتى من ديوانه (٤) .

لكنه لم يستطع أن ينفلت من قيد الأطلال ، فقد كان يبدأ بها بعض مدائحه
مثل افتتاحه لمدح الرشيد :

لقد طال في رسم الديار بكائي وقد طال تردادي بها وعنائى
كأنى مريع في الديار طريدة أراها أمانى مرة وورائى
فلما بدا لي اليأس عدت ناقتى عن الدار واستولى على عزائى (٥)

على أن زعمته الشعوبية ربما كانت الباعث على اجتوائه للأطلال والذاكرين
لها ، ولكنه كان يخفى هذه النزعة إذا مدح الخلفاء ، فيبدأ أحياناً بوقفات
على الأطلال .

وقال المتنبي في مدح سيف الدولة :

-
- (١) ديوان البحترى ٢٨
(٢) ديوان أبي نواس ١٣٨ (٣) ديوان أبي نواس ١٣٨
(٤) الديوان ٧٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٧٥ ، ١٨٣
(٥) ديوان أبي نواس ٦٦

فدينائك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا^(١)
ووقف على الأطلال يستخبرها فاستعجمت ، ولم تساعده بیکأمرها فدعا عليها
دعاء مبيرا :

مُلِثَ القطرَ أَعْطِشَها ربوعا وإلا فاسقها السم النقيعا
أَسْأَلُهَا عَنِ الْمَتَدَيِّرِهَا فلا تدرى ولا تدرى دموعا^(٢)

٣ — في العصر الحديث :

وتمشى تأثير الأطلال ، واستخبارها ، والوقوف بها إلى العصر الحديث ، فلم
تباعد هذه الحياة الحضرية بين بعض الشعراء المحدثين ومظاهر البداوة والاستعداد
من بعض ينابيعها ، فالبارودى يحكى الأطلال ، ويصف أثر الريح فيها ، ويذكر
أنه عرفها بعد لأى وتفرس ، وأنها صارت مراحاً للغزلان . وهذه كلها من معانى
العصر الجاهلى والبيئة البدوية :

أَلَا حَيٍّ مِنْ أَسْمَاءِ رَسْمِ الْمَنَازِلِ وَإِنْ هِيَ لَمْ تُرْجَعْ بَيَانًا لِسَائِلِ
خَلَاءٍ تَعَفَّتْهَا الرُّوَامِسُ وَالتَّقَتِ عَلَيْهَا أَهَاضِيبُ الْغَيُومِ الْخَوَافِلِ
فَلَأَيَّا عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَرْسَمِ أَرَانِي بِهَا مَا كَانَ بِالْأَمْسِ شَاغِلِي
غَدَتِ وَهِيَ مَرَعَى لِلظُّبَاءِ وَطَالَمَا غَنَّتْ وَهِيَ مَأْوَى لِلْحَسَنِ الْعَقَائِلِ
فَلَمَعَيْنِ مِنْهَا بَعْدَ تَزْيَالِ أَهْلِهَا مَعَارِفِ أَطْلَالِ كُوْحِي الرِّسَائِلِ^(٣)

وشوق متأثر بالأطلال فى مطلع أول قصائده بعد عودته من المنفى ، وإن أسبغ
على معانيه جدة وتصرفا .

أَنَادَى الرَّسْمَ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا وَأَجْزِيهِ بَدْمَعِي لَوْ أَنَابَا
وَقَلَّ لَحَقَهُ الْعَمِيرَاتُ تَجْرَى وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا
سَبَقُنْ مَقْبَلَاتِ التُّرْبِ عَنِي وَأَدِينِ التَّحِيَّةَ وَالْخَطَابَا

(١) ديوان المتنبي ١ / ٤٠ (٢) ديوان المتنبي ١ / ١٧٤

(٣) ديوان البارودى ٢ / ٤٦٤ شرح محمود الإمام المنصورى

نثرت الدمع في الدمن البوالى كنظمي في كواعبها الشبوا
وقفت بها كما شئت وشاءوا وقوفاً عَلمَ الصبر الذهبا
لها حق وللأحباب حق رَشَفْتُ وصالحهم فيها حُبابا
ومن شكر المناجم محسناتٍ إذا التبر أنجلي شكر الترابا (١)

الفصل السابع

أثر البيئة والطبع في الغزل

لا أشك في أن الغزل في العصر الجاهلي أصدق فنون الشعر دلالة على نفسية قائله ، وارتباطاً بالبيئة التي عاشوا فيها .

ذلك بأن الصدق الشعوري موفور فيه ؛ لأنه قيل تسرية عن النفس ، وتعبيراً عن المشاعر ، وتصويراً للعواطف ، ولم يكن يقال تزلفاً لكبير أو مرضاة لأمير أو مجلبة لمال . فهو إذن فن خالص ، يصدر عن الشاعر كما يصدر الضوء عن الشمس ، وكما يفوح الشذى من الزهر ، وكما يشقق العصفور ، ويغرد الكروان ، فليس للشاعر الغزل من أرب إلا أن ييوح بما يجد في لغة ممتازة أخاذة .

وذلك أيضاً بأن الصدق الفني موفور فيه ؛ لأن الشاعر صور عاطفته فأحسن تصويرها ، في رضا الحبيبة وصددها وقربها وبعدها .

وهذا الغزل ينبئ عن تذوقهم للجمال ، وأهم ذوو بصيرة وبصر بالجسدى منه والنفسي ، مدركون لما في بيئتهم من أنواع الجمال الطبيعي والصناعي ، لذا شبهوا به كثيراً واستمدوا منه المعاني .

وإذ كان هذا الغزل متسماً بالصدق الشعوري والصدق الفني فإنه وثيق الصلة بالبيئة العربية ، والطبع العربي ، وأنا أشعر أن هذا التعبير لا يكفي ، وأشعر أن خيراً منه أن أقول إنه تصوير دقيق للبيئة وللطبع .
ويتمثل هذا في عدة نواح :

أولاً : الاستمداد من البيئة

متح الشعراء من بيئتهم الخيال الذي صوروا به عواطفهم ، فكانوا صادقين

في تجاوبهم مع ما في البيئة من حيوان ونبات وجماد ، لأنهم أحسوا بجماله ، وتخبروا من صفاته صفة بارزة تمت إليها الحبيبة بصلة ، أو تمت إلى الحبيبة بسبب ، فشبهوا الحبيبة بها ، يريدون أن يصوروا مقدار جمالها ، وأن يزينوها ، لأن هذا الذي يشبهون به متعارف الجمال بينهم ، مسلم بتميزه في هذه الفاحية ، لذا يلحقون الحبيبة به ليدلوا على تفوقها في جمالها .

ولو أن عندهم أجل مما شبهوا به لألحقوا الحبيبة به أيضاً . ولكن بحسبهم أن التفتتوا إلى ما في البيئة من جمال منوع ، وعقدوا بينه وبين المرأة الحسناء صلة أو صلات ، مع علمهم أن جمال المحبوبة أقوى فتوناً ، وأحلى فنوناً .

يقول الجاحظ في هذا المعنى : « وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية ، وأحسن من البقرة ، وأحسن من كل شيء تشبهه ، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، فيقول بعضهم كأنها القمر ، وكأنها الشمس . والشمس وإن كانت بهيمة فإنما هي شيء واحد ، وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب . ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية ؟ » (١) .

١ — فهم استمدوا تصويرهم من الطبيعة الحية المتحركة ، فراقهم من البقرة الوحشية سعة عينيها ، وشدة سوادها ، ونساعة بياضهما ، فشبهوا عيني المحبوبة بهما ، وراقهم من الغزالة جمال عينيها وخفتها ورشاقتها وجمال لفتها ، فشبهوا بها المحبوبة ، وأعجبهم من القطة خطوها فشبهوا مشي المرأة بمشي القطة .

(١) قال سلامة بن جندل :

وعندنا قَيْنَةٌ بِيضَاءُ نَاعِمَةٍ مِثْلُ الْمَاهِيَةِ مِنَ الْحُورِ الْخَرَاعِبِ (٢)

وقال عمرو بن الأهتم :

كَانَ عَلَى الْجَمَالِ نَعِاجٌ قَوٌّ كَوَانِسٍ حُسْرَاءٌ عَنْهَا السَّمُورُ (٣)

(١) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١١٨

(٢) الفضليات ١ / ١١٨ الخرايب : اللينات

(٣) الفضليات ٢ / ٢٠٩ نعاج : بقر وحشى

وقال ثعلبة بن صعير :

ولرب واضحة الجبين غريرة مثل المهاة تروق عين الناظر
قد بتُّ أُلْعِبها وأقصر همها حتى بدا وَضَحُ الصباح الجاشر^(١)

وقال النابغة :

كأن على الحدوج نعاج رمل زهاها الذعر أو سمعت صياحا^(٢)

وقال لبید :

منازل من يبض الحدود كأنها نعاج الملا من مُعِصِرِ وعوان^(٣)

(ب) ووصف قيس بن الخطيم ظبية حسناء طيبة المرعى ، ثم قال إنها ليست

بأحسن منها :

فما ظبيةٌ من ظباء الحسا عِطاء تَسْمَعُ منها بُغاما
ترشح طفلا وتحنو له بحقف قد أنبت بقلا تَوَامَا
بأحسن منها غداة الرحيـ مل قامت تُريكَ أُنثى رُكاما^(٤)

وهو يشبه القتال الكلابي في قوله :

وما مُغزِلُ ترعى بأرض تبالةٍ أراكا وسدرا ناعما ما ينالها
وترعى بها البردين ثم مقيلا عياطل ملتف عليها ظلالها
بأحسن من ليلي وليلي بشبهها إذا هتكت في يوم عيد حجالها^(٥)

(١) المفضليات ١٢٩/١ الجاشر : الواضح

(٢) ديوان النابغة ١٦

(٣) ديوان لبید ٤٧ الملا : الصجراء . معصر : بلغت الشباب أو العشرين . وعوان : امرأة متزوجة أو كبيرة .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٣٩ الحساء : جمع حسى وهو السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ، أو مرتفع من الأرض فوقه رمل يجمع ماء المطر . عطاء : طويلة العنق . البغام : صوت الظبية الرخيم تنادي به ولدها . ترشح : تلجس ولدها ساعة يولد . حقف : كشي من الرمل . تَوَامَا : متشابكا . أُنثى رُكاما : شعرا غزيرا كثيفا

(٥) معجم البلدان ٣٥٨/٢ البردين : الغداة والعشى . عياطل : غصون طوال .

حجالها : جمع حجلة وهي حجرة العروس

وقال بشر بن أبي خازم :

أسائل صاحبي ولقد أراني بصيراً بالظمائن حيث ساروا

.....

كأن طباء أسنمة عليها كوانس قالصاً عنها المغار (١)

وقال المثقب العبدى :

وهن على الرجاثر واكنات قوائل كل أشجع مستكين

كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الفصون (٢)

وقال ربيعة بن مقروم :

كأنها ظبية بكر أطاع لها من حومل تلعات الجوا أو أودا (٣)

(ح) ولقد يجمع الشاعر صورتين فيشبهها بالمهاة وبالغزال .

قال لبيد في الحدوج :

كأن نعاجا من هجائن عازف عليها وأرام السلى الخواذلا (٤)

وقال زهير :

نازعت المها شهباً ودُرّالً بحور وشاكته فيها الطباء

فأما ما فويق القد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مهاة ولدر الملاحاة والصفاء (٥)

وقال خدّاش بن زهير :

(١) الفضليات ١٣٨/٢ أسنمة : موضع . المغار : ج مغارة والمراد به اليهودج يريد أن

هوادجهن ضاقت بهن

(٢) الفضليات ٨٨/٢ الرجاثر : حراكب النساء . واكنات : مطمئنا . أشجع :

أسد . خذلن : تخلف عن صواجهن . تنوش : تناول

(٣) الفضليات ١٣/٢ أطاع لها : كثر المرعى أمامها واتسع . أود : موضع .

(٤) ديوان لبيد ٢١ هجائن : بيض . أرام : طباء . السلى : واد . الخواذل : جمع

خاذل وهى الظبية التى تقيم على ولدها ترعاه

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٥ . شاكته : شابهت . أدماء : ظبية مشربة بياضا .

وَإِذْ هِيَ خَوْدٌ كَالْوَذِيلَةِ بَادُنْ
كَمُغْزَلَةٍ تَغْدُو بِحَوْءٍ مَلَّ شَادَنًا
(٥) وَقَالَ النَّابِغَةُ مَشَبَّهَا بِالْقَطَاةِ :

تَدْعُو قَطَا وَبِهِ تُدْعَى إِذَا انْتَسَبَتْ يَصْدُقُهَا حِينَ تَدْعُو فَتَنْتَسِبُ (٢)

٢ — وَاسْتَمْدُوا تَصْوِيرَهُمْ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ غَيْرِ الْمُتَحَرِّكِ ، فَشَبَّهُوا رَشَاقَةَ
الْمَرْأَةِ وَانْعَاطَافَهَا وَتَنَشُّيَهَا وَلَيُونَتَهَا بِغَصْنِ الْبَانِ ، وَشَبَّهُوا سَاقِيهَا بِالْبَرْدَى بِيَاضًا
وَاسْتِدَارَةَ وَنَعُومَةَ ، وَشَبَّهُوا ثَدْيَهَا بِالرَّمَانِ حُجْمًا وَاسْتِدَارَةَ وَشَكْلًا ، وَأَسْنَانَهَا
بِالْأَقْحَوَانِ بِيَاضًا وَاسْتَوَاءً وَاتِّسَاقًا .

(١) قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ :

حَوْرَاءَ جَيِّدَاءَ يُسْتَضَاءُ بِهَا كَأَنَّهَا خُوطُ بَابَةٍ قِصْفِ (٣)

(ب) وَقَالَ الْمَخْبِلُ السَّعْدِيُّ :

بَرْدِيَّةٌ سَبَقَ النِّعَمَ بِهَا أَقْرَانَهَا وَغَلَا بِهَا عَظْمُ (٤)

وَقَالَ امْرَأُ الْقَيْسِ :

وَكَشَحَ لَطِيفَ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّصٍ وَسَاقَ كَأَنَّ بَنُوبَ السَّقِيِّ الْمَذَلَّ (٥)

(ح) وَقَالَ الْأَعَشَى :

وَتَدْيَانِ كَالرَّمَانَتَيْنِ ، وَجَمِيدِهَا كَجَمِيدِ غَزَالٍ غَيْرِ أَنْ لَمْ يَعْطَلَّ (٦)

(٥) وَقَالَ أَيْضًا :

(١) جَهْرَةٌ أَشْعَارُ الْعَرَبِ لِلْقُرَشِيِّ ١٩١ . خَوْدٌ : حَسَنَةُ الْخَلْقِ شَابَةً نَاعِمَةً . الْوَذِيلَةُ :
الْمَرْأَةُ أَوْ الْقِطْعَةُ مِنَ الْفَضَّةِ الْمَجْلُودَةِ . بَادُنْ : عَظِيمَةُ الْجَسْمِ . مَغْزَلَةٌ : ظَلِيمَةُ ذَاتِ غَزَالٍ . حَوْءٌ :
مَوْضِعٌ . شَادَنٌ : ظَلِيٌّ . طِفْلٌ : صَغِيرٌ . جَأْرٌ : الْمُرَادُ كَبِيرٌ .

(٢) لِسَانُ الْعَرَبِ ٥١/٢٠

(٣) دِيْوَانُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ ١٧ وَلِسَانُ الْعَرَبِ ٢١٩/١٦ خُوطٌ : غَصْنٌ نَاعِمٌ .

قِصْفٌ : لَدَنٌ .

(٥) الْمَفْضُلِيَّاتُ ١١٢/١ غَلَا : ارْتَفَعَ أَيْ زَادَهَا النَّعِيمَ حَتَّى فَاقَتْ أَثَرَهَا وَكَبُرَتْ قَبْلُهَا

(٥) دِيْوَانُ امْرِئِ الْقَيْسِ ١٣٠

(٦) دِيْوَانُ الْأَعَشَى ٢٢٦

ومها يرف غروبه يَشْفِي المتَّيِّمَ ذا الحرارة
كذُرَى منوَّرٍ أقحوا ن تسامقَ في قرارة ^(١)
٣ — واستمدوا التصوير أيضاً من الطبيعة غير الحية ، فشبهوا بالشمس
والبدر ، والدر .

(١) شبهوا وجه الحبيبة بالشمس والبدر وضاء وإشراقا .

قال قيس بن الخطيم :

فرايت مثل الشمس عند طلوعها في الحسن كدُ نُوَّها لغروب ^(٢)
وقال الأسود بن يعفر النهشلي :
والبيض تمشي كالبدور وكالدُّحَى ونواعم يمشين بالأرْفاد ^(٣)
وقال عنتره :

رفعوا القباب على وجوه أشرفت فيها فَعَيَّبَتِ السُّها في الفرقد
والشمس بين مضرَّج ومبلَّج والغصن بين موشَّح ومقلَّد ^(٤)

(ب) وشبهوا الوجوه بالؤلؤ ولونا وصفاء .

قال الأعشى إنها كدرة نفيسة نادرة صعبة المنال حاول استخراجها الغواص
مذ كان شاباً .

كانها درة زهراء أخرجها غواص دَارِنَ يحشى دونها الغزقا
قد رامها حججا مذطرَّ شاربه حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا
لا النفس توئسه منها فيتركها وقد رأى الرَّغْبَ رأى العين فاحترقا
ومارد من غواة الجن يحرسها ذو نيقةٍ مستعدُّ دونها تَرَقَّا
ليست له غفلة عنها يطيف بها يحشى عليها سُرى السارين والسرقا

(١) ديوان الأعشى ١١٢ مها : بلور . غروبه : الغرب الفيضة من الحجر

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ٥

(٣) الفضليات ١٨/٢ الأرْفاد : قداح الحجر وهو يصف الساقيات

(٤) ديوان عنتره ٦٩

في حوم لجة آذى له حَدَبَ من رامها فارقتها النفس ، فاعتلقا
من نالها نال خلدًا لا انقطاع له وما تمنى فأضحى ناعماً أنقَا
تلك التي كلفتك النفس تأملها وما تعلقَت إلا الحين والحرَقا^(١)
ويشبهه الخبل السعدى في رسم صورة للدرة النفيسة كهذه الصورة ثم تشبيه
المحجوبة بها ^(٢) :

وقال قيس ابن الخطيم :

كأنها درة أحاط بها الغوا ص يحلو عن وجهها الصَّدَف^(٣)

وقال سويد بن أبي كاهل :

كالْتَوْامِيَّةِ إنْ باشرتْها قرت العين وطاب المضطجع^(٤)

وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

والبيض تمشي كالبدور وكالدى ونواعم يمشين بالأرْفاد^(٥)

٤ — وصوروا بما في البيئة من مصنوعات .

(١) شبهوا الحسناء بالدمية « وكان بين العرب في اليمن والحجاز وغيرها
فيما يظهر مصورون ومثالون ملأوا معابدهم بتمائيل آلتهم من الحجر والمعدن
والخشب »^(٦) ، ولا بد أن الكنائس المسيحية والبيع اليهودية كانت حالية
بالتماثيل . ووجه الشبه بين الحسناء والدمية الجمال والانسجام والملاسة وغيرها .

قال عدى بن زيد :

بناتِ كرامٍ لم يُرَبَّنَ بَضْرَةً دُمَى سَرِقَاتٍ بالبعير روادعا^(٧)

(١) ديوان الأعشى ٢٣٠ وقد سبق شرحها في فصل الجمال (٢) الفضليات ١١٣/١

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٨

(٤) الفضليات ١٩٤/١ التَّوَامِيَّة : الدرة المنسوبة إلى تَوَام قصبة عمان التي تلى الساحل

(٥) الفضليات ١٨/٢

(٦) موجز تاريخ الحضارة العربية ٢٥٤ لناجي معروف وعبد العزيز الدروى

(٧) الأغاني ١٥٠/٢

وقال :

كدى العاج فى المحارب أو كال بيض فى الروض زهره مستنير^(١)
وقال امرؤ القيس فى صاحبتيه هر وفرتنا :

ها نعيمجان من نعا ج تبالة لدى جوذين أو كبعض دى هكر^(٢)
وقال الأعشى :

وقد أراها وسط أترابها فى الحى ذى البهجة والسامر
كدمية صور محرابها بمذهب فى مرمر مأ^(٣)
وقال سحيم :

وما دمي من دى ميسنا ن معجبة نظراً واتصافا
بأحسن منها غداة الرحيم ل قامت ترائيك وحفا غدا^(٤)

(ب) وشبهوا قوامها بالريح اعتدالا وليداً ، قال مزرد ابن ضرار الديلماني يمدح
بنى الذماء من قيس :

مصاليت كالأسياف ، ثم مصيرهم إلى خيفات كالقنا المترائد^(٥)
(ح) وشبهوا وجهها بالدينار لمعاناً واستدارة .

قال قيس بن الخطيم :

تبذت لى لتقتلنى فأبدت معاصم نخمة منها وجيدا
ووجها خلسته لما بدا لى غداة البين ديناراً نقيدا^(٦)

وما من شك فى أن التشبيه بالدينار ، وبالدمية ، كان نابعاً من بيئة حضرية

(١) البيان والتبيين ١/٥٠٤

(٢) ديوان امرئ القيس ٨٤ تبالة : موضع باليمن . هكر : موضع لا بد أن كانت به
تماثيل حسان .

(٣) ديوان الأعشى ١٠٤ مأ : مستو مصقول

(٤) ديوان سحيم ٤٣ غدا : شعر طويل أسود . الوحف : الشعر الكثير الأسود

(٥) المفضليات ١/٧٨ المترائد : التثني يمنة ويسرة

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ٢٦ نقيد : مختار صحيح .

لا بدوية ، ولذا نجد من تخمیل الحضريين مثل قيس بن الخطيم والأعشى وعدى ابن زيد وامرئ القيس .

(٤) وشبهوا الوجوه بمصباح الراهب ، لأنه ينير في الفضاء والظلمات من حوله ، وذلك أبين لنوره ، ثم لأنه يهدي ويبعث الانشراح والارتياح .
قال امرؤ القيس :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمسَى راهب مقبِل^(١)

(هـ) وشبهوا الربق بالخر كقول زهير :

كأن ريقها بعد الكرى اغتَبَقَتْ من خمر عانة لما يعدُّ أن عَتَمَا^(٢)

وقد افتنوا في ذلك كما سبق في (جمال المرأة) .

ثانياً : الوقوف بالأطلال

وقد سبق أن الشعراء ربطوا ذكريات الحب بهذه الأطلال ، لأنها تمثل عهداً عزيزة عليهم وحياة سعيدة لديهم ، فتملأوا فيها ماضيهم وبكوا حاضرم ، واستخبروها وناجوها . والأطلال وثيقة الصلة بالغزل عندهم ، لأنها آثار المحبوبة التي ارتحلت .
وقد سبق تفصيل القول في ذلك .

ثالثاً : ترديد أسماء الأماكن

وقد أكثر من ذكر أسماء الأماكن لأنها مثل الأطلال مرتبطة بالحب والحبيبة ، فهم يجدون في ذكرها عزاء ومسلة ، كقول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقطِ الأوى بين الدَّخولِ فحومل

فَتَوْضَحَ فآلمقراة لم يَعْفُ رسمها لما نسجَتْها من جنوب وشمال

(١) الديوان ١٣١

(٢) لسان العرب ١٧/١٧٥ اغتَبَقَتْ : شربت الخمر بالعشى . عانة : بلدة على الفرات تُنسب إليها الخمر العانية .

وقول لبید :

عفت الديار محلُّها فمقامها بِمَنْى تَأَبَّدَ غُولُها فِرْجَاهِها

وقول طرفة :

لخولة أطلال بُرْقَةٍ تُهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقد حاكهم من بعدهم من شعراء العصر الإسلامي والعباسي كما سبق في الأطلال .

حاكهم شعراء يعرفون البادية كابن الدمينية :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسرُّ الوجوداً على وجد^(١)

وحاكهم شعراء لا عهد لهم بالبادية كهيار :

نظن لياليَنا عوداً على العهد من بُرْقَتِي تُهمدا

خليلى لي حاجة ما أخف برامة لو حملت مُسْعِدا^(٢)

رابعاً : الشكوى من البين والتوجع من الفراق

وذلك أن الحياة في البادية ليست حياة استقرار وإقامة ، ولكنها حياة رحلة ونجعة ، فلا يلبث قوم أن يقيموا بمكان مدة من الزمان تطول أو تقصر ، فيعلق شاب من قوم آخرين بفتاة من هؤلاء ، وإذا بهم يرتحلون للنجعة ، فيتوجع من آلام الفراق ، ويرسل قلبه وراء الطعائن والأحداج . وقد مضى القول في تفصيل ذلك .

خامساً : الابتكار والمحاكاة في المعاني

كثيراً ما تتشابه المعاني التي يعبر عنها الشعراء ، ويكون مرد ذلك إلى المحاكاة والاحتذاء ، فللشاعر راوية أو رواة يتأثرون ويحاكونه ، كما حاكى الأعشى خاله وأستاذه المسيب بن علس . ولقد يحاكي الشاعر غيره وإن لم يكن أستاذه لأن اللغة تقليد ومحاكاة .

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٤٥/٣

(٢) ديوان مهيار الديلمي ١٦٣/١

وقد يكون مرد ذلك إلى أن أكثر هذه المعاني ، وأكثر هذا التصوير تعبير عن عاطفة الحب ، وهي تتشابه في الناس ، وتتقارب في البيئة الواحدة ، وقد صور الشعراء عواطفهم مستمدين من بيئتهم وحياتهم ومن الطبيعة التي يرون ، فمن الطبيعي أن تتحد معانيهم أحياناً وأن تتقارب وتمائل أحياناً ، وليس في اتحادها أو تقاربها ما يقطع بأن فيها سرقة أو محاكاة ، ما دامت من المعاني العامة الشائعة . وقد ذهب أبو هلال العسكري إلى أن المعاني كلها مشاعة بين الأدباء لا تفاوت فيها بين عربي وعجمي وقروي وبدوي^(١) ، ولكنني أخالفه ؛ لأن المعاني تختلف باختلاف البيئة والثقافة والتجربة ، ولأن بعض المعاني ليس مما تتوافى عنده الخواطر ، إذ هو نتاج عبقرية وفيض إلهام .

فمن المعاني العامة أنهم شبهوا جمال عيون النساء بعيون المها ، وشبهوا خفة النساء ورشاقتهن ولفتاتهن وأعناقهن بالغزلان ، وشبهوا قوامهن بغصن البان وبالرمح ، وقالوا إن نظراتهن ساحرة الخ الخ . .

ومن المعاني العامة أنهم وقفوا على الأطلال وتحسروا على انقضاء عهد سعيد ، وشكوا من العذال والوشاة ، ولست أستطيع اليقين بأن هذه المعاني المتشابهة ناشئة عن المحاكاة وحدها أو من اتحاد العاطفة والبيئة ، وإن كنت أرجح أن المعاني العامة ليست مجالا لكثير من المحاكاة ، لأنها في مقدور كل شاعر ، ولأنها ليست من ابتكار شاعر .

لكنني أحكم بالمحاكاة إذا كان المعنى مما لا يتوافق عليه شاعران ، لأنه من اختراع شاعر ، أو كانت طريقة التعبير عن هذا المعنى جديدة لم يسبق إليها الشاعر ، ثم جاء شاعر آخر بعده فكرر هذا المعنى نفسه أو أضاف إليه شيئاً ليس بذى بال ، أو سلك مسلك الشاعر الذي سبقه في تعبيره وأسلوبه وطريقة تصويره للمعنى وإبرازه له . ولأضرب أمثلة على ذلك :

١ — صور المسيب بن علس^(٢) جمال حبيبته بأن وصف درة في بحر هائج ، بذل

(١) الصناعتين ٥٥

(٢) المسيب مات ٥٨٠ م (شعراء النصرانية ٣٥٠)

الغواصون جهوداً مضنية في اصطیادها ، حتى لقد ترصدوها شهوراً فمجزوا ، ولم يظفر بها إلا صياد صبور طويل خفيف طلى جسمه بالزيت ، وعزم على الظفر بها لأنه مملق يريد أن يستغنى بها ، ولأن أباه حاولها من قبل ففرق ، فهو يريد أن يثأر منها ، فأخرجها لماعة كالجر ، وأعلى ثمنها ، ولما رآها الملاحون ملكت مشاعرهم فسجدوا لها ، وصار الغواص يضمها إلى صدره إعزازاً لها ، ثم قال إن هذه الدرة اليتيمة تشبه الحبيبة وقد أشرقت من خدرها .

ثم جاء الأعشى — وكان راويته وتلميذه وابن أخته — فترسم خطاه في تخيله وتخييله ، وتصرف في تصويره بعض التصرف ، فقال إن هذه الدرة كان يحرسها مارد من الجن ، يراقبها ليله ونهاره ليحميها من يد الغواصين ، وقال إن الغواص الذى ظفر بها كان يترقبها منذ كان شاباً .

قال المسيب :

كجمانه البحرى جاء بها	غواصها من لجة البحر
صلب الفؤاد رئيس أربعة	متخالف الألوان والنجر
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا	ألقوا إليه مقالد الأمر
وعلت بهم سحجاء خارمة	تهوى بهم في لجة البحر
حتى إذا ماساء ظنهم	ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسيه بهلكة	ثبتت مراسيها فما تجرى
فانصب أسقف رأسه أبداً	زعت رباعيته للصبر
أسقى يمج الزيت ملتمس	ظمان ملتبس من الفقر
قتلت أباه فقال أتبعتها	أو أستفيد رغبة الدهر
نصف النهار ، الماء غامره	ورفيقه بالغيث لا يدري
فأصاب منسيته فجاء بها	صدفية كمضيئة الفجر
يعطى بها ثمناً ويمنعها	ويقول صاحبه ألا تشرى ؟
وترى الصراى يسجدون لها	ويضمها بيديه للنحو

فَتَلَّكَ شَبَّهَ الْمَالِكِيَّةَ إِذْ طَلَعَتْ بِهَيْجَتِهَا مِنَ الْخُدْرِ (١)
وَقَالَ الْأَعَشَى (٢) :

كُنْهَـا دَرَّةَ زَهْرَاءَ أَخْرَجَهَا غَوَاصُ دَارِينَ يَخْشَى دُونَهَا الْغُرْقَا
قَدَرَامَهَا حَجَجًا مُذْ طَرَّ شَارِبَهُ حَتَّى تَسْعَسِعَ رِجْوَاهَا وَقَدْ خَفَقَا
لَا النَّفْسُ تَوَّسَّهَ مِنْهَا فَيَتْرَكُهَا وَقَدْ رَأَى الرَّغْبَ رَأَى الْعَيْنَ فَاحْتَرَقَا
وَمَارِدَ مِنْ غَوَاةِ الْجَنِّ يَحْرُسُهَا ذُو نَيْقَةٍ مُسْتَعِدُّ دُونَهَا تَرَقَا
لَيْسَتْ لَهُ غَفْلَةٌ عَنْهَا يُطِيفُ بِهَا يَخْشَى سُرِّي السَّارِينَ وَالسَّرْقَا
فِي حَوْمِ لَجَّةٍ آذَى لَهُ حَدَبٌ مِنْ نَالِهَا نَالَ خُلْدًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ
تِلْكَ الَّتِي كَلَفْتِكَ النَّفْسُ تَأْمَلُهَا وَمَا تَعْلَقْتُ إِلَّا الْحَيْنَ وَالْحَرْقَا (٣)

٢ - كذلك يتشابه ربيعة بن مقروم (٤) والناطقة الذبياني في تصوير سحر الحبيبية وفي طريقة التصوير وأسلوبه .

يقول الناطقة إنها لو تصدت لراهب أشيب أعزب متبتل لاجتذبتة فأطال النظر إليها ، وأرهف أذنيه لسماع حديثها ، وأحس أن حديثها رشاد وهداية وإن خلا من رشاد ، ومن هداية :

لَوْ أَنَهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبْدُ الْإِلَهِ صُرُورَةٌ مُتَعَبِدٌ
لَنَا لِرُؤْيَيْهَا وَحَسَنَ حَدِيثِهَا وَخَالَه رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدْ (٥)
وقال ربيعة بن مقروم إنها قديرة على أن تصبي الراهب الأشيب الذي أشرب
الرهبانية ، وباعد الشيب بينه وبين اللذات ، فهو في ديره دائم الضراعة والعبادة

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٢ وقد سبق شرحها في فصل الجمال

(٢) مات الأعشى ٦٢٩ م (شعراء النصرانية ٣٥٧)

(٣) ديوان الأعشى ٢٣٠ وقد سبق شرحها في فصل الجمال

(٤) شاعر مخضرم (شرح المفصليات ١/ ١٧٨) والناطقة مات ٦٠٤ م (شعراء

النصرانية ص ٦٤٠)

(٥) ديوان الناطقة ٣٠

حتى ضنى واغضوضن وجهه واخدودد لحمه ، ولاكنه لو عرضت له هذه الحبيبة
وتصدت لتسحره لبلغت منه ما تريد ، فصبا ، وهم أن يهجر ديره ويخلع رهبانيتها :
لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الذرى مبتتل
جائر ساعات النهار لربه حتى تحدد لحمه مستعمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه بتزل^(١)
٣ — وصور سويد بن أبي كاهل اليشكري^(٢) حلاوة حديثها وجاذبيتها
بالقدرة على اجتذاب الوعول من أعالي الجبال :

ودعتنى برقها إنها تنزل الأعصم من رأس اليفع^(٣)
فأشبهه النابغة في هذا التصوير أو أشبه هو النابغة لأنهما متعاصران :
وإن ضحكت للعصم ظلت دوانيا إليها وإن تبسم إلى المزن يبرق^(٤)
٤ — وقال المرقش الأصغر : ليست الخمر الطيبة الريح المعتقة التي ثوت في دنها
عشرين عاماً بنجوة من الهواء ، ووفد بها على جيلان تجار من اليهود يبالغون في
ثمناها ، ليست بأطيب من فم المحبوبة ليلا ، بل إن فاهها ألد وأطيب :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها تُعلّى على الفاجود طوراً وتُقدح
ثورت في سباء الدن عشرين حجة يُطان عليها قرمدٌ وتروّح
سبهاها رجال من يهود تواعدوا لجيلان يُدنيها إلى السوق مُربح
بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً من الليل بل فوها ألد وأنصح^(٥)

فحاكاه الأسود بن يعفر^(٦) في قوله إن ريقها كأنها بعد النوم ممزوجة بخمر
صرف تخيرها الخمارون ، قد ثوت في دن نصب على نصائب لتعرضه للريح والشمس ،

(١) الأغاني ٩٢/٢٠ . مستعمل : جاد في عبادته حتى تعب .

(٢) مات ٦٠٠ م (شعراء النصرانية) ٤٢٥

(٣) المفضيات ١٩٠/١ (٤) ديوان النابغة ٣٩

(٥) جهر أشعار العرب للقرشي ٢١١ والمفضليات ٤٢/٢

(٦) المرقش الأصغر ٥٧٠ م (شعراء النصرانية ٣٢٨) والأسود بن يعفر ٦٠٠ م

(شعراء النصرانية ٤٧٥)

وكأنه من طيب رائحته قد وضعت عليه قلادة من فَنَو وريحان ، وقد أحكم غطاؤه
إحكاماً ، وقد ثوى هذا الدن نصف حول بموضع يقال له أَفَانٌ يختبر ويمتحن ،
ويصعد سلماً بعد سلم ، لأنه قد وضع على السطح ليضحي للشمس ويبرز للريح ، ثم
نضجت خمره وبلغت الغاية ، فتعاطتها هذه الحبيبة أو تعاطاها ريقها صهباء من عنب
أبيض ، يغلي صاحبها ثمنها لتجارها وندُّها أو لتجارها وباعها من العجم :

كأن ريقها بعد الكرى اغتَبَقَتْ صِرْفاً تخيرها الحائونَ خُرْطوما
سَلَاةَ الدنِّ مرفوعاً نصائبه مُقَلَّدَ الفَغْوِ والريحان ملثوما
وقد ثوى نصف حول أشهراً جدداً يباب أَفَانَ يَبْتَار السلاطيا
حتى تناولها صهباء صافية يرشو التَّجَارَ عليها والتراجيماً^(١)

ثم أشبههما سحيم في قوله :

كأن على أنيابها بعد هجمة من الليل نامتها سُلافاً مبرداً
سَلَاةَ دنٍّ أو سَلَاةَ ذارعٍ إذا صب منه في الزجاجاة أربداً^(٢)

الحكاية والعاطفة :

لكن هذه الحكاية لا تجرد الشاعر من عاطفته ، لأن الحبين يتفاوتون كثيراً
في مقدرتهم على التعبير ، وحتى القادون على التعبير تختلف قدرهم باختلاف مواهبهم
لذا قد يجد الشاعر الحب في تصوير غيره لعاطفته إفصاحاً عن عاطفته هو أيضاً فيعجبه
هذا التصوير فيؤثر به . يقول الدس هكسلي Aldous Huxley في قريب من
ذلك : « كما يحاول غير المتمدين أن يحاكي المتمدين وإن لم يكن هذا المتمدين
جديراً بالحكاية فكذلك الحياة تحاول جادة أن تحاكي الفن حتى ولو لم يكن فيه
ما هو جدير بالتقليد ، ومن هنا نشأت الضرورة لوجود فن جميل . وقد ورد

(١) المفضليات ٢١٨/٣ التراجيم : خدم الحمارين وليس هذا المعنى في المعاجم وكذلك
زيادة الياء في الجمع . ويصح أنه يريد التراجمة لأن باعة الخمر عجم يحتاجون إلى من يفهم الناس
كلامهم . الحائون : ج حان وهو الخمار . الخرطوم : أول ما ينزل من الدن . ملثوم : عليه اللثام .
جديد : ج جديد . باب أفان : موضع .

(٢) ديوان سحيم ٤٠ ذارع : زق ملوئل

فى إحدى قصائد دانتي لمحّة عن هذا المعنى ، فقد وصف قبله فى إحدى قصائده ، ثم رأى عاشقين يتبادلان قبله ، فقال : « قبلتها ، لقد قبلها كما وصفت » (١) . ويقول أيضاً : « ليس معنى ضعف الشخص عن التعبير أنه ضعيف المشاعر فآثر العاطفة ، لأن القدرة على التعبير الرائع هبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس ، ومن المؤكد أن عدد المعبرين أقل من عدد المحبين » (٢) .

سادساً : الأسلوب

١ — يتميز أسلوب الغزل بالركة والعذوبة والطلاوة ، وتخير الكلمات الغنية بالعاطفة المثيرة للذكريات ، لأن الغزل ترجمان عن عاطفة الحب ونابع منها ، وهى لا يلائمها إلا هذا الضرب من المقال .

لذا نجد أسلوب الشاعر الواحد يتباين فى القصيدة الواحدة ، فيرق ويعذب فى الغزل ، ويضخم ويفخم فى الفخر أو المدح أو الهجاء أو وصف الصيد مثلاً . ومن أمثلة ذلك :

تغزل امرؤ القيس ووصف الوحش فى قصيدة واحدة ، فكان سهلاً ليناً وادماً فى غزله ، وكان ضخماً متعالياً فى وصفه :

غَشِيَتْ دِيَارَ الْحَى بِالْبَكَرَاتِ فَعَارِمَةٌ فَبُرْقَةُ الْعِيرَاتِ
.....

ظَلَّتْ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِدًا أَعَدَّ الْحَصَى مَا تَقْضَى عِبْرَاتِي
أَعْنَى عَلَى السَّهْمَامِ وَالذِّكْرَاتِ يَسْتَنُّ عَلَى ذِي الْهَمِّ مَعْتَكِرَاتِ

ثم ينتقل إلى وصف الوحش وصيده :

أَرَنَّ عَلَى حُقْبِ حِيَالِ طَرُوقَةٍ كَذَوْدِ الْأَحِيرِ الْأَرْبَعِ الْأَشْرَاتِ
عَنِيفٍ بِتَجْمِيعِ الضَّرَائِرِ فَاحْشٍ شَتِيمٍ كَذَلَقِ الزُّجْ ذِي ذَمَرَاتِ

وَيَأْكُلْنَ بِهَمٍّ جَعْدَةً حَبْشِيَّةً وَيَشْرَبْنَ بَرْدَ الْمَاءِ فِي السَّيِّرَاتِ (١)
ويستمر في أسلوبه هذا .

ونجد مثل ذلك عند طرفة ، يتغزل بقوله :

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْكَرْدِ شَادَنَ مُظَاهِرَ سَمَطَى لَوْلُو وَزْجَدَ
وَتَبَسُّمَ عَنْ أَلْيَ كَأَنَّ مَنْوَرًا تَحُلُّلَ حَرِّ الرَّمْلِ دَعَصَ لَهُ نَدَ
وَوَجْهَ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رَدَاءَهَا عَلَيْهِ نَقَى اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّ

وَفِي الْقَصِيدَةِ نَفْسَهَا يَصِفُ النَّاقَةَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

وَأِنِّي لَأَمْضَى الْهَمِّ حِينَ احْتِضَارِهِ بِعَوَاجٍ مَرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي
أُمُونِ كَأَلْوَاكِ الْإِرَانِ نِسَائُهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بَرْجَدَ
صَهَابِيَّةِ الْعُثْنُونِ مُؤَجَّدَةَ الْقَرَا بِعَمِيدَةٍ وَخَذَ الرَّجُلُ مَوَارَةَ الْيَدِ (٢)

ويطول القول لو أكثرنا من النصوص الدالة على هذا ، ففي الإشارة غنية .
ومن البديهي أن الغزلين الذين لم يصلنا من شعرهم غير الغزل مثل عمرو بن
حزام يتميز أسلوبهم بالركة والسهولة .

٢ — وكثيراً ما يجنح الشعراء الغزلون إلى أسلوب قصصي يصورون به
عواطفهم ، ويصفون لقاءهم لحبيباتهم ، ويدكرون ما دار في اللقاء ، كما نجد في غزل
امرئ القيس والأعشى وسحيم وغزل عمرو بن حزام .

٣ — وأسلوبهم موجز ، إذ لم يعنوا إلا بالخطوط البارزة ، ولم يحفلوا بالتفاصيل ،
ولو أنهم عنوا بها فذكروا كثيراً مما أهملوا أو بسطوا القول فيما أغفلوا كما يفعل

(١) ديوان امرئ القيس ٥٧ أرن : صوت يريد حمار الوحش . الحقب : الأذن الوحشية
البيض الأنجاز . حيال : ج حائل لم تحمل في سنتها . طروقة : مستعدة للضرب . الأشرات :
القويات . زلق الزوج : حد الرمح الأسفل . ذو ذمرات : صاحب زجر ودفع .

(١) ديوان طرفة ٧ — ١٦ عوجاء : ناقه ضامرة . مرقال : شديدة الإسراع . الإران :
تابوت كانوا يحملون فيه الموتى شبه الناقة في سعة جنبها وشدة خلقها به . نسائها : زجرتها .
البرجد : كساء مخطط . صهابية العثنون : الوبر الذي تحت لحيمها تحالط بياضه حمرة . مؤجدة :
موثقة . القرأ : الظهر

القصاص الغربيون ، ولو أنهم عددوا الشخصيات وأداروا على أسنتها أنواعاً من الحديث ، وأجروا أحاديث على لسان صواحب الحببية مثلاً ، لو أنهم فعلوا ذلك خلَقُوا شعراً قصصياً رائعاً .

ولست أقصد بالإيجاز هذه النواحي البلاغية من حذف وقصر وغيرها ، إنما أريد الإيجاز الذي يدمج المعاني ويركزها . ويكتفى باللمحة ويدع التفصيل ، ويعبر في صور متلاحقة ليس بينها فترة أو سكون أو فاصل .

مثل قول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الرجل

ففي هذين البيتين صور عدة متلاحقة ، والتعبير عنها موجز . ذلك أن الأعشى لم يلبث أن دعا نفسه إلى توديع هريرة على ما في التوديع من مرارة وألم حتى ألحق بهذه الصورة صورة أخرى هي أن الركب وشيك الرحلة ، ثم ألحقها بصورة ثالثة هي أنه استبعد أن يطيق موقف الرحيل . ثم وصفها بأنها غراء ، وألحق الصفة بثانية أنها فرعاء ، وبثالثة أنها صقيلة ، ورابعة أضافت إلى هذه الصور حركة وحياة أنها تمشى متمهلة مترفقة الخطأ كما يمشى الوجى في طريق موحل أو كما يمشى الوجى وهو خائف يترقب (الرجل أو الوحل) .

المحاكاة في الأسلوب :

مما يكشف عن المحاكاة أن يتشابه الأسلوبان كما مر في أسلوب المسيب والأعشى ، وفي أسلوب المرقش والأسود بن يعفر ، وما أشك في أن هذا الأسلوب الذي تذكر فيه أداة نفي ويذكر بعدها شيء ، ثم يوصف هذا الشيء ، ثم يجيء الخبر اسم تفضيل مسبوق بالباء ، ما أشك في أن هذا الأسلوب نادر في اللغة العربية نادرة تخولني أن أحكم بأن الشاعر اللاحق قد حاكى فيه السابق .

وذلك كقول قيس بن الحداية :

وما إن خذولٌ نازعت جبل حابل لتنجو إلا استسلمت وهي ظالع

بأحسن منها ذات يوم لقيتها
فما نُطِفَةٌ بالطود أو بَصْرِيَّة
يطيف بها حرانُ صَادٍ ولا يرى
بأطيب من فيها إذا جُبَّتْ طارقاً
ثم قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة
خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلٌ
مؤزرٌ بعميم النبت مكتهل
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٢)

ثم اقتفى سحيم أثرها أو أثر أحدهما في قوله :

فما بيضة بات الظلم يحفها
ويجعلها بين الجناح ودقه
فيرفع عنها وهي يبيضاء طلة
بأحسن منها يوم قالت : أراحلُ
وفي قوله :

وما دمية من دُمَى مَيْسِنَا
بأحسن منها غداة الرحي
ن مُعْجِبَةٌ نَظَرًا واتصافا
ل قامت تُرائيك وَحَفًا غَدَا^(٤)

وكذلك صنعت الخنساء وإن كان أسلوبها في الرثاء :

فما عجول على بَوٍّ تُطِيفُ به
ترتع مارتعت حتى إذا أدكرت
لاتسمن الدهر في أرض وإن رُبعت
قد ساعدتها على التحنن أظآر
فإنما هي إقبال وإدبار
فإنما هي تحنان وتجسار

(١) الأغاني ٦/١٣ خذول : ظبية تعطف على ابنها . اخضلت : نعمت

(٢) شعراء النصرانية ٣٦٧ كوكب شرق : زهر أبيض

(٣) ديوان سحيم عبد بن الحسحاس ١٨ . الزف : الریش . وحفا : أسود

(٤) ديوان سحيم ٤٣ ميسنان : موضع بالشام . وحف : شديد السواد كثيف لين .

غداف : أسود طويل .

يوماً بأوجد منى يوم فارقتى صخر ولددهر إحلاء وإمرار (١)
ولقد يكون الاتفاق في بعض التعابير دالاً على المحاكاة أيضاً مثل قول النابغة
لو أنها عرضت لأشخط راهب عبد الإله ضرورة متعبد
لنا لرؤيتها وحسن حديثها ونحاله رشداً وإن لم يرشد
وقول ربيعة بن مقروم :

لو أنها عرضت لأشخط راهب في رأس مشرفة الذرى مقبتل
جار ساعات النهار لربه حتى تحدد لمحمة مستعمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه بتنزل
فالشطر الأول من البيت الأول واحد في قول النابغة وقول ربيعة ، وفي البيت
الثالث اتفاق في (حسن حديثها) وتشابه بين (لنا لرؤيتها) و (لصبا لبهجتها)
والفكرة واحدة في القولين ، وهذا يرجح أو يؤكد أن ربيعة جرى على أثر النابغة
وحاكاه .

كذلك تتبين المحاكاة في الانتقال من الغزل إلى غيره ، فمثلاً تغزل المسبب
ابن علس ، ثم انتقل إلى وصف ناقته بقوله :

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت بحميصة سرح اليدين وساع (٢)
وأخذ يفتن في وصف الناقة .

وصنع سحيم مثل ذلك فقد تغزل ، ثم انتقل إلى وصف الناقة ، وذكر أنها وسيلته
في التسلي كما ذكر المسيب .

فلولا تسلي النفس عنك بمجسرة لها حين تكبو الناجيات رسم (٣)

وتغزل امرؤ القيس ثم انتقل إلى وصف ناقته التي تسليه همه بقوله : دع هذا
الغزل وسر عن نفسك الهم بناقتك :

(١) ديوان الحسناء ٧٦ وخزانة الأدب البغدادى ٢٩٢/١ طبعة دار العصور . عجول :
ثكلى . تجسار : حنين . بو : ولد الناقة
(٢) ديوان المسيب بن علس (ملحق بديوان الأعشى)
(٣) ديوان سحيم ٣٧

فدع ذا وسل المم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجراً^(١)

فما كاه سحيم إذ انتقل إلى وصف ناقتة بقوله :

فدع ذا وسل المم عنك بجسرة جُمَالِيَّةٍ تُنَبِّي القَتودَ ضلوعها^(٢)

ولم يحاكمه في طريقة الانتقال فحسب ، بل اقتبس الشطر الأول من البيت .

سابعاً : الأصالة والصدق

هذا الغزل يمثل الطبع العربي والبيئة العربية ، حتى الغزل الحسي الذي نشأ دخيلاً لم يفرق في حسيته وتكشفه كما أغرق من بعد في شعر أبي نواس وبشار والحسين الضحاك وكثير من شعراء يتيمة الدهر كابن سكرة ، لأن الخلق العربي كان في العصر الجاهلي فتى غلاب ، أما بعد ذلك فقد انحل وخضع لمؤثرات أجنبية شتى ، ففحش تعبيره ، وتناول الذكور كما تناول الإناث .

وقد سبقت أمثلة شتى دالة على أصالته ، كوصف الغزلين لجمال المحبوبة وتجميلها ونفسيتهما وأخلاقها ، وكوقوفهم بالأطلال وحرصهم على ذكر الأماكن بأسمائها ، واستمدادهم الصور من البيئة في ذلك كله .

وقد سبق أن الغزل العذري وليد عاطفة حادة تغلب فيها الروحانية نزوات الجسد ، وقد أحسن شعراؤه تصوير مشاعرهم في صدق وقلة مغالاة ، وسبق أن الغزل الحسي وليد شهوة ولذة ، وقد صدق شعراؤه أيضاً في التعبير عن أحاسيسهم فلم يحبسوها ولم يغالوا في الترجمة عنها .

ولكننا نجد الشعراء بعد ذلك يغالون في تصوير مشاعرهم فمثلاً يقول أبو

الطمحان القيني :

هل الوجد إلا أن قلبي لودنا من الجرقيد الرمح لاحترق الجمر

ويقول العباس بن الأحنف :

يا قابس النار قد أعيت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبي بمقياس

(١) ديوان امرئ القيس ٧٠

(٢) ديوان سحيم ٥٣

ويقول المتنبي :

جربت من حرّ الهوى ما تنطفئ نار الغضا وتكحلّ عما يحرق

ويقول :

بجسمى من برته فلو أصارت وشاحي ثقب لؤلؤة لجالا

ولولا أنني في غير نوم سكنت أظنني مني خيالا

ويقول مجنون ليلى :

ألا أنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

ويقول ديك الجن .

ولو أن أحداث الزمان أردنني بخير وشر ما عرفني مكاني

وقد يبالغون في وصف دموعهم مبالغة ممجوجة تدل على خلاء من العاطفة ، وعلى أنهم متصنعون متكلفون ، مثل قول أحدهم :

لا أبتغي سقيا السحاب لها في مقالي خلف من السقيا

وقول ابن المعتز :

مررت على الفرات وليس تجري سفائبه لنقصان الفرات

فلما أن ذكرتك فاض دمعى فأجراهن جرى العاصفات

وقول ابن طباطبا :

فما مدّ واديكم ولان أديمه ولكنني أمددته بدموعي

على أنهم إذا كانوا يبالغون متأثرين بالمقل لا بالعاطفة فإنهم لجئوا أحيانا إلى معان عقلية صرف لا تمت إلى العاطفة بسبب ، مثل قول أبي الشيبان إنه يستلذ اللوم في حبها ، وإنه صار يحب أعداءه لأنهم يشبهونها في الصد والبخل بما ينفعه ، وإنه صار يهين نفسه لأنها مهينة عندها :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة في هواك لذينة حبا لذكرك فليأمني اللوم

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم

وأهنتني فأهنت نفسي عامداً ما من يهون عليك ممن يكرم^(١)

ثامناً : الحيوية والقوة

أريد بالحيوية الصفات التي كفلت لهذا الغزل أن يتخطى الأحقاب ويغالب عوادي النسيان والإغفال ، فيبقى خالداً يروى ويدرس ويحاكى ويبعث الإعجاب . وهل أدل على حيويته وقوته من بقاءه قوى التأثير في الشعر الإسلامي والعباسي والمعاصر ؟

وقد أسلفت في الفصول الماضية كثيراً من ضروب هذا التأثير .

وإذا كان اللاحقون يحاكون السابقين في بعض مناحي غزلهم كالوقوف بالأطلال ووصف الجمال ... الخ فإن هذا أمر طبيعي ؛ لأن المحاكاة غريزة ذات آثار شتى في الحياة ، تضرب جذورها في أعماق الإنسان والحيوان ، والحب عاطفة شائعة في الأحياء ، ومظاهره وآثاره قوية التشابه في الناس ، فليس من البعيد أن يتشابه تصوير الناس لجوهره في البيئات المتباينة والأجيال المتعاقبة وإن اختلفوا في وسائل التصوير .

لكن شعراء العصر الإسلامي والعباسي شابهوا شعراء العصر الجاهلي في التعبير عن الحب ، وشابهوهم أيضاً في وسائل هذا التعبير وفي كثير من حواشيه وفروعه ، مما يدل على حيوية الشعر الجاهلي وقوة نفاذه إلى القلوب وقدرته على تمثيل عواطف قائله ، لأنه ليس تعبيراً عن عاطفة فردية بل هو تعبير عن النفس الإنسانية ، تعبير عن عاطفة خالدة يتساوى في رجاها الناس جميعاً .

ومن الإنصاف أن أقرر أن هذه الحيوية لم تكن وحدها السبب في محاكاة الشعراء للشعر الجاهلي ؛ لأن هناك عوامل أخرى أسهمت معها ، لعل أهمها سلطان الوراثة الذي كان ينفو بكثير من الشعراء المنحدرين من أصل عربي إلى محاكاة أسلافهم ومشابهتهم في شعورهم وتعبيرهم ، وسلطان اللغة والأدب الذي كان يجنح بالشعراء المستعربين إلى محاكاة القوالب التي درسوها ، ولست أزعم أن الجمود وحده كان

ذا سلطان على نفوس الشعراء ربطهم بآثار القدماء ؛ لأن الجود لم يكن من سمات العلماء والفقهاء وغيرهم سواء انحدروا من أصل عربي أو غير عربي ، فلماذا يختص بالشعراء وحدهم ؟ ولو أن الجود من طبيعة العربي لكان أولى به أن يقيد رجال الفكر قبل أن يغفل رجال العاطفة والروح .

وقد تجلى تأثير الشعر الجاهلي فيما بعده من ناحيتين :

١ — من حيث المعاني .

متح شعراء الجاهلية معانيهم وخيالهم من بيئتهم ، فغزلهم أصيل نابع من نفوسهم ، فهم حين يشبهون المحبوبة مثلاً بالشمس أو البدر أو الدرة أو المهاة يستمدون من البيئة أجمل ما فيها ويلحقون جمال المحبوبة به .

لكن الذين بعدهم حاكوهم ، أحياناً لأن البيئة واحدة ، وأحياناً لأنهم مأخوذون بمحیوية هذا الشعر الجاهلي وصدقه وقوته .

فمثلاً عمر بن أبي ربيعة يشبهه محبوبته كما شبهها الجاهليون . يشبهها بالدرة في قوله :

درةٌ من عقائل البحر بكرٌ لم تنلها مثاقب الآل^(١)
وبالقمر في قوله :

كم قد ذكرك لو أجدى تذكركم يابشبه الناس كل الناس بالقمر^(٢)
وبالشمس في قوله :

لم أحسب الشمس بليلى بدت قبل لذي لحم ولا ذى دم^(٣)
وبالمهاة في قوله :

مهاتان شيعتا جوذرا أسىلا مُقلدُه أحورا^(٤)
وقد مر بنا أنه يحاكي امرأ القيس في كثير من تصويره للديب والاتصال .
فمثلاً قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

(٢) الأغاني ١/١٠٧

(٤) الأغاني ١/١٥١

(١) الأغاني ١/٢١٣

(٣) الأغاني ١/١٨٨

فقال عمر :

فلما تقضى الليل إلا أقله وكادت أوالى نجمه تتغور
وغاب قير كنت أرجو غيوبه وروح رعيان وتوم سمر
.....

وقال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراساً لو يسرون مقتلى
فقال عمر :

أريتك إذ هُنا عليك ألم تخف رقيباً وحولى من عدوك حُضر
وقال امرؤ القيس :

فقلت يعين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
فقال عمر :

وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أو ترعوى أو تفكر؟
وشبه المرار بن منقذ حبيته بالشمس ، وبالدمية كما شبه الجاهليون ، قال :
أملح الخلق إذا جردتها غير سَمَطَيْن عليها وسُور
لحسبت الشمس فى جلبابها قد تبدت من غمام مُنْسَفِرٍ
صورة الشمس على صورتها كلما تغرب شمس أو تذر^(١)
وقال :

قد نرى البيض بها مثل الدمي لم يخنهن زمان مقشعر^(٢)
وصور كُمير جاذبيتها بأنها قديرة على أن تنزل الوعول من أعلى الجبال إلى
السهل الذى فيه الحمبية ، كما صور شويد بن أبى كاهل وغيره .

وأدبتنى حتى إذا ما ملكتنى بقول يُحِيلُ العصم سهلاً الأباطح
تناهيت عنى حين لالى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح^(٣)

(١) المفضليات ٩٠/١ سؤر : أساور . منسفر : منقشع .

(٢) المفضليات ٨٧/١ (٣) حماسة أبى تمام ٩٨/٢

وتأثر جران العود النمرى بالنابغة وربيعة بن مقروم في تصويرها لجاذبية المحبوبة بأنها تفتن الراهب كما سبق . فقال :

ينازعنا لذا رخيماً كأنه عواثر من قطر حдахن صيف
رقيق الحواشي لو تسمع راهب يبطنان قولاً مثله ظل يرجف^(١)
وفي غزل البارودي كثير من التصوير البدوي ، لأنه كان كلفا بمحاكاة
الشعر القديم . فمثلاً يقول إن قوامها ألين من الرمح ، ولخطها أمضى من السيف ،
وقوامها غصن بان ، وخدها ورد وجلنار :

ذو قوام أعدى من الرمح ليناً ولحاظ أمضى من السيف حدأ
غصن بان قد أطلع الحسن فيه بيد السحر جلنارا روردا^(٢)
ويقول .

ألقته في شرك المحبة غادة هيهات ليس بصاحبي إن أفلتا
كالورد خدأ والبنفسج طرّة والغصن قدأ والغزاة ملفتا^(٣)

٢ — أما من حيث الأسلوب فيمكن أن أضرب مثلاً للمحاكاة في طريقة العرض
وإبراز المعنى ، هي أن بعض شعراء الجاهلية كانوا يصفون شيئاً ويسبقون وصفهم
بنفى ، وينسابون في هذا الشيء وتزيينه حتى إذا ما بلغوا الكمال الذي يريدون
جاءوا باسم التفضيل ليدلوا به على أن هذا الشيء ليس بأحسن من المحبوبة ، مثل
قول قيس بن الخطيم :

فما ظبية من ظباء الحسا عيطاء تسمع منها بُغاما
ترشح طفلاً وتحنو له بحقف قد انبت بقلأ ثؤاما
بأحسن منها غداة الرحيب سل قامت تريك أثيثاً رُكما
وقول الأعشى :

(١) ديوان جران العود ٢١ عواثر : قطرات
(٢) ديوان البارودي ٢٣٦/١ شرح الجارم ومعرّوف
(٣) المرجع السابق ٩٤/١

ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعيم النبت مكتمل

.....

بوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل
ثم حاكمهم من بعدهم في هذا الأسلوب ، مثل قول جميل بن معمر:

وما صائب من نابل قذفت به يد وممر العقدين وثيق
له من خوافي النسر حم نظائر وبصل كنفصل الزاعي فتيق
على نبعة زوراء أما خطامها قمتن وأما عودها فعتيق
بأوشك قتلا منك يوم رميتني نوافذ لم تظهر لهن خروق^(١)
وقول حافظ إبراهيم:

ما البالية في صفاء مزاجها والشرب بين تنافس وسباق
والشمس تبدو في الكتوس وتختفي والبدر يشرق من جبين الساق
بأذن من خلق كريم طاهر قد ما زجته سلامة الأذواق^(٢)

(١) الأغاني ٨٨/٧ ساسي و ١٢٣/٨ دار الكتب . حم نظائر : المراد ريشات سود متشابهة . زاعي : رمح شديد الاهتزاز كله . فتيق : حاد دقيق . نبعة : شجر تتخذ منه أجود القسي . زوراء : معوجة ليكون سهمها أمضى . خطام : وتر . متن : قوى .
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ٢٨٠/١

خاتمة المطاف

أما بعد :

فأمل أن تكون هذه الرسالة قد شعت على الحياة العربية نوراً يكشف عن مجهول أو مستور ، ولعلنى على حق فى أن أطرب لهذا الشعور ، وأن أغتبط بالنتائج التى وصلت إليها غبطة تسينى ما كابدت وما عانيت . كالزارع الذى كدّ وكح ، وتفصّد جبينه بالعرق ؛ إذا ما رأى غمره قد استحصد وأينع ثمرته المشاشة والطرب ، ونسى ما احتمل من جهد ومن نصب .

وقد زادتني هذه الدراسة يقيناً بأن الأدب العربى فى حاجة إلى أن يُدرّس بأسلوب جديد يكشف عن ينابيعه ، ويسايره وهو يسرى فى جداول تروى ما حولها ، وتحمل مما فى مجراها وحول ضفافها ، حتى ينتهى بها المطاف إلى أن تصب فى ينابيع جديدة ، فى بيئات آخر ، وفى عصور لاحقة . فندرسه على أنه مصدر لفهم الحياة العربية وتصويرها فى شتى مناحيها ، كما بينت فى المقدمة . وندرس الغزل لأنه ذو قيم عظيمة كما بينت فى الفصل الأول .

وقد اهتمت بهذه الدراسة إلى أن الشعر الجاهلى هو الصدى القوى الصحيح للحياة العربية ، نفّس به الشعراء عن عواطف صادقة حية ، وتغنوا به ما اختلج بنفوسهم من آمال وآلام ، وأودعوه قدرهم على التخيل والتعبير ، وهدرُوا به مصوراً ميولهم ونزعاتهم وأخلاقهم ودخائل نفوسهم ، فمن أراد أن يتصور الحياة الجاهلية ويصورها للناس واضحة المعالم بارزة القسّمات فليعمد إلى الشعر الجاهلى يستنطقه ويستخره .

وانتهيت إلى أن الغزل العذرى وليد العصر الجاهلى لا الأموى ، وإذاً فهذه القصص — التى رويت عن العشاق فى العصر الأموى ، وكان لها أثر عظيم فى الغزل وفى قصص الغرام بأوروبا فى المصور الوسطى — امتداد لقصص العشاق العذريين فى العصر الجاهلى ، ومتأثرة بها ، وملوّنة بألوانها .

ورأيت أن الغزل الحسى يجافى الأخلاق العربية ، ونظام الاجتماع العربى ، وتكشف لى أنه فسائل صغار نقلت من الحبشة إلى بلاد العرب ، ولكنها ما لبثت أن امتدت فى أعماق الثرى جذورها ، واستغلظت سوقها ، وبسقت فروعها ، وأثمرت ، وكان الغزل الحسى ثمرها ، وإذا فلم يكن الشعر الجاهلى بنجوة من تأثير الأمم الأخرى .

واهتديت إلى أن الغزل الجاهلى أصدق فنون الشعر ، وأجدرها بالدراسة ، وأقواها أثراً فيما بعده من أعصار ، تعبيراً وتصويراً وطريقة عرض . وليس مرد هذا إلى حيويته وحدها ، وإنما مرده إلى هذه الحيوية التى لا ريب فيها ، وإلى بواعث آخر كانت تجنح بالشعراء إلى محاكاة القدماء . منها جلال القديم وروعته ، ومنها التعصب له والإعجاب به ، ومنها باعث آخر يكاد يكون ضرباً من الجود هو الدعة إلى المؤلف ، والاطمئنان إليه ، والجولان فى نطاقه ، بحيث لا يعنى الشاعر نفسه كثيراً فى الابتكار والتميز بضرب من فن القول ينصب لصاحبه تمثالا فريداً فذاً فى معرض البلغاء .

وقد جنى هذا التقليد على الشعر وعلى الشعراء ، لأنهم حبسوا عواطفهم فى مجال السابقين ، فمرت على الشعراء أحقاب تلو أحقاب ، وتغيرت عليه بيئة بعد بيئة ، ونطق به جيل من الشعراء بعد جيل ، ولكنه فى عصوره المختلفة ، وبيئاته المتباينة ، وعلى أسنة قائله من شتى الأمم — صدى للشعر الجاهلى فى أغراضه ومعانيه . ولولا هذا التقليد لتفجرت عواطف بعض الشعراء الغزلين بقصص غزلية ، وبأفانين من الغزل تستوحى البيئة والزمن .

واتضح لى أن العرب لم يكونوا — كما قيل — شعباً مادياً عمياً عن الجمال المعنوى والنفسى ، وإنما كانوا ذوى بصيرة بالجمال المعنوى والمتعة النفسية ، لذلك قدروا جمال المرأة جسداً ونفساً ، وصوروا حبهم لها وحنينهم إليها واستئسارهم لجمالها تصويراً شائقاً صادقاً جذاباً .

وما أشك فى أن أصدق الغزل وأشدّه حرارة وأبعده عن التكلف والزخرف هو ذلك الذى تغنى به الشعراء عواطفهم فى العصر الجاهلى وفى الأموى . فإلى

أى شيء نرد ذلك ؟ أئزده إلى أن الشعر العاطفى لون من القول لا تجيده الأمم إلا فى بداوتها وسذاجتها ، وأن الحضارة تباعد بين الشعراء والعواطف الفردية الخالصة ، وتطبع شعرهم بطابع التكلف والبهرج والزينة ؟ أحسب ذلك حقاً ، لأن وسائل الحضارة لا شاعرية فيها ، فالقصور الآهلة الحالية بقطانها لا تثير من الشاعر ما تثيره الأطلال ، والسفن والقطر لا تهيج منه ما تهيج النوق ؛ لأن الأطلال تناجى بما لا تناجى به القصور ، ولأن النوق كائنات حية صالحة لأن يشعر نحوها شعوراً وجدانياً لا تُشعره بمثله الوسائل المادية .

فإذا ما وثبنا إلى العصر الحاضر هالدا أن الغزل قليل ، وأن أقله وحى العاطفة الصادقة الحارة العالية ، ولقد يكون مرجع ذلك إلى أن سفور المرأة وتبذلها قد كشف للرجال عن حقيقتها ، وذهب بكثير من وسائل فتونها وإغرائها ، فلم تلهم كما كانت تلهم المرأة المتصونة المحجبة ، ولقد يكون مرجعه أيضاً إلى أن المرأة المعاصرة تراحم الرجال ، وتطالب بالمساواة ، وتزاول من الأعمال ما يزحزح عنها هالة الأنوثة الجذابة ، وبذلك تبدو للرجال كالتمثال الجميل الأنيق من الشمع ؛ لا ينبض بالحياة ، ولا تترقق فيه الروح . ولقد تحسب المرأة أنها قد انتصرت ، ولكنها واهمة ، لأنها كسبت قليلاً يرضى غرورها ونزقها ، وخسرت كثيراً كان خيراً لها . خسرت سلطان الجمال الذى كانت تغزو به قلوب الرجال .

ولقد يكون مرد ذلك أيضاً إلى أن الناس قد عكفوا على المادة عكوفاً طمرَ معين الشاعرية ، فلم يعودوا يحفلون بغير المتع الحسية ، ومغانم المال والجاه ، حتى ليسمون من يتعلق بالمتع الروحية (خيالياً) .

وقد تبينت من هذه الدراسة أن المرأة التى تنسل للأمة الأطفال ، قديرة على أن تلهم الرجال ، وتهذب الخلال ، وتحبب البطولة إلى الأبطال . لذلك أطمح إلى أن تكون المرأة المصرية والعربية ملهمة ومهذبة ، وذات خلق عظيم ، ومعتزة بكرامتها وشخصيتها ، ومشاركة للرجال فى الحياة العامة بالقدر الذى لا يطنى على أنوثتها ، ولا ينسبها أنها أم. وربة بيت ترام أبناءها ويسكن إليها زوجها .

وأثوق — إذا ما كان بين فتى وفتاة حب — أن تكون الفتاة ملهمة لغزل

روحي عفٍّ ، وأن يكون هذا الحب حافظاً إلى المجد والوطنية والابتداع والتفوق
في شتى نواحي الحياة .

وأدعو الشباب المصري والعربي إلى أن يعكف على دراسة الأدب العربي ،
ويتذوق الأدب الغربي ، ليستمد منه غذاء لروحه ، ورِياً لعواطفه ، وحياة لقلبه .
فإذا ما عبر محب عن حبه جلاه في أدب مستور عف ، ينبىء عن سمو العاطفة التي
أزجته ، وصفاء الروح التي أملتته ، ويهذب من عواطف القراء ، ويخلق بهم
في سماء الخيال الرفيع ، والوجدان الحى . فليس الأدب ترجمة للفراغ ، وتلهية
للبطالة ، وتغذية للميول المنحرفة ، وإنما الأدب رسالة الحق والخير والجمال .

المراجع

١ — المراجع العربية (مرتبة ترتيباً هجائياً)

(١)

- ١ — إحياء علوم الدين ، الغزالي . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٤٠ هـ .
- ٢ — أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام ، شرح حسن السندوني . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .
- ٣ — أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .
- ٤ — إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، القسطلانى طبعة بولاق .
- ٥ — الأسرة والمجتمع ، الدكتور على عبد الواحد وافي .
- ٦ — أشعار النساء للمرزبانى [٣ مخطوط بدارالكتب ٤٢٨٩٨ (٨ ش أدب)]
- ٧ — الإصابة فى تمييز الصحابة ، ابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .
- ٨ — الأصمعيات من مجموع أشعار العرب ، نشره وليم بن الورد البروسى . طبعة ليبسغ .
- ٩ — الأصنام ، هشام بن محمد الكلبي ، نشره أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية ١٣٢٢ هـ ١٩١٤ م .
- ١٠ — الأصول الفنية للأدب ، عبد الحميد حسن ، نشرته مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٩ م .
- ١١ — الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة ، الدكتور موريس الديك . مطبعة الاعتماد بمصر .
- ١٢ — أعلام النساء ، عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق .

- ١٣ — الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، الأجزاء الخمسة الأولى طبعة دار الكتب والأجزاء الباقية طبعة ساسي .
- ١٤ — ألف باء للبلوي . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .
- ١٥ — الإلياذة ، هوميروس ، ترجمة البستاني . مطبعة الهلال بمصر .
- ١٦ — الأمل على القالي ، طبعة دار الكتب .
- ١٧ — إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية ، على بن برهان الدين الحلبي ، الطبعة الثانية . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .
- ١٨ — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ، الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .
- ١٩ — أيام العرب ، محمد أحمد جاد المولى وعلى البجاوي وأبو الفضل إبراهيم .

(ب)

- ٢٠ — بلاغات النساء ، ابن طيفور . مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م
- ٢١ — بلال داعي السماء ، عباس محمود العقاد .
- ٢٢ — بلوغ الأرب في أحوال العرب ، السيد محمود شكري الألوسي ، الطبعة الأولى . مطبعة دار السلام ببغداد ١٣١٤ هـ .
- ٢٣ — البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبى ، الطبعة الثانية . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ م .
- ٢٤ — بين الحبشة والعرب ، عبد الحميد عابدين . مطبعة الاعتماد بمصر .

(ت)

- ٢٥ — تاج العروس من جواهر القاموس السيد محمد مرتضى الزبيدى ، طبع مصر ١٣٠٧ هـ .
- ٢٦ — تاريخ الأدب العربى في العصر الجاهلى ، السباعى ييوى ، مكتبة النهضة ١٩٤٨ .
- ٢٧ — تاريخ الأمم والملوك ، الطبرى . المطبعة الحسينية .

- ٢٨ — تاريخ التمدن الإسلامى ، جرجى زيدان مطبعة الهلال .
- ٢٩ — تاريخ اليعقوبى ، نشره هوتسما . M. Th. Houtsma
- ٣٠ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، الحسين بن المبارك الزبيدى . مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر .
- ٣١ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق ، داود الأنطاكي . المطبعة البهية المصرية .
- ٣٢ — تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) .
- ٣٣ — تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .
- ٣٤ — تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ .
- ٣٥ — تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .
- ٣٦ — تفسير النيسابوى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ، على هامش الطبرى .

(ج)

- ٣٧ — جهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى طالب القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م .
- ٣٨ — جهرة الأمثال لأبى هلال العسكري . طبعة بومبي بالهند .
- ٣٩ — جمهورية أفلاطون ، ترجمة حنا خباز . مطبعة المقتطف ١٩٣٩

(ح)

- ٤٠ — الحب العذرى ، أحمد عبد السلام الجوارى . مطبعة دار الكتاب العربى .
- ٤١ — حديث الأربعاء ، الدكتور طه حسين . مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ١٩٣٧
- ٤٢ — حضارة العرب ، جستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر . الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

- ٤٣ — الحضارة المصرية القديمة ، جستاف لوبون ، ترجمة محمد صادق رسم . المطبعة
العصرية بالقاهرة .
- ٤٤ — الحماسة ، للبحتري . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .
- ٤٥ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي . مطبعة نهضة مصر .
- ٤٦ — الحياة والحب ، إميل لودفيج ، ترجمة عادل زعيتر . مطبعة دار المعارف بمصر .
- ٤٧ — الحيوان ، للجاحظ . طبعة ساسي .

(خ)

- ٤٨ — خزانة الأدب ، البغدادى . مطبعة دار العصور .
- ٤٩ — الخصائص ، ابن جني ، مطبعة دار الكتب .

(د)

- ٥٠ — الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، زينب علي فواز . المطبعة الأميرية
بيولاقي .
- ٥١ — دراسات في علم النفس الأدبي ، حامد عبد القادر . نشرته لجنة البيان
العربي بالقاهرة .
- ٥٢ — ديوان ابن الرومي ، نشره كامل كيلاني .
- ٥٣ — ديوان أبي تمام ، أخرجه محمد محيي الدين .
- ٥٤ — ديوان أبي نواس . مطبعة التقدم بمصر .
- ٥٥ — ديوان الأعشى (الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل)
مع شرح أبي العباس ثعلب ، نشره رودلف جيير Rudolf Geyer ،
مطبعة أدلف هلهوسن ١٩٢٧
- ٥٦ — ديوان امرئ القيس ، شرح السندوبي . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ،
الطبعة الثانية .
- ٥٧ — ديوان أوس بن حجر ، نشره رودلف جيير . طبعة فينا ١٨٩٢

- ٥٨ — ديوان البارودي ، شرح الجارم ومعروف . طبعة دار الكتب ١٩٤٢ ،
ونسخة أخرى شرح محمود الإمام المنصوري .
- ٥٩ — ديوان البحترى . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
- ٦٠ — ديوان جران العود النمرى رواية أبى سعيد السكرى . طبعة دار الكتب
١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م .
- ٦١ — ديوان جرير . المطبعة العلمية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ٦٢ — ديوان حاتم طى . طبعة بيروت .
- ٦٣ — ديوان الحادرة (قطب أو قطبة بن أوس بن محصن) إملاء أبى عبد الله
اليزيدى ، نشره دكتور أنجلمان Dr. G. Engelmann . طبعة برل .
- ٦٤ — ديوان حافظ إبراهيم ، طبعة دار الكتب .
- ٦٥ — ديوان حسان بن ثابت ، نشره محمد شكرى المكى . مطبعة الإمام بمصر
١٣٢١ هـ .
- ٦٦ — ديوان الخطيئة بشرح أبى الحسن السكرى . مطبعة التقدم بمصر .
- ٦٧ — ديوان ذو الرمة ، نشره كارليل هنرى هيس مكارتنى Carlile Henry
Hayes. Macartney . مطبعة كلية كمبرج ١٣٣٧ هـ ١٩١٩ م .
- ٦٨ — ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ، بتحقيق عبد العزيز الميمنى . طبعة
دار الكتب ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م .
- ٦٩ — ديوان سلامة بن جندل رواية أبى سعيد الأصمى وأبى عمرو الشيبانى وأبى
العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول ، نشره الأب لويس شيخو
اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٠ م .
- ٧٠ — ديوان شوقى (الشوقيات) .
- ٧١ — ديوان الصبابة ، تأليف شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة . على هامش تزيين
الأسواق . المطبعة البهية المصرية .
- ٨٢ — ديوان طرفة بن العبد مع شرح الأعلام الشنتمرى . مطبعة برطند بمدينة
شالون ١٩٠٠ م .

- ٧٣ — ديوان عامر بن الطفيل العامري ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، نشره المستشرق السير تشارلس ليال Lyall .
- ٧٤ — ديوان عبيد بن الأبرص ، نشره ليال .
- ٧٥ — ديوان عروة بن الورد وعليه شرح ابن السكيت . طبعة بيروت .
- ٧٦ — ديوان علقمة الفحل ، طبعة بيروت .
- ٧٧ — ديوان عمر بن أبي ربيعة . مطبعة البلاييدي بيروت .
- ٧٨ — ديوان عنتر بن شداد ، نشره عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي . مطبعة شركة فن الطباعة بمصر .
- ٧٩ — ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .
- ٨٠ — ديوان قيس بن الخطيم ، نشره رودلف جيير ١٩١٤ ، طبعة فينا .
- ٨١ — ديوان لبيد نشره دكتور هابر Dr. A. Huber طبعة ليدن ١٨٩١ م
- ٨٢ — ديوان المتنبي ، شرح البرقوق . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م
- ٨٣ — ديوان المسيب بن علس (ملحق بديوان الأعشى) نشره رودلف جيير ١٩٢٧ م .
- ٨٤ — ديوان معن بن أوس المزني رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادى ، نشره باول سكوارز . Paul Schwarz لينزج ١٩٠٣ م
- ٨٥ — ديوان مهيار الديلمي ، طبعة دار الكتب ١٣٤٥ هـ ١٩٢٥ .
- ٨٦ — ديوان النابغة الذبياني وعليه شرح البطليوسي ، طبعة بيروت .
- ٨٧ — ديوان نابغة بني شيان ، طبعة دار الكتب ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م .

(ذ)

- ٨٨ — ذيل الأمالي ، أبو علي القالي . مطبعة دار الكتب .

(ر)

- ٨٩ — رسائل إخوان الصفا ، طبعة بومبي .
- ٩٠ — رسائل العشق لابن سينا ، من جامع البدائع . مطبعة السعادة بمصر ١٩١٧

- ٩١ — رسالة العشق والنساء ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٢ — رسالة نحر السودان ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٣ — رسالة القيان ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٤ — الرق فى الإسلام ، أحمد شفيق بك . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
٩٥ — الروض الأنف فى شرح سيرة ابن هشام ، السهيلي . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

(ز)

- ٩٦ — الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الظاهري ، نشره المستشرق ا . ر . نيكل .

(س)

- ٩٧ — سحر العطور ، الدكتور أحمد على الشحات . نشرته لجنة البيان العربى بالقاهرة .
٩٨ — سفر أشعيا .
٩٩ — سيرة ابن هشام ، نشره محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .

(ش)

- ١٠٠ — شاعر الغزل ، عباس محمود العقاد . مطبعة المعارف بمصر .
١٠١ — شرح ديوان الحماسة ، التبريزى . مطبعة بولاق .
١٠٢ — شرح المفضليات ، ابن الأنبارى .
١٠٣ — شرح نهج البلاغة ، ابن أبى الحديد . مطبعة البابى الحلبي .
١٠٤ — شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، دكتور سيد نوفل .
١٠٥ — الشعراء والشعراء ، ابن قتيبة ، تصحيح مصطفى السقا ، الطبعة الثانية .
١٠٦ — شعراء النصرانية ، الأب لويس شيخو اليسوعى . مطبعة الآباء اليسوعيين . ١٨٩١ م .

١٠٧ — الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ، دكتور شوق ضيف .

(ص)

١٠٨ — الصناعتين لأبى هلال العسكري ، الطبعة الثانية . مطبعة صبيح .

(ط)

١٠٩ — طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحى . مطبعة السعادة بمصر .

١١٠ — طهارة العرب ، أحمد الشنقيطى .

١١١ — طوق الحمامة فى الألفه والألاف ، ابن حزم الأندلسى . مكتبة عرفة بدمشق

(ع)

١١٢ — العقد الفريد ، ابن عبد ربه . الجزء الأول والثانى طبعة لجنة التأليف

والترجمة ، والجزء الثالث طبعة المطبعة العامرية الشرفية بمصر .

١١٣ — العقل الباطن ، سادلر . ترجمة عباس حافظ .

١١٤ — علم النفس الفردى ، إسحق رمزى ، مطبعة دار المعارف بمصر .

١١٥ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيروانى ، مطبعة أمين هندية .

١١٦ — عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب .

(ف)

١١٧ — فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدى ، عبد الله الشرقاوى ، مطبعة البانى
الحلبى بمصر .

١١٨ — فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الثانية .

١١٩ — فقه اللغة وسر العربية ، الثعالبى ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٦ هـ

١٩٢٧ م .

١٢٠ — فلسفة الجمال ، جاريت ، ترجمة عبد الحميد يونس وزميليه .

١٢١ — فوات الوفيات ، ابن شاكر ، مطبعة بولاق .

- ١٢٢ — فى الأدب المقارن ، عبد الرزاق حميدة ، مطبعة العلوم بمصر .
١٢٣ — فى الأدب والنقد ، محمد مندور ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٤٩
١٢٤ — فى علم النفس ، محمد عطية الإبراشى وحامد عبد القادر ، المطبعة المصرية .

(ق)

- ١٢٥ — القاموس المحيط ، الفيروزابادى .

(ك)

- ١٢٦ — الكامل ، المبرد ، طبعة المستشرق ريت . لينزج .
١٢٧ — الكامل فى التاريخ ، ابن الأثير ، المطبعة الأميرية .
١٢٨ — كتاب الخطابة لأرسطو طاليس ، ترجمه وقدمه له الدكتور إبراهيم
سلامه ، مطبعة نخيمر بمصر ١٩٥٠
١٢٩ — كيف تفهم الناس ، الدكتور إبراهيم ناجى .
١٣٠ — كيف يعمل العقل ، سرل برت ، ترجمة محمد خلف الله وفؤاد جلال .

(ل)

- ١٣١ — لسان العرب ، ابن منظور ، مطبعة بولاق .

(م)

- ١٣٢ — المؤلف والمختلف ، الآمدى ، نشره الدكتور فريتس كرنسكو ، مكتبة
القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .
١٣٣ — مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٩ م
١٣٤ — مجمع الأمثال ، الميدانى ، المطبعة البهية المصرية .
١٣٥ — المجلد فى فلسفة الفن ، كروتشة ، ترجمة سامى الدروبي ، مطبعة
الاعتماد بمصر .
١٢٦ — المحاسن والأضداد ، الجاحظ ، مطبعة السعادة بالقاهرة .

- ١٣٧ — محاضرات الأدباء ، الراغب الأصفهاني ، مطبعة الموليحي بمصر .
- ١٣٨ — الحبر ، أبو جعفر محمد بن حبيب ، رواية أبي سعيد السكري ، نشرته
الكتورة إيلزه ليحتن شتير الأمريكية ، مطبعة جمعية المعارف العثمانية
بميدان أباد ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م .
- ١٣٩ — المخصص لابن سيده ، مطبعة بولاق .
- ١٤٠ — المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفي ، الطبعة الثانية ،
مطبعة المعارف ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م .
- ١٥١ — المرأة في التاريخ والشرائع ، جميل بيهم ، بيروت ١٣٣٩ هـ ١٩٢١ م .
- ١٤٣ — المرأة في مختلف العصور ، أحمد خاكي ، مطبعة دار الكتب ١٩٤٧ م .
- ١٤٣ — مراجعات في الأدب والفنون ، عباس محمود العقاد .
- ١٤٤ — مركز المرأة في الإسلام ، السيد الأمير على الهندي ، ترجمة على فهمي محمد
مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .
- ١٤٥ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، السعودي ، مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ١٤٦ — المستطرف من كل فن مستظرف ، الإبيهي ، المطبعة الميمنية بمصر
١٣٠٨ هـ .
- ١٤٧ — مصارع العشاق ، أبو جعفر السراج ، مطبعة الجوائب بالآستانة .
- ١٤٨ — مطالعات في الأدب والحياة ، عباس محمود العقاد .
- ١٤٩ — المعارف ، ابن قتيبة ، المطبعة الإسلامية بمصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .
- ١٥٠ — معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
- ١٥١ — المعلقة العشر ، الشنقيطي ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ .
- ١٥٢ — المفضليات ، الضبي ، شرح شاكر وهارون ، مطبعة المعارف بمصر .
- ١٥٣ — موجز تاريخ الحضارة العربية ، ناجي معروف وعبد العزيز الدروي ،
مطبعة الفجاح ببغداد ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

(ن)

١٥٤ — النابغة الذبياني ، عمر الدسوقي ، مطبعة نهضة مصر .

- ١٥٥ — النوارد ، أبو على القالى ، مطبعة دار الكتب .
١٥٦ — النهاية فى غريب الحديث ، ابن الأثير ، طبعة مصر ١٣١١ هـ .
١٥٧ — نهاية الأرب ، النويرى ، مطبعة دار الكتب .

(هـ)

- ١٥٨ — هذه الشجرة ، عباس محمود العقاد .
١٥٩ — هلال نوفمبر ١٩٣٤ م .

(ى)

- ١٦٠ — اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، جستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر
مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

٢ — المراجع الإفرنجية

- (1) On love. Standhall. Translated by Holland.
- (2) Texts and Pretexts. by Aldous Huxley.
Phoenix. 1935.
- (3) Benham's. New Book of Quotations. London.
- (4) Plato's, Lysis Symposium Gorgias, Edited. by Lamb.
- (5) Greek Love. in The Encyclopaedia of Religion and Ethics.
- (6) Muslem Law. An Historical Introduction to The Law of Inheritance.
by Alexander David. Russell and Abdullah Al Mamun Suhrawardy.
London.
- (7) A Literary History of The Arabs, by Nicholson. London. 1907.
- (8) A History of Arabian Music. by Farmer. London 1929.
- (9) Arabic Literature. by Gibb.
- (10) Psychology of Sex by Havelock Ellis.
- (11) Social Psychology. by Thouless.
- (12) The Back Cround of Islam. by Glaser.
- (13) Histoire Des Papes. Paris 1842.
- (14) La Question Feministe. Rosler.

الفهرس

٦ — ٣

المقدمة

٢٠ — ٧

الفصل الأول

الغزل

حقيقته :

عند اللغويين كابن سيده ، وابن منظور والزبيدي .
عند الأدباء كابن سلام ، وجريز ، ونوفل بن مساحق ، والأصفهاني ، والجاحظ ،
وابن رشيق .
الغزل والنسيب والتشبيب مترادفات .

بواعثه :

جمال المرأة . حبها . الميل إلى التعبير الفني . القدرة على هذا التعبير .
هل يتغزل كل محب ؟ . الغزل تعبير عن عاطفة الحب .

قيمه الفنية :

تصويره لعاطفة الشاعر . صدقه الشعوري والفني . مميزاته من أبواب الشعر
الأخرى . سجل لألوان من الحضارة والأخلاق والعادات . صورة للبيئة . دلالاته
على علو مكانة المرأة المحبوبة . تصويره للعاطفة الإنسانية المشتركة .

صلته بالنفس والعاطفة :

أنواع الحب في رأى ستندال . مناقشة هذا التقسيم . الحب إما عذري وإما حسي .
اهتمام العرب بالحب . اهتمام اللغة به . صلة الغزل بالحب . أثر الغزل في نفس الشاعر
وفي نفوس القراء . العلاقة بين الغزل والفنون الجميلة .

سلطان الغزل على النفوس :

غزل الشعراء من طبقات شتى . احتفاء الناس بسماعه . غزل الشعراء وإن
هددوا بالأذى . غزل بعضهم مع تعرضهم للحرمان من زواج الحبيبات . غزل
بعضهم في زوجته .

٨٦ — ٢١

الفصل الثاني

جمال المرأة

تمهيد :

مظاهر الجمال . ولع الإنسان به .
حقيقة الجمال : موضوعى أم ذاتى أم فيهما معاً ؟
إدراك العرب للجمال : فى الطبيعة ، فى الشعر ، فى المرأة .

جمال المرأة الجسدى :

إدراك الشعراء له . هل أضفوا على جمال المرأة من خيالهم ؟
مقومات جمال المرأة فى نظرهم .

الجمال الجسدى عامة فى نظر الشعراء :

أمثلة من امرئ القيس ، وقيس بن الخطيم ، وكعب بن زهير ، وطرفة

الجمال الجسدى تفصيلاً فى نظر الشعراء :

الطول . اللون والوجه ، بم صوروه ؟ . العين ، بم صوروها ؟
الفم (الشفتان والأسنان والريق) ، افتنناهم فى وصف الريق وتشبيهه ،
تشبيههم الأسنان ، عناية المرأة بأسنانها ، جمال الشفة ، جمال اللثة .
العنق والنحر ، جالهما ، بم شبهوهما ؟ الصدر ، جاذبيته ، جماله .

الشعر ، إعجابهم بطوله وغزارته ، عناية المرأة به ؛ تشبيهه .
المعصم والأصابع ، بم شبهوها . الساق ، بم صوروا جمالها ؟
الوسط (الخصر والردف والبطن) ، جمال كل منها .

جمال المرأة في نظر المرأة :

وصف عصام لبنت عوف ، وصف حواء لثلاث فتيات ، اتفاق وصفهما مع
نموذج الجمال في نظر الرجال .

جمال المرأة النفسى والمعنوى

أثره في الإعجاب بها ، وفي حبها .

أنواعه : الجاذبية العامة ، سحر النظرات ، رشاقة الحركات ، حلاوة الصوت ،
عذوبة الحديث ، سحر البسمات .

العفة : حبهم المرأة العفيفة ، امتداحهم العفة ، شهرة المرأة العربية بالعفة
منذ القدم .

الحياء : صلتها بالعفة ، هل المرأة أقل حياء من الرجل ؟ قسوة شوبهور في هذا
الحكم ، امتداحهم لحياء المرأة ، أثر الحياء والعفة في تقليل الشعراء من الحديث
عن حب المرأة للرجل .

التقلب والغدر : أسبابه ، حديثهم عنه وألمهم منه .

ندرة الكلام : مناقضة هذه الصفة لطبيعة المرأة ، حب الرجال للمرأة النزرة
المقال ، امتداحهم لهذه الصفة .

حب المرأة للمال والشباب : بم تستمال ؟ أكثر الشعراء على أنها تستمال بالمال
والشباب ، وبعضهم على أنها تستمال بالمداينة ، حديثهم عن استمالتها .

الشيب والحب : تفجع الشعراء الشيب على شبابهم ، تصريح بعضهم بأن
الشيب لا يلائم الحب ، استعاضة بعضهم عن الشباب المولى بحديث عن صبوات
الشباب . دفاع بعضهم عن الشيب .

نفسية المرأة وأخلاقيها في الشعر بعد العصر الجاهلى .

نموذج الجمال بعد العصر الجاهلي :

دلالة اتحاد النموذج في رأى الجاهليين ومن بعدهم . جمال الجسد عامة ، أمثلة له :
الشعر ، العين ، العنق ، الأسنان ، الريق ، الثدي ، اللون ، الحديث ، الحركة .

٨٧ — ١١٤

الفصل الثالث

تجمل المرأة

ضرورة التجميل عند المرأة :

لماذا تتجمل ؟ ذوقها في التجميل .

أنواع تجملها :

(١) ملابسها : الحجاب ، السفور ، لم يكن كل منهما عاماً ، إبقاء الإسلام على نوع من السفور .

أنواع ملابسها : ١ — ما على الرأس : الخمار ، شكله ، أسمىؤه : القناع ، النصيف ، النقاب ، اللفام ما على الأنف ، اللثام ما على الفم ، البخنق .

٢ — ما على الجسد : الريطة ، المرط ، الوصيلة ، البرد ، الجسد ، الصدر ، الشاح ، السابري ، المذهب ، الخال ، الرجل والمرحل ، المطير .

٣ — لون ملابسها : غلبة اللون الأحمر ، ميل العرب إليه .

(ب) حليها : غرام النساء بالحلى . شيوع الحلى في الأمم التي اتصل بها العرب : عند العبرانيين ، والرومانيين ، والمصريين .

أصناف الحلى : كثرتها . حلى العنق ، حلى الأذن ، حلى الساعد والعضد ، حلى الساق

(ح) طبيها : أثر العطور في الجاذبية . عناية الأمم القديمة بالعطور : المصريين ،

الإغريق ، الرومان ، الهنود ، الصينيين .

عناية الأمم الحديثة بالعطور : فرنسا ، إنجلترا وغيرها .

أنواع طيبها : المسك ، الزنبق ، السنا ، البان ، الألو ، الرند ، الكباء ،
العنبر ، الكافور ، الزعفران .

دلالة العطر على الترف . غرام الرجال من العرب بالطيب .
لماذا أوصى بعض الرجال بناتهم يوم الزفاف بالماء وحده ؟
(٥) خضابها : خضاب النساء ، خضاب الرجال .

(هـ) أنواع أخرى من التجميل والتجميل : التميميص ، التزجيج ، التفليج ،
التلمية ، الوشر ، الوشم ، الوصل .

١١٥ — ١٥٠ الفصل الرابع الحب

علاقة الغزل بالحـب .

سلطان الحـب .

لماذا نحب ؟

رأى ابن حزم ؟ . رأى أفلاطون . رأى أبى القاسم الأصبهاني . تأثر ابن حزم
والأصبهاني برأى أفلاطون . رأى أدلر ، ولاكير ، وبران .

الغاية من الحـب :

عند أفلاطون . عند ابن سينا . عند ابن حزم . عند إخوان الصفا . عند ابن
داود الظاهري . عند الغزالي . عند بولس جيمون . مناقشة هذه الآراء . رأى
ما كس نوردو ، وفرويد . مناقشة هذا الرأي . رأى أدلر . الرأي الذى أطمئن إليه .
لا يبرأ الحب من نزعات جسدية . الأدلة على ذلك من شعر العذريين أنفسهم .
ومن حياتهم . كلمة لإميل لودفيج فى هذا . أفلاطون يميل إلى أن لا عذرية فى
حب رجل لامرأة .

البيئة العربية والحب :

ملاءمتها للحب . الحياة في الصحراء . العربي حساس ذواق لجمال الطبيعة وجمال المرأة . علو مكانة المرأة في الحياة العربية بصفة عامة . أدلة على علو مكانتها . فراغ العرب . اختلاط الفتيان بالفتيات القريبات . اختلاطهم بغير القويات . أثر الاختلاط والمحادثة في نفوس الشبان . الاجتماع في الدوار حول الأصنام . الاجتماع في المواسم والحج . أثر هذا الاجتماع في نفوس الشبان . اللقاء في الأديار . لباقة المرأة العربية . وظرفها وجمالها وأثر ذلك في نفس الرجل .

محاسن الغناء . أثر القيان في نفوس الشعراء . هل كانت القيان أجنبيات ؟ رأى فون كريم وليال . مناقشة هذا الرأي . هل كن يغنين بلغة أجنبية ؟ رأى فون كريم وليال . مناقشة هذا الرأي . إثبات أنهن كن يغنين أيضاً بالشعر العربي . أثر النظرة الأولى في الحب . أحب العرب حباً واقعياً صادقاً . لماذا نحفل بدراسة الغزل ؟

٢٣٠ - ١٥١

الفصل الخامس

أنواع الغزل

١ - الغزل العذري

حقيقته :

شهرة بنى عذرة به

لماذا كانت العفة من سماته ؟

نشأته : رأى الدكتور طه حسين أنه أموى النشأة ، أدلت به . رأى العلامة ماسينيون أنه متأثر بالحب الأفلاطوني . مناقشة رأى ماسينيون :

لم يكن المسلمون حينئذ على صلة بالفلسفة اليونانية . على فرض أنهم

كانوا على صلة بها فليس من الطبيعي أن تتأثر البادية بها ولا تتأثر الحاضرة . لا صلة للغزل العذرى بالفلسفة . الحب الأفلاطونى حب ذكر لذكر ، أى صداقة عالمية .

مناقشة رأى الدكتور طه حسين :

الفقير البائس ليس فارغاً للغزل والحب . لم يحل أحد بين البدو واللهو . كانت حال البدو فى الإسلام خيراً من حالهم فى الجاهلية ، فلماذا انصرفوا إلى اليأس والزهد ؟ لم يكن زهاد البادية أكثر عدداً من زهاد الحاضرة .

مناقشة رأى الأستاذ جب فى أنه صار فناً مستقلاً فى العصر الإسلامى . إذا كان الأساس تناول الغزل فى قصائد كاملة فقد فعل بعض الجاهليين ذلك . لماذا نشترط هذا فى الغزل وحده لنحكم بأنه فن مستقل ؟ إذا كان الأساس أن بعض الشعراء قصرُوا عليه شعرهم ، فقد فعل بعض الجاهليين ذلك . لم يجبس كثير من شعراء الغزل فى العصر الإسلامى شعرهم على الغزل . لماذا لا نشترط هذا فى الفنون الأخرى ؟

رأى :

أن الغزل العذرى فن جاهلى ، وأن الإسلام ساعد على نمائه .

خصائص الغزل العذرى :

قصر بعض الشعراء عليه قصائد كاملة . هو غزل روى . فيه إثارة من نزع جسمية لم يسلم منها غزل عذرى . فيه تحليل لنفسية قائله . ينجح أحياناً إلى الأسلوب القصصى . اقتصر الشاعر على حبيبة واحدة . حياة المحبين تنبئ عن عذريتهم وتحملهم الآلام الجسم فى حبهم :

المرقش الأكبر ، المرقش الأصغر ، عبد الله بن علقمة ، عروة بن حزام ، عبد الله بن العجلان ، مسافر بن أبى عمرو ، عمرو بن كعب ، مسعود بن رقاش ، عتبة بن الحباب ، الخبل القيسى ، عدى بن زيد ، مالك بن الصمصامة .

٢ - الغزل الحسى

حقيقته :

لم يلمشاً نشأة عربية .

الأدلة على ذلك :

عفة العرب وتعففهم ، وغيرتهم على النساء . الفجور العلى كان مقصوراً على الإماء . لمن بيوت للدعارة . إكراه الإماء على البغاء . الدليل على أن البغاء مقصور عليهن . احتقار الإماء . بغاء الإماء فى الأمم القديمة . العهارة المقدسة . هل كان إكراه بعض العرب للإماء على البغاء أثراً مشوهاً للعهارة المقدسة ؟

الغزل الحسى حبشى النشأة :

الأدلة على ذلك :

فتح الأحباش اليمن وحكموها أربع مرات منذ القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن السادس بعد الميلاد . كان العرب على صلة تجارية بالأحباش . كان أكثر العبيد والإماء أحباشاً . شهرة الأحباش بهذا الغزل الحسى والتصريح بالذات . فى بعض أناشيدهم الدينية تصريح بوصف الجسد كله . الشعراء الذين مهدوا لهذا الغزل الحسى أحباش أو متأثرون بالأحباش : امرؤ القيس ، الأعشى ، سحيم . فى العصر الإسلامى : عمر بن أبى ربيعة ، نصيب بن رباح .

خصائص الغزل الحسى :

المجاهرة باللذة ، الفخر بتغفل الحراس ، اللجوء إلى الأسلوب القصصى ، التعفية على الآثار ، الاستعانة بالرسيل ، ذكر صواحب المحبوبة ، خلوه من تحليل النفس تحليلًا يكشف عن شوق وحرارة وحرارة ، العناية بوصف الجسد ، تعدد المحبوبات .

أثر الجاهل فيما بعده :

بين المذهبين الغزليين :

العذرى ، والحسى .

٣ — الغزل التمهيدى

حقيقته :

بعضه عذرى وبعضه حسى ، وبعضه صناعى .

كثرة الغزل التمهيدى :

والغرض منه . لماذا بدءوا به ؟

هل اقتصر على بعض فنون الشعر ؟

يرى بعض النقاد أن قصائد الرثاء لم تبدأ به . مناقشة هذا رأى . بدئت به مرثى شتى . بدئت به قصائد المدح ، وقصائد الفخر ، وقصائد الهجاء ، وقصائد الوصف . البدء بغير غزل . الختام بالغزل والبدء به .

الاتصال من الغزل إلى غيره :

الصلة النفسية بين الغزل وما بعده . حياة الصحراء وأثرها فى الجمع بين الغزل وغيره . مأخذ النقاد على الشعراء الذين ينتقلون من الغزل إلى غيره بغير ربط . الرد على هذا المأخذ . كيف كان الشعراء ينتقلون ؟

٤ — الغزل الكيدى

حقيقته :

موازنة بينه وبين العذرى والحسى والتمهيدى . دلالاته من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية . وجه الشبه بينه وبين الغزل التمهيدى . أمثلة له . خصائصه .

٢٣١—٢٩٥

الفصل السادس

صور غزلية من آثار الحب والحبيبة في نفس الشاعر

الأخلاق :

أثر الحب في الطباع . المثل الأعلى للرجل في نظر المرأة . صور من تأثير الحب والحبيبة في أخلاق الرجل .

قوة حب الرجل للمرأة :

مظاهر هذه القوة : شق الرداء ، إيثار الموت على الحب البائس ، الحب خيال وسقم ، لا يدري الحب أهو حى أم ميت ، لا يعجب إذا مات ، أثر ذكرها في نفسه ، تمنيه أن يدوم قربها ، تفجعه إذا رحلت ، حبه لأرضها ، ذكرها وقت البرق ، قد يفقده الحب رشاده ، مشاركته الوجدانية للحمام النائم .

الوشاة :

لماذا يشون؟ تغلب بعض المحبين عليهم . تغلبهم على بعض المحبين . كيد عروسة لهم

العذل :

أثر العذل في نفس المحب . هل العذل لا يزيد الحب كما رأى ابن داود الظاهري؟ أمثلة من تبرم الشعراء بالعذل .

الكتمان :

لماذا يكتتم المحب حبه؟ مظاهر كتمانه . عجز بعضهم عن الكتمان .

تبادل الحب :

الرجل العربي جدير بأن تحبه المرأة . سعادته بحبها له . تصويرهم للمبادلة . بعض المبادلة صريح . بعضها غير صريح .

هل يحب الرجل من لا تحبه؟ مرارة هذا الحب . قلة تصوير الشعراء الجاهليين للمبادلة . السبب في هذا .

الفراق

(الهجر والرحلة) : لماذا يتألم منه الحب ؟ تشاؤمهم بالغراب . تصويرهم لآلام الرحيل . تذرع الحب بألمه من الفراق لنيل بعض الوصل . عاطفته بعد الفراق : الدعاء لدارها بالسقيا . كره المكان الذي نأته به . استشراف نارها . شيم البرق من ناحيتها . ارتياحه إلى الصبا . استطالته الأيام . تجلد بعضهم عند الرحيل . رحلة بعضهم للتسلي . علاج الحب الذي لا يسلو .

الظعائن والهوادج :

ذكر الشعراء طريق الظعائن في تفصيل . تشبيه الحدوج . دلالة هذا التشبيه . بقاء هذا التشبيه إلى ما بعد العصر الجاهلي . عزة الظعائن . غطاء الهوادج . جمال الظعائن .

الطيف :

منازع الشعراء في الشعور نحوه . عجب بعضهم من رحلة الطيف . شدة الشوق ببعضهم . تألم بعضهم من الطيف لأنه وهم . بعض المحبين رد الطيف . لأنهم هاجرون أو مهجورون .

الأطال :

لماذا احتفوا بها ؟ هي المثير المقارن لعاطفة الحب . إضافة الأطال إلى اسم المحبوبة أحياناً . عنايتهم بتحديد الأطال . السر في هذه العناية . أثر الأطال في نفس الشاعر . معالها الباقية . مسرح للحيوان . الأطال من الوجهة الفنية :

تشبيهها بالوشم ، وبالطراز الموشى ، وبالكثابة . الخ . دلالة هذا التشبيه .
موازنة بين قصيدة لامرتين على بحيرة بورجيه وبين شعر الأطلال .
الأطلال بعد العصر الجاهلى :
محاكاة الشعراء فى العصور اللاحقة لشعراء العصر الجاهلى .

٣٢٢-٢٩٦

الفصل السابع

أثر البيئة والطبع فى الغزل

الصدق الشعورى والصدق الفنى . اجتماعهما فى الغزل الجاهلى .

مظاهر البيئة والطبع فى الغزل الجاهلى :

الاستمداد من البيئة . اختيارهم أجمل ما فيها لتشبيه المرأة .
استمدادهم من الطبيعة الحية المتحركة : التشبيه بالمهاة ، بالظبية ، بالقطة .
استمدادهم من الطبيعة الحية غير المتحركة : التشبيه بغصن البان ، بالبردى ،
بالرمان ، بالأقحوان .

استمدادهم من الطبيعة غير الحية : التشبيه بالشمس ، والبدر ، واللؤلؤ .
استمدادهم من المصنوعات : التشبيه بالدمى ، بالرمح ، بالدینار ، بالمصباح ، بالخرق .
الوقوف بالأطلال . ترديد أسماء الأماكن . الشكوى من البین والتوجع من الفراق

الابتكار والمحاكاة فى المعانى :

المعانى العامة المشتركة . المعانى المبتكرة . متى نحكم بالمحاكاة ؟ أمثلة من المحاكاة
فى المعانى : الأعشى يحاكي المسيب بن علس ، ربيعة بن مقروم يحاكي النابغة ،
النابغة يحاكي سويد بن أبى كاهل أو سويد يحاكيه ، الأسود بن يعفر يحاكي
المرقش الأصغر . هل تجرد المحاكاة الشاعر من عاطفته ؟

الأسلوب :

مميزات أسلوب الغزل : الرقة والعذوبة والطلاوة ، موازنة بين أسلوب الشاعر في الغزل وغيره . القَصَص . الإيجاز ، معنى الإيجاز هنا . المحاكاة في الأسلوب ، أمثلة لها .

الأصالة والصدق :

اصطباغ الغزل بصبغة عربية . صدق الشعراء في تصوير عواطفهم . الغلالة في تصوير الشعراء بعد الجاهلي .

الحيوية والقوة والسلطان :

الدليل على حيوية الشعر الجاهلي وسلطانه . أمثلة من تأثيره فيما بعده غير ما سبق . من حيث المعاني والطريقة . من حيث الأسلوب .

٣٢٦ — ٣٢٣

خاتمة المطاف

٣٣٧ — ٣٢٧

المراجع

٣٥٠ — ٣٣٨

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

- ١ - وحى النسيب في شعر شوقي .
- ٢ - فن الخطابة ، قررته جامعة فؤاد الأول .
- ٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، قررته جامعة فؤاد الأول .
- ٤ - الغزل في العصر الجاهلي .

[تم طبع كتاب « الغزل في العصر الجاهلي » في مطبعة
لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم الأربعاء ١٠ من ربيع الأول
سنة ١٣٧٠ هـ (الموافق ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٥٠ م) .
والحمد لله أولاً وآخراً]

سيد محفوظ

المدير الفني للمطبعة

تصويب أغلاط مطبعية

رقم الصفحة	رقم	الصواب	رقم الصفحة	رقم	الصواب	رقم الصفحة	رقم	الصواب
٣٥	١٨	النابعة	١٠١	١٠	الأولى	١٩٧	١٤	الإنشاد
٢٠	٢٠	»	١٠٦	١٤	تذره	٢٠٤	٩	قطوف
٢٧	٢٧	حرير	١٧	١٧	حصى لبنان	٢١٣	١٨	اللوم
٣٨	٢٣	علس	١١١	٤	أنظر	٢١٧	٢١	البروسى
٤٢	٢٠	الأسنان	١٢٦	٦	أنفى	٢٤	٢٤	»
٥١	١٠	الخطيم	١٨	١٨	روى	٢٢١	٤	بدأ
١٢	١٢	السعدى	١٣١	٢١	بلوغ الأرب	٥	٥	هدد
٥٣	١٧	سودا مجسم	١٣٣	٢٦	ابن قتيبة	٦	٦	عاصم
٥٤	٢١	ابن طلحة	١٣٦	٢١	الحياة والحب	٢٢٥	١٢	وألأم
٥٨	٤	زبيب	١٤٧	١٧	النظرة	٢٢٨	٢٠	الأشرف
٥٨	٤	واستوكفوا	١٥٢	١٢	العزى	٢٢٩	١٩	سبق
٦٤	٨	عقها	١٥٦	١١	تمتلى	٢٣٤	٢٢	طوق
٦٧	٥	جبيلة	١٦٤	٢٤	تزين	٢٣٦	٨	حاضرة
٦٨	٢٢	تصونها	١٦٥	٣	صاديا	٢٣٧	٦	حربه
٦٩	١٩	الأدباء	١٦٦	١٦	والله ما بنا بما	٩	٩	نزال
٧٤	٩	عليها	١٦٧	١٤	أولو	٢٣٨	٢٦	الردى
٧٩	٦	الطبيب	١٧٦	١٨	ولا تتخالجك	٢٤١	١	الورد
٨٢	١٠	منقذ	١٧٦	٤	ابن	٢٥٦	١٦	يا خليلي
٨٣	٢٣	ذوق	١٨٣	٨	حيلة	٢٥٦	١٦	خبال
٨٤	٢٢	ديوان	١٨٦	١١	الحسين الضحاك	٢٦٥	١١	بان
٩٥	٢٢	الزوزنى	١٨٧	٢٣	الشنيقضى	٢٧٣	١٩	تعلمق
٩٩	١٩	عمامة	١٨٧	٢٠	أعشى باهلة	٢٧٦	١٤	تقادم
١٠٠	٢٠	أعجازهن	١٩٦	٢١	الروض الأنف	٢٨٠	١٠	ابن
	١٦	صريمة	١٩٦	٢١	ابن هشام	٢٨٣	١٠	نواشر
	١٣	الإناث		٩	الحساس		١٢	ابن
		زمرحد						

DATE DUE

JAFET LIB

15 FEB 1983

J. Lib.

10 FEB 1984

JAFET LIB

04 APR 1988

J. Lib.

3 FEB 1985

13 APR 1987

J. Lib.

10 SEP 1988



892.7109:H88A.c.1

الحوفي، احمد محمد

الغزل في العصر الجاهلي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036532

892.7109

H88A

